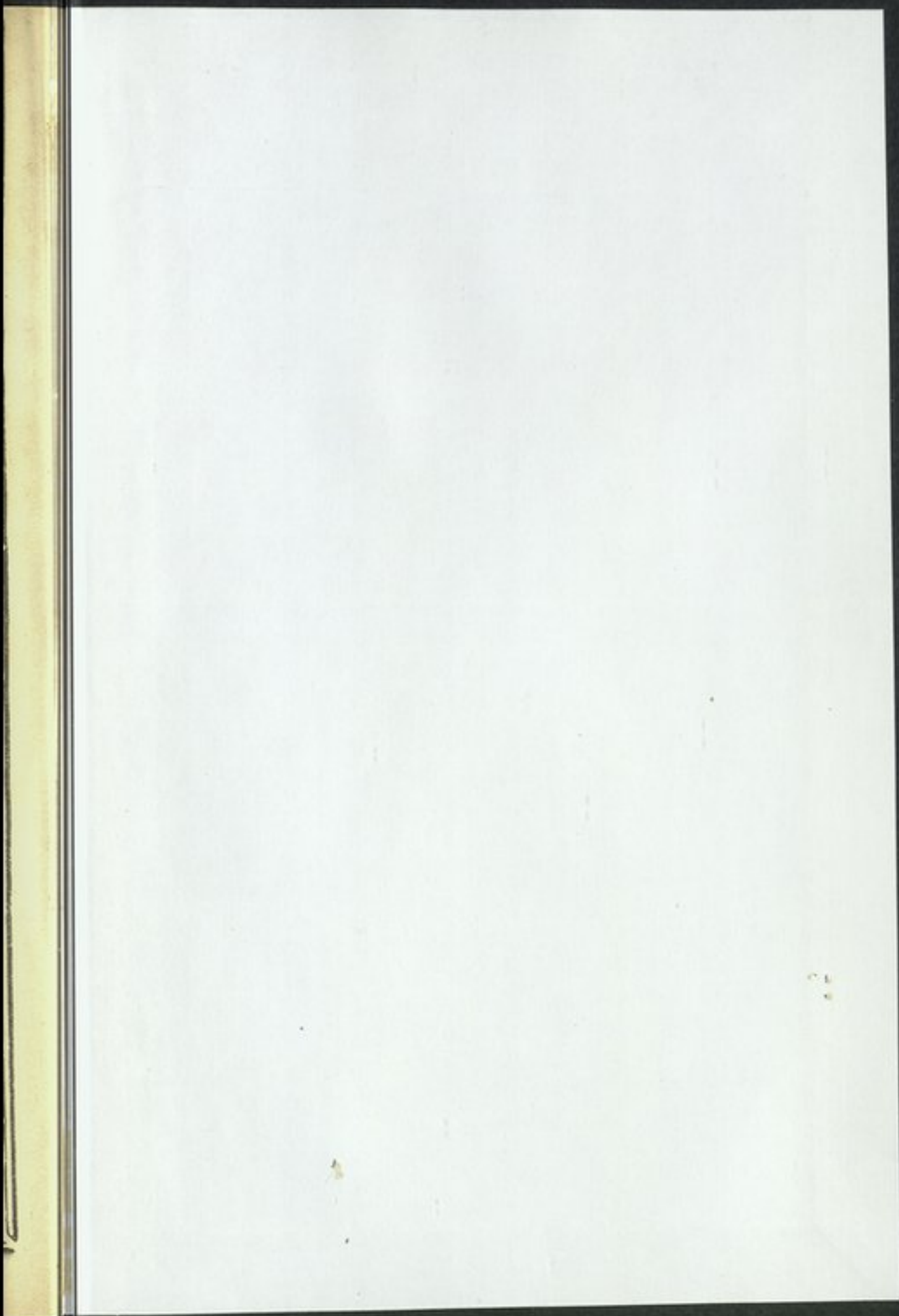


AUB. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



LIBRARY



﴿ فهرست الجزء الثاني من كتاب السودان بين يدي غردون وكتشنر ﴾

صحيفة	صحيفة
٣٣ الكتاب الاول من المهدي	٢ قيام دولة المهدي في السودان
لمصطفى باشا	٦ ذكر مقابلة المؤلف مع أمين بيت المال
٣٤ الكتاب الثاني « « «	٩ ذكر ماغنه المهدي من الاموال
٣٧ واقعة كورتى وقتل الشيخ الهدي	والذخيرة من الخرطوم
٣٧ ذكر وصول كتشنر باشا الى دنقله	١٠ ذكر قتل فرج باشا الزين
٣٨ وصول الحملة الانكليزية الى دنقلة	١١ ذكر مقابلة المؤلف للمهدي ✓
٣٩ حملة الجنرال ارل وقتله بواقعة	١٢ مقابلة المؤلف للتعايشي
كربكان	١٤ ذكر دخول المهدي مدينة
٤٠ واقعة أبو طليح	الخرطوم
٤٣ ذكر تعيين عبد الرحمن النجومي	١٥ القبض علي المؤلف وسجنه في
لقتال الانكليز في المتمة	الخرطوم
٤٥ ذكر عودة الحملة الانكليزية الى	١٦ ذكر أهالي الخرطوم بعد ذلك
دنقله	٢٣ ذكر مقابلة الشيخ محمد الامين
٥٤ ذكر فداء القسس والمسيحيين	للمهدي ووفاته
٥٥ ذكر توجيه الجيش لمحاربة سنار	٢٥ ذكر انتقال المهدي الي أم درمان
٥٥ ذكر اتداب الشيخ حسين	٢٦ حوادث دنقلة
زهراء الى كسلا	٢٧ ذكر الشيخ الهدي
٥٦ ذكر وفود عوض الكريم أبي	٢٨ ذكر واقعة الشيخ الهدي
سن زعيم الشكرية على المهديوية	٢٩ مخابرات المهدي مع مصطفى ياور باشا

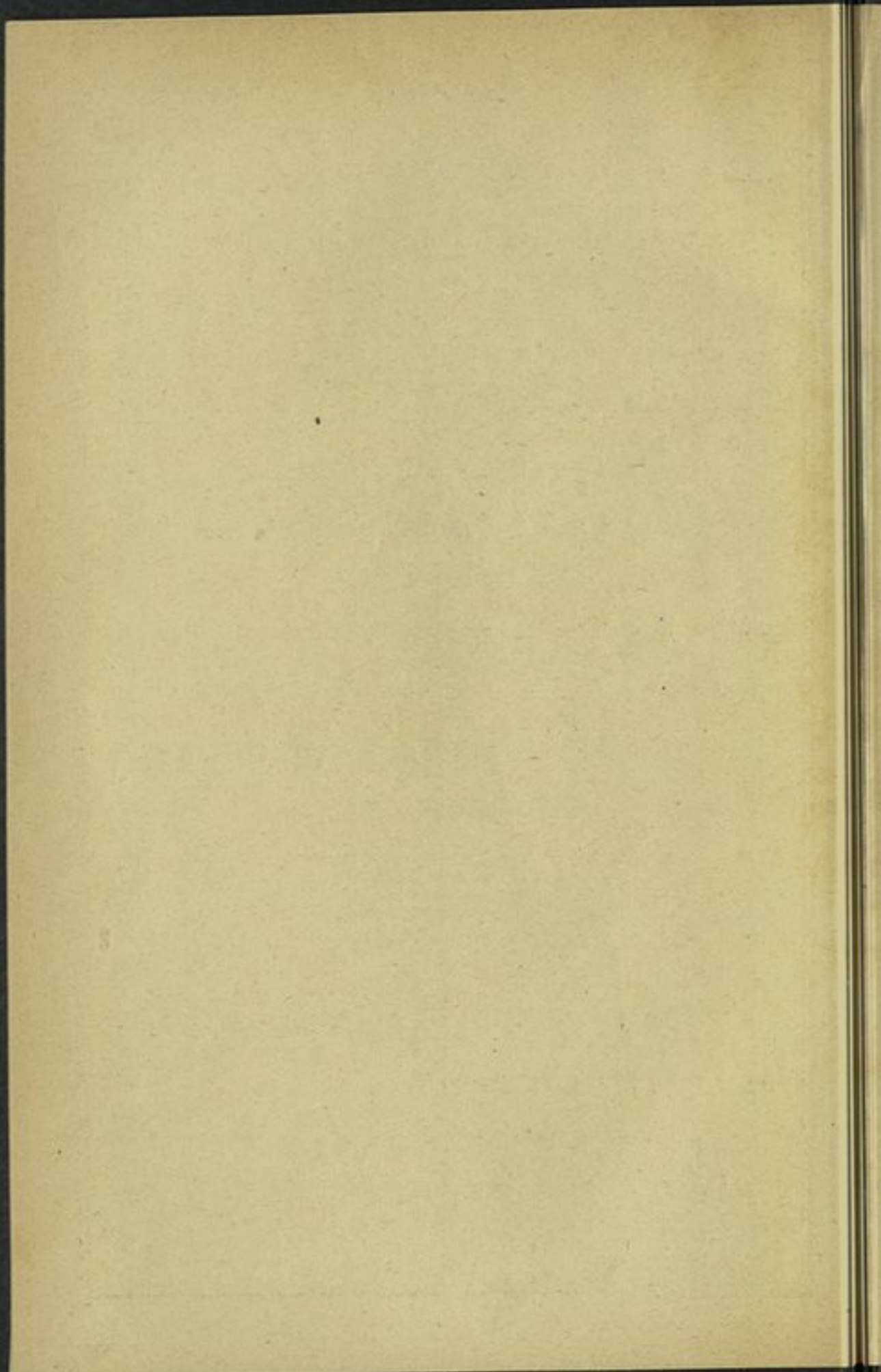
صحيفة	صحيفة
٩٢ شأن أهل الخرطوم بعد ذلك	٥٧ ذكر تعيين حسين باشا خليفة
٩٤ ذكر الاجتماع للعيد الاضحى	داعية للمهدى في قبيلة العبابدة
٩٧ ذكر وفود الهنود على التعايشى	٥٨ ذكر ضرب بخانة نقود المهدي
٩٧ ذكر انتفاض الاشراف وتسليم الرايات	٥٨ ذكر ختان اولاد المهدي
٩٩ القبض على امراء سنار وفرار	٥٩ ذكر تعيين حمدان ابي عنجه على جبال كردفان
الشيخ مضوى	٦١ ذكر مرض المهدي ووفاته
١٠١ ذكر عصيان الجهادية بالايض	٦٥ ذكر طرف من سيرة المهدي
وقتل امير كردفان	٧٣ ترجمة التعايشى
١٠٢ ذكر اعمال ابي عنجه في الجبال	٧٦ خلافة التعايشى
١٠٣ ذكر اشخاص محمد خالد زقل	٧٩ اول اكاذيب التعايشى
من دارفور وسجنه	٨٢ دعوة التعايشى اهالى السودان
١٠٤ القبض على احمد سليمان امين	لاداء فريضة الحج بأم درمان
بيت المال وعزله	٨٣ ذكر مسألة الشعرة من حية المهدي
١٠٧ الاشاعة بعودة الانكيز الى دنقله	٨٤ ذكر وقائع سنار وسقوطها
١٠٩ اتقاذ عبدالرحمن النجومى الى دنقله	٨٧ حوادث كسله وسقوطها
١٠٩ انتفاض درافور على التعايشى	٩١ اول واقعة بين الدراويش والاحباش
واخضاعها	٩١ ذكر قتل المدير أحمد عفت ومن معه من القواد
١١٠ ذكر لحاق قبيلة الشكرية بالحبشة	
وقتل زعمائها	

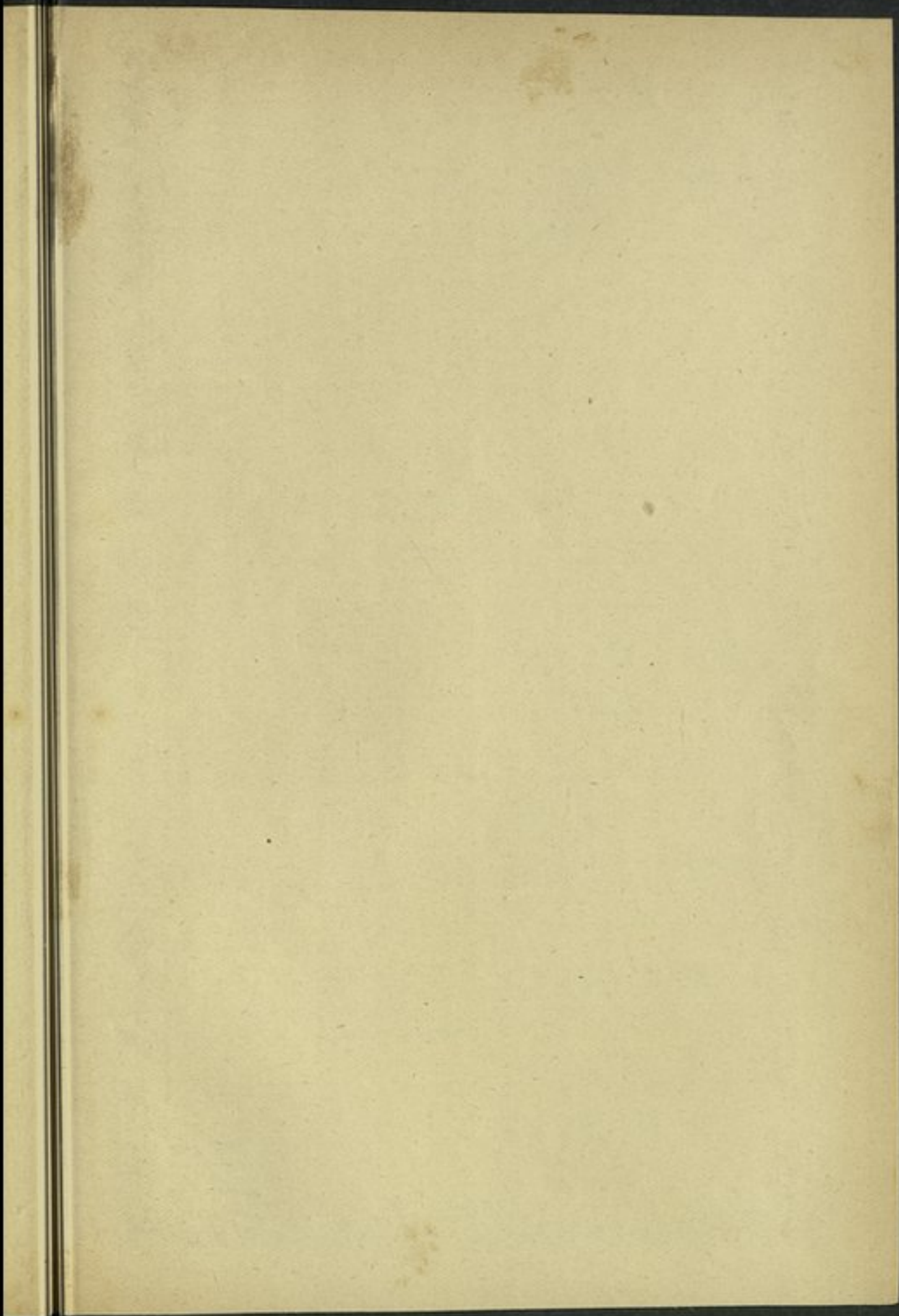
صحيفة	صحيفة
١٤٨ ذكر ضربمخانة التعايشي	١١١ ذكر قبيلة الضبابية والقبض
١٤٩ ذكر انشاء دار للذخيرة والبارود	على زعيمها في الجهات الجنوبية
١٥١ ذكر موت لبتن بك مدير بحر	١١٢ ذكر انتفاض قبيلة جهينة
الغزال	١١٣ ذكر حرب قبيلة الكبايش
١٥١ المقدم عمر الجملي واستخراج	١١٥ ذكر القبض علي شارل نيوفيلد
الرصاص	١١٧ ذكر حروب الاحباش الى قتل
١٥٣ ذكر احراق عظام قتلى الخرطوم	النجاشي يوحنا
ونبش القبور	١٢٨ ذكر فتح قندر بالحبشة
١٥٤ ذكر تخريب بلاد الجزيرة	١٢٩ وفاة أبي عنجه وولاية الزاكي
وحشد أهلها بام درمان	طل
١٥٦ ذكر تخريب الخرطوم	١٢٩ واقعة القلابات وقتل النجاشي
١٥٦ ذكر فرار المؤلف وارجاعه الي	١٣٢ شأن خط الاستواء مع المهدويين
أم درمان	١٣٩ ذكر عزل محمد الخير من بربر
١٦٣ ذكر احترام المؤلف	وموته
١٦٦ ذكر عثمان الملقب بشيخ الدين	١٤١ النور ابراهيم الجريفواوي وتجار
ابن التعايشي	المصريين في بربر
١٧٠ الكلام على الخراج والجباة	١٤٢ السودان الشرقي
والعمال	١٤٤ ظهور المهدي أبو حمزة في
١٧٣ ذكر المختنين	درافور
١٧٥ حوادث دنقله وقتل ابن النجومي	١٤٥ شأن التعايشي وقبيلة التعايشة

صحيفة	صحيفة
٢٠٤ ذكر فرار الغزالي وقتله	١٨٠ زواج المؤلف باحدى نساء
٢٠٦ ذكر صلب ابراهيم عدلان أمين	التعايشي
بيت المال	١٨٥ ذكر الميرالاي حسن البهنساوي
٢٠٩ ذكر بقية اخبار ابراهيم عدلان	بك
ومسألة مصادرة العاج	١٨٨ ذكر ماقيه المؤلف في مقابله
٢١٠ حادثة العباودة وابعادهم	بعض الامراء
٢١٣ ذكر غارة العباودة علي أبو حمد	١٨٩ ذكر نفي عبد القادر ابن أم مريم
وقتل سليمان نعمان قر	١٩٢ ذكر قصة المرأتين
٢١٤ ذكر موت الحاج علي سعد	١٩٣ ذكر رسالة محمد ماهر باشا
٢١٥ ذكر موت عثمان آدم وتولية	للمؤلف
محمود أحمد بدله	١٩٥ ذكر مسألة الشيخ محمد عبد
٢١٧ ذكر صفة معيشة التعايشي	الماجد وصلبه
٢١٩ ذكر حادثة البطاحين	١٩٧ ذكر تشييد قبة المهدي
٢٢٢ شأن محمد خالد زقل بعد ذلك	١٩٨ ذكر المجاعة في في سنتي ١٣٠٦
٢٢٥ ذكر استخراج الرصاص	و١٣٠٧
والنحاس والكحل من معادن	١٩٨ المجاعة في ام درمان والجزيرة
حفرة النحاس	٢٠٠ المجاعة في اقليم بربر
٢٢٥ ذكر بنات الجعليين	٢٠١ المجاعة في دنقلة
٢٢٦ ذكر انسحاب الجيش من	٢٠١ المجاعة في كسله
القلابات	٢٠١ المجاعة في القضارف

صحيفة	صحيفة
٢٧٩ ذكر شأن نساء المهدي مع التعايشي	٢٢٧ ذكر غارة الزاكي طمل علي الشلاك
٢٨١ ذكر سجن أولاد المهدي	٢٣٧ ذكر بقية أخبار عثمان دقنه
٢٨٣ ذكر مؤامرة عبدالمولى صابون على قتل التعايشي	٢٤٢ ذكر هزيمة الدراويش من هندوب وأخبار أمارار
٢٨٤ ذكر قدوم محمود أحمد من دارفور	٢٤٣ ذكر هزيمة عثمان دقنه من طوكر
٢٨٦ ذكر القبض علي أمراء الجعليين ونقيهم	٢٤٨ شأن عثما دقنه بعد ذلك
٢٨٨ ذكر نفي الامير أبي قرجه	٢٤٩ حالة السودان بعد ذلك علي الاجمال
٢٨٩ عودة الي ذكر بيت المال	٢٥٨ ذكر تعيين المؤلف وجماعة من المصريين أمراء
٢٩٢ ذكر سور أم درمان	٢٦٢ ذكر ملازمتي الصلوات في المسجد
٢٩٥ ذكر قدوم الزاكي طمل من فشودة الي أم درمان	٢٦٥ ذكر انتفاض الخليفة شريف وأولاد المهدي
٢٩٦ الزاكي في أبي حراز	٢٧١ ذكر القبض علي كبار حزب الخليفة شريف وقتلهم
٢٩٧ علائق التعايشي ومنليك	٢٧٥ ذكر القبض علي الخليفة شريف وحبسه
٢٩٩ ذكر سجن الزاكي طمل وقتله بام درمان	٢٧٧ ذكر القبض علي عبد القادر ساتي ومحمد عبدالكريم وقتلها
٣٠١ ذكر قتل صالح حسين خليفه	
٣٠٢ ذكر واقعة (غوردت) بين	

صحيفة	صحيفة
٣٣١ ذكر تولية الشيخ الحسين	الايطاليين والمهديين
الزهراء القضاء وقتله صبيرا	٣٠٣ ذكر احتلال الايطاليين كسله
٣٣٥ خفراء السجن	٣٠٥ ذكر معسكر أصوبرى وأخبار
٣٣٦ الايام الاولى في السجن	حامد علي وأحمد فضيل
٣٣٧ شارل نيوفيلد والمؤلف	٣٠٨ اجمال حال السودان بعد ذلك
مقرونان في قيد	٣١١ ذكر قراءة الناس بالالواح
٣٣٨ أمير السجن في منزله ونسائه	٣١٣ ذكر بقية أخبار سلاطين باشا
٣٣٩ صلاة المسجونين	وفراره
٣٣٩ ضريبة ريال كل يوم على المؤلف	٣١٦ ذكر نفي أحمد الفحل والذين
٣٤٠ النادرة العباسية في السجن	ساعدوه على فرار سلاطين باشا
٣٤٢ ذكر ابطال القهوة	٣١٨ ذكر سجن ابراهيم حمزة وجماعة
٣٤٤ ذكر اختتان المسيحيين واجبارهم	من اعيان بربر
على تعدد الزوجات	٣١٩ تمهيد في ذكر السجن ونظاماته
٣٤٦ ذكر سجن ابن المؤلف	واطلاق اسم السائر علي كل سجن
٣٤٨ التعايشي قبل حملة دنقلة	٣٢١ ذكر سجن المؤلف
٣٥٠ جواسيس المهديوة	٣٢٣ أول ليله في السجن وأخبار اثنين
٣٥٣ ذكر جلب المنوعات من مصر	يدعيان النبوة
٣٥٧ دنقلة قبل الحملة عليها	٣٢٦ انذار المؤلف بالاعدام
٣٦١ ذكر مسألة العقرب مع التعايشي	٣٢٧ ذكر قتل القاضي أحمد بن علي





362.403
F28sA
v.2

كُتَابُ

السُّبُحَانِ
بَيْنَ يَدَيَّ بِرُؤُوسِ كُنُشِنِ

أَلِيف

أبراهيم فوزي باشا

الجِزْءُ الثَّانِي

طبع على نفقة مؤلفه وإدارة جريدة المؤيد

حقوق الطبع والترجمة محفوظة لهما معا

(طبع بمطبعة الآداب والمؤيد سنة ١٣١٩ هجرية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على آلائه. والصلاة والسلام على سيد رسله وأنبيائه. محمد وآله
وصحبه وأوليائه

وبعد فقد انتهينا في الجزء الاول من كتاب (السودان بين كتشنر
وغردون) الى آخر حادثة سقوط الخرطوم بقتل الطيب الذكر (غردون باشا)
ووقوع البلد في قبضة المهدي ووقوعنا والحامية في أسره . وبقي أن نذكر
من موضوع هذا الكتاب ما أتلا ذلك فنقول وبالله المستعان

قيام دولة المهدي في السودان

لما كانت مدينة الخرطوم عاصمة أقاليم السودان المصري فسقوطها
في قبضة المهدي صير السودان كله خاضعاً له ولا عبرة باقليم دنقلة الذي
كان وقتئذ مقر الحملة الانكليزية كما انه كانت توجد مدينتان لم تخضعا له بعد
وهما مدينة سنار عاصمة اقليم سنار ومدينة كسلة عاصمة مديرية (التاكا) ومهما
يكن من الامر فان حالة تينك المدينتين كانت منذرة بقرب سقوطهما
وسياتي تفصيل ذلك كله في مكانه

بلغ عدد القتلى من سكان الخرطوم يوم سقوطها أربعة وعشرين الف رجل وقتل
الاطفال وكل ذكر ولو كان رضيعاً غير ان النساء لم يقتلن وابتدأت هذه
المنذبة عند طلوع الفجر . وقبيل شروق الشمس أصدر الخليفة (شريف) الاوامر

بالكف عن القتل وأخرج السكان من منازلهم بملابس النوم وأصدر أمين بيت المال أمراً إلى الحاج خالد العمراني بالوقوف على باب الخندق لتفتيش كل خارج من سكان المدينة الذين أمروا بالبقاء في بقعة بين الخندق ومعسكر ابن النجومي معرضين للبرد القارس والحر المحرق واستولى الدراويش على المنازل وفي اليوم التالي بدأ بتعذيب الناس حيث استدعون صاحب المنزل وكبار أفراد عائلته إلى منزل الأمين وابتدؤن مكالمته بقولهم له حيث أنك كفرت بالله ورسوله وحاربت المهدي فقد أهدر الله ورسوله دمك وحرم مالك عليك وصيره حقا للمهدي والمهدي عفا عن دمك ولا سلامة لك في الدنيا والآخرة إلا بتسليم جميع أموالك حتى الحيط والخياط وسواء أذن عن هذه الأكاذيب وسلم ماله أو لم يسلم فلا بد من ضربه الف سوط والمرأة نصفها وتوثق يده ورجلاه ويلقى على الأرض ويصب عليه الماء البارد في الليل وبقى السكان في هذا العذاب شهراً حتى جمعت الأموال والامتعة في بيت المال

ومن الحوادث التي وقعت يوم سقوط الخرطوم أن رجلاً اسمه (كريب) من أقارب المهدي ومن حراس الخليفة شريف الذين يطلق عليهم اسم (الملازمة) ومعه نحو عشرة من أقاربه دخلوا منزل رجل مصري اسمه إبراهيم له سبعة إخوة فقتلوا الثمانية وفتشوا المنزل فلم يجدوا به مالا وكان لابراهيم غلام في التاسعة من العمر فاخفته أمه ونساء أعمامه في وسط الامتعة خوفاً عليه من القتل فعثروا به في غضون التفتيش وأخرجوه فترامت أمه ونساء أعمامه على اقدام كريب ورفقائه وقلن له ان والده وأعمامه السبعة قتلوا فنسألك بالمهدي الا ما تركت لنا هذا الصبي فالتفت لهن وقال كيف

تركه ونحن لم نجد في بيتكن ذهباً ولا فضة وكلكن نساء مسنات ليس
 بينكن من تميل النفس اليهائم صاح برفقائه وقال قطعوا الصبي ثمانى قطع
 واركوا لكل واحدة منهن قطعة ولم يتم هذه العبارة حتى تناول رفقائه الصبي
 وقطعوه ثمانى قطع وألقوا لكل امرأة قطعة ومثل هذه الحادثة يعدها بالوف
 ذكرنا منها هذه للدلالة على اخواتها

وأخذت النساء سبايا وأرسل أمين بيت المال بنحو الف عذراء من بنات
 أعيان المصريين فاختر المهدى منهن ثلاثين فتاة من ذوات الحسن والجمال
 أبأوهن من وجهاء المصريين سكان المدينة ووزع الباقي على حرسه وذوي
 قرابته وكلهن كوطوات بملك اليمين

وأرسل أمين بيت المال عدداً عظيماً من النساء الى عبد الله التعايشي
 فابقي لديه العذاري منهن ووزع الباقي على حراسه وذوي قرابته ايضا وصار كلما
 قضى وطره من واحدة يهديها الى أحد رجال حاشيته

وأرسل أمين بيت المال أيضا بمئات من النساء الى الخليفتين على بن
 حلو ومحمد شريف وكان عملهما بهن مثل عمل عبد الله التعايشي. وكثير من
 أولئك النسوة امتنعن من الفسق والفجور بهن فعدبن عذاباً الياً وضربن
 ضرباً مبرحاً وحلقت شعور رؤسهن. وكثير منهن فضلن الموت على
 الحياة ورأيت امرأة أحد الصناجق وهي تركية من جهة أيها وسودانية من
 جهة أمها اتحرت تخلصاً من العذاب الذي نالها على أثر امتناعها من تسليم
 نفسها لعبد الله التعايشي وضربت امرأة الشيخ محمد السقا شيخ القراء في
 الخرطوم وعذبت ستة شهور لامتناعها من تسليم نفسها الى عبد الله التعايشي
 والخالصة ان عدد النساء اللواتي سبين لا يقل عن خمسة وثلاثين الف فتاة

وشاهد ذلك انك تجد عند أصغر أمير من أمراء المهدي عشرين فتاة أما
الأمراء الكبار وأقارب المهدي فإن اللواتي يأخذهن كل واحد منهم يزيد عددهن
على العشرين عدداً ولا يظنن القارئ انهم يختلسون أولئك الفتيات بل يأخذونهن
بأمر من المهدي أو أحد الخلفاء أو أمين بيت المال موضحاً في كل أمر اسم الفتاة
واسم أبيها وجدها وأوصافها وأنها أعطيت لفلان غنيمة له يحل له وطؤها بملك
اليمن ويجوز له بيعها ما لم تصر أم ولد ومن وجدت عنده من أتباع المهدي
امرأة وليس لديه أمر بالبيانات التي شرحناها تصادر أمواله وتقبض عليه
ويعامل معاملة سارق

وكان المهدي أصدر أمراً حظه فيه سبي كل امرأة لها بعل ولكن هذا
الأمر كان لا يعمل به إلا إذا كانت المرأة طاعنة في السن أو قبيحة المنظر لا تميل
إليها النساء وكان أمين بيت المال يمسك النساء ويفتشهن بعد خلع ملابسهن فمن
وجدت سليمة من العيوب أخذت ومن وجد بها عيب انهرت وطرقت
هذا مجمل ما فعله المهدي بسكان الخرطوم من جهة الأموال والأعراض ذكرته
بغاية الإيجاز لا تبيح التفصيل أفنت الاعوام دون أن أوفي حق المقام
وأصدر المهدي منشوراً قال فيه ان جميع الذين خرجوا من قبة
الخرطوم أي (خندق) الخرطوم لا يعتبر زواجهم شرعياً لأنه حصل في زمن
الفترة التي كانت قبل بعثته وأمر بعقد زواج كل زوجين من أولئك الأسرى
وإذا كان في المرأة شيء من الحسن أو بقية من الشباب لا يستأنف عقد زواجها
بل تؤخذ غنيمة

وكتب أمين بيت المال إلى المهدي يستفتيه في أنه وجد بالخرطوم عتق
أعتقهم موالهم قبل فتح المدينة بزمن بعيد فهل يعاملون كالأحرار أو الأرقاء

فأجابه بان الذين أعتقوا كفار لا يعتبر عتقهم وأمره بمعاملة أولئك العتق
معاملة الارقاء

ذكر مقابلة المؤلف مع امين بيت المال

ذكرت اني أسلمت نفسي ومن ممي من الجنود في منتصف النهار
فقبضوا علىّ وأوثقوني كتافاً وساقوني الي امين بيت المال يحيط بي نحو مائتي
نفر من الدراويش شاهرين سيوفهم وكلهم يصيحون بي ويقولون يا كافر
ياعدو الله فالقيته بمنزل أبي بكر الجار كوك أحد أعيان المدينة ووجدت المنزل
مملوا بالنساء وهو مشتغل بفرزهن

ولما أوقفت بين يديه كان مشتغلا بالنظر الي فتاة فتانة وهي مجردة من
ملابسها ويدها خرقة تستر بها عورتها وهو يقبلها يمنة ويسرة والدموع
تساقط من جفونها وهي تقول « رضينا بقضائك يا الله » وبعد ان فرغ من
أمر الفتاة التفت نحوي وقال أعوذ بالله من هذا الوجه الابيض ثم التفت
للحراس الذين حولي وقال لهم من هو هذا الكافر فقالوا هو ابراهيم باشا
فوزي فقال لماذا لم تقتلوه فقالوا تركناه ريثما يظهر أمواله وأموال غردون
والحكومة ثم صاح بي وقال دلنا يا كافر على هذه الاموال فقلت ان أموالي
أخذت من منزلي وأما أموال غردون والحكومة فليست موكلا بحفظها ثم
استل سيفه من غمده وتقدم الي وقال هذا الكافر لا يظهر هذه الاموال
وقتله خير من استحيائه فامسكه من حوله وقالوا له أرجئه ريثما نعدبه او يدلنا
على الاموال ثم صاح بالعبيد فطرحوني على الارض وجلس واحد منهم
على رأسي وأمسك اثنان السياط وضرباني حتي كلت سواعدهما فابدلا

بأثنين آخرين حتى سال الدم من جسمي فقلت لهم ليس لغردون مال وليس
للحكومة مال غير أوراق البون

وبعد ان تمزق جسمي زجوني في السجن وبقيت ثلاثة أيام فيه يسوقونني
للاستنطاق والضرب في كل غدوة وروحة

وفي اليوم الثالث أخرجوني من السجن موثوق الكتاف يحيط بي
الحراس وأرسلوني الى منزلي فوجدت به أحد الامراء المشهورين بالورع
والتباعد عن غل الغنائم فجمع أمتعتي وكتبها في ورقة عرضها علي فلم أجهد
شيئاً مفقوداً منها ثم قال لي ان الاموال الظاهرة كلها استوليت عليها ولم يبق
غير ما يخفي في بطن الارض فقلت اني لم أخف شيئاً في بطن الارض فأخذ
يوعظني تارة ويهددني أخرى وأنا يثب علي بالسيف فقلت له اني لم أخف
شيئاً ولم يكن لدي مال غير ما استوليت عليه فساقتني ومعى ما خف حمله من
الامتعة الذهبية والفضية والنقود وبعض حلي مجوهره الى أمين بيت المال
فلما نظرني قال كيف أبقيتم هذا الكافر حياً حتي الآن فقال له الامير نحن
نؤجل قتله حتي يظهر لنا أمواله وأموال غردون والحكومة ثم قال أمين بيت
المال لذلك الامير ألم يك عنده نساء فقال له عنده محظيتان حبشيتان أخذتهما
لنفسى فقال أمين بيت المال كيف تأخذها قبل عرضها علي وأخذ الاذن
بهما مني فأجابته الامير اني أخذتهما بسيفي ولا أطلب من بيت المال غيرها
فبارك لي فيهما فقال له قد باركت لك فيهما وملكك اياها فشكره وأنا واقف
وساعداي موثوقان كتافاً

ثم تقدم أمين بيت المال الى الصناديق التي فيها امتعتي وفتحها فوجد
ضمنها صواني وطواقم للقهوة والشاي مصنوعة من التبر علي طريقة صناع الخرطوم

الماهرين وهي عبارة عن اسلاك مسبوكة يتألف منها كل واحدة من
 تلك الاواني فالتفت الى أمين بيت المال وقال لي يا كافر يا عدو المهدي ومحارب
 انصاره لما اذا اتلفت ذهب المهدي وفضته وصنعتها أو اني مثل ما يصنعه الكفار
 فقلت له اتي صنعت ذلك لما كان هذا التبر ملكا لي ولما صار الآن ملكا
 للمهدي فانه يصنع به ما يشاء فقال لي من أين لك انه كان ملكا لك مع انك
 محارب للمهدي وكل ما في الخرطوم ملك حلال له حتي الارواح وضربني
 بسوط كان في يده ضربتين على رأسي حتى خضب بالدماء وجهي ثم قال خذوه
 الى الامير ابي قرجة ليريجه من الدنيا . فاخذت بحالة لا أستطيع وصفها حيث
 كان يحيط بي نحو ثلاثمائة درويش شاهرين السيوف والحراب حولي وهم
 يصيحون يا كافر يا عدو الله حتى بلغت منزل أبي قرجة وكان نازلا بديوان
 المديرية فالتفت بالباب جما غفيرا من الناس وسمعت قهقهتهم من البعد وهم
 مزدحمون فادخلوني على الجمع المتكوف فنظرت رجلين مجردين من ملابسهما
 فامعنت النظر فيهما فاذا احدهما حامداً غا صالح أحد الصناجق وهو ابن صالح
 بك الملك صاحب فداسي الذي تقدم لنا ذكره والثاني من ذوي قرابته والدر اويش
 يطعنونهما بالحراب طعنا لا يعجل موتهما فايقنت اذ ذاك انهم سيفعلون بي
 مثل ما يفعلونه بهذين الرجلين وأخير اسقط الرجلان مضرجين بالدماء على الارض
 وتطاير دمهما على وجهي وأصاب ملابسني فاجهزوا عليهما وكان ايقافي لمشاهدة
 ذلك المنظر الفظيع بقصد ارهابي لادلهم على ما يطلبونه ثم ادخلوني على
 أبي قرجة فابتدأته بالتعجيب فرد باحسن منها فاطمان خاطرني بما توسمت
 فيه من البشاشة فالتفت الى الحراس وقال لهم من هذا فتقدم رئيسهم اليه
 وأسر اليه قولا لم أسمعه فالتفت الي بسكينة وحنان وقال فكوا وثاقه ففعلوا

وأمرني بالجلوس على الارض فجلست وكنت وقتئذ في أشد حالات الظم والآلام
الضرب فقلت له ياسيدي الامير اتجاسر بطلب شربة ماء قبل المات فقال لي
« أبشرك بكل خير » وأمر أحد غلمانه باحضار شراب من العسل ممزوج بالماء
فقدمه لي فتناولت جرعة منه لم تقم بسد الظم واشتدت بي الحاجة الى طلب الماء
فاعدت عليه الرجاء بطلب الماء فامر لي بماء ممزوج بشيء من خبز الذرة اسمه
(الابريه) يفندي ويزيل الظم فتناولت منه بقدر الحاجة وبعد برهة خاطبني وقال
ان الدنيا فانية وان زمن المهدي ليس كما تقدمه من الازمان وان المال أصبح
ملكاً له ومن اخفاه عنه وقع في غضب الله فقلت له ياسيدي ليس لي مال
غير ما أخذ مني وغردون لآمال عنده والخزانه الاميرية ليس فيها غير
أوراق البون فقال اتحلف لي بالله العظيم فقلت احلف بالله اني ما قلت الا الصدق
فرفع صوته وقال للجراس الذين جاؤا بي ارجعوا من حيث جئتم فان الرجل
صادق فيما يقول واحذروا من ان يمسه أحد بسوء واعلموا ان من مسه بالماء
أمسه بالسلاح والتفت الي وقال لا بأس عليك ليهدا روعك فانت آمن من كل
سوء ثم أمرني بالبقاء في منزله فبقيت به ليلتين كان يقدم لي الغذاء الكافي في
خلالهما وكان كريماً يأكل معه نحو ثلاثين رجلاً من خواصه وكانوا يقدمون لي
الطعام منفرداً فاستعطفني في ذلك وقال انه لا يمنعني من تناول الطعام معي غير
شيء واحد وهو اني لم أقابل المهدي ولم آخذ عليه البيعة فظهرت له رغبتني في
ذلك وانني أصبحت لا أطلب غير شمولي بعفو المهدي وتمني برضاه عني

ذكر ما غنمه المهدي من الاموال والذخيرة من الخرطوم
كان سكان الخرطوم أغني أهالي السودان واكثرهم مالا ولما أحسوا

بقدم المهدي عليهم هجرا اكثرهم الخراطوم وحقوا بمصر وكانوا من الطبقة الرفيعة
 جدا وأرسل اكثر التجار أموالهم الى مصر وغيب الباقون أموالهم في بطن
 الارض ولما قتلوا يوم سقوط المدينة ذهبت ولم يهتد أحد لمحلها ولذلك
 يقول العارفون إن اكثر الاموال مودعة في بطن الارض ولم يتحصل بيت
 المال على شيء يذكر من المال. ومن المؤكد ان الامراء كانوا لا يقدمون الى بيت
 المال اكثر من ربع ما يمترون عليه ومع ذلك كله بلغ ما اجتمع في بيت المال
 نحو ثلاثمائة الف جنيه ونحو ثلاثمائة الف ريال من المجيدي والنساوي
 ونحو ثلاثين قنطارا من الذهب المصنوع حليا ونحو اربعمائة قنطار من الفضة
 أما اثاث المنازل والرياش والملابس فانها لا تدخل تحت حصر
 وقد جمعت تلالا يخالها الرائي جبالا

وأما الاسلحة فانها مدفان من كروب و ٣ مدافع متراليوز و ٢٠ مدفعا
 جبليا و ٦ آلاف بندقية رامنجتون جيدة و ٤ آلاف بندقية رامنجتون بها
 خلل وكانت مودعة بالمخازن وعدد لا يدخل تحت حصر من البنادق ذوات
 الطلقتين ومن طراز آخر قديم
 وأما الذخيرة فكما يأتي ٢٠ قنبلة لمدافع الكروب أما المدافع الجبلية فقنابلها
 موجودة بكثرة و ١٠ آلاف صندوق مملوءة بالخراطوش و ٨ آلاف اناء
 (برميل) مملوءة بارودا

ذكر قتل فرج باشا الزين

لما دخلت ميسرة الدراويش من ميمنة خندق المدينة كان فرج باشا
 الزين قومندان الحامية وقتئذ واقفا عند باب المسلمية فتناكر ولبس ملابس

جندى بسيط وحذا حذوه القائمقام سرور بهجت بك واختلطا مع الجنود
السود وخرجا من باب المسلمية فامسكهما حراس ذلك الباب من الدراويش
وفتشوها ولدي تفتيشهما ارتاب الحراس في أمرهما حيث وجدوا عندهما
ساعتين من الذهب وسلسلتين ذهبيتين ثم وجدوا مع فرج باشا خاتمه المنقوش
عليه اسمه وكذلك سرور بهجت بك فقبضوا عليهما وأوثقوها كتافا وأرسلوها
الى أمين بيت المال الذي أرسلهما الى عبدالله التعايشي وهو أمر بضرب
عنقيهما فضربا وكان ذلك في اليوم التالي لسقوط المدينة

وذهب كثيرون من الناس أن لفرج باشا الزين يدا في سقوط المدينة
وانه كان خائنا والحقيقة انه لم يخن ولا يده ألبته في أمر سقوط المدينة غير
انه كان كسولاً يميل الى الراحة ويفر من التعب سيء الادارة

على ان الذي دعا غردون لتوليته هذا المنصب كونه سوداني الاصل وربما
كانت توليته تجذب قلوب بني جلده الجنود السود لمعارضته نخاب ظن
غردون فيه ولم يتحقق شيء مما كان يؤمله فيه ومراعاة للظروف ابقاه في
وظيفته التي كان بنحيت بك بطراق يباشرها بدلا عنه

ذكر مقابلة المؤلف للمهدي

قلت ان الامير ابا قرجة اطلقني من الوثاق وسكن روعي وآواني في
داره ليلتين ثم أرسل معي مندوبين حافظوا علي واجتازوا النهر معي حتى
أوصلوني الى منزل يوسف منصور قومندان طوبجية المهدي وأبلغه المندوبون
ان ابا قرجة أرسلني له ليقدمني للمهدي فقضيت تلك الليلة في منزله وفي ظهر
الغد رافقني الى دار المهدي ومعنا السيد بك جمعه مدير الفاشر فالفيناه

قد فرغ من صلاة الظهر والناس متكوفون حوله وهو يعظهم فتقدم يوسف منصور اليه وقال له يا سيدي الامام المهدي هاهو ابراهيم فوزي فالتفت الي بوجهه باش وقال يا ابراهيم فوزي اتني اعرفك منذ كنت حاكما في مقاطعات البحر الابيض فلما اذا ركنت الى الكفار ولم تسلم لي اولم يكن الواجب علي مثلك اجابة دعوتي فقلت يا سيدي انني من كبار قواد الحكومة ولا يليق بي ان اتركها في اويقات الشدة وسويقات الازمة وكما انني وفيت لها فسأوني لك أيضاً فتبسم وقال لي قد عفوت عنك وأمرني بالذنو منه فذنوت فبايعني بيعته المعلومة ثم نزع مرقعته وقدمها لي فلبستها وكان ذلك دليلا على منتهي رضاه عني ثم انصرفت فاحاط بي الناس ليتبركوا بلثم جبة المهدي وبعضهم ناظم على نوالي هذه المنة فكان فريق من الناس يقصدون ثم تلك الجبة وآخرون يقصدون ايذائي باللاحم وأخيراً خلعت لهم الجبة ليتبركوا بها ووقفت بعيداً وكانت الشمس محرقة حتى اجتاز بي كبير من الامراء فتقدمت نحوه وسألته ان يساعدني على ارجاع الجبة ففعل ولما دفعها لي أخذتها ووضعها على رأسي ثم لبستها وتوجهت قاصداً منزل يوسف منصور الذي نجا بنفسه وتركني وسط جموع المتبركين واللاكين وتبعني في الطريق عدد ليس بقليل وكلهم ناظمون على نوالي هذه المرقعة . ثم أبلغت ان المهدي أمرني بملاءة للغطاء وانا لطبخ الطعام وقصعة للأكل وجارية رأيت منها التذمر وعدم الرضى بالبقاء عندي فبعتها بعشرين ريالاً

ذكر مقابلة المؤلف لعبد الله التعايشي

لما انصرفت من دار المهدي وعدت الى منزل يوسف منصور قال لي

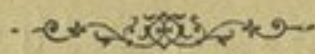
لا بد لك من مقابلة عبد الله التعايشي فقلت له بلغني ان هذا الرجل مشهور
 بالقسوة واني أخاف على نفسي منه فقال لي يوسف انه كذلك ولكن اذا
 بلغه انك قابلت المهدي ولم تسع لمقابلته كانت العاقبة اسوأ فقبلت مشورته
 وفي الغد صاحبي يوسف منصور والسيد بك جمعه الى دار التعايشي الذي
 مكثنا ننتظر خروجه علينا ست ساعات وفي منتصف النهار خرج علينا واذا هو
 رجل نحيف الجسم بوجهه أثر الجدري وملا بسه مرقعة رثة بالية فابتدره يوسف
 منصور بالتحية فرد عليه ثم قال له يوسف منصور يا خليفة الصديق هذا
 ابراهيم فوزي من الخرطوم عفا عنه المهدي وباعه فجاء يطلب عفوك أيضاً
 فالتفت اليّ بوجه عبوس وقال ما هذا ثم التفت لمن حوله من الدراويش
 وقال لهم ألسنكم ان لا تتركوا اذا شارب أو ملتحمياً من الذين دخلتم
 عليهم في الخرطوم ثم قال ليوسف منصور ماهي وظيفة هذا الكافر في
 الخرطوم فنلتم يوسف منصور وتوقع شرا يصيبني وقال له انه كان ملازماً
 بيته وكان غردون يبغضه فقال التعايشي للسيد جمعه ماهي وظيفة هذا الرجل
 فقال كانت وظيفته (باشا) فقال التعايشي (كان باشا الشونة) ومنذ ذلك
 فهمت ان لفظه الشونة كلمة عظيمة جداً عندهم ثم قلت له يا سيدي خليفة
 الصديق ان سبب نجاتي من القتل هي تعلق قلبي بمحبتك ومحبة سيدنا
 الامام المهدي المنتظر وان أنوارك وانوار المهدي هما كانا سبب نجاتي واني
 أحمد الله على منته على بمشاهدة نورك ونور المهدي وقدصرت الآن لا اكره
 الموت لانفاسي في ذلك النور فاطرق الى الارض ورفع رأسه وقال يا يوسف
 منصور قد عفوت عنه ثم انصرفنا عنه وعدت الى منزل يوسف منصور
 وصنعت لي كوخاً من الحشيش بجوار منزل يوسف منصور الذي قال لي بعد

انصرافنا من عند التعاشي اذهب بنا لمقابلة الخليفتين علي بن حلو ومحمد شريف
فقلت له انني لاقيت من التعاشي مالاقيته فليت شعري ماذا الاقي من الخليفتين
ثم قلت له لا اذهب اليهما البتة وقد كان من امرى معهما اني ماصاغت
واحداً منهما ولا اجتمعت بهما حتي من الله علي بالخلاص من أسر المهديوية
والحمد لله على كل حال

ذكر دخول المهدي مدينة الخرطوم

في يوم الجمعة ١٣ ربيع الثاني ركب المهدي وخلفاؤه الباخرة (اسماعيلية)
واجتاز بها النهر الى الخرطوم ثم قصد المسجد وصلى فيه فريضة الجمعة ثم خرج
بعد الصلاة وقصد سراي غردون ثم تفقد الترسانة والجبه خانه وكتب أمراً
الى خاله طه محمد بتوليته ناظراً على الترسانة وأمره بجمع العمال الذين كانوا بها
واعادة الاعمال فيها وفوض الى عبد الله التعاشي أمر حراسة الجبه خانه
فانتدب لها رجلاً اسمه عبد الرحيم الطريقي وأمره بجمع العمال واعادة الاعمال
فيها مثل تعبئة الخرطوش واعداد آلات الحروب واصلاح كل متخرب من
البنادق التي في مخازنها ثم زار أمين بيت المال ولبث عنده برهة قدمت له
في خلالها المرطبات والقهوة فتناول القهوة ومزجها بالحلوى ليظهر للملا زهده
وعدم اعتناؤه بالمطاعم فقال له أمين بيت المال لا تفعل ذلك ياسيدي فقال له
ولماذا فقال لان ذلك يذهب بلذة الحلوى والقهوة معا فقال قدر كنا اللذات
لأنها معقبة بالحسرات ثم قال لأمين بيت المال اني عازم على الاقامة بعض
أيام في هذا المنزل أي منزل أبي بكر الجار كوك وأمره باعداد ما يلزم لراحته
وكان لصاحب المنزل أبي بكر الجار كوك بنت تزوجت قبل سقوط المدينة

باسبوع وفي يوم السقوط قتل زوجها وابوها معا فامسكها أمين بيت المال وقال
 للمهدي اني أقدمها لك في غضون اقامتك في منزل ابيها فقام المهدي ودخل الى
 داخل المنزل ورأى المرأة فاعجبه حسنها ولم يخرج حتى نال وطره منها وكان
 ذلك في اليوم الرابع لقتل زوجها ثم قفل المهدي راجعا الي ام درمان والمشاورة
 دائرة بينه وبين أهل شورا على جعل الخرطوم عاصمة ملكه وكلهم
 موافقون له على هذا الرأي ماعدا عبد الله التعايشي فانه كان يقول للمهدي انا
 لم نعرف بعد عاقبة امرنا مع الحملة الانكليزية التي ربما اضطررنا الظروف
 للتقهقر امامها الى كردفان فاذا اتقنا بالخرطوم صار النهر بيننا وبين كردفان
 وما زال التعايشي يثبط المهدي ويقيم له العقبات ليمنعه عن سكنى الخرطوم
 وبقي المهدي مدة مترددا في القبول يقيم أسبوعا في الخرطوم وأسبوعا في أم درمان
 ويصلي الظهر والعصر في سلامك الحكمدارية وإقامته في منزل ابي بكر
 الجار كوك حتى وافته منيته كما سيأتي



ذكر القبض على المؤلف وسجنه بالخرطوم

وبعد مضي شهر على سقوط الخرطوم ارسل الي حسين باشا خليفة
 مدير بربر خمسين ريبالا فاشترت منها جبة ونعلا وعمامة وأقيت بعضها النفقاتي
 وما مضت على ثلاثة أيام حتى جاءني نحو عشرة دراويش يحملون
 الاسلحة فقبضوا علي وأوثقوني كتافا وفتشوا كوشي وحفروا أرضه وساقوني
 الى أمين بيت المال في الخرطوم فدخلت عليه فصاح بي وقال يا كافر يا منافق
 يا لص أنت سرقت من مالك وتوسعت به حيث غيرت ملابسك وعلا رأسي
 بسوط. كان في يده حتى تطاير الدم فقلت له ياسيدي اني لم أسرق شيأ بل

ان أحد معارفي أحسن عليّ بخمسين ريالاً فرفع سوطه وقال من هو الكافر
الذي يحسن علي الكافر فلما رأيت إلحاحه خشيت أن يكون وراءه مسؤولية
علي حسين باشا خليفة فقلت انه رجل من جهات النيل الأبيض كان يعرفني
أما أنا فلم أعرف غير وجهه ولا أعرف اسمه فأمرني إلى السجن فمكثت فيه
ثلاثة أيام ثم أخرجني منه وقال لي لا جناح عليّ فيما فعلته معك لأن الذين
وشوا بك مصريون من أبناء جلدتك فالآن عفوت عنك واطلب منك أن
تجلبني في حل مما أصابك مني فقلت له انت في حل فأعطاني عشرة ريالات
واناء للطبخ وآخر للاكل وملاءة وجاربة وقال لي عد إلى أم درمان فحملت
الامتعة وذهبت مع الجارية التي أخذت تسبني وتقول (كيف أرضى بولد
الريف تعني المصري سيداً لي) وبينما أنا سائر في الطريق وهي سائرة بجاني
اذلحت الجارية جماعة من العبيد الجهادية سائرين في الطريق فاستغاثت بهم
وقالت ان ولد الريف سرقني فقال لي البييد من أين سرقها يا ولد الريف
فقلت لم أسرقها بل أعطانيها أمين بيت المال فابتدروني بالضرب بالسياط
وسلبوا كل ماعى من الامتعة والنقود والجارية ثم ذهبوا إلى حيث لا أعلم
وجهتهم فعدت إلى أمين بيت المال وقصصت عليه قصتي فكان جوابه
لا شأن لي فعدت إلى أم درمان في اسوأ حالة لأملك قوت يومي فضلا عما
أنافيه من آلام الجروح الناشئة من ضرب السياط.

ذكر أهالي الخرطوم بعد ذلك

مكث الدراويش يعذبون أهالي الخرطوم ليدلوهم على خبايا أموالهم
بقية شهر ربيع الثاني وشهر جمادى الأولى إلى أواخر شهر جمادى الثاني وهم

باقون في البتعة التي بين الخندق ومسبكر ابن النجومي معرضين للبرد
والحرارة ووكل بحراستهم الحاج خالد العمراني فكان يأخذ الرجل أو المرأة
الى منزله في المدينة ويوالي تعذيبه حتي يدل على ماله وكثير منهم ماتوا تحت
أيدي المعذبين الذين لا يرثون ولا يرحمون

وقد رأيت كثيراً من النساء أصبن بالجنون لهول من ما قاسينه من
أليم العذاب وأخريات فقدن العقل عند ما رأين أولادهن وأزواجهن
مذبوحين بين أيديهن وفيهن من فقدت من الاولاد سبعة وثمانية ولقد رأيت
امراة رجل مصري اسمه عطية كان أمين ورق التمنة قتل زوجها واخوتها
ثلاثة وأولادها خمسة واحفادها من جهة أولادها ثلاثة وأزواج بناتها ثلاثة
واحفادها من جهة بناتها أربعة وكان عمرها زهاء سبعين سنة فكنت تراها
وقد ذهل عقلها وهي تصف لكل من وقع نظرها عليه مصرع أولادها ثم
تتناول التراب وتضعه على رأسها ثم تصرخ وتهم على وجهها في القفلة وهكذا
كان حالها حتى توفيت بعد بضعة شهور ومثل هذه المرأة كثير يمد بالئات
وأصيب كثير من الرجال بمثل ما أصيبت به هذه المرأة وكثير من
الذين نجوا من تلك المذبحة ماتوا لقرط ما أصابهم من الحزن بعد أن انفطرت
أكبادهم من هول مارأوه في ذلك اليوم المشؤم

ومما يذكر هنا ان محمد باشا حسن مأمور المالية دخل عليه يوم
سقوط المدينة أصدقاء له من جيش المهدي وأحاطوا به وحموه من القتل
فلما خرج معهم ونظر في طريقه الى جيرانه ومعارفه قتلى في شوارع
المدينة قال لاصدقائه الى أين تذهبون بي فقالوا الي خارج الخندق لانه
لاسلامة لك مادمت داخل الخندق فقال لهم قد قتل أهل بلدي كلهم فمع

من أعيش حتى تطلبوا لي النجاة فأنا أقول لعلم أيها الأصدقاء انكم لا تحسنون
الى الا اذا قتلتموني بجانب هؤلاء فأخذوا يراجمونه وساقوه بالاكرام فامتنع
وقال لهم اقتلوني أيها الناس فأننى كرهت الحياة فتركه أصدقاؤه وامتنعوا من
قتله فقتله غيرهم

ومن أمثال هاته الحوادث أمراة احمد عبد الوهاب وكيل الضبطية
فانها لما قتل زوجها واخوته الأربعة ترامت على اقدم القائلين وقالت لهم
ألقوني بمن قتلتموهم فامتنعوا لانها كانت فتاة رائعة الجمال وما زالت
تلح عليهم فلم يفعلوا وأخيراً أمسكت سلاحاً وهمت بأولئك القتلة فقتلواها
تخلصاً من شرها

وقتل أيضاً امراة ابراهيم بك لبيب حكمدار بوليس المدينة مع
زوجها لانها احتضنته لمأم الدرايش بقتله. وكذلك امراة نالثة حذت حذوها
فهذه الثلاث نسوة اللواتي ذكرنا خبر قتلهن يوم سقوط الخرطوم أما اللواتي
ذهبن ضحية التعذيب فان عددهن يزيد على الثلاثمائة

وكان في الخرطوم رجل مصري أصله من ثغر دمياط. ومن علماء
الازهر الشريف ثم عين قاضياً لبربر ثم عين مدرساً بجامع الخرطوم ورئيساً
لإسائفة المدرسة الاميرية وكان يتعمم بمهامة خضراء لانتسابه لآل البيت
المطهر كما كان في طليعة العلماء الذين كتبوا النصائح تكذيباً لدعوى المهديوية
وكان غردون يحترمه ويحمله ويشاوره في كثير من الامور واسمه حسين المجدي
وفي يوم سقوط المدينة دخل عليه الدراويش وله جاران اسراييليان أحدهما
اسمه بسيون والثاني اسمه اسراييل فلما أحسا بدخول الدراويش قالوا ان جارنا
عالم من علماء الاسلام وذوانتساب لآل بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

ولا بد أن يحترمه هؤلاء الدراويش ولا يمدوا أيديهم بسوء لمن دخل في جواره فبيا بنا ندخل منزله وبينما كانا تهيأنا للاحتماء بالشيخ حسين المجدي إذ أبصرنا من نوافذ بيتهما جالسا على مصلاهما متعما بعمامته الخضراء يقرأ في المصحف فدخل عليه الدراويش فضربوه بالسيوف وبتروا يمينه فقال مرحبا بقضاء الله فقالوا له يا كافر فقال انني أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله وامتلاً المصحف من دمه فأغمي عليه فتناول أحد الدراويش امرأته وآخر بنته على مرأى منه ومن جيرانه وفسق الاول بالمرأة واقتض الثاني بكاره البنت وقال له قد أحل الله لنا دمك وعرضك فقال لهم كذبتم ان الله لم يجعل دمي ولا عرضي ثم اجهزوا عليه أما الاسرائيليان فانهما قد نجوا من القتل ولا يزالان على قيد الحياة

وكان في الخرطوم أيضا رجل مصري اسمه الشيخ فايد كان شيخ سجادة الاحمدية وفي ساعة المذبحة التجأ الى بيته نحو عشرين شخصا من جيرانه من موظفي الحكومة فدق الشيخ طبوله وحمل رايته فذبجه الدراويش ومن معه ولم ينج منهم غير واحد اسمه عبد الله ابراهيم سعد كان ضابطا في الخامية بعد أن اصيب بثلاث ضربات بالسيف على راسه

وقتل قناصل الدول كلهم وكان موسيو هنزل قنصل النمسا استأمن المهدي على نفسه ورعاياه فوعده المهدي باشخاصه الى بلاده اذا خرج اليه مسلما نفسه وفي يوم سقوط المدينة ذبح وسيت امرأته وصارت جثث القتلى مطروحة على وجه الارض

ومن أعجب ما شاهدته أن هذه الجثث لم تنتفخ ولم تتغير ملامحها حتى انك لتستطيع معرفة الشخص المقتول بعد بضعة شهور ولم تأكلها الطيور ولم

يشاهد حولها شيء من الديدان أو الحشرات التي تنتاب الاجسام الميتة وقد
 عد شعراء المهدي ذلك كرامة من كرامات المهدي حيث قالوا في أنشودة
 باللغة الدارجة مامناه «ان اعداء المهدي الذين فتك بهم سيفه عافت اكل لحومهم
 الطيور والديدان والكلاب وسائر الهوام وذلك دليل على كفرهم»

ولم تقف الفظائع عند حد القتل وازهاق الارواح بل كانوا يمثلون باشلاء
 المقتولين ويجمعون التبغ ويحرقون به الجثث

وكان في الخرطوم رجل من أهل خراسان اسمه الشيخ عبد الرحمن
 الخراساني وكان مجاورا بالمدينة المنورة ومعروفا عند أهلها بالصالح والورع
 وله أتباع كثيرون في السودان فقتله الدراويش وربطوا جثته بجثة كلب ميت
 ووضعوا فيه على راس الكلب واحرقوها معا

ومن الذين قتلوا يوم سقوط المدينة الشيخ شاكِر الرئيس مفتي السودان
 وكان سوريا قتله محمد نوباوي الذي دخل على غردون وقتل ابنه قبله ولما
 هم بقتله قال له احد الحاضرين اتركه لانه رجل فقيه يقال له انه افقي بفتوى
 ضدي منذ عشرين سنة فأنا اذبحه واذبح ابنه قبله تشفيا

وقتل من العلماء أيضا الشيخ موسى مفتي المحاكم الشرعية والشيخ محمد
 حنيك قاضي القضاة وكانا فقيهين محققين كتبارسالتين طوبلتين كذبا بهادعوي
 المهدي وفندا مزاعمه وقبل سقوط المدينة جاءني الشيخ موسى زائراً ثم اختلى
 بي وقال لي والدموع تنساقط من عينيه اني وأولادي لم نذق طعاما منذ
 ثلاثة ايام ثم كشف عن بطنه فرايت حجرا مربوطا عليها فهالني ذلك وعرضت
 عليه نقوداً فلم يقبلها ثم وجدت بمنزلي أقتين من البقسماط دفعت له اقة
 وبقيت لنفسى الثانية واعطيته خروفا من الضأن كنت اشتريته من احد

الصناجق الذين غزوا في ضواحي الخرطوم على احدى البواخر فشكرني
 ورجاني ان آذن له بالبقاء ريثما يأكل قليلا من البقساط ليستعيد بعض قوته
 ثم سألتني ان أرسل معه جنودا يحفظونه من الاعتداء عليه حتى يبلغ منزله وفي
 الغد عاد اليّ واخبرني ان أولئك الحراس اغتصبوا منه البقساط ولكنهم
 تركوا الخروف له فدعوتهم لاسألهم فقابلوني بشراسة خلق وقالوا ألم نصنع
 منه من المروءة ما لا يصنعه غيرنا حيث تركنا له الخروف فقلت لهم صدقتم
 وطيبت خاطرهم وصرقتم

والخاصل ان المهدي بعد ان صادر جميع أموال سكان الخرطوم وسي
 من نساءهم كل حسناء وقاسوا من العذاب أشده ونالوا من الضنك غاية وكانوا
 محجورا عليهم الكسب وسبل الارتزاق وكان يعطى كل شخص نحو رطل من
 الذرة في كل يوم حتى هلك من هلك ونجا من أراد الله نجاة ركب هو
 وخلفاؤه ذات يوم ووقف حولهم فرثي لهم وأذن لهم بمبايعته ثم كتب لهم
 منشورا وعظهم فيه وضمنه ما يقطع أمهم من إعطائهم شيئا مما سلب منهم
 وهذه صورة المنشور نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد
 وبعد فمن العبد المقتدر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى كافة أحبائه وأصحابه
 الذين خرجوا من قفرة الخرطوم ومرادهم السلامة لليوم المعلوم ورضاء الله
 الحى القيوم أقول يا أحبائي ان نعمة الدين نعمة لا نعمة غيرها وحيث من
 الله عليكم بها وصرتم من عبيد الله الذين يطلبون ما عنده ويمتلون أمره
 ويرغبون فيما رغب فيه ويزهدون ويستحقرون ما حقره بعد ان كنتم على

شفا حفرة من النار فانقذكم منها فاشكروا نعمة الله التي انعم بها عليكم واستمعظموها
 لتشكروها وتكفوا بها عن نعم الدنيا ومتاعها لان نعم الدنيا ومتاعها نصيب
 أبناء الدنيا الذين لا نصيب لهم في الآخرة واعلموا ان الله هو المنكفل بالارزاق
 الضامن لها فمن عرف ذلك عرف انه مادام حيا لا يقطع رزقه ولو هرب
 منه للحقه كما ورد « لو ركب العبد الريح هاربا من رزقه لركب الرزق البرق
 حتي يلحقه » وحيث كان كذلك وان ما وجد في الخراطوم شيء جزئي لا يكفي
 الانصار الذين فتحوه وانعم الله عليكم باعانتهم وقد صرف عليهم جميع ما وجد
 مع غنائم بربر ولم يفضل الا ما يحتاج للترويج فاصرفوا نظركم عما خرج من
 أيديكم جملة حيث بعم أنفسكم وأموالكم لله وأنتم تعلمون ان الصحابة لما
 خرجوا الى الهجرة فارقوا ديارهم وأموالهم رغبة في دين الله وانتم لما أنعم الله
 عليكم بالصحبة التي تمنها كل السابقين فاخرجوا عن ذلك واكفوا بالله
 وارغبوا فيما عند الله كما البيعة على ذلك فان من لم يخرب الدنيا للآخرة لا يستقيم
 له دينه وقد بعث صلى الله عليه وسلم لحراب الدنيا وعمارة الآخرة كيف وقد
 دعا النبي صلى الله عليه وسلم على طالب الدنيا الذي لا يرضى الا بها فقال صلى
 الله عليه وسلم « تمس عبد الدينار والدرهم والخميصة ان أعطي رضي وان لم يعط
 سخط تمس وانتكس واذا شيك فلا انتقش » ووصف الله المنافقين بذلك فقال
 تعالي « ومنهم من يلدزك في الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها
 اذام يسخطون ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا
 الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون » وأنتم أحبائي اكنفوا باندراجكم مع
 المجاهدين وما يعطيكم اسوتهم فلا خير في الرقيق حيث يعيش العبد بدونه
 ويتأسف واجده عند فراقه وقد صدق فيه اسم الرقيق لان الرقيق ينقطع

ولا يدوم لمن تعلق به ولا يعصمه فاعتصموا بالله وتوكلوا عليه واتقوه فانه قال
 « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على
 الله فهو حسبه » صدق الله العظيم والسلام ٢١ جماد آخر سنة ١٣٠٢

ذكر مقابلة الشيخ محمد الامين الضرير للمهدي ووفاته
 تقدم لنا ذكر الشيخ محمد الامين الضرير ونقلنا صورة الكتابين
 اللذين بعثهما له المهدي وفي غضون حصار الخرطوم كان الناس اشاعوا
 عنه انه جاسوس للمهدي وانه كان يبطن ولاءه وكان أهل الخرطوم
 ينفضونه لهذه الاسباب حتى شكوه الى غردون فقبض عليه وعلي
 قاضي القضاة الشيخ محمد حتيك والشيخ موسى المنقي اللذين تقدم ذكر قتلها
 وقبض أيضاً علي عبد الرحمن ارباب أحد علماء المدينة وبالتحري عن شأنهم
 ثبت ان الشيخ محمد الامين وقاضي القضاة والمنقي بريئون مما رماه به أهل
 الخرطوم الموصوفون باساءة الظن بكل مواطنهم الذين لم يكونوا مصريين
 من جنسهم

ولكن تحققت التهمة في عبد الرحمن ارباب فقط وبعد ان قضوا
 أربعة ايام في السجن امر غردون باطلاقهم حتي عبد الرحمن ارباب الذي ثبتت
 ادانته وبالغ غردون في الاعتذار الى الشيخ محمد الامين واسترضاه ورفقاه
 وفي يوم سقوط المدينة دخل على الشيخ محمد الامين ابن له اسمه علي
 كان قائداً صغيراً من قواد المهدي وساقه الى عبد الرحمن النجومي الذي هم
 بقتله واستل ابنه سيفه ليقتله اظهاراً لاختلاصه للمهدي وبيناهم كذلك اذ
 مر عليهم الخليفة شريف فسأل عن الخبر فقيل له ان القوم يتآمرون على قتل

الشيخ محمد الامين الضريير فاخترق الصفوف بحصانه وقال للمتأمرين احذروا
 ان تصيبوا الشيخ بسوء واعلموا ان من اصابه بماء اصابته بسيفي فتفرق الناس
 واغمدوا سيوفهم عنه وقاد على اياه واجتاز به النهر وقدمه للمهدي الذي
 قابله بالاكرام واكثر من لومه ومعاتبته ثم بايمه البيعة المشهورة ثم قاده ابنه
 ايضاً الى عبد الله التعايشي الذي أخش له في القول واسمعه من الكلام
 أمره وأخيراً قال له يا عالم السوء يا من أعمى الله بصره وبصيرته قضيت عمرك
 المشؤم في تحصيل علوم جاء المهدي بنسخها فقد كنتم تقولون حدثنا فلان
 عن فلان باسايد طويلة ونحن الآن نتلقى الشريعة من المهدي الذي يتلقاها
 مباشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فاحذر يا شبيهة السوء ان أسمع عنك
 انك تعلم الناس شيئاً من العلوم القديمة المنسوخة واعلم انك منذ
 الآن محتاج الى التعليم من أحقر انسان من أصحاب المهدي ثم دعا عبداً
 أعجيباً وقال للشيخ محمد الامين هذا استاذك منذ الآن فصل بجانبه وتلق
 شريعة المهدي عنه اما ما تعلمته قبل الآن فانه منسوخ وخير لك ان تحفر له
 في الارض حفرة تغييه فيها فسكت الشيخ ولم يجاوبه بكلمة بل خرج من
 عنده وهو يقول اللهم اقبضني اليك غير مفتون فتوفي بعد بضعة أيام فحملت
 جثته الى المهدي فامتنع عن الصلاة عليه وقال ان النبي صلى الله عليه وسلم
 نهي عن الصلاة على المنافقين وقرأ « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم
 على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » الآية
 ونجا عبد الرحمن ارباب بعد ان هم عبد الرحمن النجومي بقتله فآكرمه المهدي
 واردفه خلفه ثم مالبت عبد الرحمن ان انكر على المهدي أفعاله ونقم عليه وايقن
 انه كان في ضلال مبين حيث كان مصدقاً بهذه الدعوة ومعيناً لذلك الطاغية

ذكر انتقال المهدي الى ام درمان

ذكرنا ان المهدي كان معسكراني جهة الفتيح بعيداً عن مرمرى المقدوفات
 وفي أوائل جمادى الثانية سنة ١٣٠٢ زعم ان النبي صلى الله عليه وسلم
 أمره بنقل معسكره الى ام درمان وكان يطلق اسم (البقعة الطاهرة المشرفة)
 على كل معسكر حل فيه وفي صبيحة يوم ركب ناقته وقال ان النبي صلى الله
 عليه وسلم أمره باطلاق خطامها حتى تنزل بالمكان المأمورة بالقاء رحلها
 فيه وذلك كما كان بعيره صلى الله عليه يوم دخل المدينة المنورة فدارت الناقة
 المأمورة على زعمه حتى القت رحلها بمكان مرتفع شمال خندق أم درمان
 يبعد عن ضفة النهر بأني متر تقريباً وهناك القت رحلها فضربت اطناب الخيام
 وصنعت الاكواخ من البوص وجعل طول المسجد نحو ستمائة متر في ضفتي
 هذا القدر وصنعت للمهدي مقصورة من ألواح الزنك التي كانت تصنع للاماكن
 التي تودع فيها المواد الملتهبة ونقل منبر الخطابة الذي كان موضوعاً في سلامك
 الحكمدارية الى تلك المقصورة وكانت بقية المسجد مكشوفة والمصلون
 معرضين للحر والبرد

ولما كان منزله متصلاً بالمسجد كان يصلي الاوقات كلها داخل بيته والناس
 يأمنون به وبينهم وبينه نحو عشرة حجب من الشوك والاطناب والبوص وكان
 لا يصلي في المقصورة الا فريضة الجمعة

وكان ذا صوت جهورى في الصلوات الجهرية يرفع صوته بالقراءة باكياً
 وتتساقط الدموع من عينيه وكثيراً ما كان يمسح تلك الدموع في حال القيام
 وقومه معجبون به ويمدون البكاء في الصلاة من علامات اطلاعه على الغيب

حيث يزعمون انه يرى اللوح المحفوظ متى أحرم بالصلاة
 ونيامه وسجوده طويلان جداً حيث كان يقوم في قراءة الركعة اكثر
 من عشر دقائق وفي الركوع والسجود نحو ثلاث دقائق
 وصلى في رمضان صلاة القيام عشر ركعات قرأ فيهن جزءاً من القرآن وصلى
 بالناس في ليلة نصف شعبان مائة ركعة بالقرآن كله رافعا صوته بالقراءة با كيا
 وكان عنده عبيد اسود يؤذن له فقال انه وارث مقام بلال مؤذن النبي
 صلى الله عليه وسلم واعطى مقام ابن أم مكتوم لمؤذن ثان
 هذا وقد قلده كثير من الامراء والاتباع في رفع أصواتهم بالبكاء أثناء الصلاة
 ومن المضحكات ان دنقليا من أقارب المهدي تناول الف ريال من تاجر
 قبطي اسمه جرجس ليصنع له بها سراكب ثم اغتال المال ولحق بالمهدي
 وبعد سقوط الخرطوم زاره نجاران مصريان فقام يصلي واسترسل في البكاء
 فاندesh الزاران من هذا البكاء وقال أحدهما ما الذي أصاب الرجل فقال الآخر
 لا أظن شيئاً أصابه غير انه لما رأنا تذكر ما اغتاله من مال جرجس فبكي ظناً
 منه اننا جئنا نطالبه به

حوادث دنقلة

دنقلة إقليم من أقاليم السودان المصري وحده من جهة الشمال
 (خور موسي باشا) وهو يبعد عن حلغا بنحو خمسة أميال ومن جهة الجنوب
 حدود مقاطعة بربر واقسامه احد عشر قسماً أربعة منها في الشمال وسبعة
 في الجنوب
 وسكان الاقسام الشمالية هم قبائل (سكوت والمحس) والداقلة يسكنون

الاقسام الوسطى. والجهات الشمالية أرضها قاحلة مكسوة بالحجارة الا ان
النخل فيها كثير ومحصوله جيد وبه قوام معاش السكان خلافا للاقسام
الوسطى فان أرضها خصبة وطريقة الري فيها بالسواني وهي تجود بمحصول
وافر من الجبوب وفيها النخل أيضاً لكن محصوله لا يذكر في جانب محصول
الجهات الشمالية وسكان هاته الاقسام خليط يطلق عليهم (الذناقة) والغالب
على اخلاقهم الهدو والسكينة أما سكان الاقاليم الجنوبية فهم قبائل الشايقية
وأرضهم تشبه الاراضي الشمالية والحاصل ان عوائد سكان دنقلة متقاربة متشابهة

ذكر الشيخ الهدي

كان في احدى قرى الشايقية التي بين الخرطوم وشندي رجل اسمه
(الشيخ الهدي) وكان صاحب طريقة وله صداقة مع محمد الخير داعية بربر وبمد
هلاك حملة الجنرال هيكس وفد هذا الشيخ على المهدي فاكرم وفادته وقدم له
الهدايا وتلقاه بالاكرام ثم عرض عليه ان يقوم بالدعوة له في مديرية دنقلة
فاجابه بالقبول فكتب له بالامارة على قبائل الشايقية كلها وبالدعوة له في
مديرية دنقلة ثم غادر الشيخ الهدي كرفان مع محمد الخير داعية بربر واشتغل
معه في حصار بربر ثم انفذ خاله (ولد عبود) أحد افراد قبيلة الشايقية الى اقسام
دنقلة الجنوبية فثارت معه قبيلة الشايقية واعلنت خلع طاعة الحكومة ورفعت
لواء العصيان وقبضوا على ستة عشر جنديا واثنين صف ضباط كانوا جياة في
هذين القسمين وقطعوا اسلاك التلغراف وأسروا عماله
ولما وصلت تلك الاخبار الى المدير مصطفى ياور باشا انتدب الضابط
أحمد افندي سليمان ومعه عشرة عساكر من النظاميين لاكتشاف الاخبار

وما كاد يبلغ محل الثارين حتى قبضوا عليه وعلى جنوده المشرة بعد أن اطلقوا النيران على العدو الذي لم يتمكن من القبض عليهم الا بعد ان نفذت ذخيرتهم وبعد ان هموا بقتل أحمد أفندي سليمان وجنوده ارجأوا قتلهم الى الغد واعتقلوهم في منزل رجل اسمه الخليفة أبو بكر وكان صديقا حميلا لأحمد أفندي سليمان وما كاد الليل يرخي سدوله حتى أطلق الخليفة أبو بكر أحمد أفندي سليمان ومن معه فركبوا دوابهم وفروا وفي الغد فقدوهم فبعثوا خلفهم نحو مائتي راكب فلم يدركوهم وعادوا بغير طائل ولم ينتقموا من الخليفة أبي بكر لما بينه وبين العصاة من روابط الجنسية

ولما وصل أحمد أفندي سليمان الى مركز المديرية رفع الى المدير نتيجة ما أورثه فاجر المدير ومعه مائة جندي نظامية على باخرة قاصداً جهة (الدبة) وكان ولد عبود ومعه زهاء سبعة آلاف مقاتل قصدوا جهة الدبة وكان بها نحو ثلاثمائة جندي بين نظاميين وباشبوزق وما كاد المدير يصل تلك الجهة حتى علم ان العدو منقسم قسمين في جهتين متقاربتين وانهم ممتنعون عن الحرب حتى ينسلخ شهر رجب فاخذ المدير في الاستعداد وهاجم مركزي العدو فكان النصر حليفه حيث انجلى الهجوم عن انتصار المصريين وهزيمة الثوار وعاد الامن الى ربوع دنقلا وقفل المدير راجعا الى مركز المديرية بعد ان حصن نقطة الدبة

ذكر واقعة الشيخ الهدى

لما وصلت اخبار الهزيمة الى الشيخ الهدى في بربر غادرها قاصداً جهة لدبة وأمدّه محمد الخير بمائة جندي سردي من الذين انضموا اليه من جنود

الحكومة واستصرخ في طريقه ببائل الرباط وأولاد قر الذين صاحبه
 رئيسهم نعمان بن قروالد سليمان بن نعمان قاتل الكولونيل ستيوارت فاجتمع
 عليه نحو ستة عشر ألف مقاتل وصل بهم الي الدبة وفي ذات ليلة هجم بهم
 علي مركز الدبة وكان الظلام حالكا فما شمعت الحامية الا بالضوضاء حول
 المعقل فصوبت مقذوفاتها على العدو فسقط منه ألفان وسبعمائة قتيل
 وقتل نعمان بن قرو وقر الهدي ومعه نحو خمسة آلاف مقاتل وفر الباقون
 ولحقوا ببلادهم وعسكر الهدي في جبل على شاطئ النهر في جهة (الحتانة)
 وفي ثاني يوم الواقعة وصل المدير ومعه فصيلتان من الجنود النظاميين ثم سار
 الي الحتانة ومعه خمسمائة جندي فابتدره الدراويش باطلاق البنادق فاحاط
 بموقعهم وهجم بجنوده عليهم فلما أبصر الهدي الجنود هاجم عليه ولي
 الادبار ومعه قومه وغنم الجنود معسكرهم وفيه كثير من الاقوات واستولوا
 على عشرين صندوقا مملوءة خرطوش بنادق رامنجتون ثم تأثر المدير العدو
 مسيرة ست مراحل حتى خرج من حدود المديرية وقفل راجعا الي مركز
 المديرية وكانت هذه الواقعة في شهر رمضان سنة ١٣٠١

ذكر مخابرات المهدي مع مصطفى ياور باشا

تقدم لنا ذكر وقائع دنقلة وها نحن نذكر ما فاتنا فنقول
 لما حاصر أبو قرجة الخرطوم وظفر محمد الخير ببرر كتب المهدي
 كتابا مع رسول خصوصي الي مصطفى ياور باشا مدير دنقلة يدعوه فيه الي
 التسليم أو الحرب وكان الشيخ الهدي في بربر يتأهب للنفارة على دنقلة كما تقدم
 فادرك مصطفى ياور باشا حرج موقفه اذ كان جنوده لا يزيدون على خمسمائة

جندى فعول على دفع البلاء بالمخاتلة والخديعة فاستدعى المسيحيين الذين كانوا معه في المديرية وأسر اليهم انه عول على دفع شر المهدي بالخديعة ريثما تصل النجدة الانكليزية وانه سيدعوهم على رؤس الاشهاد في سراي المديرية ويعرض عليهم الاسلام فيجيبونه فصدعوا بما أشار به عليهم ثم استدعى رجالاً من ذوي قرابة المهدي المقيمين في دنقلة وأعلن أمامهم انه دخل في طاعة المهدي وانه صار عاملاً من قبله على إقليم دنقلة ثم دعا المسيحيين للاسلام فاجابوه وكتب الى المهدي كتاباً ضمنه دخوله في طاعته وشرح له كل ما فعله من اسلام المسيحيين واعلانه الطاعة فاجابه المهدي بكتاب سماه فيه مصطفى جابر بدل ياور لانه من أسماء الكفار على زعمه وضمن الكتاب تعيينه أميراً على دنقلة من قبله وأمره بابدال ملابس العساكر بالمرقعات التي هي شعار المهدي ثم بعد ذلك حصلت وقائع الدبة والختانة التي تقدم لنا ايرادها

ولقد جاء ما أتاه مصطفى ياور باشا بنتيجة مرضية حيث استطاع حفظ البلاد مع قلة جنوده ريثما وصلت طليعة الحملة الانكليزية وساعد أيضاً على حفظ المديرية من السقوط في قبضة العدو وجود رجال اكفاء قاموا بتدبير الامور وخطروا بنفوسهم في جميع الوقائع التي انتصر فيها جنود مصطفى ياور باشا ونخص منهم بالذكر أحمد جودت بك وكيل المديرية وقتئذ فانه كان قومندان القوة المدافعة في واقعة الدبة التي انهزم فيها الشيخ الهدي شر هزيمة وقد أصيب وقتئذ أحمد جودت بك بطعنة رمح في جبهته أما الضابط أحمد أفندي سليمان الذي تقدم ذكر وقوعه في قبضة العصاة وفراره منهم بواسطة صديقه الخليفة أبي بكر فانه كان قومندان القوة النظامية وشهد كل وقائع دنقلة كما انه شهد كل الوقائع

التي انتصر فيها عبد القادر حلمي باشا في جنوب الخرطوم مما تقدم لنا ذكره
ومن قواد الباشبوزق الصناجق نور الدين بك وماميش أغا وسليمان بك
جبريل ومن الضباط النظاميين الضابط سعد نبيه أفندي ومرسال كوكو
أفندي وغيرهم

ولما وصلت طلائع الحملة الانكليزية الى حلقا كان الشيخ الهدي معسكراً
في جنوب حدود مديرية دنقلة بعد هزيمته من الحتانة وكان قد وصل الى
دنقلة في غضون ذلك رسول الى مصطفى ياور باشا يحمل كتابين أحدهما
من المهدي والثاني من شخص يدعي الشريف محمود من أقاربه وكان مضمون
كتاب المهدي الى مصطفى ياور باشا أمره بتسليم المديرية الى الشريف
محمود والشخص اليه وكتاب الشريف محمود مضمونه انه تعين من قبل المهدي
أميراً على إقليم دنقلة وانه معسكراً في بئر تبعد عن النهر بثلاث مراحل
اسمها (أم بليلة) فكتب اليه مصطفى ياور باشا يقول فيه اني لم اكن مصدقاً
بدعوة المهدي وان ما فعلته كان خديمة وحيث انك من أهالي دنقلة
فانت آمن اذا عزمت علي العودة الى وطنك مستظلاً بطاعة الحكومة
ولما عاد رسول الشريف محمود اليه في بئر (أم بليلة) واطلع على ما كتبه له مصطفى
ياور باشا أسرع بالفرار من ذلك المكان ولحق بالشيخ الهدي الذي كان معسكراً
في جنوب حدود مديرية دنقلة في مكان اسمه (كورتى) وأخذنا في الاستعداد
والاهبة للغارة على الحدود وكان مع الشريف محمود حسن خليفة العبادي
ابن أخي حسين باشا خليفة مدير بربر أرسله المهدي للدعوة له في سعيد
مصر ومعه أيضاً رجل مغربي أرسله أيضاً ليدعو أهل طرابلس الغرب
وهاهي صورة كتابين اخترناهما من الكتب العديدة التي كتبها المهدي الى

مصطفى ياور باشا الاول منهما في شهر رجب سنة ١٣٠١ والثاني في شهر
رجب سنة ١٣٠٢ أي بعد سقوط الخرطوم وفي الاول من اللين والمجاملة ما يراه
القارئ وفي الثاني من التهديد والوعيد بان النبي صلى الله عليه وسلم وعد
المهدي بوقوع مصطفى ياور باشا في قبضته عاجلا أو آجلا ما فيه

الكتاب الاول

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد
من السيد الواثق بمولاه محمد المهدي بن عبد الله الي مصطفى ياور امير مدينة
دقيقة وتوابعها كان الله له معين أمين. بعد السلام والاحترام لا يخفى عليك ان
الدنيا ليست دار راحة وماهي الا ساعة فمن لم يجعلها طاعة ويكتسب رضا
الله تعالى فيها ويكتف بالله ويجعل همه به واحدا لا يسلم من همومها وغمومها
ولا بد أن تذهب ويقع المفراط فيما لا ينجو منه من الاهوال الشداد كما جاء
بذلك الوعيد في قوله تعالى «يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع
كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله
شديد» واعلم أني داع الى الله ودال عليه وقد بشي الله تعالى رحمة لمن اتبعني
من أهل زماني ونقمة على من عصى الله وخالفني واني انذرتك قبل هذا
واوضحت لك الامر جليا وكتبت اليك بتوليتك اميرا في جهتك وما فعلت
ذلك الا لك وما وليت احدا غيرك كان في ولاية الترك الابد لقائنا والاخذ
عنا ورؤية الصدق منه كمحمد خالد الذي كان مدير «دارا» فانه قد اتانا
عند فتح مديرية الابيض وصحبنا وتخلق باخلاقنا وتربني حتي تحقق بالصدق

والديانة المرضية على محبة كاملة فلما رأينا فيه آثار الصدق والامانة والعدالة والتخلق باخلاقنا والقيام بامرنا على ما نحب ونرضى ولبناءه على كافة نواحي دارفور ففتحها وصدق في ارشاد أهلها وادخلهم جميعاً في طاعتنا فصدقوا كامل الصدق فجزاء الله الخير والاحسان فقد زاد على ما ظنناه فيه وورق أصحابه ومن بنواحيه على حسن اليقين والوثوق برب العالمين وإيثار الآخرة وزهد الدنيا في الانابة الى ما عند الله فجزاء الله عنا وعن المسلمين أجراً جزيلاً وأنت ما وليناك من قبل ان نراك الا لحسن ظننا بك في صدق ديانتك وطلبك ما عند الله ومعرفتك شؤم الدنيا ودناءتها ومعرفتك قوة الله وقدرته على كل شيء حتى لا تميل الى شيء الا الى رضى الله فان طاعة الترك بعد ظهور المهدي كفر وضلال كما هو وارد فان قويت سريرتك واشتد عزمك على ذلك كما ظننا فيك فانت مؤتمر منا كما أمرناك والا فان علمت من نفسك ضعف يقين وعدم طاقة على مقابلة الترك ومناواتهم وقطع الاخبار عنهم فأت الينا لتزيد يقينا وتمكيناً وتكسب نوراً وتحسيناً حتى يسقط من قلبك الالتفات الى الاولاد والاهل والحشية من غير الله والطمع فيه بما نريك اياه من الارشاد والتربية التي خصنا الله بها دون أوليائه الكرام وهو ذو الفضل العظيم وقد علمت ثواب الهجرة والجهاد في سبيل الله من قول الله تعالى « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفاترون يبشرهم ربهم رحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها » الآية وقوله تعالى « فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى وقتلوا وقتلوا لا كفرن عنهم سياتهم ولا دخلهم جنات تجري من تحتها الانهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن

الثواب « فمن كان مؤمناً مصداقاً بكلام ربه وعظمة وعده ووقوع ذلك يقينا
 يؤثر ما ذكر على ملك جميع الدنيا وشهواتها ومتاعها ومقاساة الشدائد في ادراك
 الوعد المذكور ومن لم يكن مصداقاً بذلك مؤثراً له فذلك لعدم إيمانه وتصديقه
 لوقوع ذلك وتسفيهه لمن فعل ذلك ممن آمن بالله وآثر ما عنده فاستحق
 ان يكون ماله غنيمة وان يخذل في الدنيا ويحشر الى جهنم في الآخرة قال الله
 تعالى « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم » الآية وقد كتبنا
 اليك بقاً انك ان قت باحد هذين الامرين فهو دليل صدق إيمانك
 وتسليمك والا فلا بد ان تقع في قبضتنا بقوة الله وحوله كما أشار الى ذلك
 سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى ونسأل الله ان لا يخيب
 ظننا فيك لاننا نحب لك الخير ونعلمك بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ان الترك لو أتوا عدد الشجر والمدر لا تقوم لهم قائمة كما بشرنا بذلك رسول
 الله صلى الله عليه وسلم وان كثروا كورق الاشجار والرمال لو دخلهم
 احد من أصحابنا يموتون كما بشرنا بذلك الصادق الامين صلى الله عليه وسلم
 هذا والسلام رجب سنة ١٣٠١ (الكتاب الثاني)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد
 من العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبد الله الى مصطفى ياور وفقه الله
 لطريق رشاده آمين. اعلم وفقك الله تعالي الى سبيل الرشاد وصرف عنك
 خيالات النفس وباعد عنك طريق العناد ان الهدى خير من الضلال وان
 الدار الآخرة لهي الحيوان وهي الدار التي أعدها الله لاصفيائه وأمناء دينه
 وندب اليها عباده المؤمنين في محم كتابه العزيز بقوله « وسارعوا الي مغفرة

من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين « ولا يخفى عليك
 أني طالما حسنت بك الظن ورجوت لك الخير وتوسمت فيك الديانة
 والامانة وأحببتك في الله وخاصبتك خطاب أهل المحبة حتي اني من فرط
 ما حصل لي من محبتك في الله أصدرت لك أمراً بختمي بجملك عاملاً من
 طرفي على عموم دنقلة رجاء أن تكون من الذين باعوا لله نفوسهم بالجنة
 وبذلوا مهجهم ونفائس أرواحهم في احياء السنة فظاهر تني بالقيام بذلك ثم
 نكثت العهد ونقضته ومن نكث فاعما ينكث على نفسه وجاهرت بالعداوة
 وبارزت وقتلت أخياراً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بمكرك وخديمتك
 ولم تخش الله ولم ترع حقوقه مع انك في الحقيقة مغرور مستدرج لم تدر
 عاقبة أمرك ألم تعلم أن الله يمهل ولا يهمل ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين
 فيا أيها الرجل ويحك تدارك نفسك واعتبر بمن مضى من قبلك فان العاقل
 من اعتبر بغيره والسعيد من دبر أمر نفسه ونظر صلاح العواقب والسكيس
 من دان نفسه وعمل لما بعد الموت واعلم ان الله يعلى للظالم حتى اذا أخذه
 لم يفلته فان جميع ما حصل لك فهو استدراج من الله عاقبته الحسرة والندامة
 فأعمل ففكرك وأعد نظرك واعلم أن الامر لله بعطيه من يشاء من عباده
 وكفالك ما حصل منك من مبارزة الله بالعداوة وشد أزر أعدائه الكافرين
 والاستعانة بهم على قتال المسلمين أما علمت قوله تعالى في محكم كتابه «يا أيها
 الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم
 منهم فانه منهم » وقال « لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالموودة
 وقد كفروا بما جاءكم » الآية الى غير ذلك من الآيات الناهية عن موالاته
 الكافرين على ان ما أنتم عليه من نقض العهد وعداوة الله المعبود والركون

الى المكر والحديعة والحيل الضعيفة الشنيعة لا يغني عنكم من الله شيئاً ولا يدفع
 عنكم المقدور ولا بد بعون الله من وقوعكم في قبضتنا ولو صدتم السماء
 بسلم فانا مبشرون من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بالنصر على من يعاديننا
 ونملك جميع الارض ولا يفرنكم ما حصل لكم من الاستدراج ولا ما رأيتوه
 من استعدادكم والنصارى الذين معكم فان قدرة الله لا تقاوم وبطشه لا يصادم
 وكم أهلك الله من الامم قبلهم ممن هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا ولم يغن عنهم
 ما اعتمادوا عليه من دون الله شيئاً وحيث انك تدعى العقل وتزعم انك من
 أهله فاعتبر بذلك واعلم علم اليقين انك ان أنبت الى الله وندمت على ما فرط
 منك وأيتتنا نادما نابيا فانك مؤمن ومغفوق عنك في جميع ما مضى منك عفواً
 خالصاً لوجهه تعالي ومقبول عندنا غاية القبول ولا نقول لك الا كما قال يوسف
 عليه السلام لا خوته «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»
 وان أحضرت معك بعضاً من عمد البلد كمحمد عبد القادر ساتي المشهور
 بفقيه تود ومحمد الملك حمد بارقو ومحمد بن الفقير محمد ابراهيم وصالح امام
 الجامع وسعيد أحمد فرح ومحمد الجميل ومحمد محمد كنيش فذلك أولي عندنا
 فاحضروهم فهم آمنون منا ومغفوق عنهم في جميع ما جرى ومقبولون عندنا ولا
 حرج عليهم وان أيتيم بعد هذا الا الجحود والاعراض عن الانابة الى الله
 المعبود وسلوك سبيل الضلال اعتماداً على المكر والحيل واغترارا بالخيال فاعلموا
 انكم لن تستطيعوا الخروج عن أسر القدرة الالهية ولا بد من وقوعكم في
 القبضة وتذوقوا السوء بما صدتم عن سبيل الله وذنبتكم عليكم فانا قد أنذرناكم
 ولا رشادكم دللناكم ومن أنذر فقد أعذر أسأل الله الذي يضل من يشاء ويهدي
 من يشاء أن يجعلكم من أهل الهداية الذين سبقت لهم العناية وأن يجعل

هذا البيان منكم محل القبول انه اكرم مسئول هذا والسلام سنة ١٣٠٢ ٧ رجب

واقعة كورتى وقتل الشيخ الهدي

لما وصل الشريف محمود الى معسكر الهدي بلغ مصطفى ياور باشا انهما
يتأهبان للهجوم على الحدود فزحف عليهم في اربعمائة جندي بين نظاميين
وباشبوزق وكان قائد الجنود النظاميين الضابط احمد افندي سليمان والجنود
الباشبوزق تحت قيادة نورالدين بك وسليمان جبريل بك

ولما اقترب من معسكر الشيخ الهدي اطلق الجنود النيران فجاءهم
الدرائوش وهجنوا على صفوف العساكر ببسالة غريبة حتى اذا صاروا على
مقربة منهم بنحو مائة متر سقط من الدراويش ما تاقليل وقتل الشيخ الهدي
والشريف محمود والمغربي داعية طرابلس الغرب ونجا حسن خليفة داعية صعيد
مصر وولي الدراويش منزه مين لايلون على شيء وتمزق شملهم كل ممزق
وكانت عدة الدراويش نحو ستة آلاف مقاتل ولم يصب من الجنود
غير ضابط من الباشبوزق أصابته رصاصة في صدره ثم عولج ولم يموت
وكانت هذه الواقعة في شهر ذى الحجة سنة ١٣٠١ هجرية

ذكر وصول كتشنر باشا الى دنقلة

كانت الحكومة مرتابة في صدق بقاء مصطفى ياور باشا ومن معه من
الحامية على الطاعة لان اخبار ممالأته التي تقدم لنا ايرادها كانت تصل اليها بصورة
توجب الشك وقد روى لنا الضابط احمد افندي سليمان انه كان يقرأ
وقتش في الجرائد الواردة عليه من مصر اخبار دخول مصطفى ياور باشا
والحامية في طاعة المهدي وكان الضباط يعجبون من الحكومة التي كان مصطفى

ياور باشا يشاورها في كل ما يدبره من الخديعة والمالأة
والظاهر ان ما كان يخبر به الحكومة مصطفى ياور باشا لم تكن تعتقد
صحته حتى ان الانكليز لما وصلت طليعة جيشهم الى حلقا انفذوا كتشنر
باشا وكان وقتئذ ضابطاً في أركان حرب الجيش الانكليزي وكان متكرراً
في زي مغربي ومتعمماً بعمامة فوصل الى دنقلة والحامية زاحفة الى واقعة كورتى
التي سبق لنا ذكرها ثم تأكد عنده بقاء الحامية على طاعة الحكومة وقدم
نفسه للمدير فقبول بما يليق به من الخفاوة والاكرام ثم بقى هناك متجولاً
في أنحاء المديرية يرافقه وكيلها احمد جودت بك حتى وصلت الحملة الانكليزية
التي زالت مخاوفها بعد ان أوقف كتشنر باشا الحكومة على الحقيقة التي كان
فهمها ملتبساً عليها

وصول الحملة الانكليزية الى دنقلة

لانطيل على القاريء الكلام في سرد ما كان من أمر الحملة الانكليزية
التي أرسلت بعد تردد واحجام كانا السبب الاكبر لفقدان فائدتها حيث صارت
هاته الحملة كأنها لم تكن وذلك لانها لم يكن الباعث لارسالها الا انقاذ فردون
باشا وقد علم القاريء انها لم توفق للقيام بهذا العمل

وفي أواخر شهر صفر سنة ١٣٠٢ تكاملت الحملة الانكليزية في (كورتى)
وتعين اللورد ولسلي قائداً عاماً لها وأخذت في الابهة والاستعداد لمتابعة السير
الى جهة الجنوب فقر الرأى على انفاذ حملتين سير احدهما في طريق الصحراء الى
التمتة في (عظور جقدول) وتسير الثانية في طريق النيل قاصدة بربر

حملة الجنرال ارل وقتله بواقعة كربكان

عين اللورد ولسلي الجنرال (ارل) قائداً لحملة النيل فسار من (كورتى) ومعه نحو ثلاثة آلاف جندي انكليزى ونحو خمسمائة زورق تقل الجنود المشاة أما الفرسان والطوبجية فانهم ساروا حبال القوارب في الضفة الغربية وكان الطابور الاول المصري من حامية دنقلة يسير في الضفة الشرقية يقوده البكباشى احمد افندى سليمان الذي كان قبل قيام الحملة حائزاً لرتبة الصاغفول اغاسى فرقى الى رتبة بكباشى بناء على الشهادات الحسنة التى قدمها المدير الى اللورد ولسلي بخصوصه

واستمرت الحملة فى سيرها ثمانية أيام وفر أهالى القرى الى الجهات الجنوبية وتركوا قراهم حتى بلغت جهة كربكان بالقرب من أبو حمد وهناك علمت ان نحو الالف مقاتل من الدراويش تحصنوا بجبل منيع ليقاوموها ويشوروا فى وجهها فانضمت القوة المصرية الى القوات الانكليزية فى الضفة الغربية وهاجمت معقل الدراويش من الجهة الشمالية فاطلقوا النيران عليها ثم قسم الجنرال (ارل) القوة وترك قسماً منها يناوش العدو من جهة الشمال وهجم بالقسم الثانى على العدو من جهة الجنوب الغربي فاستولى على المعقل وقتل الدراويش عن بكرة أبيهم ولم ينبج منهم غير خمسة أشخاص أصيبوا بجروح بليغة وأصيب الجنرال (ارل) برصاصة قضت عليه وتولى قيادة الحملة بعده الجنرال (بركنبرى) ثم صدرت اليه الاوامر بالعودة الى دنقلة وذلك على اثر وصول الاخبار بسقوط الخرطوم وقتل الطيب الذكر غردون باشا وكان بازاء كربكان فى الصحراء منهل اسمه (بيرسانه) اجتمع فيه زهاء الفين من

الدرأوش اخذوا لشنون الفارة على موقع الحملة ليقطعوا عليها خط الرجوع
فانتدب الجنرال برنكنبرى البكباشى احمد افندى سليمان والطابور الذى يقوده
وأمره بالتربص خلف الحملة المطاردة أولئك فجرت بينه وبينهم عدة وقائع
كان الفوز له عليهم فى جميعها وبقي معسكر آفى كربكان اسبوعين ثم قفل راجعاً
الى دنقلا

هذا ما كان من أمر حملة النيل وسيأتى ذكر حملة الصحراء ووصولها
الى الخرطوم بعد سقوطها بيومين

واقعة ابو طليح

لما وصلت للمهدى أخبار وصول الجنود الانكليزية الى (كورتى) وأخبار
تقدمهم الى الخرطوم عن طريق (عطمور جقندول) حيث ينتهى سيرهم
الى شاطئ النهر فى جهة المتمة التى كانت بواخر غردون باشا تنتظرهم فيها
كتب المهدي الى محمد الخير صاحب بربر يأمره بحشد الجيوش فى بربر
لمقاومة حملة الجنرال (ارل) وانتدب موسى بن محمد حلو شقيق خليفة الفاروق
وأمره بآيته الخضراء ومعه نحو ثلاثين الف مقاتل من أولى القوة والبأس وهم
من رجالة (دقيم وكنانة) الذين ذكرنا خبر مبايعتهم للمهدى يوم اجتاز النهر
الابيض بعد واقعة (آبا) وشهدوا معه جميع وقائمه وحرابه وكان ذلك فى أوائل
شهر ربيع الأول سنة ١٣٠٢

وتقدم المهدي لتشجيع الجيش وسار معه نحو خمسة عشر ميلاً ثم ودعهم
بعد ان بايعهم على ان لا يتركوا الانكليز يبلغون المتمة وفيهم رمق من الحياة
ثم سار الجيش يقوده موسى الذى أطلق العنان لانصاره فذهبوا جميع القرى

الواقعة بين المتمة وأم درمان واستباحوا النساء ومكثوا في الطريق نحو أسبوعين حتى بلغوا المتمة مع ان المسافة لا تتجاوز أربعة أيام مع السير البطيء وفي أواخر شهر ربيع الأول سنة ١٣٠٢ أبصر نصحي باشا وعساكره وهم في بواخرهم في المتمة جيوش الامير موسى زاحفة الي جهة (أبو طليح) وهي بئر في الصحراء تبعد عن المتمة بمسيرة ثلاث مراحل

هذا ما كان من أمر المهدي أما الحملة الانكليزية فلها سارت من (كورتى) في أوائل شهر ربيع الاول سنة ١٣٠٢ وعدد جنودها نحو الفين وقائدها السر (هربرت استوارت) فوصلت الى أبو طليح في النصف الثاني من شهر ربيع الاول وتقدم نحوها الامير موسى بالثلاثين الف مقاتل الذين معه وانضم اليه بضعة آلاف من مقاتلة الجعليين فالتقى بالحملة في (أبو طليح) وهجم عليها كما تهجم الاسود على الفرائس ولم يكن الا كلعج البصر حتى اختلط العسكران وصارت المحاربة بالسلاح الابيض وعندئذ قتل القائد السر هربرت استوارت وتولى القيادة بدله الجنرال (بولر) فتمكن من التقهقر تاركا أحماله وأثقاله في ساحة المعركة فاشتغل الدراويش بالنهب والسلب مدة وجيزة تمكن القائد في خلالها من إعادة النظام بين جنوده الذين أظهروا من البسالة والثبات ما حير العقول حيث كرتهم على الدراويش وأمطرهم نيرانا حامية فسقط من الدراويش نحو ستة عشر الف قتيل وقتل الامير موسى ونحو عشرين قائدا من قواده الذين هم من اكبر قواد جيش المهدي واكثرهم تمسكا وتصديقا بدعوته وتمسك بقية الدراويش باذيال الفرار وهم مذعورون لا يصدقون بالنجاة وقد رأيت رجلا منهم في أم درمان أصيب بجنون عقب هذه الواقعة فقال لي ان الانكليز شياطين وليسوا آدميين لانهم بعد ان هزمونا في (أبو طليح) دخلوا

اجسامنا واحتلوا رأسي وانا لا أدري كيف ادفعهم عن نفسي . ووصلت اخبار
هذه الهزيمة الى المهدي فكان من أمره ما تقدم لنا إirاده حيث عول على إسقاط
الخرطوم الذي جراه على الاقدام عليه عمر ابراهيم الصنjq الذي ذكرنا نبأ
فراره وبعد انتصار الحملة أرسل القائد كتابا الى المتمة قال فيه ما يأتي

نحن أول فرقة من جيش جلالة الملكة جئنا لكبح جماح الاشقياء
المترددين وانقاذ مدينة الخرطوم فان أردتم الدخول تحت طاعتنا فعليكم امان
الله وامان جلالة ملكتنا وعليكم ان تقابلونا جنوب البلدة ناشري رايات
الخضوع والتسليم واعلموا انكم ان لم تفعلوا ذلك يحل بكم ما حل بالذين
حاربناهم في أبو طليح وحينئذ تجنون ثمار ما غرسته أيديكم والسلام

ولما وصل هذا الكتاب الي أهالي المتمة أخذوا البلدة وعسكروا شمالها
وفي اليوم الثاني من شهر ربيع الثاني وصلت الحملة الانكليزية الي المتمة
وتحصن الدراويش في البلد فهاجمهم الانكليز بثبات غريب والحقت قنابلهم
ومقدوفاتهم اضرارا كثيرة بمواقع الدراويش ومتاريسهم
واجتمعت الحملة بالبواخر التي كانت مرسلة من غردون للاستكشاف
تحت قيادة محمد نصحي باشا وعسكرت الحملة في قرية (القبة) جنوب المتمة
وتحصنت فيها

وهنا نقول لو أبحرت الحملة منذ وصولها الي الخرطوم لما سقطت
ولكنها بقيت في المتمة خمسة أيام

وفي يوم السبت سابع ربيع الثاني أبحر (السرشارلس ولسن) مدير مخبرات
الحملة لانكليزية على الباخرة (بردين) و(تلحوين) قاصدا الخرطوم وكان سفره قبيل
غروب الشمس وسير بواخره بطيئا جدا لانخفاض ماء النهر وامامه شلالات

وفي مساء يوم سقوط الخرطوم سمعوا الصياح على ضفتي النهر بسقوط
 المدينة وقتل الطيب الذكر غردون فلم يصدقوا ذلك حتى كان يوم الاربعاء ١١ ربيع
 الثاني ٢٨ يناير سنة ١٨٨٥ وكنت اذ ذلك في سجن بيت المال فسمعت الحراس
 يقولون لبعضهم «شددوا الحفظ على الاسرى لان بواخر الانكليز ستصل الي
 الخرطوم اليوم» وركب المهدي وخلفاؤه ووقفوا في أم درمان والرصاص
 والمقذوفات تتساقط على الباخرتين قبل ان تبلغ أم درمان بنحو عشرين ميلاً
 والراية الانكليزية تحفق فوقها حتى وصلتا الي ملتوي النهر وهما قاصدتان
 سراي غردون فاطلقت عليهم المدافع من طابية (المقرن) التي لا تبعد عن السراي
 باكثر من ميل وعندئذ ايقن السرشالس ولسن بسقوط الخرطوم وقتل
 غردون فارتد راجعاً من حيث جاء ولما ابصر المهدي الباخرتين عائدتين نزل
 عن دابته الي الارض وخر ساجدا شكراً لله الذي اوقع الخرطوم في قبضته
 قبل ان يبلغها الانكليز

وفي اليوم التالي اصطدمت الباخرة تلمحوين بحجر في (شلال رحام)
 ففرقت وانتقل السرشالس وجنوده الي الباخرة الثانية التي غرقت أيضاً
 بعد يومين واضطروا لأن يتحصنوا في جزيرة (ولد الحبشي) حتى تدركهم
 النجدة من معسكر المتمة وبعد يومين ادركتهم باخرة انقذتهم بعد ان احاط
 العدو بهم وهاجمهم عدة مرات

ذكر تعيين عبد الرحمن النجومي لقتال الانكليز في المتمة
 وفي يوم ١٥ ربيع الثاني سنة ١٣٠٢ شيع المهدي عبد الرحمن النجومي
 وأبا قرجة والجيش الذي كان معهما لقتال الانكليز في المتمة وكتب منشورا

الى ضباط وعساكر الحملة الانكليزية يدعوم فيه الى الاسلام وهامي صورة
المنشور نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم . والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . وبعد
فن العبد المنقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى كافة ضباط وعساكر
الانكليز خصوصا الاعيان والرؤس . أرشدكم الله الى اتباع سبيل النجاة قبل
البوس . وجعلهم من اللاتئين بجنابه العزيز آمين . انكم اذا تدبرتم بعقولكم
وتفرستم في قدرة خالقكم وعجزكم عن مقاومته علمتم ان مخالفته شنيعة ولا
ينبغي لكم الا امتثال أمره واجتناب نهيه والهروب منه اليه وقد أظهرنا
للدعاية الى حماه . والدخول في ساحة كرمه وعطاياه . فيها الى ذلك واغتنموا
سعادتكم قبل المهالك وسلموا تسلموا وأسلموا بؤتكم الله أجركم مرتين
ولا تعرضوا فتكونوا من النادمين كراشد ويوسف حسن الشلالي وعلاء
الدين وهكسي وغردون لانا أنذرناهم مرارا . ودعوناهم فما زادهم ذلك الا
فرارا . فذاقوا عذاب الحزى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى والسعيد
من اتعظ بغيره وهذا انذار لكم فاذا بلغكم وأردتم الفوز العظيم . والنعيم
الدائم المقيم . فلبوا اجابة دعوتنا الى الله وبادروا بالتوبة قبل تعذرها عليكم وقد
توجهت اليكم جنود الله ولا طاقة لكم بمحاربتها ولكن من باب الشفقة
عليكم أمرناهم ان لا يحاربوكم الا بعد وصول هذا لكم وتحقق الابعاء منكم
عن الاجابة وأن لا يؤذوكم ولا يتعرضوا لكم في شيء من حقوقكم الخاصة
اذا سلمتم ما عدا حق الميرى والاسلحة والجباهين فان سلمتم فعليكم أمان الله
ورسوله وأمان العبد لله وتكونوا من ضمن أنصارنا وليس قصدنا استعباد

أحد ولا ارادة جاء ولا ملك في الدنيا ولا رغبة لنا في حياتها ولا في لذاتها
 الفانية بل انما قصدنا الدلالة الى الله كما أمرنا الله ورسوله بذلك والا اذا
 خالفتكم فلا تقبل منكم صرفا ولا عدلا وسترون ما يحل بكم واصفوا باذانكم
 الواعية لما أقول ان كان لكم عقول فان الله تعالى قد اظهرني رحمة لمن اطاعه باتباعي
 ونعمة على من عصاه بمخالفتي وأيدني منه بالنصر والظفر وأمدني بهمهم رسله
 وأنبيائه وملائكته وأوليائه فلا يقدر على محاربي الثقلان ولو كان بعضهم لبعض
 ظهيرا ولو شئت لقبض الله سلاحكم بحيث ان اصحابي يقتلونكم ولا يقتلون ولكني
 اخترت بتوفيق الله تعالى الشهادة لهم في سبيل الله اقتداء برسول الله صلى الله
 عليه وسلم واصحابه رضوان الله عليهم فايكم والغرور فان جند الله غالب وفي
 هذا كفاية لاهل العناية والسلام ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٣٠٢

ذكر عود الحملة الانكليزية الي دنقلة

بعد انقاذ السر شارلس ولسن من (ولد الحبشى) علمت الحملة ان جيشا
 كثيفا تحت قيادة عبد الرحمن النجمي قادم اليها كما انه يوجد جيش من
 الجميلين معسكر شمال المتمة فنصبت أشباجا من الخشب يخالها الرائي
 من البعد فرسانا وأوقدت مصابيح من البترول ثم ارتحلت الحملة أول الليل
 في ظلام حالك وجدت السير حتى بلغت منهل (أبو طليح) ولم يعلم أحد من
 الدراويش المعسكرين حولها بمغادرتها (القبة) حيث كانوا يرون التماثيل
 فيظنونها الجنود واقفة في حصنها وفي الليل يبصرون المصابيح فوق الحصن
 وهم لا يشكون في شيء من أمر بقاء الحملة وظلوا على هذا الحال ثلاث
 ليال وهم يطلقون الرصاص على المعتقل وفي صبيحة الليلة الثالثة انكروا

سكوت الحملة عن مجاوبتهم فتقدم أحد الدراويش حتي صار علي مقربة من
الحصن فرآى التماثيل والمصابيح موقدة ليل نهار وعلم أن ضوء النهار هو الذي
كان يحجب نورها فرجع وأعلم الباقيين وأسرع مع ثلاثة آلاف راكب ليلحقوا
الحملة في أبو طليح وكانت غادرتها منذ ليلتين وصارت علي مقربة من (كورتى)
التي بها اللورد ولسلى فلم يعد في الامكان اللحاق بها

ووصل عبد الرحمن النجوى المتممة بعد ان غادرتها الحملة ببضعة ايام
وفي آخر شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٢ وصلت الحملة الى (كورتى) وقدم
السر شارلس ولسن تقريره عن سقوط الخرطوم ومقتل الجنرال غردون
ولما وصلت أنباء مفادرة الانكايز للمتممة للمهدى سر بها وكتب الى
محمد الخير أمير بربر يأمره بجمع الجيوش والتقدم الى حدود دنقلة وفي شهر
شعبان سنة ١٣٠٢ أخلى الانكايز دنقلة وعقب ذلك دخلها محمد الخير واستولى
على الاقليم كله وبلغت جيوشه جنوب حلفا ومن ثم صارت الاقاليم
السودانية تحت سلطة المهدي وأخذ يخبر من حوله من الاتباع بأنه سيذحف
على دنقلة بعد بضعة شهور ومنها الى القاهرة وبعث رسولين يحملان
كتابين أحدهما برسم المنفور له الخديو الاسبق والثاني برسم سكان مصر
وهاهى صورة الكتابين نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد
فن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبد الله الى خديو مصر لا يخفى على من
نور الله بصيرته وشرح صدره ان الدين الذى يكون المتمسك به ناجيا عند الله هو
دين الاسلام الذى جاءنا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونزل به القرآن من

الملك العلام قال تعالى «ان الدين عند الله الاسلام» وقال تعالى «ومن يتبع غير
 الاسلام ديناً فلن يقبل منه» وما سوي ذلك من الاديان فضلال يدعو الشيطان
 اليه حزبه ليكونوا من اصحاب السعير ومن منحه الله تعالى عقلاً يميز به بين
 الحبيث والطيب لا ينبغي له ان يصرفه الا فيما ينتج خلاصه عند الله يوم تزل
 الاقدام. ويشيب الطفل ويشد الزحام. والا كان أسوأ من البهائم حيث أضع
 حكمة تركيب العقل فيه ولا سبيل الى السلامة عند الله الا اتباع دينه. واحياء
 سنة نبيه وأمينه. وامانة ما حدث من البدع والضلال. والانابة اليه تعالى في
 كل الاحوال. وقد تأكد ذلك في هذا الزمان. الذي عم الفساد فيه سائر البلدان
 فان دسائس أهل الكفر التي ادخلوها على أهل الاسلام. وضلالاتهم التي
 مكنوها من قلوب الانام. قد أفضت الى اندراس الدين وعطلت أحكام
 الكتاب والسنة بيقين. فصارت شعائر الاسلام غريبة بين الانام. وتراكت
 الظلمات وانتشرت البدع وأبيحت محارم الاسلام. واشتد الكرب على أهل
 الايمان. فصار القابض على دينه كلقابض على الجمر لتراكم البني والعدوان. فعند
 ذلك اظهرني الله طبق الوعد الصادق رحمة لعباده لانقاذهم من ظلمة الكفر
 الى نور الايمان. وأدلمهم الى الله على هدي منه وتبيان. وطوقني بالخلافة الكبرى
 المهديّة. وخلع عليّ حللها البهية. وبشرني سيد الوجود صلي الله عليه وسلم بالنصر
 علي كل من يعاديني ولو كان الثقلين وبأن من يقصدني بعبادة يخذله الله
 في الدارين. وقلدني سيف النصر وأيدني بقذف الرعب في قلوب اعدائي
 يسعي امامي أربعين ميلاً وأخبرني باني أملك جميع الارض وبأن من شك في
 مهديتي فقد كفر بالله ورسوله ونفسه وماله غنيمة للمسلمين وبأن الله قد أيدني
 بالملائكة الكرام وبالجن والاولياء احياء وأمواتا وهكذا من البشارات والعجائب

التي يطول شرحها وكل ذلك بحضرة الملائكة المقربين والخلفاء الاربعة
 والحضر عليه السلام وما كنت أترب هذا الامر لنفسي ولا سألت الله اياه
 بل كنت أسأله أن يجعلني معيناً لمن يقوم به فلما أراد الله ما كان. وحتم الامر
 عليّ من سيد الاكوان. فمت باعباء هذه الجمالة واعتصمت بالله وتوكلت عليه
 وأخبرت الحكمدارية باني المهدي المنتظر وقد كان بها محمد رؤف وما تركت
 لاهلها في ايضاح هذا الامر شيئاً وأنا في انتظار الاختبار. وتسليم الامر لله
 الواحد القهار. فما كان منهم الا أن ضربوا عما أخبرتهم به صفحاً. وطووا عن
 قبوله كشحاً. وبادروني بالمحاربة من غير روية ولا تثبت في هذا الامر الديني
 الذي جنتهم به من خير البرية فأيدني الله عليهم كما وعدني وهكذا صارت
 جيوشك تأتيني ثلة بعد ثلة وأقدم لهم الانذارات ولم تنفعهم والله يؤيدني
 وينصرني عليهم كما وعدني ويقطع دابرهم الى أن قلت حيلتك وتلاشي أمرك
 فسلمت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم لاعداء الله الانكايز وأحلت لهم
 دماءهم وأموالهم وأعراضهم فجاء الانكايز بكبرهم وخيلائهم واعتمادهم
 على غير الله فلما سول الشيطان لهم ادراك غردونهم بالخرطوم وأيست من
 هداية أهله وعلمت أن تكرر الانذارات لا ينفعهم وحققت عليهم كلمة العذاب
 وصاروا مثل من قال الله تعالى في شأنهم « سواة عليهم أنذرتهم أم لم
 تنذرهم » الآية عجل الله بفتحه واهلاك من فيه وأحرقت النار أجسامهم عياناً
 كالذين من قبلهم اظهراً للحقيقة وتمجيلاً للعقوبة وصدق عليهم قوله تعالى
 « حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة » الآية ثم أنذرت الانكايز فلووا
 رؤسهم فوجهت اليهم طائفة من الانصار فقذف الله في قلوبهم الرعب فولوا
 هاربين بعد ان أهلك منهم من أهلك وشتت شملهم وهذا كله ليس بخاف

عليك ولا زال حزب الله مقتنياً ارباقهم وعن قريب يحبل به من الدمار
ما يكون عبرة لمن اعتبر. هذا وان المؤمن المصدق بوعد الله لا يرى لجميع مافي
الحياة الدنيا من الفانيات قيمة ولا يأسف على ما فات من ملكها الذي ما له
الى الزوال وعظيم النكال. وانما يكون مطمح نظره الى ما عند الله من النوال
في دار الكرامة والافضال. فان الدنيا لو بقيت للاول لم تنتقل للآخر. ومن
هنا نعلم ان هذا الملك لم يصل اليك الا بموت أو عزل من كان قبلك وهو
خارج من يدك بمثل ما صار اليك وحيث كان الامر كذلك فلا ينبغي لك ان
كنت ترجو من الله نعيم الابد ان نأسف على ما فاتك من الدنيا ولو كان الدنيا
بحدافيرها فدقق النظر واجمع عليك فكرك وتدارك نفسك واسمع فيما
ينحيك عند ربك اذا تمثلت بين يديه وسألك عما جري منك وسلم الامر اليه
تسلم وما كان يحسن منك ان تتخذ الكافرين اولياء من دون الله وتستعين بهم
على سفك دماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ألم تسمع قوله تعالى « يا أيها الذين
آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منهم
فانه منهم » الآية وقوله تعالى « لا تجدقوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون
من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم » الآية وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا
لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالموودة وقد كفروا بما جاءكم
من الحق » الآية وقوله تعالى « يا أيها الذين لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً
ولعباً من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء » الآية وما هذه
الطاعة لاعداء الله والله تعالى يقول « يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً آمن
الذين أتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين وكيف تكفرون وانتم
تتلى عليكم آيات الله » الى ان قال « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا

تموتن الا وانتم مسلمون « الآية فاذا كنت ممن ينظر بعين بصيرته ولا يؤثر
 متاع الدنيا الحسيس على نعيم آخرته فاعتبر بذلك وبادر الي النجاة والسلامة
 المعتبرة وهي سلامة الايمان ونزه نفسك عن ان تكون في اسر أعداء الله
 دائماً ولا تهلك من كان معك من أمة محمد صلى الله عليه وسلم واغسل
 ماجرى منك بدموع الندم ولا تكترث بجاه الدنيا القاني ولا بملكها الزائل
 فان لله دارا خيرا منها وقد أعدها لعباده المتواضعين لجلاله قال تعالى « تلك
 الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة
 للمتقين » الآية واياك والركون الى أقوال علماء السوء الذين أسكرهم حب
 الجاه والمال حتي اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهلكوك كما أهلكوا من
 قبلك ففي الحديث القدسي « لا تسأل عني عالماً أسكره حب الدنيا فيصسدك
 عن طريقي أولئك قطاع الطريق على عبادي » ولا تغتر بقوة حصن بلدك
 وكثرة أسلحتك وعدادك الظاهرية ومظاهرة أهل الكفر لك فانها لا تغني
 عنك من الله شيئاً وكم أهلك قبلك من الملوك أهل الحصون المنيعة من هو
 أشد منك قوة وأكثر جما لما بنوا وعشوا في الارض منفسدين وليكن
 في علمك ان أمرنا هذا ديني مبني على هدى من الله ونور من رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرية وباطنية وما قصدنا
 فيه الا احياء الدين واظهار آثار الانبياء والمرسلين ولا نريد مع ذلك ملكا
 ولا جاهاً ولا مالا فان نور الله بصيرتك وخالفت النفس الامارة بالسوء
 وقبلت هدينا وأنت الي الله بنية خالصة فليك أمان الله ورسوله واماننا وما
 بيننا وبينك الا المحبة الخالصة لوجه الله تعالى ونكون نحن الجميع يداً واحدة على
 اقامة الدين وإخراج أعداء الله من بلاد المسلمين. وقطع دابرهم واستئصالهم

من عند آخرهم ان لم ينيبوا الي الله ويسلموا وقد حررت اليك هذا الكتاب
وانا بالخرطوم شفقة عليك وحرصا علي هدايتك فارجو الله ان يشرح
صدرك لقبوله ويدلك علي صلاحك ورشادك في الدارين وها انا قادم الي
جهتك بجنود الله عن قريب ان شاء الله تعالى فان أمر السودان قد انتهى
فان باردتني بالتسليم لامر المهديّة. والانابة الي الله رب البرية. فقد حزت
السعادة الابدية وأمنت علي نفسك ومالك وعرضك انت وكافة من يجيب
دعوتنا معك وان أبيت بعد هذا الا الاعراض عن طريق الفلاح والرشاد
فانما عليك اثمك واثم من معك ولا بد من وقوعك في قبضتنا ولو كنت
في بروج مشيدة وهذا انذار مني اليك وفيه الكفاية لمن أدركته العناية
والسلام علي من اتبع المهدي (الكتاب الثاني)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاه علي سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد
فن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبد الله الي كابة سكان مصر حكاما
وتجاراً وعمدا وغيرهم وفقهم الله وهداهم. ولرشادهم ولاهم. أمين. أهدي لكم
السلام وأعرفكم ان النجاة من عذاب الله انما تكون للمتمسك بيده الذي جاءنا
به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأيت ما ناله من الاندراس الذي لا يخفى
ولما ان أراد الله إحياءه واظهار شعأره انجز موعد نبيه محمد صلى الله عليه
وسلم فظهرني بالخلافة المهديّة. وأمرني بدعاية الخلائق الي العمل بالسنة المرضية
ومن عهد ظهوري بهذا المظهر الديني مازالت دولة الترك تجيش جيوشها
وترسل رجالها لمحاربتي من غير استناد الي دليل شرعي. ولا حكم شرعي. بل رغبة
في ملك الدنيا القاني الذي مآله الحسرة والندامة. وجلب عذاب الله يوم القيامة

وما زال الله يؤيدني وينصرني عليهم نصرا من عنده لا بحولي وقوتي وقد أهلك
الله جميع عساكرهم الذين بالسودان علي يدي وأحرقهم بالنار عيانا شاهدتهم
جميع من رآهم حين قتلهم الله بسيفي وما ذلك الا اظهار لكفرهم وتعجيل
لعقوبتهم ولا شك ان جميع ذلك قد بلغكم وتواتر اليكم من الواردين. وما
زلتم عن الحق معرضين. وعلى حب حطام الدنيا الحسيس عاكفين. مع علمكم
بان الله قد ذم هذه الدنيا في جميع كتبه السماوية ولا سيما القرآن فقد اكثر
من ذمها فيه ويكفي من ذلك قوله تعالى «اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة
وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث عجب الكفار نباته
ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة
من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الفرور» وقوله تعالى «وما هذه الحياة
الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة هي الحيوان» ولا يظن شأن الآخرة عنده
أعدتها لعباده المؤمنين وجعل لهم فيها من النعم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت
ولا خطر علي قلب بشروا كرمهم فيها بالنظر الي وجهه الكريم ودعاهم اليها
بقوله تعالى «وسارعوا الي مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض
أعدت للمتقين» الآية وحيث فهمت خسة هذه الدار القانية وعظم تلك الدار
الباقية فيلزمكم الاعراض عن هذا القاني الحسيس. والمسارعة الي حوز نعيم الابد
النفيس. ولا يخفى عليكم ما حصل منكم من التفريط في جنب الله وتربص الدوائر
بحزب الله بالركون الي محبة نصرة أعداء الله ومع ذلك فقد ساءحناكم في جميع
ما جري منكم ان بادرتم الي اجابة دعوتنا والانتظام في سلك أصحابنا أول وصول
كتابنا هذا اليكم ولا نقول لكم الا كما قال يوسف عليه السلام لآخوته
«لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» وليكن في علمكم

ان أمر السودان قد انتهى ونحن قادمون على جهتكم بحزب الله قريبا ان
 شاء الله وما كاتبكم بهذا الكتاب الا شفقة عليكم وخوفا من أن يحل بكم
 من العذاب ما حل باخوانكم الذين خالفوا أمرنا وضررتهم الاماني واعتمدوا
 على قوتهم الظاهرية التي أنستهم قدرة الله على كل شيء فان شرح الله صدوركم
 وتلقيتم أمرنا هذا بالقبول فأبشروا بخير الدارين وعليكم أمان الله ورسوله
 وأماننا في أنفسكم وأموالكم وأعراضكم أنتم وجميع من يجبب دعوتنا معكم
 وان ضربتم عن مقالنا هذا صفحا فاعلموا ان الله تعالى قادر قاهر لا يعجزه شيء
 في الارض ولا في السماء وقد وعدني بالنصر وأيدني بملائكته وجنده وأوليائه
 واخبرني بملكي لجميع الارض وبانه لا يثبت لقتالي انس ولا جن ولا بدبذن
 الله من وقوعكم في قبضتنا ولو اتخذتم نفقا في الارض أو سلما في السماء
 وستعلمون غداً من الكذاب. فيا عباد الله ارفقوا بأنفسكم وأصلحوا عاقبة
 أمركم ودعوا هذا الاعراض والتلاهي بشهوات الدنيا المنغصة بالعلل والامراض
 وتشوقوا للقاء الله فان الدار آخرة والحياة آخرة وهذه الدار قد ولت مدبرة
 فاتخذوها معبرة ويحكم ويحكم ان لم تداركوا نفوسكم وتشلوها من هذا
 الوحل المفضي بكم الى المظل واياكم ان تغتروا بقوة حصن بلدكم فان الله
 أقدر من كل قادر وكم أهلك قبلكم من أهل الحصون المنيعة من هو أشد
 منكم قوة واكثر جمعا فاعتسبوا بهم وبما فعله الله بهم لما بغوا وعشوا في
 الارض مفسدين فالله الله عباد الله هلموا الى النجاح والفلاح. قبل قص
 الجناح. وهذا ما حبرته اليكم وأنذرتكم به ولاداعي الي التلويل. فان الهداية
 من الله الجليل. أسأل الله أن يلهمكم رشادكم ويأخذ بنواصيكم الى طريق
 سدادكم هذا والسلام

ذكر فداء القسوس والمسيحيين

لما سقطت الخرطوم أمسك اللورد ولسلي محمد عبد القادر وحاج شرفي محمد نور وشريف ساتي علي وعبد القادر عبد الكريم ومحمد ابراهيم وأحمد النجيب وحاج شرفي بن القاضي محمود وكلهم من أقارب المهدي وأنسابه وزجهم في السجن وهددهم بالقتل ان لم يكتبوا الى قريتهم المهدي يسألونه فداءهم بما عنده من الاسرى المسيحيين عموماً والقسوس خصوصاً فكتبوا كتاباً الى المهدي قالوا فيه انهم مهذبون بالقتل الا ان يتداركهم بالفداء بما عنده من القسوس والمسيحيين مراعاة لحق القرابة فاجابهم بكتاب قال فيه ان المسيحيين الذين لديه قد اعتنقوا الاسلام ديناً وتشرفوا بصحبته والائتماء اليه حتي انهم صاروا أقرب اليه منهم كما ان الذين أمسكهم اللورد ولسلي تجمعهم واياهم جامعة الكفر ثم ختم الكتاب بقوله لذوي قرابته لا بد من وقوعكم في قبضتنا انتم واللورد ولسلي وتذوقون السوء بما صدتم عن سييل الله وفي الكتاب تعنيف شديد لهم على جرأتهم بمخاطبته بمثل هذا الطلب ولما وصل كتابه الى اللورد ولسلي أطلقهم من السجن واغدق لهم العطاء وأعادهم الى وطنهم

هذا ولما علمت وأنا بام درمان بامر هذا الفداء تذكرت ما قاله لي المأسوف عليه غردون باشا حيث قال لي انك لا تجد من يسعى في خلاصك من الاسر وقد ساء وقع هذه الحادثة في نفسي ونفوس سائر الاسرى المعبرين الذين علموا ان حكومتهم لا تسعى في خلاصهم من الاسر الا اذا كانوا مسيحيين ولكن خفف عني بعض ما أجده سمي السر غرانفيل باشا

سردار الجيش المصري في فكاكي من الاسر . على اني شكرته وان لم يقرب
سعيه بالنجاح ويبد الله كل شيء

ذكر توجيه الجيش لمحاربة سنار

ذكرنا ما كان من بداية الثورة المهديوة حوالي سنار وما كان من اخادها
على يد عبد القادر حلمي باشا

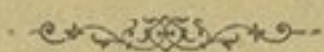
ولما سقطت الخرطوم في قبضة المهدي وجه ابن عمه محمد عبد الكريم
في نحو عشرين الف مقاتل لتضييق الحصار على سنار فوصل اليها في اواخر
شهر رجب وأحاط بها احاطة السوار بالمعصم وسنعود الي ذكر تلك الحوادث
حيث كان سقوط سنار بعد وفاة المهدي بثلاثة شهور

ولما ذهب المهدي لوداع الجيش خطب خطبة قال فيها ما يأتي
يا أنصاري الصادقين سيروا على بركة الله لقتال كفار سنار واعلموا ان
الله معكم عليهم وسينصركم نصراً عزيزاً لانكم حزب الله وأوليائه . وهم
حزب الشيطان وحزب الله أقوى من حزب الشيطان وقد بشرني النبي
صلي الله عليه وسلم بفتوح سنار قريباً وانه بعد انقضاء شهر رمضان نتقدم
الي دنقلة ومنها الي مصر وفي العام الآتي نكون قد تجاوزنا مصر حيث نكون
على أبواب الحرمين الشريفين

ذكر انتداب الشيخ الحسين زهراء الي كسلا

انتدب المهدي الشيخ الحسين زهراء ومعه ابراهيم عالم الخلاوي ومحمد
حمزة البربري الي كسلا الاول والثاني بصفة نائبين عنه ليعقد مع مدير كسلا

شروط الصلح والثاني بصفة أمير لبيت المال
فساروا قاصدين كسلا وما كادوا يبلغونها حتى فاجاهم نعي المهدي
الذي بث في الحامية روح الثبات وأخذت تماطل في وضع شروط التسليم ريثما
يصلها الرأس ألولا الحبشى الذي عاهد الحكومة الخديوية على انقاذ حامية
كسلا وكان من أمره ما نأتي عليه ضمن حوادث تلك المدينة حتى سقوطها
الذي حصل بعد وفاة المهدي



ذكر وفود عوض الكريم ابي سن زعيم الشكرية على المهدي
ذكرنا ما كان من أمر عوض الكريم أبي سن زعيم قبيلة الشكرية
وامتناعه من الدخول في دعوة المهدي واعتصامه بقبيلته في صحراء (ريره)
بين النيل الازرق ونهر (اتبره)

ولما سقطت الخرطوم انفذ المهدي جيشا يبلغ ستة عشر الف مقاتل الى
قرية (رفاعة) ليزحف منها الى صحراء (ريره) حيث يلتقي بعوض الكريم أبي
سن الذي فر من وجه الجيش وغادر محلته قاصداً أم درمان ولدي وصوله
اليها علم ان المهدي موجود بالخرطوم فاجتاز النهر واستجار بمحمد صالح ساتي
على عم والد المهدي ووضع على رأسه تراباً وفي رقبتة جنزيراً من الحديد علامة
على انه نائب نادم على ما فرط منه وقدم نفسه للمهدي في سلامك الحكمدارية
فذهب محمد صالح ساتي على الى المهدي وقال له انني اجرت عوض الكريم
والتمس منك ان تصفح عن زلته وتعدل عن عقابه وكان عبد الله التعايشي
حاضراً فامتقع لونه وهم بالقيام من مجلس المهدي ليأمر بضرب عنق الرجل
قبل ان يفوه المهدي بكلمة العفو عنه فامسك بملابسه محمد صالح ساتي على

وقال له كما أنني أطلب له العفو من المهدي فإني أطلبه منك أيضاً لأنك خليفة
الصديق وأمير جيش المهديّة المشار إليه في الحضرة النبوية فبسم التعايشي
بسبب هذا المدح وقال له إن عفوي لا يكون إلا تبعا لعفو المهدي فاجابه المهدي
بأنني عفوت عنه وأمر بأدخاله ونفض التراب عن رأسه وباطلاقه من الجزير
ثم بايعه البيعة المعلومة والتي عليه التعايشي تنبيهات فخواها أن لا يفارق معسكر
المهدي حتى المات وسنعود الى ذكر ما حاق به بعد موت المهدي حيث
قتله التعايشي صبراً وأفنى قبيلته كلها وصادر جميع أموالها والدوام لله

ذكر تعيين حسين باشا خليفة

داعية من قبل المهدي في قبيلة العبابدة

تقدم لنا ذكر حسين باشا خليفة مدير بربر وكيف كان سقوط المديرية
على يده. ونقول الآن ان حسين باشا المذكور غادر بربر على أثر سقوطها ولحق
بالمهدي في كردفان فلقاه بالاكرام وعامله معاملة صديق لا معاملة أسير حتى
سقطت الخرطوم. وكان من يومئذ يتودد لعبد الله التعايشي ويظهر له
الاخلاص ويعرض عليه قدرته على القيام بدعوة المهديّة بين قبيلة العبابدة التي
تسكن حوالى اسوان

وفي شعبان سنة ١٣٠٢ كتب له كتاباً بالامارة على قبيلة العبابدة فسار
من أم درمان في منتصف شعبان حتى اذا صار على مقربة من « ابو حمد »
وصل اليه كتاب من عبد الله التعايشي يدعوّه الى العودة الى ام درمان
فعلم ان سبب ذلك وفاة المهدي فتابع سيره حيث لم يكن ينسه وبين الخروج
من منطقة نفوذ المهديّة غير يوم وليلة حتى بلغ الحدود المصرية آمناً وسلم للحكومة

أو امر المهدي المتضمنة تميّنه أميراً على قبيلة العباددة
ولما وصل حسين باشا خليفة الي مصر صممت الوزارة على معاقبته فوجد
بين أعضاء الوزارة من دافع عنه وأقنع زملاءه بوجوب ترك معاقبته حيث
انه جاء طائفاً مختاراً ثم كان من أمره ما نحن في غنى عن ايراده

ذكر ضرب بخانة نقود المهدي

ذكرنا المقادير العظيمة التي غنمها المهدي من الخرطوم من الذهب والفضة
وفي أواخر شهر جمادى الاولى جمع أمين بيت المال الصياغ وأمرهم أن
يضربوا نقوداً من الذهب على شكل الجنيه المصرى مكتوباً على صفحة منها
(ضرب في مصر) وعلى الصفحة الثانية الطغراء العثمانية كما هو شأن الجنيه
المصرى وزنة هذا الجنيه نحو ثلاثة دراهم من الذهب السناري الذي لا يشوبه
أقل زغل وقيمه مثل قيمة الجنيه المصرى أى مائة قرش وأن يضربوا رايالاً من
الفضة زنته ثمانية دراهم منقوشاً على وجهه (ضرب في الهجرة) وعلى الوجه الثانى
طغراء نقش فيها « بامر المهدي » وقيمة هذا الريال عشرون قرشاً مصرياً
وبعد وفاة المهدي جمع التعايشي هذه المسكوكات وابدلها بالريال الذي
سماه « مقبول » وسيأتى ذكر ذلك في مكانه

ذكر ختان اولاد المهدي

كثيراً ما كان يبلغنا ونحن محصورون في الخرطوم ان المهدي مصمم على ختان
اولاده في جزيرة (آبا) التي جاءته مرتبة المهديّة فيها وكثيراً ما نقل لنا الجواسيس
انه كان يقول لا تباعه ان النبي صلى الله عليه وسلم أمره بختان اولاده في

تلك الجزيرة وقد ردد غردون صدى تلك الاشاعات في جريدته التي كان
تكتبها يومياً زمن الحصار

وفي ذات يوم قال لي ما معناه «انني أرجو ان تحقق هذه الاشاعة حيث
يكون من وراء تحقيقها ما يخفف عنا ويلاط شدة الحصار» ويظهر ان المهدي
لفرط دهاؤه كان يهد لنفسه اعداراً للتقهقر الى الورااء اذا اضطر له يوماً ما فكان
يذيع بين الناس انه مأمور بختان أولاده في جزيرة (آبا) لكي اذا اقتربت الحملة
الانكليزية من الخرطوم دون ان يظفر بها تقهقر راجعاً وأظهر للملا أن هذا
التقهقر لختان أولاده لاجلبن أو عدم قدرة على الوقوف في وجه الحملة الانكليزية
ولكن قدّر أنه ظفر بالخرطوم وأمن شر الحملة الانكليزية فاقام
معالم الافراح لختان انجاليه في أم درمان وذبحت نحو مائة بدنة من الابل
ونحو مائتي رأس من البقر والغنم وذلك غير ما قدمه الامراء من الهدايا
والمطاعم . وبالجملة انه اظهر في ذلك الاحتفال أهبة الملك والفي بالرغم عن
تظاهره بالتباعد عن تلك الاحتفالات وكان يزعم ان أمين بيت المال هو الذي
قام بها من عنده دون ان يكون المهدي عالماً بشيء منها

وكان أمين بيت المال يذيع ان المهدي كان لا يتناول شيئاً من خمس
الغنائم الذي يخصه بل كان يفوض له اتفاهه في سبل البر والاحسان وانه
انفق منه نفقات الاحتفال بختان أولاد المهدي الذي تم في السابع والعشرين
من شهر رجب سنة ١٣٠٢

ذكر تعيين حمدان ابي عنجة على جبال كردفان

حمدان أبو عنجة قائد الجهادية وأصله مولى من موالى التعايشة وكان

منتظماً في سلك عساكر الباشبوزق في دارفور بوظيفة (بولكباشي) أي قائد
خمسة وعشرين جندياً

ولما لحق المهدي بجبال (قدير) كان أبو عنجة جانياً للحكومة في إحدى
جهات دارفور فاغتال مبلغاً من الضريبة وفر بها إلى المهدي وهناك اجتمع
مع عبد الله التعايشي وصار من حزبه فجعله قائداً على (الجهادية) وصار من
أكبر أنصار عبد الله التعايشي وسيأتي أنه فتح (قندر) من مدان الاحباش الشهيرة
وعلى كل حال فإن أبا عنجة ذو طباع شريفة وخلال حميدة ميمون الطالع
ذودهاء يعرف به كيف يتمكن من امتلاك قلوب الرجال بالاحسان واللين
ومن أطف ما سمعته من ثقة أن المهدي أهدى أبا عنجة امرأة حسنة
كان أبوها صنجعاً فاستاء أهلها وقالوا إذا وطئت بنتنا بملك اليمين أفلاتكون
تحت حر بدل أبي عنجة العبد فنقل إليه الخبر ومع أنه كان قادراً على التنكيل
بهم لم يفعله بل استدعى أم زوجته وأعطاه ألف ريال وجواري وملابس
وهكذا فعل ببقية اصهاره ثم دس من ينقل أخبارهم له فقيس لام زوجته
أن صهره عبد فقالت أنه والله فوق الأحرار وقيل لصهره مثل ذلك فقال
« انما أصل الفتى ما قد حصل » والخلاصة أنه أرضاه بالاحسان والحركة لا يخفى
أسير الاحسان

وقد أوردنا هذه العبارة للدلالة على دهاء أبي عنجة وإن النجاح الذي
صادفه في جميع أحواله لم يكن غير نتيجة أعماله من أمثال هاته النادرة
وفي شعبان سنة ١٣٠٢ هـ أهدى التعايشي للمهدي رغبته في إنفاذ حمدان
أبي عنجة إلى جبال (النوبة) حوالي كردفان للفرز وجلب الأرقاء والماشية
فوافق المهدي على رغبته وسافر حمدان أبو عنجة في خمسة عشر ألف مقاتل

جلهم مسلحون بالبنادق وأعطاه مدفعاً جبلياً وذخيرة
وما كاد أبو عنجة يسير من أم درمان عشر مراحل حتى بلغه نهي المهدي
فكتب يستشير التعايشي في متابعة السير أو الرجوع فأشار عليه بالمضي لوجهته
فتابع سيره وغزا الجبال وغنم شيئاً كثيراً من الماشية والنفوس وكان يرسل
للتعايشي خمسها ولاخيه يعقوب بعضاً منها حتى كان من أمره مع محمد خالد
زقل ما سنعود الي ذكره فيما يأتي

ذكر مرض المهدي ووفاته

في ليلة الاربعاء لاربع ليال خلون من شهر رمضان عام ١٣٠٢ هجرية
أصيب المهدي باعراض حمية وفي مساء الغد ذاع خبر مرضه بين الناس فلم يكثر ثوا
به لانهم واثقون بما كان يمدهم به من أن المنية لا تدركه قبل أن يفتح مصر
والشام والكوفة والحجاز

وفي يوم الخميس الخامس من شهر رمضان اشتدت به أعراض الحمى
فجئ اليه باطباء مصريين فقررروا ان الحمى من التيفوس وان حالته خطيرة
ووصفوا له العلاج ولما خرجوا من بين يديه زاروني بمنزلي وأخبروني بانه
لا يرجي له شفاء

وفي صبيحة يوم الجمعة أمر الخليفة عبد الله التعايشي أن يخلفه في صلاة
الجمعة خلافا لعادته فانه كان لا يستخلف في الصلاة غير الخليفة على حلو وكثيراً
ما كان يستخلف رجلا من أهالي بربر اسمه احمد الجعلي فقيل له ان الخليفة
عبد الله أمي لا يدري الكتابة والقراءة فكيف يخطب بالناس فقال لهم اذفموا
له ورقة الخطبة ومرره فليقرأ منها كلمتين أو كلمة فدفعوا له الورقة وخطب

بالناس وصلى بهم وهم في غاية الاستغراب من جهله بالقراءة وتحريره ألفاظ القرآن
وفي يوم الاحد ثامن رمضان اشتدت وطأة المرض على المهدي فكان
ينظر الى من حوله من النساء نظرا يدل على الحسرة على فراقهن وكأنه
يخاطبهن بقوله « ما كنت أحسب ان هادم اللذات يزورني قبل ان اتمتع بثمار
فتوحاتي واتلذذ بالامر والنهي في المملكة الواسعة التي شيدت بناءها
بعد معاناة احوال تشيب الطفل الرضيع » وكان يرفع صوته مستغيثا قائلا
« لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين » وكان يتجرد من ملابسه
ويامر بالماء البارد فيصب على بدنه ويات ليلة الاثنين وحالته تنتقل من سيئ
الي أسوأ ولا علم لاحد من الناس باشتداد وطأة المرض عليه غير الخلفاء وأمين
بيت المال وبعض ذوي قرابته

وفي يوم الاثنين تاسع رمضان سنة ١٣٠٢ عند أو اخر الساعة الرابعة
على الحساب العربي فاضت روحه وهو ملقى على الارض محاط بخلفائه
ونسائه وبعض ذوي قرابته فصاحت بنته زينب امرأة الخليفة شريف وهي
اكبر بناته فوثب عليها زوجها ولطمها فسكتت وصاح احمد سليمان امين بيت
المال وخر مغشيا عليه حتي ظنوه قد فارق الحياة . أما الخلفاء فانهم اجتمعوا حوله
وتشاروا فيما يكون من امرهم فظهر كل منهم تخوفه من افتضاح امرهم وان
موت المهدي لا بد ان يكون دامغة سيئة إذ به يظهر للملائكة كذبه فيما كان يقدم
به من فتح البلاد واملاك الارض كلها مما هو واضح على صفحات منشوراته
التي تقدم لنا ايراد كثير منها

وكان عبد الله التمايشي مندهشاً بعامل القرع من جهة لان المهدي
أوصى له بالخلافة وهو في الرمق الاخير من حياته ومن جهة أخرى كان

لا يؤمل من الناس الاتقياد له لان موت صاحبه جاء مكذبا لكل الدعاوي التي كان ينتحلها لنفسه ويعد الناس بها ولذلك كان التعايشي مع الخلفاء في الشوري كستطلع لأفكارهم ومراقب لما يبدو منهم من الهلع وعدم الثبات فأشار واحد منهم بوجوب اخفاء موت صاحبهم واصدار منشور باسمه يقول فيه انه أمر من النبي صلى الله عليه وسلم بملازمة الاعتكاف على العبادة الى أجل غير معلوم وذلك اعتمادا على منشور صغير اصدره قبل مرضه بثلاثة أيام قال فيه « انني نصبت لعم الخلفاء ووليت عليكم النواب والامناء وجعلت الامراء تابعين للخلفاء فلا تقصدوني لقضاء شيء من مآرب الدنيا بل اتركوني للاشتغال بامور العبادة والانابة الى الله وكونوا على علم بان ماتمذر قضاؤه على الامراء والنواب والامناء والخلفاء فان قضاءه متعذر على أيضا »

هذه خلاصة ذلك المنشور وقد نقل الي ثقة ان عبد الله التعايشي بعد ان سمع ما أشار به زملاؤه الخلفاء انصرف من مجلسهم وهو مضطرب كريشة في مهب ريح واجتمع بأناس من خواصه وقص عليهم أمر وفاة المهدي وما أشار به الخلفاء فآظروا له سوء مغبة هذا الاخفاء بعد ان يقف الناس عليه لانه مامن خفي الآسيعلن وان الاقرب الى السلامة أن يعلن امام الناس وفاة المهدي والبيعة لنفسه فلقنه الشيخ المكي ابن اسماعيل الولي من مشايخ الابيض الجملة التي قالها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي « من كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ومن كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات » ولكنه أبدل محمداً بالمهدي في القائه فخرج على الناس بباب المهدي وقال لهم هذه العبارة فتقدم الشيخ المكي وبايعه وبايعه الحاضرون وهم يبلغون عشرة أشخاص ثم احتفروا قبراً في نفس الغرفة التي

مات فيها وقالوا انه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن حيث قبض كما
دفن صلى الله عليه وسلم حيث قبض

ومن جهالتهم انهم لم ينزعوا مرقعته عنه بل غسلوه من فوقها كما غسل صلى
الله عليه وسلم وكفن في ثوب واحد من خرقة (الدمور)

وفي منتصف الساعة العاشرة صلى التعاشي بالناس صلاة الظهر ثم
استدعى نحو عشرين رجلا من أقارب المهدي ودخل بهم الى الغرفة
واصطف الناس خارج الغرفة وبينهم وبين المسجد جدران فكانوا يسمعون
التكبير متقطعا من الغرفة فيكبرون وهكذا ظل الناس يكبرون على تكبير
من في الغرفة من الساعة العاشرة الى منتصف الساعة الثانية عشرة حتى تجاوز
عدد التكبيرات الثلاثمائة ثم انقطع التكبير حيث دفن الميت

وبلغني ان الخليفة على حلو قال ان هذه التكبيرات قليلة بالنسبة لما هو
واجب لمقام المهدي

وبعد ان ووري بالتراب خرج التعاشي الى الناس ورقى المنبر وتلا
الآية «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الخ» الآية ثم بايعه الناس وليس
فيهم من يجسر على القول بان المهدي مات كأنهم يجلون عنه هذا الامر وكثير
من الدراويش هموا يقتل من فاه بهذا الخبر امامهم

هذا وقد ذكرت ان الاطباء الذين باشروا علاجه اخبروني باستحالة شفائه
وكنت اتوقع حصول فشل كبير وخلف عظيم بين اتباعه حتى انني لزممت
كوخي في يوم وفاته وأنا مترقب من وقت الي آخر ان يبلغني شيء أسر به وكان
لي خصي أخذ مني وصار من خصميان دار المهدي وكان بعد خروجه من يدي
يحتقرني ويهينني ولا يخاطبني بغير (يا ابراهيم فوزي) ولذلك كنت اكره لقاءه

فدخل عليّ في وقت العصر وقال لي يا ابراهيم فوزي فقلت نعم فقال ان المهدي قد مات فكذبت أطير فرحا لكتني أخفيت ذلك وابتدر الى ذهني ان ذلك الخصي ربما كان مدسوساً عليّ للوقوف على مبلغ شماتي بموت المهدي فأجبتته عليّ الفور بأن قلت له كذبت أيها العبد لان المهدي لا يموت قبل ان يفتح الدنيا كلها ولا يموت في غير المدينة المنورة

وقد كتب التعاشي والخلفاء وأقارب المهدي منشوراً بنعيه الى جميع الجهات ملاًوه بخرافات يضيق المقام عن سردها منها أنهم قالوا انه اختار الرفيق الاعلى ومنعوا من القول بانه مات انما يقال انتقل من دار الدنيا الى نعيم الآخرة وانه استخلف التعاشي وأوصي بطاعته وفي المنشور تفسير لما وعده به المهدي من ملك الدنيا كلها حيث قالوا ان ذلك سيتم لاصحابه وعللوا ذلك بان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد بصيرورة ملك كسرى وقبصر له ولم يحصل ذلك بالفعل الا في ايام خلفائه رضوان الله عليهم أجمعين

وقد اضطربت الروايات في مرض المهدي وموته فقال البعض انه مات مسموماً من احدى النساء اللواتي أخذهن سبياً من الخراطوم ولكن الحقيقة هي التي أوردناها اذ لم يتناول المهدي سما ولا غيره بل مات بالجمي التيفوسية كما تقدم

ذكر طرف من سيرة المهدي

كان المهدي صاحب دهاء وحيل ولكن المتأمل اللبيب يجد في اخلاقه شيئاً من البله مع طموح للمعالي وقد أوردنا في ترجمته انه كان صريداً عند الاستاذ الشيخ محمد شريف بن الاستاذ الشيخ نور الدايم بن الاستاذ قطب

الطريقة السمانية في الاقطار السودانية الشيخ أحمد الطيب
 وصار من أمره مع استاذة ما أوردنا طرفاً منه آنفاً وفي ابان دعوته
 سرّاً أبلغ الاستاذ الشيخ محمد شريف الحكمدارية كل ما دبره فلم يلتفت
 الحكمدار محمد رؤف باشا الى بلاغه مع انه أطلعه على كل مخباته وما عقده
 مع الرؤساء في جهات النيل الابيض وكردفان من اليهود وما أخذه عليهم
 من الموائيق

ولما ظهر بدعوته في جزيرة (آبا) أرسل بلاغا الى الحكمدارية ثم تلتته
 واقعة (آبا) فانبرى لتكذيبه عدد ليس بقليل من العلماء فالفوا الرسائل مشحونة
 بالادلة الشرعية على بطلان تلك الدعوى وكذب مدعيها

ولما كانت تلك الرسائل مما يتعذر علينا إيراد بعضها هنا اكتفينا بالاشارة
 اليها فراراً من التطويل الذي يمله القراء

ومن هاته النصائح قصيدة ألفها استاذة الشيخ محمد شريف أبان فيها
 أحواله في بداية أمره حيث قال انه كان صواماً قواماً لا ينام الليل منذ
 دخل في سلك الطريقة . وكان نهماً يأكل كثيراً ولكنه منذ بداية أمره كان
 يخفي شره ليظهر امام الناس بالقناعة والزهد

وكان يلبس المرقعة مثل سائر دراويشه . أما اوصافه فانه كان طويلاً القامة
 أسمر اللون بخضرة عريض المنكبين مفتول الساعدين ضخمة الجثة عظيم
 الهامة واسع الجبهة ألقى الانف واسع الفم والعينين مستدير اللحية خفيف
 العارضين أسنانه كاللؤلؤ وفي الفك الاعلى فلجة بين الاسنان حتى كنى
 بابي فلج

وبالجملة فانه كان ذا صورة جميلة جداً بين السود أمثاله وكان يتعمم على

فلنسوة من نوع ما يتعمم عليه أهل مكة وعمامته كبيرة منفرجة من الامام يرسل عذبة منها على منكبه الايسر حتى تتجاوز سرتة ويضع على منكبيه رداء من (الدمور) ويتمنطق بمنطقة من الخوص أو بخرقة من الدمور ويلبس نعلا تشبه نعال أهل مكة مصنوعة في السودان وكان لبسها مخصوصا بالاعراب والضعفاء ويطلق عليها اسم (الشقيانة) اي نعل الشقاء فأبدل هذا الاسم باسم (السعيدانة) اي نعل السعداء ويحمل على الدوام في يده اليسري أو على منكبه الايسر سيفا زعم انه سيف النصر الذي أهده له النبي صلى الله عليه وسلم ويتوكأ على هراوة طويلة مصنوعة من النحاس مكسوة بجلد أو هراوة من النوع المعروف باسم (خيزران)

هذه أوصاف المهدي أوردناها هنا وقد رأينا صوراً كثيرة يقال انها صورته ولكنها كلها صور خيالية تبعد عن الحقيقة بعد السماء من الارض ولذلك لم نأت بصورة منها في هذا الكتاب لعلنا بعدم انطباق واحدة منها على شيء من صفات المهدي وكذلك كل صور التعاشي خيالية أيضا لا تقرب من الحقيقة مطلقا

وتوفي المهدي وعنده مائة امرأة وعشر منهن أربع أطلق عليهن اسم أمهات المؤمنين . احدهن عائشة بنت ادريس وأصلها من بلاد دكرور في السودان الغربي تزوج بها في جبال (قدير) علي أثر موت زوجها قتيلاني واقعة يوسف باشا الشلالي واسمه آدم الايسر وكان متزوجا أيضا بزینب بنت المهدي وبعد قتله تزوج بها الخليفة شريف

وكان المهدي يقول ان عائشة بنت ادريس بمنزلة عائشة بنت أبي بكر رضي الله الله عنهما وولدت له أنثى اسمها زهراء تزوج بها يعقوب شقيق

التعايشي بعد وفاة المهدي

والثانية فاطمة بنت احمد شرفي الدنقلوي كانت زوجة أخيه محمد الذي قتل في واقعة الابيض وكان المهدي متزوجا بأختها وله منها عدة أولاد فماتت أختها وقتل زوجها فتزوج بها المهدي وجعلها من أمهات المؤمنين ولم ترزق منه غير ولد اسمه الكامل مات رضيعا ولها أم اسمها حليلة كانت تتزني بزى الرجال وتتخذ السلاح وتركب الخيل وكانت تصدر اللوعظ في مجالس الرجال وتقول لهم تمسكوا بالله ورسوله ومهديه وابن مهديه الكامل وأم المؤمنين والدته وجدة الكامل فانه لانجاة للانسان في الآخرة الابهؤلاء فأحضرها التعايشي وزجرها ومنعها من مخالطة الرجال وتوعدها ان عادت الى مقالاتها هذه فصدعت بالامر أمامه ولكنها لما خرجت الى الناس قالت لهم ان التعايشي يحسدني كما حسدت قريش النبي صلي الله عليه وسلم

والثالثة فاطمة بنت حاج وهي بنت عمه التي تقدم لنا ذكر زواجه بها في الخرطوم وانه طلقها لما ألت عليه بوجوب السمي للارتزاق من صناعة المراكب ثم راجعها بعد خاقه بجزيرة (آبا) وبعد زواجه بنت أحمد شرفي. وله منها ثلاث بنات تزوج عبد الله التعايشي باحدهن بعد وفاة أبيها وتزوج الثانية الخليفة على حلو

والرابعة فاطمة بنت حسين الحجازي وهي مصرية من أهالي مديرية الحدود استوطن أبوها في جهة تقرب من جزيرة (آبا) وكانت متزوجة بابن عمها صالح الحجازي وكان المهدي قبل دعواه يختاف الي بيت زوجها الذي كان مریدا له وكان لا يحجبها عنه لفرط اعتقاده في صلاحه فأظهرت

لزوجها رغبتها في أخذ أوراد الطريقة عن المهدي فأذن لها ولقنها المهدي أوراد
 الطريقة فظهرت بمظهر الزهد والعبادة وفرت من بيت زوجها ولحقت بالمهدي
 في جزيرة (آبا) فادركها زوجها وسألها عن سبب خروجها من بيتها فقالت
 اني لأقوى على التقيد بقيود الزواج لاني أصبحت لأميل لغير العبادة
 والانقطاع للصوم وقيام الليل فلم يشك زوجها في أنها كذلك فسألها بقاءها
 على ذمته بنير أن يطلقها على شرط أن تذهب الى حيث شاءت فبكت وقالت
 انني أخشى أن يعاقبني الله على عدم رعايتي حقوق الزواج ولذلك أتوسل
 اليك بحرمة شيخي وشيخك هذا وأشارت الي المهدي أن تطلقني فطلقها
 ورجع الى منزله وكان هذا كله مدبراً بينها وبين المهدي وقبل أن تنتهي العدة
 الشرعية سمع صالح الحجازي ان مطلقته تزوجت بشيخه وشيخها فاحتدم غيظاً
 وحمل السلاح وهجم على المهدي وأطلق عليه الرصاص فأخطأه وكانت فاطمة
 بنت حسين هذه في منتهى الجمال بيضاء اللون

وكان صالح الحجازي المذكور قد حضر معنا حصار الخرطوم وقص علينا
 هذه القصة بنير زيادة ولا نقصان

ورزقت فاطمة المذكورة من المهدي بنتا اسمها مريم وهي التي تزوجها
 التعايشي بعد فراق اختها كلثوم

ولما سقطت الخرطوم اكرم المهدي صالحا الحجازي ولم يعاقبه بشيء
 وأصدر أمراً بعدم مصادرة شيء من أملاكه وبعدم نهب أمواله وكذلك
 بنت عمه اكرمه وأهدت اليه هدايا كثيرة من الاموال والجواري والخيول
 وسوى هاته الاربع نسوة نحو ثلاثين من بنات اعيان السودان اهداهن
 له آباؤهن مثل بنت محمد احمد ام برير التي تقدم لنا ذكرها ونحو ثلاثين امرأة

من بنات اعيان المصريين في الخرطوم والبقية من الجوارى اللواتى كن مومسات
فانه كان ذالوع شديد بهن حتى انه كان كلما فتح بلدا ضم الي محظياته المشهورات
من مومساتها . وكان كثير الشبق شديد الولع بالنساء وطريقة اجتماعه بهن
انه يسكن غرفة منفردا فيها ونساؤه الاربع يتولين تطيب بقية النساء وتقديمهن
له في غرفته فيختار منهن من يشاء

وعلى ذكر نساء المهدي وما استرسل فيه من قضاء الشهوات البهيمية
وكيف انتهك الحرمات في سبيل قضاء الاوطار نذكر هنا انه كان لا يضع يده
في يد امرأة ليست من نسائه ولا من محارمه وكتب منشورا قال فيه . من
صافح امرأة ليست من محارمه فانه يجلد ثمانين جلدة بالسوط ويؤمر بصيام
شهرين متتابعين . فليتأمل القارى كيف ساغ له التمتع بالحرائر كموطوات
بملك اليمين وكيف تعالي في عقوبة من صافح امرأة ليست من محارمه وقد زاد في
منشوره (ولو كانت المرأة طاعنة في السن أو صغيرة غير مشتهاة) أفلا يصح
بعد هذا انطباق المثل المشهور عليه (يستفتى في الابرة ويبلغ المدره)

وأما أولاده الذكور فيبلغون العشرة وكان عمر اكبرهم لما توفى هو حوالي
العشر سنوات والبقية اطفال ليس لهم أهمية تستدعي ذكرهم ولكننا نذكر ثلاثة
منهم وهم الفاضل ومحمد والبشري وأمههم فاطمة بنت أحمد شرفي التي توفيت
في جبال (قدير) ويكنى المهدي بأولاده الثلاثة المذكورين وتكنيته باسم الثالث
أكثر شيوعا مع انه أصغر الثلاثة وذلك لانه ولد في جزيرة (آبا) في مبدأ
دعوى المهدي ووزعم المهدي انه بشر بالمهدوية ليلة ولادته ولذلك سمي البشري
وأما أطعمة المهدي فان الكلام عليها غريب في بابها فقد كانت يظهر
الزهد وعدم الميل الى الاطعمة وبكثير التنديد بالذين يأكلون غير ما خشن من

الطعام وكثيرا ما كان يربط على بطنه حجرا حتى ذاع بين الناس ان الذين يأكلون
الاطعمة الفاخرة كفار لا نصيب لهم من الاسلام ولذلك صار كل أحد يجتهد
في اخفاء ما عنده من الاطعمة الدسمة ولا يخرج أمام الناس الا خبز الذرة
بادام الماء والملح أو (البليلة) وهي من حبوب الذرة تصلق بالماء وكان المهدي
لا يخرج أمام الناس من طعامه غير هذين الطعامين

وقد تغالي المهدي في إظهار الزهد في الاطعمة حتى انه منع إيقاد نار
في بيته لطبخ أو خبز مدعيا ان ذلك ينافي التوكل على الله وكان الناس يقدمون
له الاطعمة هدية فكنت ترى القصع محمولة الى منزله كل يوم تعد بالمشات
فيتناول النساء منها حاجتهن بغير ان يشتغلن بطبخ أو خبز

وأما الطعام الذي يتغذى به المهدي فانه يصنع كل يوم في منزل أمين بيت المال
فكان يذبح الخرفان الحولية ويصنع ما يتبها من الحلوي والقطائر وسائر الاطعمة
الفاخرة وهرسها الى منزل عائشة بنت ادريس وهي تقدمها الى المهدي وقت
انفراده في غرفته فكان لا يترك من الخروف الحولى غير عظامه عدا ما يتناوله
من الاطعمة اللذيذة وقتي الغداء والعشاء أما الفطور فانه كان يتناول فيه
ألوانا كثيرة كلها من الحلوي فمنها انهم يمزجون رطلا من السمن بمثله من
العسل ويضمونه على اللبن ويطحونه مع دقيق الحلبة وتارة مع دقيق
الدخن وأخرى مع دقيق البر ولا يكاد يشرب ماء الا ممزوجا بحامض
لبن الابل مع السكر ومع هذا الانهاس في الملاذ كان يظهر أمام الناس بمظهر
القناعة والزهد والتعشف كانه لا يملك من نعيم الدنيا غير صرقة التي هي واحدة
وكان يكثر من التطيب بالروائح الحارة مثل عطر الصندل والمحلب فكانت رائحته
تشم من البعد والبسطاء يعتقدون انها رائحة الجنة تتضوع من عرقه

وقد خرج من الدنيا ولم يدخر لا ولادة شيئاً من المال كما انه لم يترك
عند نسائه حلياً ولا شيئاً من ضرور الزينة لانه قد كان حرم على النساء التحلي
بالحلي الذهب والفضة وغاية ما يتحلى به خرز من الزجاج والمرجان
هذا وقد ذكرنا انه أبطل تقليد المذاهب الاربعة وأصدر للناس
منشورات ضمنها كثيراً من العبادات والمعاملات

ومن غرائب مذهبه انه تعمد الاجحاف بحقوق النساء في كل ما هن
وما عليهن فقال لا يلزم الرجل بنفقة امرأته مادام من المجاهدين في سبيل
الله وقال ان مهر العذراء لا يزيد على عشرة ريالات ومهر الثيب خمسة ريالات
ومن زاد على ذلك صودرت أمواله. وكان يجبر أولياء المرأة على تزويجها بأى شخص
كان من غير نظر الى كفاءة أو تعادل بين الزوجين مادام الزوج من المجاهدين
في سبيل الله. وبالجملة فان النساء في مذهبه كمخلوق ليس من نوع الانسان
وقد سار أتباعه على سيره فكنت ترى عشرات النساء اللواتي أخذهن الامراء
سياً من الخرطوم وغيره من المدن يتضورن جوعاً داخل البيوت ولا يقدم
لهن أولئك الامراء غير قليل من طعام الذرة فاذا ضعفت احداهن وشوه
الجوع محاسنها أعطها مولها اذا بالذهاب الى منزل أهلها ان كان لها أهل
فيطعمونها حتى تستعيد نضارتها فتعود الى منزله

ولقب المهدي عبداً من عبده بلقب (خليفة زيد بن حارثة) رضي الله
عنه ولقب آخر كان يؤذن له (بخليفة بلال المؤذن) ولقب كثيراً من أصحابه
باللقاب خلفاء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وكتب منشورا في كردفان
أمر فيه الناس أن لا يذكروا اسمه الا مقرونا بالسلام كالانبياء عليهم السلام
وكانوا قبل ذلك يذكرونه مقرونا بالرضوان ثم كتب منشوراً آخر قال فيه

ان النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع به وقال له عليك السلام يا مهدي الانام
انك لجدير بهذا المقام وانك افضل من بعض الانبياء صلوات الله وسلامه
عليهم اجمعين وكان كثير من الجهلاء ينادونه بالنبوة والرسالة فلا ينههم وربما
تبسم علامة على الاستحسان

ولكن وجملة القول ان المهدي على ما كان فيه من الزيغ والاحاد والزندقة
وفقدان الذمة فانه كان احسن سلوكا من عبد الله التعايشي وقد احسن الاستاذ
الشيخ محمد شريف حيث قال مهما يكن المهدي ضالا مضلا فانه خير من
عبد الله التعايشي وان قال غيره (ان عبد الله التعايشي سيئة من سيئات المهدي)

ترجمة عبد الله التعايشي

نورد هنا ترجمة عبد الله التعايشي الذي افضت اليه خلافة المهديوية
وبعوثه انقضت دواتها وركدت ريجها

ولد عبد الله التعايشي بجهة (الكاكة) جنوب دارفور وبالقرب من
(شكا) من قبيلة بدوية اسمها (التعايشة) تسكن هذه الجهة وتعيش بالبان ماشيتها
التي جلها من البقر ولذا يطلق عليها اسم (بقارة) كما تعيش من لحوم صيد
ضواري الحيوان كالفيل وغيره

على أنه لم تكن قرابته لهذه القبيلة الا من جهة الارحام فقط
لان جده المدعو بعلي كان ذكروريا استوطن بلاد التعايشة وتزوج
امرأة منهم فولدت له محمدا المشهور بلقب (ثور شين) والد عبد الله
التعايشي واخوة اقدم احمد المشهور بلقب (دي) وهو والد الامير محمود اسير
واقعة (ابره)

وكان جده يحفظ القرآن وكذلك والده ولندرة من يحفظ القرآن في
 قبيلة التمايشة حاز أبوه شهرة كبيرة لكنه كان فقيراً لا يملك شيئاً من المال
 بل كان قوام معيشته من صدقات أولى البر والاحسان

وأما لقب (تورشين) فمعناه الثور القبيح الحلقة وهذا اللقب من ألقاب
 القروسية بينهم وكلمة الثور منتهى المدح على الشجاعة عندهم أيضاً
 ومن عوائد التمايشة في صيد الأفيال ان من اصطاد منهم فيلاً تقوم
 امرأته وسط الحمي وتصرخ بسكانه وتقول ان زوجي الثور ابن الثور اصطاد
 فيلاً فهلموا الي أخذ نصيبكم من لحمه فينسلون الى الفلاة وهم يترغون بالناشيد
 في مدح ذلك الثور الذي قتل لهم القيل ومن مزروعتهم الدخن والفاصولية
 وعندهم نبات يشبه الارز ينبت في الفلاة دون أن يزرعه أحد

وبجوار قبيلة التمايشة قبيلة من العبيد يطلق عليها اسم (بنضله) بينهم
 وبين التمايشة صلة المصاهرة والقرابة وبجوار (الكلكة) بحيرة يصطادون
 منها السمك فيتركونه حتى يتعفن وتكثر ديدانه ثم يدقونه في الاهوان
 ويصنعونه أقماعا كأقماع السكر الاحمر ثم يطبخونه مع البامية الناشفة (الويكة)
 وهذا النوع يسمى (مندجي) وكان التمايشي يحب هذا الطعام كسائر
 قومه وقد سمعته مرة يعظ أقاربه التمايشة قائلاً لهم « ان القصعة في الجنة
 يبلغ عرضها ما بين أم درمان وجبال قديروهي مملوءة بطبيخ المندجي أو المصيدة»
 وأم التمايشي اسمها أم نعيم وكانت ذات شهرة بين التمايشة لانهم
 يعتقدون فيها اتقان الشعوذة فكان الناس يقصدونها للرقية وأخذ العروق التي
 يعتقد أهل السودان أن لها خواص للمحبة وقضاء الحوائج وإلجام أفواه
 الحيات والهوام السامة

وقد تزوجت بنحو عشرين رجلا والد عبد الله التعايشي أحدهم
وفي سنة ١٢٩٤ غادر التعايشي بلاده مع والده ممتطين عجلا من البقر
فد ذللاه بخطام على مألوف عادة البقارة الذين يذللون الثيران والبقر ويحملون
عليها أقالهم من بلد إلى أخرى وكانا يقصدان الحج

ولما وصلا إلى بلاد الجمع في الجنوب الشرقي من كردفان توفي والده
بالجدري ثم مات العجل وبقي التعايشي بلا دابة فأعطاه أحد المشايخ حمارا
سار عليه حتى لحق بالاستاذ الشيخ محمد شريف ومكث عنده حتى كان
من أمره معه ما ذكرناه عند الكلام على اجتماعه بالمهدي

وكان التعايشي ذا دهاء وحيل فكان لا يجلس أمام المهدي إلا جاثيا على
ركبته منكسارأسه إلى الأرض حتى أنه كان يزعم أنه لم يقع بصره أبداً على
وجه المهدي وكثير من البسطاء يعتقدون صدقه

وكان يشجع المهدي على دعواه ويصف له قبائل دارفور وما عندهم من
العدد والعدد وما هم عليه من الجهالة وما يمكن أن يصادفه من نجاح
دعوته بين ظهرانيهم فسر به المهدي وأمره بالعودة إلى بلاده كي يحضر
أمراته التي كان تركها في بلاده فذهب وعاد بها ومكث عند المهدي حتى صارت
واقعة (آبا) ويقول البعض أن المهدي أصيب برصاصة في ذراعه فأشار عليه
التعايشي باخفاء جراحه لئلا يعتقد فيه من حوله أنه ليس ذا خاصية تميزه عنهم
فصدع بمشورته

وعندي أن هذا القول عار عن الصحة لأنه لو أصيب المهدي في تلك
الواقعة لما أطلع عليه التعايشي وحده حتى يلقنه هذه الشموذة والحقيقة التي سمعها
أن المهدي أراد أن يركب فرسا في تلك الواقعة فقل له التعايشي

إذا لا يكون في مقاتلتك فارس غيرك ولا يشك العدو في أنك المهدي
فيصوب مقذوفاته عليك فترك ركوبها وركبها أحد أتباعه فانها عليه رصاص
الجنود كالطير نحر صريما يتخبط في دمه

ولما سار المهدي الى جبال (قدير) وكان التعاشي بقاريا مثل الاعراب الذين
التفوا حول المهدي في هاتيك الجبال صار يستعين به على تهذيب اخلاقهم
وطباعهم واستمالهم بالطرق التي تجذبهم اليه ومن ثم صار مشيرا للمهدي
ووزيرا مفوضا اليه كثير من الامور وكان أقارب المهدي يبنضونه ويحتقرونه
حتى أصدر المهدي المنشور الذي تقدم لنا إرادته بالثناء عليه فكفوا عن أذيته
وأسروا عداوته

وكان التعاشي يمالي المهدي ويرضي بالقليل من العيش فكان لا يتطلب
من بيت المال الا ما يسمح له به أمينه (أحمد سليمان) الذي كان يبنضه ولا يعطيه في
الشهر اكثر من مائة ريال ويخص الخليفة شريفه وأقارب المهدي بالنصيب الا وفر
من بيت المال وقد رأيت أحمد (دي) عم التعاشي ووالد الامير محمود يتسول على
منازل الناس وكذلك بقية أقاربه التعاشية الذين كانوا وقتئذ زهاء ثلاثين رجلا ولكن
ذلك كان قبل ان تفضى خلافة المهديوية الى قريتهم

خلافة التعاشي

لما توفي المهدي وبويع عبد الله التعاشي ظهرت على الناس الكآبة سيما
أقارب المهدي وأحمد سليمان بيت المال فانهم كانوا في وجل شديد من منبة
انتقامه منهم أما هو فكما قدمنا كان اكثر منهم دهشة وأشدم خوفا من موت
المهدي وما ينجم عنه من سوء العاقبة وقد أسر الى ذوى قرابته أنه يخشى تقدم

جنود الحكومة الى أم درمان لاعادة سلطتها على تلك الانحاء ولذلك عول
على الاتفاق مع الخليفين علي بن حلو ومحمد شريف علي ان يقسموا البلاد
فيما بينهم فيكون قسم التعايشي اقليم كردفان ودارفور ويكون للخليفة علي بن حلو
البلاد التي على ضفة النيل الابيض وسائر ما يتبعها ويبتدى ذلك من أم درمان الى
الجنوب ويكون للخليفة محمد شريف شمال أم درمان والبلاد التي على النيل
الازرق حتى دنقله والسودان الشرقي برمته

وقد فاوض التعايشي ذينك الخليفين في أمر هذه القسمة فأظهر
الخليفة علي بن حلو استياءه منها وقال ان بلاد النيل الابيض لا تكفيه ولا بد من
اضافة بلاد النيل الازرق عليها فأبى الخليفة شريف وقال ان الاراضي التي في
قسمه هي الحد الفاصل بين مصر والسودان ولا ريب انه سيقوم بالدفاع
عنها ولذلك يجب ان تضاف كردفان الى نصيبه فلم يرض التعايشي بهذه القسمة
فاتفقوا وفي نفس كل واحد من الحقد على الآخر ما لا يوصف

أما التعايشي فكان يعرض ما يدور بينه وبين الخلفاء على الحاج الزبير
رئيس حراسه وقتئذ وكان من أهالي مديرية بربر فاخذ يثبط عزيمته عن
اتمام هذه القسمة ويعسده بان البلاد كلها ستخضع له وانه يقدر على جعل
الملك ورأياً في آل بيته وان الخليفين علي حلو ومحمد شريف لا تخشي مغبتهما اذ هما
غران يتخذان بمثل اكاذيب المهدي وما ينتحله من الخرافات ويقول له ليس
عليك من حرج ان اتيتهما من هذا السبيل فانهما ان ادعنا لك حفظا كرامة
المهدي الذي فتح هذا السبيل وان كذباك فان العامة تصدقك كما كانت
تصدق المهدي ويمكنك ان تتذرع بهذا التكذيب الى اسقاط منزلتيهما
والابقاع بهما

وعلى أثر ذلك اذعن عبد الله التمايشي لمشورة الحاج الزبير وعدل عن طلب الهجرة الى كردفان للاحتلال بامتلاكها كما انه من ذلك الحين طرح مرقته الرثة البالية التي كان يلبسها قبل وفاة المهدي إظهاراً للزهد ولبس مرقمة من نوع ما كان يلبسه المهدي وتسم على قلنسوة مكية كالتي كان يعمم المهدي عليها وصنع له كوخاً من البوص في المسجد على هيئة مقصورة وأمر الناس ان يحدوا حدوه فصنع كل واحد منهم كوخاً في المسجد حتى اتصلت الاكواخ ببعضها وأمر الناس بترك صلاة الجماعة في أي مكان كان وان لا يصلي أحد في أم درمان بجماعة غيره وشدد عليهم في ملازمة قراءة (راتب المهدي) في الصباح والمساء

وراتب المهدي هو أوراد وأدعية بعضها من المسبغات التي تنسب لمولانا الامام الدردير ومنها ما هو من الادعية والتوسلات التي تنسب الى حجة الاسلام الغزالي ومع شهرة مصدر هذا الورد التي لا تخفي على غير الاغبياء ادعى المهدي ان النبي صلى الله عليه وسلم لقنه هذا الورد كلمة بكلمة وحكى من فضائله وثواب من واظب على قراءته خرافات واكاذيب يقصر القلم عن التعبير عن بعضها منها ان من قرأ هذا الورد نزل خمسمائة الف من الملائكة كالذين نزلوا يوم بدر ليحفظوه وينصروه وان تلاوته مرة واحدة تعادل تلاوة القرآن الف مرة ومثل ذلك كثير حتى قال المهدي ان المواظبين على قراءته ينالون مقامات الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم

وكان المهدي شدد في النهي عن قراءة الصلوات النبوية المعروفة باسم دلائل الخيرات مدعياً ان ثوابها نسخ براتبه وسيأتي في غير هذا المكان مصادرة أموال من يتهم بقراءتها والحكم بكفره وأظهر التمايشي للناس تواضعاً

ولينّا وخفض كثيراً من حدته التي كانت معلومة عند العموم حتى ذاع بين
الملاّ أن السكينة نزلت عليه وقال هو أن روح المهدي حلت فيه وأن اخلاقه
لا بد أن تتبع الروح إنما حلت

هذا ولم يكن القول بالتناسخ مذهب عبد الله التعايشي فقط بل هو
مذهب سلفه المهدي الذي كان يزعم أن روح النبي صلى الله عليه وسلم
حلت فيه

وجملة القول أن عبد الله التعايشي قبض على زمام البيعة وهو مضطرب
وكان لا يدري كيف يدير دفتها كما كان شديد الخشية من انتقاض الخليفة شريف
وأقارب المهدي عليه أذم أشد قوة منه وأكثر عدداً من رجاله ولذا لبث
كأنه واحد من الخلفاء لا يقطع أمراً بغير مشورتهم ولا يعمل بغير إرادتهم
منتظراً ما يكون من أمر مدينتي سنار وكسلا اللتين كانتا على وشك السقوط

أول أكاذيب التعايشي

ذكرنا أن الحاج الزبير أشار على عبد الله التعايشي بولوج باب أكاذيب
المهدي فكان أول الكذوبة وضعها بعد مهلك المهدي بشهرين أن أصدر
منشوراً قال فيه ما يأتي

بعد أن أدت صلاة العشاء بالمسجد دخلت إلى منزلي وبينما أنا جالس
في مصلاي إذ دخل عليّ شخص طارقي من رؤيته لأنه لم يكن من نوع
الإنسان لأن رأسه كانت تناطح السحاب وخصيته كجبلين عظيمين فلم أتمالك
نفسى من الخوف فصحت مستغيثاً بالمهدي فأخذ ذلك الشبح يتقاصر ثم

جلس امامي وقال لي السلام عليك يا خليفة المهدي بل أنت المهدي نفسه فقلت
وعليك السلام من أنت فقال أنا ملك من ملوك الجن كنت ساكنا وراء
جبل (قاف) الذي يبعد عن هذا المكان مسيرة خمسمائة عام وقد مضى على
خمس سنوات وأنا سائر بقومي من ذلك المكان لادرك المهدي فكان من
أمرنا ان الحضرة عليه السلام قابلنا وهو يبكي ويصرخ قبل أن نبلغ العمران
البشري وأخبرنا بموت المهدي وخلافتكم عنه فلما وصلنا العمران البشري وجدنا
جماهير الاولياء ومجامع الملائكة في المساجد الكبرى يقيمون مأتم المهدي فاشتغلنا
معهم في اقامة شعائر المأتم ثم غادرنا المسجد الحرام بعد عصر اليوم وعسكرنا
في البقعة التي تلي محل (المرضة) استعراض الجنود ومضى ستون ألف فارس
من الجن غير المشاة قال التعايشي فقلت ومن أعلمك بظهور المهدي
قال أعلمنا الحضرة عليه السلام منذ ظهوره في جزيرة (آبا) فغادرنا جبل (قاف)
منذ ذلك وكنا نسير في السنة مسيرة مائة سنة فقلت ما قصدون قال تقصد بيعة
المهدي وادراك فضل صحبته والجهاد معه فقلت وفي أي المساجد أقيم مأتم
المهدي فقال في المسجد الاقصى وفي المسجد الحرام وفي المسجد النبوي ثم
دنا مني وطلب مني أن أبايعه فبايعته بيعة المهدي وأمرته بالبقاء في المكان الذي
يلي محل الاستعراض

ثم سأله التعايشي عن عمره فقال انه ولد في زمن ابراهيم الخليل صلى
الله عليه وسلم وانه صار ملكا على قومه في زمن موسى الكليم صلوات
الله وسلامه عليه

ولما نشر التعايشي المنشور المتضمن هذه الاكذوبة سر الناس
بأمر الجن الذين جاؤا لمساعدتهم وفي الغد ركب التعايشي بخيله ورجله

وتوجه للمحل الذي نزل فيه أولئك الشياطين ولما دنا منه أوقف الناس ثم تقدم هو بفرسه واطال الوقوف والناس ينظرون اليه والي ما يأتيه من الحركات كأنه واقف يمظ أوبيايع وبعد بضع ساعات عاد فأخبر الناس بانهم بايعوه وانه كان مشغولاً بترتيب فرقهم وتولية القواد عليهم مثل ترتيب جيش المهدي ثم قال انهم رغبوا الى ان اشيد داراً الى بجوارهم كي اتردد عليها وتكون موعداً بيني وبينهم كلما دعت الحال للمقابلة

ومن المضحكات ان رجلاً ذكروريا كان له كوخ بالقرب من ذلك المكان فاحتمل متاعه في ذات يوم ومعه امرأته وبنته وجاءوا الى التعايشي في المسجد فسألهم عن حالهم فقالوا ان لنا كوخاً بالقرب من محل العرصة وقد هجرناه لكثرة ما فيه من الضوضاء والنيران وسهيل خيول الجن وسائر حركاتهم التي أفقدتنا النوم واطارت قلوبنا خوفاً وفزعاً فضحك التعايشي وقال لهم ما الذي اطار نومكم وأفزعكم ألم تعلموا ان هؤلاء الجن صاروا من اتباع المهدي وانهم خاضعون لحكمي ولا يجسرون على اذي أحد من انصار المهدي وان احكام المهدي تجري عليهم كما تجري عليكم فقالوا ياسيدنا الخليفة ان خلقتهم غريبة مخيفة فثم رؤس بلا جنت ومنهم جنت بلارؤس ومنهم الطيارون ومنهم ومنهم فقال عودوا الى مكانكم ولا تخافوا فرفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا نحن فقراء لا نملك غير هذا الكوخ وقد تركناه لهم فاسترسل التعايشي في الضحك الذي يشف عن السرور وأمر باعطاء الرجل خمسمائة ريال بدل كوخه وان يعطي من بيت المال راتباً يقوم بحاجة عائلته

وسمعت التعايشي يوم ذهب لمبايعة الجن على زعمه يسأل الذين أدوا صلاة المغرب خلقه قائلاً لهم هل رأيتم شيئاً أو أحسستم بشيء فسكت اكثرهم

وقال البعض قد أحسننا برهبة ونحن في الصلاة فقال لهم ان عيسى عليه السلام صلى معكم مأموماً بنى وأشار الى المكان الذي صلى فيه فهرع الناس اليه يتبركون به وأحيط ذلك المكان بزريبة من الشوك ليبقي معروفاً عند كل من يقصده من الزأرين

ذكر دعوة التعايشي اهالي السودان

لاداء فريضة الحج بام درمان

كان المهدي قد نهى الناس عن السعي لاداء فريضة الحج مدعياً ان البيت الحرام في ايدي الكفار ونشر جملة منشورات بهذا المعنى وكان يزعم ان مرافقته للجهاد خير من السعي لاداء الحج وزعم ان الهجرة معه كالهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم وهي أفضل من الحج وتغالي حتى قال ان رؤيته تعدل ثواب سبعين حجة

ولما هلك المهدي اجتمع التعايشي والخليفتان على حلو ومحمد شريف وقرروا فيما بينهم وضع الكذوبة ماسمع في الاسلام بمثلها الا ماسمع من أمر على بن مهدي صاحب اليمن في القرن السادس من الهجرة وهي ان يصعدوا منشوراً يقولون فيه ان الحج الى البيت الحرام قد أبطل وعزموا على تشييد كعبة في أم درمان وجعل جبل (كررى) بدل جبل عرفات لتقام بهما شعائر الحج ويزور الناس قبر المهدي بدل زيارتهم قبر النبي صلى الله عليه وسلم وفعلاً شرعوا في اعداد ما يلزم لابرار هذه الضلالة حتى قالوا ان حفر بئر زمزم يكون بعد الوقوف بجبل عرفات واداء صلاة العيد بمنى ثم يرحلون الى البيت الحرام فيحفرون بئر زمزم ويعودون لقضاء أيام التشريق بمنى

ولما اذاع الخلفاء هذا الخبر دخل رجال من أهل العلم بعضهم من ذوي قرابة المهدي على أولئك الخلفاء واخبروهم ان هذا الامر لو تم كان دليلاً قاطعاً على كذب دعوي المهديونية وخروجهم جميعاً من الاسلام كما تخرج الشعرة من العجين فانصاع أولئك الجهلاء وجمعوا الاوراق التي وصلت ايدي الناس واتلفوها ومنعوا الناس من الكلام في هذه المسألة ومن تكلم جلدوه ثمانين جلدة اه

ذكر مسألة الشعرة من حجة المهدي

ذكرنا ما كان لاحمد سليمان أمين بيت المال من المنزلة السامية عند المهدي وانه كان واقفا على اسراره وكنه أعماله وكان أحمد المذكور ذا دهاء يظهر امام الناس بالزهد والورع ويروي للناس انه رأي من كرامات المهدي ما هو كيت وكيت ويخترق من الاكاذيب ما يحيله العقل . ومن اكاذيبه انه جاء الى التعايشي وكان جالسا مع الخلفاء وأخرج من جيبه حقاً من الخشب وفتحه واخرج منه شعرة وقال يا خلفاء المهدي ان المهدي قبل مرضه بنحو أسبوعين أخبرني بانه راحل من هذه الدنيا ونزع من لحيته الكريمة شعرة ثم قال لي يا حبيبي أحمد خذ هذه الشعرة وابتلعها بعد وفاتي فان فيها سرّاً من أسرار المهديّة وبعد ان تموت وتلحق بي أخبرك بهذا السر فوثب عليه الخليفة عبد الله التعايشي وأمسك بيده وقال له ان هذه الشعرة كانت امانةً عندك وقد أمرني المهدي باستلامها منك وكان الخضر عليه السلام حاضراً فسلمها أحمد سليمان له فابتلعها وأصدر منشوراً قال فيه ان في هذه الشعر سر المهديّة وقوة خلافتها

ذكر وقائع سنار وسقوطها

تقدم لنا ذكر وقائع سنار التي حصلت قبل مهلك حملة هيكس ولما ذبحت هذه الحملة قويت عزائم الدراويش وأحاطوا بها وضيّقوا عليها وبعد سقوط الخرطوم وثب النور بك محمد قومندان الجنود النظاميين ومعه عثمان بك الدالي الصنّجق وقبضا على المدير حسن صادق بك وسجناه في داره لاسباب لا نعلم كنهها والظاهر ان لاسبب لها الا سوء الظن بذلك المدير الذي لا يشك أحد في براءته من وصمة ما نسب له

وبعد ان مكث المدير أشهراً في السجن اجتمع القواد ودخلوا منزله وأطلقوه من عقاله واعتدروا له وكان العدو محاصراً للمدينة فخرج عليه المدير في قوة كبيرة وهجم على موقعه ومزق شمله كل ممزق وعاد الى المدينة ظافراً منصوراً حتى اذا اقترب منها التقى عصا سيره للراحة من وعشاء السفر وتناول الطعام عند مكان اسمه (الجميزات)

وبينما كانت الجنود وقوادهم مشتغلين بتناول الطعام اذ هجم عليهم العدو على غرة من جهتي النهر والقلاة واعملوا السيف في رقابهم فتمكن كل من النور بك محمد وعثمان بك الدالي من جمع شمل بعض الجنود حيث قاتلوا متقهقرين حتى بلغوا معقل المدينة

أما المدير حسن صادق بك فقد تمكن العدو من الفتك به حيث فاجأه وهو يريد ركوب فرسه بضربة كانت القاضية

ثم ان القائم مقام حسن عثمان بك كر على الدراويش بقوة ألزمتهم الفرار من وجهه وتمكن من حمل جثة المدير الى المدينة حيث دفنت هناك بالاكرام

اللائق وكانت هذه الواقعة في شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٢
 وفي شهر جمادى الآخرة وصل محمد عبد الكريم بمقاتلته لحصار مدينة
 سنار وقد ذكرنا ان المهدي بعثه بنحو عشرين الف مقاتل
 وفي أواخر شهر شعبان وصلت الى المهدي أخبار بان حامية سنار
 خرجت على معسكر محمد عبد الكريم وانتصرت عليه فأرسل الى المتمة يستدعي
 عبد الرحمن النجومي بمقاتلته فوصل الى أم درمان بعد وفاة المهدي بأسبوع
 وفي أوائل شوال سنة ١٣٠٢ وصل الى حامية سنار نبأ وفاة المهدي
 فقويت عزيمتها وخرجت على معسكر محمد عبد الكريم مهاجمة فاصيب محمد
 عبد الكريم برصاصة في فخذه ثم انهزمت مقاتلته شر هزيمة وغنمت
 الحامية معسكرهم

ولما اتصل بالتمايشي خبر هزيمة محمد عبد الكريم انفذ عبد الرحمن
 النجومي الى سنار كما كان المهدي يريد انفاذه اليها حين استدعاه من المتمة
 وفي أوائل شهر ذي القعدة سنة ١٣٠٢ وصلت درجة المجاعة في سنار
 الى فقدان القوة بالسكية فتمرر الجنود على قوادهم وشقوا عصا الطاعة وخرج
 كثير منهم واسلموا نفوسهم الى العدو الذي تشددت عزيمته وعاد الى موقفه
 الاول من الاحاطة بمقل المدينة وتشديد الحصار عليها
 ووصلت الى المدينة أخبار زحف عبد الرحمن النجومي عليها فاسرعت
 بطلب التسليم مع وفد ارسلته الى محمد احمد شيخ إدريس من أقارب المهدي
 ونائب محمد عبد الكريم الذي كان وقتئذ طريح الفراش من الاصابة بالرصاص
 في الواقعة الاخيرة
 وعند وصولها عقدت شروط الصلح بين الحامية والدرأويش على ان لا يأخذ

الدرأويش غير مال الحكومة وان لا يمتدوا على احد من الالهين في ماله وعرضه
وعلى هذا الشرط اسلمت الحامية نفسها فنكث الدراويش العهد على مألوف
عاقبتهم ومدوا ايديهم الى الاعراض وعذبوا سكان المدينة الذين جاهدتهم
من المصريين عذاباً اليماً وغنموا منهم شيئاً بعد بعشرات القناطير من الذهب
الذي يوجد بكثرة في مدينة سنار حيث ان منابع النيل الازرق التي يوجد بها
هذا التبر داخلة في دائرة مديرية سنار واهل سنار مشهورون بادخار الذهب
بكثرة وقد عذبهم الدراويش عذاباً يفوق الذي وصفناه في عذاب اهل
الخرطوم وهتكوا اعراضهم كما هتكوا اعراض اهل الخرطوم

وبعد مضي شهر على هذا التعذيب هدموا المدينة كلها وزحفوا بالاسرى
الى أم درمان فوصلوها في اوائل شهر ذي الحجة الحرام ختام سنة ١٣٠٢
هذا وقد وصل عبد الرحمن النجومي سنار بعد سقوطها ببضعة ايام
ولم ينل من الغنيمة شيئاً

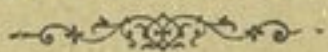
على ان حامية سنار كانت تستطيع النجاة لو قصدت حدود الحبشة قبل ان
يصل اليها محمد عبد الكريم. وقد بلغني ان المدير كان ينوي سحب الحامية الى
جهة حدود الحبشة بعد ان علم بسقوط الخرطوم لفهمه ان الانكاز لا يتقدمون
لانقاذ سنار بعد سقوط الخرطوم فخالفه اللذان سجناه معتقدين خلاف ذلك
والخلاصه ان نجاة حامية سنار كانت ميسورة لو لم يسجن المدير
حسن صادق بك

هذا وقد أصدر التعاشي أمراً باعتبار مدينة سنار كمدينة ثمود تحرم
سكنائها والاستقاء بمياهاها

وقد اغتال الامراء الاموال ولم يقدموا لبيت المال عشر الغنائم فتغيظ

عبد الله التعايشي واصر على الانتقام منهم وسنعود الي ذكر هذا
الانتقام في محله

وأخذ التعايشي نحو عشرين امرأة من نساء المصريين كانوا في تلك
المدينة مسبيات وادخلهن منزله. والخلاصة ان سكان سنار جلعهم مصريون
مثل سكان الخرطوم وقد نالوا نصيبا من التعذيب والنهب وهتك الاعراض
كالذي ناله اخوانهم في الخرطوم أو أشد وما الله بغافل عما يعمل الظالمون



حوادث كسله وسقوطها

كسله اسم مدينة هي عاصمة اقليم (التاكا) الذي بين محافظتي مصوع
وسواكن وحدود الحبشة وأغلب سكانها مصريون مثل سائر مدن السودان
وكانت محصنة بسور منيع من الحجارة وفيه أبراج ومعدات الدفاع
متوفرة فيها منذ دخلت في املاك الخديوية المصرية على عهد ساكن الجنان محمد
على باشا عزيز الديار المصرية

وكان السيد محمد عثمان الميرغني نازلا في قرية (الختمية) بجوار كسله
وهي قرية أسسها جده السيد محمد عثمان الميرغني وقد تقدم لنا ان المهدي
كان يدعو السيد محمد عثمان الميرغني الى الدخول في دعوته وكان يوالي ارسال
الانذارات له تارة بالوعد وأخرى بالوعيد فقرر من قرية الختمية لما رأى ان
الخطر يقترب من جهته

وبعد فراره خندق بقية سكان الختمية على قريتهم وأمدتهم الحكومة
بالاسلحة والذخيرة والجنود

وفي محرم سنة ١٣٠١ قدم الى كسله مصطفى هديل داعية من قبل

عثمان دقنه فتبعه جميع السكان ورفعوا الواء العصيان على الحكومة فارسل
أحمد عفت بك المدير قوة تهاجم موقع تجمع العدو فعادت بخسارة عظيمة
وكانت نساء العصاة (الهدندوه) يقاتلن مع أزواجهن ولهن فظائع ما سمع
بمثلها في الدنيا فقد كن يحملن وراء أزواجهن قطعاً من الخشب فيجهزن بها
على الجرحي وينزعن الملابس عن اشلاء القتلى ويضعن في دبر كل قتيل قطعة
من الخشب طولها ذراع فيولجن في الدبر نصفها ويبقى النصف بارزا ويطحرن
الجثث على وجوهها ليصير هذا المنظر الشنيع معرضاً لنظر المارة

على ان هذه الفظيعة لم تكن من عنديات تلك النسوة بل ان مصطفى
هدل هو الذي قال لهن من مثلت منكن بالقتلى هذا التمثيل بنى الله لها
بيتاً في الجنة

وكان مصطفى هدل هذا جاهلاً ضالاً وفي غضون حصاره كسله كان
يزعم ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بكيت وكيت
وفي أواخر شهر ربيع الآخر هجم الدراويش على كسله فالزمتهم الحامية
بالتقهقر بعد ان تكبدوا خسائر جسيمة

وفي شهر جمادي الآخرة اشتد الحصار وارتفعت اثمان الاقوات
وفي شهر شعبان سنة ١٣٠١ بينما كانت الحكومتان الانكليزية والحدوية
تداولان في انفاذ حملة تمردون اتفقت الحكومة الحدوية مع يوحنا
نجاشي الحبشة على انفاذ حاميات الحكومة التي في السودان الشرقي وتنازلت
له عن بعضها

وفي هذا الشهر أيضاً أحس مصطفى هدل بضعف في حامية خندق الختمية
فصمم على أخذها عنوة فخاب سعيه حيث دفعته الحامية وهزمته شر هزيمة

وفي شهر رمضان سنة ١٣٠١ سمي ماسون بك الامريكاني في اخلاء
كسله واجلاء الحامية عنها فلم يفلح لان الجنود رفضوا ان يفروا بغير عائلاتهم
التي لا تستطيع الفرار

وقد لبث ماسون بك يخبر المدير أحمد عفت في الانسحاب من كسله
فكان يجاوبه باستحالة ذلك ثم غادر ماسون بك مصوع ولم يفلح في سحب
الحامية من تلك المدينة

هذا وقد كان انقاذ كسله ميسوراً بسبب قربها من حدود الحبشة ولكن
أشياء كثيرة كانت من أقوى الاسباب التي ساعدت العدو على امتلاك
المديرية. منها ان النجاشي يوحنا بعد ان أصدر أمره الى الرأس الولا بالقيام
لانقاذ كسله عاد فنقض أوامره الاولى وكان سبب ذلك على ما علمته ان
الدرراويش كانوا يخادعون ويمدون بالمخالفة والمعاضدة وكان في المدينة بعض
جواسيس يطلعون الدرراويش على كل اسرار الحكومة وما يدبره المدير وكان
الرأس الولا يخبر المدير ويطلب رأيه في ترتيب الزحف على المدينة لانقاذ
حاميتها فكان المدير يجاوبه فيسرع أولئك الخائنون ببلاغ الدرراويش مادار
بين المدير والرأس الولا من المخابرات

ولما وصلت انباء سقوط الخرطوم الى شرقي السودان قويت عزيمته
محاصري كسلة وأرسل عثمان دقنه بالامداد لهم ثم تلاه قدوم الشيخ الحسين
زهراء ومن معه من المندوبين وقد تقدم لنا ذكر بعثتهم قبل وفاة المهدي
وفي أواخر شهر جمادى الآخرة عرض (شرمشيد باشا) محافظ شواطئ
البحر الاحمر على النجاشي يوحنا عشرة آلاف بندقية ليتقدم لانقاذ حامية
كسله ولكن في غضون ذلك كانت المجاعة قد برحت بالحامية حتى أكلوا

الكلاب والجرذان

وفي شهر رجب سنة ١٣٠٢ برحت المجاعة بحامية الختمية فعزم السيد
بكري ابن عم السيد محمد الميرغني على التوجه لكسله لينضم الي من بها من
رجال الحكومة وفملا سار بنحو الف رجل فصادفهم في أثناء سيرهم مصطفى
هدل وجنوده فذبخوا كل من كان مع السيد بكري وجرح هو جرحا بليغا
ثم شرعوا في الهجوم على معقل الختمية لاستئصال من به من الحامية التي
تمكنت من التقمقر بانتظام حتى دخلت منقل كسلة . ولقد أتى السيد بكري
من الاعمال الشريفة ما يناسب منصبه ويشهد له ولعائلته بطهارة الاصل
وعراقة المجد

وفي منتصف شهر شوال سنة ١٣٠٢ فقدت الحامية كل أمل في النجاة
كما فقدت القوت حتى قال لنا أحد المحصورين انهم طلبوا الارذب من الذرة
باكثر من الف ريال فلم يظفروا

وعلى أثر ذلك عقد المدير أحمد عفت بك شروط الصلح مع الامناء
الذين انفذهم المهدي قبل وفاته على ان لا يمدوا أيديهم لغير ما للحكومة من
المال والذخيرة فخرجت الحامية وسلمت نفسها في منتصف شهر شوال سنة
١٣٠٢ فامسكوا المصريين وعذبوهم ونهبوا أموالهم مثل ما حصل في الخرطوم
وغيرها ومات كثيرون تحت الضرب والتعذيب وحمل جل المال الي أم درمان
واحد عشر مدفعا من الطرز الجبلي العتيق وأبقيت نحو تسعة مدافع تحت
تصرف عثمان دقنه وغنموا أيضا نحو عشرة آلاف بندقية وشيئا كثيرا من
الذخيرة ولله الامر من قبل ومن بعد

ذكر اول واقعة بين الدراويش والاحباش

بعد سقوط كسلة في قبضة العدو بثلاثة أسابيع قدم عثمان دقنه من سواكن ومعه زهاء عشرين الف مقاتل وقد استنفر الناس فاجتمع لديه نحو خمسين الف مقاتل زحف بهم الي (كوفيت) في حدود الحبشة وتحصن في المعقل الذي كانت حامية الحكومة متحصنة فيه قبل جلائها عن (كوفيت) وهناك أرسل كتاب تهديد الي الرأس الولا فورد له الرد بانه سيقدم عليه يوم كذا وفي ذلك اليوم هجم الرأس الولا على عثمان دقنه في ثمانين الف مقاتل من الاحباش فاحاطوا بالمعقل احاطة السوار بالمعصم فخرج عثمان من المعقل بمقاتلته فهاجمه الاحباش هجمة الاسود الضواري على فراسها فسقط جيشه كله قتلى واستطاع هو والنجاة ومعه نحو خمسمائة مقاتل فظن ان الاحباش يتأرونه الي كسلة فيستولون عليها حيث لا مقاتلة فيها يدفعون عنها غارتهم ولذا عاد عثمان دقنه الي كسلة وهو لا يصدق بالنجاة وكانت هذه الواقعة في شهر ذي الحجة سنة ١٣٠٢ ويقال ان تقدم الاحباش كان لانقاذ كسلة فكان شأنهم معها مثل شأن الانكليز مع الخرطوم حيث جاؤها بعد ان سقطت في قبضة العدو

ذكر قتل المدير احمد عفت ومن معه من القواد

لما رجع عثمان دقنه من (كوفيت) قبض على المدير أحمد عفت ومعه الصنjq حسن أغا سليمان الالباني ومعتوقه احمد أفندي شوقي معاون مديرية (التاكا) وتاجران يونانيان يدعى احدهما استيلي والثاني بادروس واودعهم السجن

بعد ان وضع في أرجلهم من القيود ما تنوء بحمله الدواب وغل رقابهم باغلال الحديد وتركهم في اعماق السجن بلا طعام ثلاث ليال ثم دخل عليهم السجنان وقال لهم قوموا الى الصلاة فقال له احمد عفت بك هل نطيع القيام ونحن بهذه الاغلال مع ما نحن فيه من وهن الجوع فذهب الى عثمان دقنه وأخبره بما قاله احمد عفت بك فقال ليحضروا امامي فسيقوا اليه يرسفون في القيود والاغلال كأنهم أشباح بلا ارواح فسأل عثمان دقنه احمد عفت بك عن سبب امتناعه من الصلاة فأجابه بمثل ما اجاب به السجنان فامر بضرب اعناقهم فاضهروا جميعاً الفرح والارتياح وتقدم شوقي عتيق احمد عفت بك الى السيف وقال له أمهلي حتى اصلي ركعتين فامهله ثم قال له اني اسألك بحق مهديكم ان تضرب عنقي قبل سيدي أحمد عفت بك فدعته غير هيب لشيء فضربت ثم مد أحمد عفت بك عنقه مع الجلد والشجاعة فضربت أيضاً ثم مد الصنجق حسن اغاسليمان عنقه فضربت ثم تلا ذلك ضرب عنقي اليونانيين استبلى وبادروس

شان اهل الخرطوم بعد ذلك

ذكرنا ما كان من أمر المهدي مع أهالي الخرطوم وقد أوردنا صورة المنشور الذي أصدره المهدي لأهالي الخرطوم وعلى أثره سمح لهم بالاقامة في الامكنة المتخربة من المدينة واخذوا في السعي للارتزاق بالمهن الدنيئة مثل صناعة الخبز وفتح حوانيت الاطعمة وهم في كل آن عرضة لصنوف الاضطهاد وفي كل يوم يقع بعضهم في تهمة إخفاء المال فيماد تعذيب الواحد منهم بما يقشع منه البدن

هذا وقد ذكرت انني كنت اقمتم بكوخ في أم درمان بجوار منزل
 يوسف منصور وبعد وفاة المهدي كانت لي زوجة على وشك الوضع كنت
 تزوجتها قبل سقوط المدينة وهي بنت احد الضباط المصريين العظام فانتقلت الى
 الخرطوم للحصول على قابلة مصرية بها وما كادت تمضي على ايام حتى نعي الى
 ان الحاج خالد العمرابي كتب الي التعايشي يقول ان ابراهيم فوزي قدم الخرطوم
 وهو يسمي في توحيد كلمة بني جلده المصريين للقيام بعمل ضد المهدي فما
 شعرنا في احدى الليالى الا بالنداء بان كل ذكر من الذين خرجوا من
 خندق الخرطوم يهدر دمه اذا بات في المدينة بل يجب ان يكون في البقعة
 التي عند نقطة ملتقى النهرين الابيض والازرق وبينما كان الرجال يودعون
 اطفالهم ونساءهم للخروج الى محل الاجتماع اذ عاد النداء بوجوب خروج
 النساء والاطفال الى ذلك المكان أيضا فخرجنا بنسائنا واطفالنا ونحن في حالة لا
 أقدر على وصفها وبعد وصولنا الى تلك البقعة جاءنا دراويش من أم درمان
 اخبرونا بان المراد من هذا الاجتماع قتل ابراهيم فوزي (المؤلف) وبيع بقية
 المصريين ارقاء فقضينا تلك الليلة فراشنا الارض وغطاؤنا السماء فكنت
 لاتسمع غير صياح الاطفال وعويل النساء

وفي اليوم التالي مكثنا الى قرب منتصف النهار حتى جاءنا التعايشي ممتطيا
 حمارا يحيط به نحو الف حارس وامامهم أشخاص ينفخون في ابواق من
 العاج بصوت مزعج متقطع وهذه الابواق تسمى (أم بايه) وسيأتي
 ذكرها في وصف موكب الخليفة

ولما دنا التعايشي من موقفنا أمرنا بالوقوف مصطفين رافعين أصواتنا
 بالتهليل ثم استدعاني من وسط الصفوف ومعي بضعة أشخاص من أعيان

الخرطوم ولما مثلنا بين يديه خاطبنا بما يأتي
 « أيها الأتراك أهالي الخرطوم فضلة سيف المهدي عليه السلام انكم
 أضلتم الناس وغررتموهم بدنياكم فلماذا أيها المنافقون أقتم بالخرطوم ولم ترحلوا
 الى أم درمان فهل أتم لا تزالون مكذبين للمهدي أو ما هو السبب » فاجبته قائلاً
 ياسيدنا الخليفة نحن نعوذ بالله من ان نكون مصرين على تكذيب المهدي
 ونحن نعرف امامك باننا مؤمنون بالمهدي وخلفائه والذي منعنا من الاقامة
 بأم درمان هو عدم قدرتنا على تشييد الكواخ فيها وتمكثنا من الاقامة في
 خرائب الخرطوم بغير مشقة فاجابني التعاشي وهو منعم بالغضب أنت منافق
 ولا أرى غير ضرب عنقك فقلت له ياسيدي الخليفة أنت تعلم الغيب وما تخفيه
 الصدور وان الحضرة عليه السلام وزيرك ومشيرك وقد قال فيك المهدي
 عليه السلام انك أوتيت الحكمة وفصل الخطاب فاطرق بوجهه الى الارض
 وسر من هذا الاطراء ثم رفع رأسه وقال لي يا ابراهيم فوزي لقد تحققت
 براءتك مما نسب اليك وقد عفوت عنك وعن جميع أهالي الخرطوم ولكن لا بد
 من مغادرتكم الخرطوم واقامتكم بأم درمان لان الخرطوم دار كفر والمهدي
 عليه السلام قال لا تسكنوا في مساكن الكفار ولا تلبسوا ملابسهم ولا تزيوا
 بازياهم فقلت ياسيدنا الخليفة نحن لانملك أجرة اجتياز النيل فامر باجارتنا
 مجاناً فاجتازنا النهر وأقمنا بأم درمان نقاسي من صنوف الذل ألوانا

ذكر الاجتماع العام لعبيد الاضحى

ذكرنا ما كان التعاشي شرع في عمله من اقامة مشاعر الحج بأم درمان

وابطاله هذا المشروع قبل ابرازه من القول الى الفعل

هذا وقد دعا الناس للاجتماع في عيد الاضحى ليتحقق طاعتهم وليظهر امامهم بمظهر الملك والقوة فدعا محمود بن عبد القادر أمير كردفان وسائر أهلها ودعا أيضا أهالي الجزيرة فاجتمع في أم درمان زهاء خمسمائة الف مقاتل فخرج عليهم يوم العيد يحيط به نحو عشرة آلاف عبد يحملون الاسلحة النارية من طرز رامنجتون وامامه بوق (أم بايه) وهو بوق من العاج كان يستعمله كبار نخاسي النيل الابيض وكان المهدي قد ميز التعايشي عن بقية الخلفاء بهذا البوق الذي يكون علامة على دعوة فرسان الجيش بالتكوف حول التعايشي

وخرج التعايشي راكبا هجينا كان يركبه المهدي وأخذ يسير الهوينا حتى بلغ زريبة، من الشوك أعدت ليصلي فيها هو والخلفاء والمقربون منه فاقامت الصلاة قبل الزوال بنحو ساعة فصلى التعايشي بالناس اماما ثم خطب بهم الخليفة على حلو وهكذا كان حال التعايشي في أيام الاعياد يصلي بالناس اماما ويخطبهم الخليفة على حلو لان التعايشي أمي يجهل الكتابة والقراءة وبعد انقضاء الصلاة عاد الى منزله وقد سره ماراه من إقبال الناس عليه وطاعتهم لاوامره وقد ذكرنا انه كان يخشى انتقاض أقارب المهدي واكنه علم من أهالي الجزيرة انهم سيثو السلوك وقد حملوا الاهلين من المظالم والمغارم ما جعلهم يئنون تحتها وأتوا من المنكرات ما يعجز القلم عن ايراده ومن هاته الحوادث ان كريبا أحد حراس الخليفة شريف وقريب المهدي الذي ذكرنا انه قطع الصبي ثمانى قطع يوم سقوط الخرطوم ذهب الى المسلمية بأمورية جمع الغنائم فرأى بجوار داره امرأة أرملة في متبهي الحسن والجمال ولها بنتان لا يقلان في الحسن والجمال عن أمهما فقبض عليهن

وادخلته داره ووقع على أمهما أولاً ثم افتض الفتاتين ففقدن على
التعايشى ورفعن شكواهن اليه فاحلهن على القاضي الذي استدعى كريبا
ولدي استنطاقه اعترف بانه وطى المرأة بملك اليمين لانها غنيمة أما الفتاتان
فانكر افتضاضه اياها

وفي هذا الاجتماع أصدر التعايشى أمراً بإبطال وظيفة الامناء الذين
فوض لهم المهدي النظر في المرائض التي ترفع اليه لان جلهم من أقارب
المهدي ثم أعلن ابطال وظيفة النواب الذين أقامهم المهدي لينوبوا عنه في نظر
الظلامات التي ترفع اليه وأقام للقضاء بين الناس القاضي أحمد على الذي لقبه
بقاضي الاسلام وأشرك معه نحو عشرين قاضيا كلهم من جهلاء الاعراب
الذين لا يفقهون شيئاً غير أنهم يحفظون الفاظ القرآن الشريف

ثم أشار عليهم بعدم قبول الطعن في الشهود وتحليف الشاهد على المصحف
فكانوا يكتبون في أحكامهم ما ياتي « ولعدم قبول الطعن في الشهود كما أشار
خليفة المهدي عليه السلام قد صار تحليف الشهود وحكمنا بكذا »

كل ذلك لينتقم من أقارب المهدي بقيام الناس عليهم ومقاضاتهم لرد
مانهبوه منهم. وخرج الي محل القضاة في ذات يوم شاهرا سيفه وقال لهم
ان لم تحكموا بين الناس بالحق فلا بد ان أضع سيفي هذا في رقابكم ثم خطب
في الناس قائلاً من كانت له مظلمة عندي فليتقدم لمقاضاتي امام القاضي والحاصل انه
ظهر امام الناس بمظهر العادل الشفوق وقفل الناس راجعين الى بلادهم وقتلواهم
مملوءة بالاخلاص له والانقياد الاعمي لطاعته وشرعوا في مقاضاة اقارب
المهدي واستردوا اكثر ما سلبوه منهم

ذكر وفود الهنود على التعايشي

في أوائل سنة ١٣٠٣ وفد على التعايشي عشرة رجال منهم سبعة من
الهنود المسلمين وثلاثة من بخاري فتلقاهم بالاكرام وقدم لهم الاغذية مدة
اسبوع ثم أهمل أمرهم وشدد عليهم في مواظبة الصلوات الخمس في المسجد
فساءت حالتهم حتى أصبحوا الاحرفه لهم غير التسول وكان بين الثلاثة البخاريين
واحد اسمه محمد الامين فاخبر التعايشي بان له معرفة بالسكتابة ونسخ الصور
التي تستعمل في مطابع الحجر القديمة فامر بارساله الى المطبعة لمباشرة تلك
المهنة وجعل راتبه خمسة ريبالات يقبضها في السنة مرتين أو ثلاثا
ويظهر من حالة أولئك الهنود انهم فقراء وانهم قصدوا بلاد السودان
عسائم أن يجدوا سبيلا للارتزاق

وكان من بينهم واحد اسمه كمال الدين وكان بارعا في أساليب الخداع
والاحتيال ادعى انه ذو علم بصناعة المادة القابلة للانفجار وهي المسماه (عجينة
الكبسون) وتناول من التعايشي نحو اثني عشر الف ريال ثم ظهر جهله وانكشفت
حيلته وسنأتي على ذكر هذه المسألة في مكانها ان شاء الله

ذكر انتفاض الاشراف وتسليم الرايات

ذكرنا ما كان من أمر المداولة بين الخلفاء وتقسيم البلاد بينهم وتردد
التعايشي في انفاذ تلك القسمة وعدم رضاه بها
ولما عاد محمد عبد الكريم بعد اسقاطه سنار واستحوازه على ما فيها
من الذخيرة والامتعة طلب منه التعايشي أن يسلم ماله من الذخائر والاسلحة

والمال فامتنع واعلن الخليفة شريف عبد الله التعايشي بانه يريد التقدم الي بربر
ومنها الى دنقلة كي يتقدم منها لفتح مصر فمنعه التعايشي فلم يصغ لقوله
وخرج في شمال أم درمان وعسكر هناك وأخذ في الالهبة للرحيل فجمع
عبد الله التعايشي خواصه واستشارهم في هذا الامر فاشاروا بوجوب مقاومته
وارغامه على الخضوع لاوامره فرأى التعايشي ان قوة الخليفة شريف أعظم من
قوته وانه لا بد ان تدور عليه الدوائر اذا قصد اخضاعه بالقوة فعمد الى طريقة
الحيلة والخداع توصلا الى هذه النتيجة فبذل المال الى الخليفة على حل ووطيب
قلبه بالوعود ليكون معه على الخليفة شريف

وكان الخليفة على حل و متزوجا بأخت عبد الله التعايشي وبينهما من
رابطة جنسية البقارة ما يدعو الى تفضيله على الخليفة شريف فقال الى
التعايشي الذي عمده الى أحمد شرفي صهر المهدي واستماله اليه بالهدايا والوعود
فصار يرفع اليه أخبار الخليفة شريف وما دبره ووعدده بالمساعدة في كل
ما يطلبه منه

وفي ذات يوم ركب التعايشي ومعه الخليفة على حل و وقصد معسكر
الخليفة شريف فوقفوا صفوفاً للقائه ولدي وصوله الى الصفوف أخذ يبكي
وينتحب فاحاط به كل من الخليفة على حل و وأحمد شرفي وغيرهم من خاصته
وسألوه عن سبب بكائه فلم يرد عليهم وأخيراً قرب منه الخليفة شريف
وأقارب المهدي فرفع رأسه وأشار بيده الى الامام وقال لهم هاهو المهدي
امامكم يعرض على أنامل الندم ويقول لي كيف تختلفون قبل ان يمضي على
انتقالي من بين ظهرانيكم سنة ألم يعلم أصحابي انك خليفة الصدوق فبكي الحاضرون
وفي مقدمتهم الخليفة شريف وتراموا على ركاب التعايشي يقبلونه ويسألونه

الصفح عن زلتهم ثم طلب من الخليفتين علي حلو ومحمد شريف ان يسلماهما
راياتهما فسلموها وأمرهما بتسليم ما عندهما من الاسلحة والذخيرة والجهادية
ففعلا وأصبح الخليفتان لا يملكان شيئاً من الاسلحة النارية وكان التعايشي يمد
الخليفة علي بن حلو سراً باعادة ما أخذ منه ولكن لم يوف له بشيء بعد ان
تمكن من انفاذ غرضه وقلب له ظهر المجن ومع ذلك كان يكرمه ويمجزل له
المطاء ويشاوره في كثير من الامور

ومن ذلك اليوم مال اصحاب الخليفة شريف وقواده عنه واحتقروه لما
رأوا من ضعف عقله الذي اثرت عليه هذه الخديعة التي لا تؤثر على عقول
الصبيان فأنحازوا الى جهة التعايشي مظهرين له التزلف والتودد مضعفين له
جانب الخليفة شريف الذي أخذ يعد قواده واصحابه بان له أملاً كبيراً في
اعادة نفوذه بواسطة القوة الضخمة التي تحت قيادة ابن عمه محمد خالد زقل
في دارفور

وفي الحقيقة ان التعايشي كان في وجل شديد من القوة التي كانت مع محمد
خالد زقل ويحسب لها حساباً ولذلك عاد الى استجلاب مودة الخليفة شريف
وأبقى جميع اقارب المهدي الذين كانوا منتشرين في البلاد لجباية الخراج في
مناصبهم ريثما ينظر في أمر محمد خالد زقل وكانت هذه الحادثة في أوائل سنة ١٣٠٣

ذكر القبض علي امراء سنار وفرار الشيخ مضوي
لما كان الامراء الذين اسقطوا سنار من أتباع الخليفة شريف لم يجسر
التعايشي علي مطالبهم بما غلوه من غنائم سنار مع انهم لم يؤدوا الي بيت
المال العشر منها

ولما استولى التعايشي على ما عند الخليفة شريف من الاسلحة والذخيرة
 اصبح قادراً على مناقشة اولئك الامراء الحساب على ما اغتالوه من القناطير
 المقنطرة من الذهب والفضة فاستدعى اليه اعيان سنار الذين اخذت منهم
 الاموال واخذ يبين لهم الكلام ويهدم بنيلهم نصيباً مما اخذ منهم اذاع
 اوضحوا له كمية المال واسم من استولى عليه من الامراء فأوضحوا له كل
 ذلك فأمر بالقاء القبض على محمد عبد الكريم القائد العام لانه علم من كلامهم
 انه استولى على نحو خمسة قناطير من الذهب واستولى بقية الامراء على
 مقادير عظيمة من التبر

وقد علم التعايشي أيضاً ان الشيخ مضوى احد الامراء عذب مصرى
 اسمه على مرزوق كان ناظر الشونة واخذ منه خمسين رطلا من التبر المسبوك
 فأمر بالقاء القبض عليه فلم يجدوه بام درمان اذ كان متغيباً في قريته (العيلقون)
 فامر باشخاص مائة راكب يقصدون تلك القرية التي تبعد عن أم درمان مسيرة
 مرحلة واحدة للقبض عليه فاسرع احد اقاربه بمفادرة أم درمان وأبلغه الخبر
 فركب راحلته قاصداً حدود الحبشة وزور خاتم التعايشي على مكتوب أمر
 فيه الامراء بتقديم ما يلزم الى الشيخ مضوى وانه ذاهب بمهمة الى بلاد الحبشة
 فتناول بهذا المكتوب نحو ثلاثة آلاف ريال وبلغ حدود الحبشة آمنوا ولم
 يصبه سوء ولحق بالشيخ عجيب الحراني في جهة (غبته)

ولنعد الى ذكر الامراء الذين قبض عليهم التعايشي فنقول انه ابقاهم في
 السجن بضعة شهور لم يظفر في خلالها بشيء مما اغتالوه واصروا على الانكار
 فامر بمصادرة ما ظهر من املاكهم مثل الجوارى والعييد والدواب والامتعة
 البيتية ثم امر بالاخراج عنهم وألحق البعض منهم بثمان دقنه والبعض بعبد

الرحمن النجومي في دنقلة وانقضى الامر علي ذلك

ذكر عصيان الجهادية بالابيض وقتل امير كردفان
لما غادر المهدي الابيض الي (الرهدي) ومنها الي أم درمان استخلف علي
اقليم كردفان عمه محمود عبد القادر وقد ذكرنا انه استخلفه في جبال (قدير) لما
بارحها الي كردفان فكانه تفاءل باستخلافه وظل محمود عبد القادر قابضاً علي
زمام اقليم كردفان حتى توفي المهدي فاستدعاه التعايشي لحضور الاجتماع
العام في عيد الاضحى الذي كان عقب وفاة المهدي ثم أعاده الي عمله في الابيض
وكان محمود عبد القادر هذا ابن عم والد المهدي ومن أصحابه القديماء
الذين شاركوه في تأسيس دعوي المهدي وكان متظاهراً بالزهد والقناعة وكان
المهدي يكرمه ويحبه

وكان في حامية الابيض التي تحت قيادته الف وخمسمائة جهادي منهم
نحو تسعمائة من جنود الحكومة الذين أسروا في واقعة يوسف باشا الشلالي
وسقوط الابيض والباقي من عبيد الاهالي الذين صادرهم منهم محمود عبد
القادر وهؤلاء الجهادية يقودهم صف ضابط منهم اسمه (الجاك) فعهد اليهم
محمود عبد القادر حراسة الجبه خانات ورعى الماشية وجعل البعض حراساً له
ولقواده وكان مع ذلك لا يعطيهم رواتب تقوم بضرورياتهم فاستأوا من
هذه المعاملة واضمروا الخروج عليه فنعى اليه الخبر فارسل يدعو قائدهم الجاك
للحضور الي المسجد لتلقي أوامر جديدة فاعتذر عن الحضور وأرسل اليه
بعض أعوانه فقبض عليهم محمود عبد القادر وضرب أعناقهم فاستشاط الجاك
غضباً ونفخ أبواقه وهجم برجاله علي الجبه خانه فدافعه محمود عبد القادر بنحو

أربعة آلاف من فرسان الدراويش الذين انهزموا امام نيران الجاك وتركوا له الجبه خانه فاستولي عليها ودخل منازل الدراويش وانتهب ما فيها من المال والمتاع وغادر الابيض الي جبال النوبة وأعلن دخوله في طاعة الحكومة المصرية وسمي نفسه (الجاك باشا) ومنح الرتب لمن معه من القواد وأخذ يجبي الضرائب من سكان الجبال وأوصى قواده بعدم التعدى على حقوق الاهلين وان لا يأخذوا منهم الا الضريبة المفروضة فساروا سيرة حسنة امتدحهم بها سكان الجبال فارسل خلفهم محمود عبد القادر ثلاثة آلاف من رجاله مسلحين بالاسلحة النارية تحت قيادة الهاشمي أحمد الجملي فهزمهم الجاك باشا شر هزيمة وقتل قائدهم وذبح عددا كبيرا منهم ثم سار اليه محمود عبد القادر في أربعة آلاف مقاتل فالتقى الجمعان وثبت الجاك ورجاله ثبات الابطال وقتل محمود عبد القادر وقتل اكثر رجاله وولي الباكون الادبار وهم لا يصدقون بالنجاة ولما اتصل بالمايشي خبر قتل محمود خاف عاقبة امر الجاك ولكنه سر من جهة أخرى بقتله لانه قريب المهدي وعضد من قوة الخليفة شريف فاسرع بانتداب على الهاشمي العمرابي في مائتي رجل وسير خلفه قريبه عثمان آدم المشهور (بجانو) وأمرها بالبقاء في الابيض وان لا يتعرضا لحرب الجاك وكتب الي حمدان ابي عنجة يأمره بالهجوم على الجاك بجميع قواته فهجم عليه باكثر من عشرين الف مقاتل واصلاه حربا أظهر فيها الجاك ورجاله اعظم بساله حتي قتلوا عن بكره ايهم

ذكر اعمال ابي عنجة في الجبال

لما هزم ابو عنجة الجاك عاد الي غزواته في الجبال حتي اقترب من جبال

تقلى التي ذكرنا شأنها مع المهدي وقتله ملكها لما جاءه زائراً في الابيض فهجم
على من فيها وقتل رجالها وساق النساء والصبيان سبياً وباءهم ارقاء مع انهم
أعراب مسلمون كما تقدم لنا الكلام عنهم

ثم غزا أبو عنجة قبيلة الحوازمة التي تسكن بين دارفور وانهب مالها
وماشيها وقتل زعيمها (نواى) الذي كان لحق بالمهدي في جبال (قدير) وكان
المهدي وعده باعفائه من مرافقته الى الخرطوم فاخلف وعده وساقه اليها فقر
نواى ولحق بقومه في كردفان فقتله أبو عنجة انتقاماً منه وانهب أموال قبيلته

ذكر اشخاص محمد خالد زقل من دارفور وسجنه

أوردنا في الجزء الاول ما صار اليه شأن محمد خالد زقل واستيلاءه على دارفور
وقد صار فيها كملك مستقل حيث جمع حوله جيشاً كثيفاً يربو على مائتى
الف مقاتل

وكان التعايشي متخوفاً منه كما تقدم ولما استولى التعايشي على
أسلحة الخليفة شريف وذخيرته وراياته كتب أحمد سليمان أمين بيت المال
كتاباً الى محمد زقل اخبره فيه بكل ما كان عقب موت المهدي من الحوادث
كما اخبره بوقوع الخليفة شريف في الفخ الذي نصبه له الخليفة عبد الله
التعايشي حتى اسلمه ما بيده من الذخيرة والاسلحة والرايات وقال له في
الحتام انقطع الامل الامنك وحذره من الوقوع في فخ مثل الذي وقع فيه
الخليفة شريف

وكان التعايشي قد شدد في مراقبة أقارب المهدي حتى لا تصل منهم
كتب الى محمد خالد زقل فوق كتاب أحمد سليمان أمين بيت المال في قبضة

التعايشي فأسرع بإصدار أمر الى محمد خالد زقل بمفادرة دارفور بمن معه من الجيش فامتثل الامر وغادر دارفور حتى اذا بلغ كردفان اعترضه أبو عنجة ودفع اليه أمرا من التعايشي بتسليم كل الجيش الى ابي عنجة المذكور فاطاع محمد خالد ولم يبد أقل اعتراض

ولما تمكن أبو عنجة من الاستيلاء على جيش محمد خالد زقل شرع في تجريدته من أمواله الخصوصية ولم يترك له قوت يومه ثم كبله بالحديد وأرسله الى أم درمان يرسف في القيود والاغلال ولدى وصوله اليها زجه التعايشي في السجن فبقى فيه بضعة شهور ثم أطلق سراحه

وبلغ بمجموع الخيول التي استولى عليها حمدان أبو عنجة من محمد خالد زقل ما ينيف على عشرة آلاف جواد وعدد الاسرى كان يربو على خمسة عشر الف جهادي مسلحين بالاسلحة النارية وظفر أبو عنجة بكل أموال زقل وكانت عظيمة جداً وأرسلها الى التعايشي

ولما اتصل بالتعايشي نبأ القبض على زقل جمع بطانته وأخبرهم بذلك وقال لهم قد ذهبت كل مخاوفي وصرت آمناً مطمئناً على مركزي وأنا أطلب منكم منذ اليوم ان تساعدوني على القيام بامور هذه المملكة المترامية الاطراف حيث لم يبق لي معارض في جميع انحاءها ومن ثم بدأ بتواليه الاعراب على البلاد واستئصال شأفة الذين ولاهم المهدي من أقاربه ومواطنيه

ذكر القبض على احمد سليمان امين بيت المال وعزله
 احمد سليمان امين بيت المال محسى الاصل من أهالي بلدة اسمها (رفاعة)
 على ضفة النيل الازرق الشرقية اجتمع على المهدي في جزيرة (آبا) فاجبه

واكرمه واطلعه على كنه اسراره وكان أحمد سليمان يتفانى في محبة المهدي
 وخدمته وقد ذكرنا انه كان متولياً تقديم الاطعمة له وكان يقود خظام دابة
 المهدي حافياً وفي جبال (قدير) ولاء المهدي أمانة بيت المال مفوضاً له فيه
 العمل بلا أدنى مراقبة أو مسؤولية يعطى من شاء ويمنع من شاء
 وكان أحمد سليمان يحترق عبد الله التعايشي ويبغضه ولا ينفذ له ارادة
 مع ما كان فيه التعايشي من سمو المنزلة عند المهدي لان أحمد سليمان كان يرى
 نفسه عند المهدي في منزلة اسمي وأرفع من منزلة عبد الله التعايشي مهما بلغ هذا
 من القرب منه

وفي إبان اقامة المهدي بكر دفان وقع خلاف بين التعايشي وبين أحمد سليمان
 فامر التعايشي بسجن أحمد سليمان فسجن واتصل الخبر بالمهدي فكاد يفقد
 صوابه لشدة ما لحقه من الغضب فارسل الي السجن وأطلق أحمد سليمان
 وعنف التعايشي على اقدامه على مثل هذا الامر حتى ظن بعضهم انه سيعزله
 من الخلافة ويقصيه من بين يديه

وقد تغالى المهدي في الثناء على أحمد سليمان حتى قال انه رأى مكتوباً على
 ساق عرش الرحمن جل شأنه ان أحمد سليمان أمين المهدي عليه السلام
 وقد قلنا انه كان يكرم ذوى قرابة المهدي ويخصهم بالنصيب الا وفر من
 المال ولا يعطى التعايشي اكثر من مائة ريال في كل شهر. أما أقارب التعايشي
 فلا نصيب لهم ألبتة حتى ان يعقوب أخا التعايشي ووكيل رايته كان يتردد
 على باب أحمد سليمان شهرين أو ثلاثة فلا يمنحه بعدها اكثر من خمسة ريالات
 وقد رأته مراراً واقفاً على باب أحمد سليمان موقف اذلاء السؤال فلا
 يؤذن له بالدخول الي حضرته

وجملة القول ان من ينظر بعين الامعان يتحقق ان أحمد سليمان
كان أقرب مقرب للمهدي وأصدق صدق له وأعظم مستشار أمين
عنده حتي ان أولاد المهدي ونسائه لا يجسر أحدهم ان يقول أمامه كلمة
تمس أحمد سليمان

ويظهر جليا من هذا ان أحمد سليمان كان لا يأتي أبداً أمراً يوجب
انحراف المهدي عنه ولهذا أرجح صدق ما سمعته من الواقفين على كنه سيرة
المهدي من ان أحمد سليمان كان لا يضع خيطاً في إبرة بغير ان يكون المهدي
الأمير له بوضعه وهو كثير الاختلاء به وكان لا يحجب عنه حتى لو كان
المهدي مختلياً بأحد نساؤه وغرفته مغلقة وطرقها أحمد سليمان أجابه من
الداخل وأذنه بالولوج عليه وهذا منتهى القربي ونهاية الزلفي

ولما توفي المهدي كان التعايشي ينتظر من أحمد سليمان ان يتقرب منه
ويخدمه بمثل ما كان يخدم به المهدي ويقود دابته حافياً كما كان يقود دابة
المهدي فلم يفعل بل غاية الامر انه زاد في احترامه للتعايشي رعاية لمنصبه وزاد
في مرتبته وخص ذوي قرابته بنصيب أقل من القليل من بيت المال
وعكف على البذل والانفاق على أقارب المهدي وزاد أعطية نسائه وأولاده
وأمهاتهم

وكان أحمد سليمان يتوقع شراً يصيبه من التعايشي على أثر إفضاء الخلافة
اليه وقد ذكرنا كتابه الى محمد خالد زقل وبمسد ان سجن أبو عنجة زقل
انتدب التعايشي من بطانته أناساً ضبطوا بيت المال وكلفوا أحمد سليمان بتأدية
الحساب عن الدخل والخرج منذ ولي علي بيت المال فمخر من هذا
الاقتراح واحتج بأن المهدي لم يأمره بضبط الحساب في دفاتر ولذلك لا يمكنه

أداء مثل هذا الحساب فاصدر أمرا بعزله وزجه في السجن فبقي فيه أكثر من سنة ثم أطلقه وعهد بأمانة بيت المال بعده الى رجل من أهالي جزيرة الخرطوم كان تاجرا في الأبيض اسمه ابراهيم بن عدلان وسمنود الى ذكر بقية أعماله وما كان بعد ذلك من صلته

الاشاعة بعودة الانكليز الى دنقلة

لما أخت الحملة الانكليزية دنقلة احتلها محمد الخير أمير بربر في أوائل سنة ١٣٠٣ وسرح مقاتلته الى جهة الشمال حتى بلغوا جنوب حلغا التي كانت يومئذ مقر الحملة الانكليزية التي تقدمت منها بمض طواير وحاربت جنود محمد الخير وانتصرت عليهم فاستنتج محمد الخير من تقدم الانكليز الى جنوب حلغا أنهم يقصدون التقدم الى دنقلة لاختضاع السودان كله حيث سمعوا بمهلك المهدي فاسرع بإبلاغ الخبر الى عبداللّٰه التعايشي فانقض هذا الخبر عليه انقضاء الساعة وارتاع روعا أفقده الصواب لان تقدم الانكليز يقضي على آماله التي شرع في تأسيسها وهي استبداده بالملك وانفراده بالسلطان اذ يصير ارضاء الخليفة ومنحه بعض السلطة واجبين لتوحيد الكامة فجمع أهل شوره وكتب الى محمد الخير يأمره بالتقهقر أمام الانكليز وتركهم حتى يبلغوا أم درمان وفي اليوم التالي أعلن خبر تقدم الانكليز وأمر المقاتلة ان يعسكروا شمال أم درمان فخرجت معهم وفي أصيل النهار لحق بنا التعايشي والخليفةتان على حلو ومحمد شريف

ولما مالت الشمس للغروب توضحنا من النهر وصلي بنا التعايشي صلاة المغرب على ضفة النهر ووجوهنا متجهة الى النهر وبعد أداء الصلاة برز القمر

وقرصه مستدير ولونه أحمر كهيئته في مثل ليلته عند بروزه إذ كانت
 ليلة السادس عشر من شهر ربيع الآخرة سنة ١٣٠٣ فوقف واحد من
 الدراويش بجانب التعايشي وهو جالس ورفع صوته قائلاً (السلام عليكم
 يا أصحاب المهدي عليه السلام) فردوا التحية فقال حولوا نظركم الى جهة الشرق
 وانظروا الى القمر كيف برزولونه أحمر قان هل رأيتوه بهذا اللون قط
 فاجابه الخليفة على حلو قائلاً لا . لا . لم ننظره أبداً بهذا اللون فقال اني سمعت
 المهدي عليه السلام يقول ونحن في قدير « اذا فتحنا الخرطوم فان الله يجعل
 لاصحابي آية يعرفون بها النصر المبين الذي يصاحبهم الى الابد فقلنا ياسيدنا
 المهدي وماهي تلك الآيه فقال هي خروج القمر في لون أحمر » فوقف
 التعايشي وقال للرجل صدقت يا صاحب المهدي فما أنا ذا أقرأ كتابة على
 صفحة القمر وهي « هذا نصر المهدي وأصحابه الى الابد » فضج الناس
 بالتهليل والتكبير حتى خلت السماء قد انطبقت على الارض ثم بعد اداء صلاة
 العشاء عدنا الى أم درمان وقضيت ليلاي متعجبا من جهالة دراويش المهدي
 الذين يعلمون ان التعايشي لا يقرأ ما يكتب على القرطاس فكيف يصدقون انه يقرأ
 ما يكتب على صفحة القمر وأخيراً كذبت الاشاعة وعاد الانكاز الى حلغا
 اذ هم في الحقيقة لم يقصدوا التقدم الى دنقلة بل كانوا يقصدون طرد الدراويش
 من جنوب حلغا فجازوا عليهم وأبعدوهم عن جنوبها
 أما تلك الوقائع فان تفاصيلها لم تصل اليانا من مصادر شتى بروايتها وغاية
 الامر ان التعايشي لما علم بعدم صحة النبأ ذهب مخاوفه ولم ينشر شيئاً من
 تلك الوقائع التي عدها تافهة لا تستحق الذكر

ذكر انفاذ عبد الرحمن النجومي الي دنقلة

في أوائل سنة ٣٣٣١ انفذ التعايشي عبد الرحمن النجومي الي بربر ومنها الي دنقلة ومعه جميع المقالة التابعين لراية الخليفة شريف فوصل الي دنقلة في أواخر السنة وأخذ مدينة (العرضي) قاعدة إقليم دنقلة مركزا لمسكره العام ووصلت طلائع جيشه الي جنوب حلقا وسنمود الي ذكر بقية أخباره الي قتله في واقعة (طوشكي) والله الموفق



انتقاض دارفور علي التعايشي واخضاعها

لما غادر محمد خالد زقل دارفور هب رجل اسمه يوسف من ذراري سلاطين دارفور واستخلص البلاد من ايدي الدراويش الذين تركهم بها زقل ونودي به سلطانا علي أقاليم دارفور كما كان اسلافه فكتب التعايشي الي عثمان آدم جانو يأمره بمحشد أهالي كردفان والتقدم بهم الي دارفور لاخضاعها فحشد جيشا يربو علي الخمسين الف مقاتل منهم نحو عشرة آلاف كانوا مسلحين بالاسلحة النارية وهاجم بهم علي (الفاشر) عاصمة دارفور فقابله السلطان يوسف في جمع كثيف ودافعوا دفاع الابطال وانجحت الحرب عن هزيمة أهل دارفور وقتل السلطان يوسف ودانت البلاد بطاعة المهديوية فاستولي عليها عثمان آدم وأخذ يوالي الغارة علي الجبال التي حول دارفور فاجتمع لديه من الارقاء زهاء عشرين الف مقاتل مسلحهم بالاسلحة النارية وأرسل عثمان آدم بما غنمه من دارفور الي التعايشي علي مألوف العادة وأرسل اكثر من ثلاثمائة فتاة من فتيات دارفور سبيا الي التعايشي الذي سر

من عمله وكتب اليه بالولاية على إقليم دارفور وكردفان وجعله قائد جيوشها
وسياتي ذكر بقية أعماله وحروبه مع أبي حمزة مدعي المهدي

ذكر محاق قبيلة الشكرية بالحبشة وقتل زعمائها

في أوائل سنة ١٣٠٤ كتب التعماشي الي قبيلة الشكرية يدعوها الي
الشخص الي أم درمان بماشيتها وكانت وقتئذ نازلة في باديتها بصحراء (ريره)
بين نهري (ابره) والنيل الارزق فايقتت ان دعوتها الي أم درمان لم تكن
لغير نهب ماشيتها ومصادرتها فعولت على الالتجاء الي بلاد الاحباش وكان
زعيمها عوض الكريم بن أبي سن الذي ذكرنا أخباره مع المأسوف عليه
غردون وقدوة على المهدي تابئا نادما مقيما يومئذ في أم درمان

وبعد أيام قلائل من دعوة التعماشي لقبيلة الشكرية جاءته لخبار
بمفادرتها ديارها وحقها ببلاد الاحباش فاحتدم غيظا وأمر بالثناء القبض على
عوض الكريم بن أبي سن وسائر أفراد أسرته الذين هم من قبيلة الشكرية فقبض
على نحو مائتي رجل من خيارهم واكلوا بالحديد وزجوا في السجن حتى
أمر التعماشي بقتلهم صبورا فقتلوا جميعا ولم ينج منهم أحد

أما الذين هاجروا الي الحبشة فلم يكونوا أسعد حالا من الذين قضى
عليهم في السجن لان رداءة هواء بلاد الحبشة استأصلت إبلهم التي كانت
تعد بمئات الالوف وأبادت نفوسهم التي يقرب عددها من ثلاثمائة الف
نسمة. وبالجملة فان تلك القبيلة التي كانت من اكبر قبائل السودان واكثرها
ماشية وأشدّها بطشا وقوة هالكت عن بكرة أبيها وذهبت ماشيتها ولم يبق
منها غير بضعة آلاف نسمة متفرقين في البلاد وهم في نهاية الفقر المدقع

ذكر قبيلة الضباينة والقبض على زعيمها في الجهات الجنوبية
 في نهر (ابره) قبيلة تسمى الضباينة يربو عدد نفوسها على أربع مائة الف
 نسمة رلها من الماشية من نوع الابل والبقر ما يربو على ماشية قبيلة الشكرية
 وهي رحالة وزعيمها محمود عيسى زائد الشامي وهو من أسرة تولت زعامة
 تلك القبيلة منذ قرون وتؤكد هذه الاسرة ان جدها شامي قدم السودان
 من الديار الشامية منذ قرون أيضا وكان محمد زائد هذا ذا ثروة واسعة وله من
 الموالى والارقاء ما لا يدخل تحت حصر حتى انك ترى قرى مملوءة بارقاؤه
 وكان كريما جودا يقري الضيوف ويمطى المال بالآلاف الريالات وكانت له
 قصعة من الخشب يحملها خمسون رجلا . وقد أخبرني واحد من الذين
 حضروا مصادرة أمواله انهم أحصوا النوق الموسومة بالنار على نخذهما
 الايمن اشارة الى انها معدة لركوبه خاصة لا يسوغ لاحد من مواليه
 أو أسرته ركوبها اجلالا لمقامه فكانت نحو أربعة آلاف راس من الكرم
 أنواع النوق والهجن

وكان محمود عيسى زائد يبغض المهدوية ويبطن ولاء الحكومة وان
 كان يمالي المهدوية ويتظاهر بطاعتها حتى ان عثمان دقنة كان يكتب له قبل
 سقوط كسلة محرصا على وجوب شن الغارة على حامية (الجيرة) قبل سحبها
 لانها قريبة من قرية (التومات) محل اقامته فلا يفعل وبعد أن سقطت كسلة
 أرسل عثمان دقنة نحو أربعة آلاف مقاتل تحت قيادة عوض الكريم
 كافوت الجملي فقبضوا على محمود عيسى زائد على غرة وصادروا أمواله وحملوها

الى الخليفة التعايشي ومن جملتها (القصعة) التي جعلها التعايشي اناء يقدم فيه شيئاً من تافه الطعام الى المدعوين في أيام المواسم والاعياد ولكن محمود زائد كان يقرى ضيوفه بملئها صباحا ومساء طعاما نفيسا هو خليط من قمح ولحم ولبن وسكر أو عسل مصني وسيق . محمود زائد الى التعايشي يرسف في القيود والاغلال فطرحة في السجن وفي سنة ١٣٠٧ اسأصل الزاكي طمل قبيلة الضباينة وأطلق الخليفة محمود زائد فمات غمابعد ان أصابه من عذاب السجن وفقدان القوة ما برح به خمس سنوات متواليات

ذكر انتقاض قبيلة جهينة

ذكرنا بعض اخلاق وعادات قبيلة جهينة التي تسكن جنوب سنار وقانا ان زعيمها المهدي اباروف شخص الى المهدي في جبل (قدير) وعاد من عنده داعياً له في قومه الذين جمعهم وظل يحارب بهم مدينة سنار حتي سقطت ثم عاد الى بلاده فيما وراء سنار

وفي أوائل سنة ١٣٠٣ أرسل التعايشي جايا بقاريا اسمه أبو ام فضالي لجباية الخراج من قبيلة جهينة وسائر البلاد الواقعة جنوب سنار فحملهم من أنواع المظالم وضروب الحيف ما عجزوا عن تحمله فرفعوا شكواهم الى التعايشي الذي عنفهم واتهمهم بالمروق من الدين لأنهم شكوا اليه أصحاب المهدي فهبت قبيلة جهينة وزعيمها وأخرجت ابا أم فضالي قسرا من بين ظهرانيها واعلنت خروجها على التعايشي الذي لما اتصل به هذا النبا أسرع بانفاذ نحو خمسة آلاف مقاتل جاهم مسلح بالاسلحة النارية فطاردوا قبيلة جهينة وقتلوا زعيمها المهدي اباروف واسرته وأصدر التعايشي أمراً بمصادرة أموال هذه

القبيلة وانفذ الامراء الى الجمعات التي بها مساكنهم فكنت ترى الابل والبقر
 قد ضافت بها الارض على وسمها ونزلت اثمان النوق حتي صار ثمن الواحدة
 خمسة قروش مصرية وزاد الطين بلة مصادرة ماشية قبيلة الكبايش في
 نفس الوقت الذي صودرت فيه اموال جهينة وماشية الكبايش تربو على
 ماشية جهينة كما سنوضحه فيما سيأتي
 والحاصل ان قبيلة جهينة بادت كلها وذهبت ماشيتها ولم يبق منها ولاؤها
 للمهدي وقيامها ضد الحكومة

ذكر حرب قبيلة الكبايش

ذكرنا قتل ابن زعيم قبيلة الكبايش في الابيض لما كان المهدي نازلا
 بها وعلى اثر قتله جاهرت قبيلة الكبايش بالمعصيان على المهدي وابتعدت
 من المناهل والمراعي القريبة من كردفان وتوغلت في الصحراء التي بين
 كردفان ودنقلة

ولما استولت المهديوية على الخرطوم وانسحب الانكايير من دنقلة كتب
 التعايشي الى الشيخ صالح زعيم الكبايش يدعوه الي الطاعة ويعدده تارة ويتوعده
 اخري فلم يلتفت الي وعده ولم يرهب من وعيده بل توغل في الصحراء حتي صار
 على مقربة من الواحات الجنوبية فانتدب التعايشي محمد نوباوي شيخ قبيلة بني
 جرار التي هي بطن من بطون قبيلة الكبايش وهو الذي دخل على الطيب
 الاثر الجنرال غردون وقتله

وانتدب التعايشي معه عدداً كبيراً من الفرسان فساروا من أم درمان
 مخترقين الصحراء حتي بلغوا منهل (أم بادر) وكان الشيخ صالح نازلاً به

ومعه نحو مائتي رجل من أسرته ومواليه وبقية القبيلة متفرقة في المراعي
والمناهل فاحاط محمد نوباوي بخيام الشيخ صالح في الغلس فانتبه من في
الخيام مذعورين وركب الشيخ صالح فرسه وكذلك بقية من معه وأخذوا
يطلقون الرصاص على الدراويش حتى نفذت ذخيرتهم فاستلوا سيوفهم وهجموا
على صفوف الدراويش فاخترقوها وزحزحهم عن مواقعهم وأصيب الشيخ
صالح برصاصة في ذراعه نخر صريعا عن جواده فتقدم اليه محمد نوباوي ليشد
وثاقه فابتدره بالشتم ولعن المهدي وخليفته وقال له أمثلي يساق أسيرا فامتنع
محمد نوباوي عن قتله احتراماً لما بينهما من صلوات النسب فتقدم أحد
الدراويش وقتله وحز رأسه ورؤس اخويه ورجال أسرته الذين سقطوا
قتلى بعد اصابته وحملة الرأس الى التعاليش فسر بها وخرساً جداً على ما أوتيه
من النصر وانتدب الزاكي عثمان ومعه كتبة وجنود ووجههم الى محل الواقعة
كي يجمعوا الغنائم وبلغني من أولئك الكتبة ان عدد الرؤس من الابل كان
يربو على مليون ويقرب عدد البقر من الخمائة الف رأس أما الماشية
الصغيرة فانهم لم يعتنوا بتعدادها لكثرتها وأرسلت هاته الماشية وبيعت مع
غنائم جهينة في أم درمان وقد ذكرنا أن ثمن الناقة انخفض الى خمسة قروش مصرية
وجي بالجماعات من النساء سبايا وبالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة
وكانت قبيلة الكبابيش هذه أعظم قبائل السودان وأكثرهن ماشية وثروة
وزعيمها أغني زعماء القبائل في السودان وكان قد وفد من خمسة وعشرين عاماً على
المغفور له الخديو اسماعيل باشا وقدم له هدايا وتحفا فآكرم وفادته وأعادته الى بلاده
بالعز والاکرام ومن أعجب ما شاهدته ان أكبر بنات الشيخ صالح هذا كانت تحمل
على رأسها في أم درمان اناة تبيع فيه الماء لتحصيل قوتها وقد كانت هذه المرأة

وسار نساء أسرتها يلبسن نعالاً من خالص التبهر وإذا خرجت احدها من دار الى أخرى مشى حولها مائة من الجوارى وعلى كل واحدة من الحلى ما لا يقل عن مائة أوقية من التبهر يظلمن على مولاتهن بالاردية الحربية وقد شاهدت اكثر هاته العقيات متسولات في الاسواق فسبحان المعز المذل

وفي ذات يوم كنت جالسا بالقرب من مقصورة التعايشي فقال له أحد جلسائه ان بنت صالح زعيم الكبايش تبغ الماء لتوت يومها فاطهر الأسف وقال من الواجب علينا اكرامها وأرسل في طلبها فجاءت فسألها عن حالها فاجابته واكثرت من الثناء والاطراء عليه فامر أحد غلمانه باعطائها شيئاً من النقود ضمته في كفها وخرج الناس وراءها ليلتموا بمقدار جائزتها فاذا هي سبعة ريات من عملة النحاس تقدر قيمتها بسبعة قروش مصرية فقالت المرأة انظروا لجائزة الخليفة ومبلغ اكرامه لمثلي

هذا وجملة القول ان قبيلة الكبايش بادت ولحقت بغيرها من القبائل والدوام لله وحده

ذكر القبض علي شارل نيوفيلد

شارل نيوفيلد ألماني استوطن اصوان مزاولاً مهنة الاتجار بتقديم لوازم الجيش في الحدود فاحرز من هذه الحرفة ثروة واقتنى عقاراً وزاد في ثروته انه منذ بداية أمره كان يحسن معايشة الوطنيين ويتشبه بهم في الاخلاق والعادات حتى كانه واحد منهم ولم يظهر على ملامحه انه متكلف لهذا التشبه حتى نال حظوة عظيمة عند جميع السكان زادت في نجاحه وفتحت في وجهه

أبواب الكسب وساعده على احراز الثروة

وفي أواخر سنة ١٣٠٣ أنفذ الشيخ صالح زعيم قبيلة الكبايش الذي تقدم لنا خبر قتله وفداً الى الحكومة الحديوية يسألها امداده بالاسلحة والذخيرة ليقوى على دفع غارة المهديين عن نفسه فاعطت الحكومة رجال الوفد مائتي بندقية من طرز رامنجتون بذخيرتها وأخذوا في الاهبة والاستعداد لاختراق صحراء الجلب من حلقا الى منارل قبيلتهم وفي إبان ذلك اجتمع شارل نيوفيلد بتاجر من أهل كردفان اسمه خوجال أم برير فقال له التاجر ان لدي كمية وافرة من الصمغ والعاج وریش النعام فانفقا على ان يذهب نيوفيلد صحبة وفد الكبايش وبواسطة نفوذ زعيمهم يخترق بقية الصحراء الى الابيض ومن هناك يحمل الصمغ والعاج وریش النعام بنير ان يشمر به أحد من دروايش المهديوية وقد جعل له خوجال نصيبا وافرا من تلك السلع نظير مخاطرته التي يتعذر معها نجاحه ووصوله الى مقصده

وقد عرض نيوفيلد أمره على ولاية الامور في الحدود فلم يمانوه فنادر حلقا صحبة الوفد ومعه محظية حبشية وكان دليل الوفد ميالا لجهة المهديين فابلق عبد الرحمن النجومي الذي كان وقتئذ في دنقلة وأطلعه على خطة سيره وارشده الى المكان الذي يقابلهم فيه المبعوثون من عنده فسار شارل نيوفيلد مع الوفد وهو لا يعلم شيأ من القدر المخبوء له فسار بهم الدليل في بادية معطشة حتى وفقدوا الماء مدة أربع وعشرين ساعة

وكان النجومي قد أنفذ وراءهم خمسمائة راكب تحت قيادة محمد حمزة الانقريابي وبينما كانت القافلة سائرة والظما قد بلغ غايته من رجالها والدليل يدهم بقرب الوصول الى الماء اذ داهمهم العدو على غرة وتمكن من أتلهم فانحاز

الرجال الى ربوة مرتفعة واطلقوا النيران دفاعا عن انفسهم فهلك من هلك
 وأخذ الباقيون اسري وصعدنيوفيلد على مكان آخر مفضلا الموت على الوقوع
 في اسر أولئك الطغاة المتوحشين فامسك العدو محظيته وجعلها بمضهم كترس
 يتقي به مقذوفات مولاها الذي شلت يمينه عند ماتحقق انه يقتل محظيته
 اذا أصر على عزمه الاول فاسلم نفسه ووقع أسيراً في يد العدو الذي جرده
 من ملابسه ووضع الاغلال في عنقه وساقه ماشياً على قدميه حتى بلغ دنقلة
 بعد مسيرة عدة ايام فامر عبد الرحمن النجومي بصلب أسرى الكباشيش وارسال
 شارل نيوفيلد الى الطاغية التمايشي بام درمان

ولما أوقف بين يدي التمايشي صاح قائلاً هذه صفة الكافر التي وصفها
 لنا المهدي ثم عرض عليه اعتناق الاسلام فاني فامر بصلبه فسيق الى
 محل (المشنقة) ثم ارجعوه الى التمايشي وهكذا فعلوا ثلاث مرات وبعد ايام
 رضى باعتناق الاسلام دينا ونطق بالشهادتين واذ ذاك أمر التمايشي بزجه في
 السجن حتى اطلقه اللورد كيتشنر باشا وسنعود الى ذكر بقية حوادثه والله الهادي

ذكر حروب الاحباش الي قتل النجاشي يوحنا

تقدم لنا ذكر اول واقعة جرت بين المهديين والاحباش التي انتصر فيها الرأس
 الولا على عثمان دنقنة في كوفيت وقبل الكلام على هذه الحروب نذكر طرفاً يتعلق
 بالقلابات) وما يتبها من بلاد (القضارف) مواطن تلك الحروب الهائلة فنقول
 القلابات اسم لبلدة على شاطئ نهر (اتبره) جنوب القضارف وهي آخر
 حدود الحكومة الحديوية في بلاد الاحباش من جهة الجنوب بالنسبة لموقع
 بلاد القضارف

وكان سكانها الاقدمون من دكرور السودان الغربي ولا نعلم كيف جاؤا
من بلادهم واخترقوا السودان من الغرب حتى وصلوا لآخر نقطة من
شرقه الجنوبي وكان أولئك السكان يؤدون جزية لمملكة الحبشة

ولما احتلت الحكومة الخديوية السودان جعلت القلابات من أهم
المواقع التي حصنها لدفع غارة الاحباش عن بلادها وكان آخر زعيم من
أولئك الدكروريين صالح شنقه الذي نال من الحكومة الخديوية لقب بك
واستمر على دفع الجزية للاحباش كما كان اسلافه

أما القصارف فانها البلاد الواقعة شمال القلابات يحيط بها نهر
(أبهره) من جهتي الجنوب والشرق وهي بلاد مخصصة جداً وتجارها واسعة
وفيه من النباتات ما لا يوجد في السودان كله وثمن ما يحمله الجمل من
الذرة من نوع اسمه (الكرقي) يخالف الذرة الرقيقة بمظم حبه وبياض لبه
الذي يستخرج منه مواد نشوية تشبه ما يستخرج من الارز بضعة قروش
مصرية وفي بلاد القصارف غلة تشبه الحلبة في اللون الا ان طعمها كالشهد في
الحلاوة اسمها (الششم) تغلي على النار بالماء فتتحول الى حلاوة الشهد
فياً كلونها ويشربون ماءها

وعاصمة هذه البلاد تدعى (ولد أبو سن) وهي مدينة كبيرة
فيها منازل مشيدة باللبن الاحمر والآجر وقصور شامخة مشيدة بالاحجار
وأصحابها تجار مصريون وسوريون ويونان وبعض من الفرنسيين والارمن
وحول هذه المدينة حدائق غناء وفواكه لذينة كالعنب والتين
والقشطة والموز والمان والبورتقال ومن أعجب ما علمته عن القصارف ان
النخل يثمر فيها مرتين في السنة وكذلك العنب الذي يثمر مرتين في السنة

مرة في الشتاء وأخري في الصيف موجود فيها وفي الخرطوم
 وفي القضارف مسدن أخري غير عاصمتها يسكنها اترك ومصريون
 ويونان وأرمن وهي لا تقل عن عاصمتها وأشهرها (عصار) و (دوكه)
 وسكان القضارف قسبان سكان القري وسكان البوادي الذين جلمهم من قبيلة
 (الضباينة) التي تقدم لنا ذكر زعيمها محمرد عيسى زائد وكلتاها متوفرة لديها
 أسباب المعيشة ومتحصلة على نعومة العيش من أسهل الطرق وأقربها
 وسيأتي ذكر خراب تلك البلاد وانها الآن قفر ليس فيها عشرة آلاف
 ساكن بعد ان كان تعداد سكانها يربو على مليون نسمة

وكان لعوض الكريم أبي سن زعيم قبيلة الشكرية الذي قتله التعايشي
 صبرا ابن اسمه عبد الله أمه من قبيلة الجعليين مال الي اخواله ورغب عن
 خطة والده وقومه الشكرية وعدوهم عن قبول دعوة المهديوية وقدم على
 المهدي الذي ولاه الدعوة له في القضارف فقام بها وأدخل البلاد في دعوة المهدي
 وكان في منزل صالح شنقه زعيم دكروربي القلابات رجل يعلم الصبية
 القرآن الشريف فلحق بالمهدي وعاد من عنده يحمل أوامره بالدعوة له في القلابات
 فانسجبت حامية القلابات الي بلاد الحبشة انفاذاً للمعاهدة التي أبرمت بين
 الاحباش والحكومة الحديوية فاحتل ذلك الداعية القلابات باسم المهدي ومنع
 اداء الجزية للاحباش الذين كانوا وقتئذ مشتغلين بدفع غارة الايطاليين عن
 بلادهم في الجهات التي تلي ساحل مصوع واسم هذا الداعية محمد بن ارباب وغادر
 صالح شنقه القلابات مع الحامية ولم يشأ البقاء فيها

هذا وقد كانت دعوة المهديوية قد دخلت في بلاد الحبشة على يد رجل
 من أمراء الاحباش المسلمين اسمه محمد جبريل وقد على المهدي قبيل وفاته

بأيام قلائل فاعاده الى بلاده بمنشور دعا الاحباش فيه الي اعتناق الاسلام
وطرح النصرانية والاجتماع على طاعة محمد جبريل لقتال الكفار وهامى صورة
المنشور نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم
وبعد فن المبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى أهالي (قبراقوما
وقا وحما ولموا والنارية بلد البن وليكاونونوا ولي بن وهروسي وقبا وكفاه
وكونت وكويشاوشتا وقوفه ولا مواواوروكوا ونبسوا وسوروا) وفقهم الله
لطاقته واتحفهم بمرضاته آمين بعد السلام عليكم اعدوا وفقكم الله لما يحبه
ويرضاه وجعلكم من الفائزين ان الدنيا قد ولت مدبرة وان الآخرة قد
زينت مقبلة ومع ذلك فانما في الدنيا خيس جدا وما في الآخرة نفيس
جدا وعلى العاقل ان يسمي لنفيس دائم ويعرض عن خيس فان وكثيراً
ما حل بابناء الدنيا من الدمار والحسرات وكثيراً ما اجتبي الله ابناء الآخرة
ورفعهم اعلا الدرجات وأجزل لهم المسرات وأنواع الخيرات وان الله تعالى
قد أظهرني رحمة للمؤمنين وبغية للصالحين وسيفاً قاطعاً للملحدين فن أراد
الله سعاده ونجاته من خزي الدنيا والآخرة لباني وأجاب دعوتي ونصرني
وآواني ومن غلبت عليه شقوته أعرض ونأى وكذب وعصي فن لباني فاز ونال
من الخير العميم ما لا يعد ولا يحصى ومن أعرض فقد دمره الله وخذله خذلانا
مبيناً وحيث فهمتم هذا البيان فاني على حسب المصلحة الدينية قد عينت لكم
السلطان محمد جبريل عاملاً عليكم في دين الله لا قامتته ودعاية العباد الي
سلوك سبيل الرشاد فينبغي بوصول هذا عندهم ان توازروه وان تشدوا

عضده وتسموا أمره ونهيه مادام على الحق والصدق وان تحاربوا معه كل من ضل واعرض عن الاتباع. وسلك طريق الغواية والابتداع. ولا تركزوا الى الراحة والبطالة فان الجهاد فضل عميم. وثواب جسيم. منوه عليه بسواطع أدلة القرآن العظيم. وأحاديث النبي الكريم. وكفى من ذلك قوله تعالى «الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفاترون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنة لهم فيها نعيم مقيم» الآية وقوله صلى الله عليه وسلم «رب غدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها» أو كما قال وحيث كان كذلك فاذا وصلكم جوابي هذا فشمروا في طاعة الله ورسوله وابدلوا أرواحكم في نصرة دين ربكم بحيث من كان منكم على دين النصرانية يرفضه ويدخل الاسلام ويبادر بالتسليم والانخراط في سلك المهديّة قال تعالى «ان الدين عند الله الاسلام» «وانيبوا الي ربكم وأسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين تري العذاب لو أن لي كرة فاكون من المحسنين» فرد الله على من هذا حاله بقوله «بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ويوم القيامة تري الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة» الآية فهذه الآيات وما ماثها مما يرغب في دين الاسلام والتسليم لامر المهديّة وينفر عما سواه وأما من كانوا منكم على دين الاسلام فتأييده وتشبيده هو غاية مقصودهم فليشمروا في نصرتنا ابتغاء مرضات الله ادام الله توفيقكم وجعلكم من

عباده المؤمنين آمين وفي هذا كفاية لمن له قلب والسلام ١١ شعبان سنة ١٣٠٢
 وأنت أيها الامير محمد جبريل أوصيك بتقوى الله في سررك وعلايتك وإيثار
 آخرتك على دنياك وأن لا تقدم على أمر مالم تعلم حكم الله فيه فان الامارة
 خطرها عظيم وخطبها جسيم ولا بد لصاحبها من الخلود في النعيم المقيم أو
 العذاب الاليم قال تعالى «فاما من ظني وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى
 وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى» ونظرا
 لذلك فان امارتنا لك معلقة على شرط اتباع الكتاب والسنة فان غيرت أو
 بدلت فلا امارة لك فافهم ذلك واسترشد به ولكمال المملومية لزممت التحشية
 في تاريخه

هذا ولما دخلت دعوة المهدي في بلاد الاحباش ادرك النجاشي يوحنا خشونة
 مركبه ومغربة أمره حيال هذه الدعوة التي هاله انتشارها فلم ير وسيلة لدفع
 شرها غير التدرع بالجهروت ومقاومة دعائها بضروب القوة والقهر بيد أنه
 تعالى في هذا السبيل حتي فقد الروية والنظر القصي للعواقب فانشب مخالب
 الاضطهاد الديني في مسلمي رعيتته وخالف تقاليد اسلافه حيث اكره نحو
 مائة الف من أهل القبلة على اعتناق النصرانية وعذبهم عذابا اليما
 على ان حرية الاديان في بلاد الحبشة كانت لا تزال بالغة حد الكمال
 حتى ان شقيقة النجاشي يوحنا اعتنقت الاسلام وتزوجت باحد الامراء المسلمين
 فلم يمنمها أخوها ولم ينقصها شيأ من الاحترام الواجب لمثلها
 وقد قام كثير من أمراء الاحباش المسيحيين ومحضوا النجاشي النصح بالعدول
 عن هذا الاكراه فلم يكثر بنصيحهم وظل على رأيه الفائل وكان منليك
 نجاشي الحبشة الحالي أول معترض على عمل النجاشي يوحنا

وعلى أثر ذلك نزع كثير من مسلمي الاحباش وحقوا بالتعايشي فولى عليهم رجلا منهم اسمه (محمد فقرا) وعسكروا في الشمال الشرقي من القلابات عند نهر (ابره) بالقرب من جهة (المراديب) وسماو معسكرهم (تبارك الله)

وفي أواخر سنة ١٣٠٣ وفد على التعايشي محمد أرباب أمير القلابات فأكرم وفادته وأعطاه أسلحة نارية وخيولا وأعادته الى القلابات وأوصاه بالغارة على اطراف بلاد الاحباش فاغار عليها في تلك السنة وخرّب عدة قري وأحرق الكنائس واتف ما فيها من الثمانيات وكذلك أغار محمد فقرا على القرى التي هي حيال معسكر (تبارك الله) وأنحن في أهلها

وكان في جهة (غبته) اعرابي اسمه عجيل الحمراني في السودان الشرقي فر باكثر قبيلته من وجه المهديين ولجأ الى بلاد الاحباش فامدوه بالاسلحة ووكلوا به الدفاع عن حدودهم في جهة (غبته) فكان يوالي الغارة على القرى التي على ضفة نهر (ابره) وكانت غاراته لا يلحق المهديين منها أقل ضرر بل كان شرها واقعا على الضعفاء سكان تلك القرى الذين دخلوا في ضاعة المهديين قسراً وفي أوائل سنة ١٣٠٤ تواترت الاخبار بتقدم الاحباش الى معسكر القلابات و (تبارك الله)

وفي أوائل شهر ربيع الآخر سنة ١٣٠٤ هجم الراس عذار على محمد أرباب في القلابات وقتله واكثر مقاتلته وفر الباكون الي (القصارف) وهجم جيش حبشي على محمد فقرا في (تبارك الله) ففر بجميع مقاتلته عند ترائي الجمعين وحق بالقصارف أيضا وطارت الاخبار بذلك الى التعايشي في أم درمان فانتدب يونس بن الديك في عشرين الف مقاتل فسار من أم درمان الي

القلابات فوصلها في شهر رجب وانسحب الاحباش منها بغير قتال
ولما استقر يونس بجيشه في القلابات بذل الامان لتجار الاحباش فجاؤا
اليها بسلمهم فوثب عليهم وصادر أموالهم وساقهم اسرى يرسفون في القيود
والاغلال الي أم درمان فاذاغ التعاشي بين الناس ان يونس غزا بلاد الحبشة
وخرب عدة مدن واستولي عليها وأن هؤلاء اسري تلك الوقائع ولم تمض أيام
حتى ظهرت الحقيقة وعلم الكل ان أولئك الاسرى كانوا تجارا أمهم يونس ثم غدر
بهم ونهب أموالهم وساقهم اسرى الي التعاشي

أما يونس الدكيم هذا فانه تعاشي من قبيلة التعاشة وكان فقيراً لا يملك
شروي فقير وهو أحد أزواج والدة التعاشي قدم على المهدي في الابيض
وبقى مع التعاشي يقاسى من شظف العيش أمره حتى توفي المهدي فجعله
التعاشي قائداً على نحو عشرين الف مقاتل وله نوادر مضحكة تدل على سخافة
عقله. منها ان الناس كانوا يأتونه فاذا وقفوا بين يديه صوبوا نظرهم الى الارض
فيقول لهم لماذا لا ترفعون ابصاركم نحوي فيقولون وهل يستطيع أحد النظر
الى وجهك الذي يفوق وجه السبع فيرتاح الي ذلك ويأمر بعزف الطبول
ويركب جواده ويأمر مقاتلته باطلاق النيران في الهواء. ومنها انه اذا جلس بين
اتباعه فلا كلام له غير الثناء على نفسه ومنها انه كان يقول اذا التقينا بجيوش الترك
نقتل في الدقيقة مئات منهم ونحترق صفوفهم ونرحزهم عن مواقعهم الي غير
ذلك من الاكاذيب فقد علم الخاص والعام ان يونس هذا من أجبن خلق الله وانه
يفر من مواطن القتال كما تفر النعامة من صفيير الصافر

ومن أعجب خرافاته انه كثيراً ما كان يقول انه سيفتح لوندرة عاصمة
الانكاز وانه سيتزوج باكرم عقيلاتها

وصلى بالناس مرة صلاة الظهر ثماني ركعات فقال له أحد الحاضرين
اسجد للسهر فغضب وقال وهل أنا جاهل حتي يرشدني مثلك فان سجود
السهر لا يكون للزيادة بل للنقص لان العبد اذا امره مولاه بحراثة أربعة
أفدنة مثلاً من أرضه ثم رأي نفسه قادراً على حراثة ثمانية أفدنة فحرف
موجباً لرضي مولاه عنه بخلاف ما لو امره بحراثة أربعة أفدنة فحرف
ثلاثة أو اثنين فان هذا النقص يكون موجباً لغضب مولاه عليه وحينئذ
يجب ان يقدم المذرة وهذان المثالان ينطبقان على الصلاة ثم أمر بالرجل
بجلد بالسياط حتي مزق جسمه وسيق الى السجن وخرعبات يونس كثيرة
يضيق المقام دون سرد القليل منها والحاصل انه كان جاهلاً سخيف العقل
ظلوماً غشوماً قاتله الله

وفي أوائل سنة ١٣٠٤ استقدم التعايشي حمدان أبا عنجة من الجبال
فقدم في جيش عمر مرم ومكث بام درمان بضعة شهور ثم انفذه التعايشي
الى القلابات لتعزيز الحامية التي بها حتي تصبح قادرة على أخذ الثار من الاحباش
فسار أبو عنجة قاصداً القلابات وبينما كان سائراً في الطريق بلغه ظهور رجل
فيها ادعي انه المسيح عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه
ولما وصل أبو عنجة الى القلابات وعرض على يونس أوامر التعايشي
بتوليته القيادة العامة على الحامية أرسل يونس يبلغ التعايشي ذلك الخبر فامر ان
يسير حياً هذه المسألة بماضي عزيمته المعروفة مطيماً لابي عنجة
أما ذلك المتنبى فانه من أهل دكرور وله معرفة بضروب السيمياء
والشعوذة حتى انه كان يصنع امام الملأ اشياء من تلك الخزعبلات يخالها
الرأي حقيقة لا ريب فيها

وأصل ذلك المذكور من جيش يونس الديكيم غادر أم درمان معه
 وكان أحق طائفا حدثه نفسه بأنه سيبلغ أربه من اتحال دعوي انه
 عيسى روح الله لما اشتهر من ان نزول المسيح عليه السلام يعقب
 ظهور المهدي المنتظر فجهر بدعواه وصنع امام الناس خيالات من السيمياء
 ظنها دراويش المهدي الاغبياء من أعظم المعجزات فأمنوا بذلك الكذاب
 وبايعوه علي الطاعة العمياء وبايعه سبعة عشر قائدا من اكبر قواد جيش
 المهديوية الذين مع يونس ولم يداخلهم ادنى شك في صدق ما ادعاه
 ومن العجب ان بين أولئك القواد ابن بقارى وهو فقيه من عائلة بقارى
 التي لها مدرسة يؤمها طلاب العلم في جزيرة السودان

وعرض السبعة عشر قائدا أمر تلك النبوة على قائدهم العام يونس
 فرافقهم الي محل الرجل ورأي من خزعبلاته ماراج على عقله الذي هو اكثر
 سخافة من عقول قواده السبعة عشر الا انه خاف عاقبة الاسترسال في هذا الامر
 فارسل يبلغ التعايشي بتفصيل المسألة سرا

ولما وصل أبو عنجة الي القلابات ومعه اكثر من أربعين الف مقاتل
 وكثير من المدافع والسوارنج وبضعة آلاف فارس أحاط بالمعسكر احاطة السوار
 بالمعصم واستدعي يونس ووضع يده على مخازن الذخيرة واستولي على الجبهه خانه
 ثم قبض علي المتنبى وسأله عن دعواه فقال انه جاء بعد المهدي وان الله أرسله
 لشد عضد التعايشي فقال له أنت فلان بن فلان ولا تزال امرأتك
 وبنوك بام درمان فاجاب بالسلب فامر بصلبه فصلب ثم قبض على السبعة
 عشر قائدا الذين صدقوه وقال لهم هاهو صاحبكم مصلوب فقالوا كلاً بل
 شبه لكم وقرؤا قوله تعالى «وما قتلوه وما صلبوه» الآية فامر بهم فصلبوا

وعادت المياه الى مجاريها وتبددت غياهب الفتنة التي كنا نظن انها تأتي بانقلاب
يكون من ورائه فرج قريب وما ذلك الا لانا كنا كالغريق يتشبث بسعفة
تقاذفها الامواج

ثم استدعى التعايشي يونس الديكيم الي أم درمان وعنفه علي
ما ظهر من خوره وضعف عزمته حيال دعوى ذلك الكذاب وسيأتي ذكر
تعيينه على دنقلة

ولما اتصل بالتعايشي نبأ مهلك ذلك الكذاب خرج ذات يوم ويده
منشور فرقي المنبر الذي أعده للخطابة وكان منبر المسجد العام في الخرطوم
فنقله الي أم درمان وأعده للخطابة وقص على الناس أمر ذلك المتنبئ ثم دفع
المنشور الي من يقرأه وفيه بعد البسمة والحمدلة مانصه

وبعد فيقول عبد ربه خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبد الله بن
السيد محمد خليفة الصديق وأمير جيش المهدي لما أتى الخبر بصلب الشخص
المدعى كذبا انه نبي الله عيسى وصلب أهوانه الذين صدقوه داخلتي شفقة شديدة
علي هؤلاء لانهم من أصحاب المهدي عليه السلام الاقدمين فاستغفرت الله لهم
فانكشف لي حالهم انكشافا روحيا فرأيتهم بعيني في طبقات جهنم وابن بقاري
في الطبقة الاخيرة منها وقد شفعت فيهم بخاء النبي صلي الله عليه وسلم
والمهدي عليه السلام فقالا لي انهم ماتوا وهم كفار ولا شفاعة فيمن يكفر
بالرحمن اه ملخصا

علي اننا نستدرك هنا تفصيل شيء من الشعوذة التي أثرت علي عقول
أولئك الاغبياء فنقول ان هذا الرجل كان يدعو الاشجار فتسمى اليه واذا
سأله المطر في غير أوانه جادت السماء بمطر كأفواه القرب ولكن لا يتجاوز

دائرة جلوسه وانتفخت جثته مرة فماتت غرفة كان فيها وخرجت من
نوافذها وأراحم مرة اشباحاً في الفضاء لم يشكوا في انها ملائكة السماء نزلوا
لخدمته وموازرتيه وبالجملة فان هذا الرجل كان بارعاً في الشعوذة متضلماً من
علم السمياء بكيفية لا يدرك كنهها أوائلك الاغبياء

ذكر فتح قندر بالحبشة

لما استقر حمدان ابو عنجة في القلابات سار الى (قندر) عاصمة مملكة
الاحباش القديمة في ألى فارس وألى مسلح ببنادق رامنجتون فالتقى بنحو
عشرة آلاف فارس من الاحباش في ضواحي المدينة ورفعت الحرب اوزارها
بضع ساعات ثم انجلى القتال عن هزيمة الاحباش وتمزيق جيشهم شذرمندر
وسقط منهم ستة آلاف قتيل في ساحة النزال

ودخل ابو عنجة المدينة ونهبها جنوده وغنم منها شيئاً كثيراً من الذهب
والفضة وعدداً ينيف على العشرة آلاف رأس من الخيول والبغال ونحو ثلاثة
آلاف نسمة من النساء والغلمان بيعوا أرقاء والنساء بينهن فتيات في منتهى
الحسن والجمال ألوانهن تكاد تضارع ألوان المصريات خلافاً لما عرف
من ألوان الاحباش الذين كانوا يجلبون فيما مضى من الازمنة الى مصر والسودان
ثم دخل الكنيسة وهشم ما فيها من التماثيل وقتل القسوس واحتمل
ما فيها من الآنية ذات القيمة واضرم النار في المدينة كلها وقفل راجعاً الى
القلابات

وأرسل للتعايشي بعدد عظيم من الغلمان والفتيات ونحو الف رأس من
البغال وخمسين حماراً وقسم بقية الغنائم على رجاله بعد ان أخذ ما اشتهاه منها

وأرسل مقداراً عظيماً أيضاً من التبر والفضة الى يعقوب اخي التمايشي
وبذل أبو عنجة الامان لتجار الاحباش وعاهدتم على ان لا يأخذ منهم غير
خمس سلهم فهرعوا الى القلابات بتجارة البن والعسل والسمن والقمح وغيرها
من محصولات بلاد الحبشة فكان يتحصل من هذه الضريبة ما يقرب من
نفقات أبي عنجة وحاميته

وفاة ابي عنجة وولاية الزاكي طمل

في رجب سنة ١٣٠٦ توفى حمدان أبو عنجة على أثر تناوله مسهلاً ودفن
بالقلابات وتبادل الناس اشاعة ان احدي محظياته واحبهن اليه دست له السم
في ذلك المسهل فاستدعاها التمايشي اليه وكانت ذات جمال باهر فدهش لدى
وقوع بصره عليها وتعلم لسانه عن استنطاقها عن الجنسية التي اتهمت بها
فامر بادخالها الى منزله ولم يجسر بعد على سؤالها عن شيء كيلا يسوءها سماعه
ولم يكتب بذلك بل حظر على الناس الكلام في هذا الصدد
ولما اتصل بالتمايشي نبأ وفاة أبي عنجة جزع جزعاً شديداً وظهرت عليه
علامات الحزن والكآبة فانتدب قاضي الاسلام أحمد علي ومعه أربعة قضاة
ليسافروا الى القلابات ويحملوا الاوامر بتولية الزاكي طمل بدل حمدان أبي عنجة
والزاكي طمل هذا تمايشي أحد أبويه من عبيد (البنضلة) وكان خادماً
في إحدى شركات النخاسة في النيل الابيض وكان جباراً قاسياً ظالماً سفاكاً
للدماء وسيأتي ذكر خبر قتله

واقعة القلابات وقتل النجاشي يوحنا

مافتى النجاشي يوحنا منذ واقعة (قندر) يتأهب لاخذ الثار وجلاء

العار وجواسيس التعاشي يرفعون اليه في كل يوم أخبار تأهب النجاشي
للمغارة على القلابات فلذا صار يوالى ارسال الامداد وأمر بتحصين
القلابات بزريبة من الشوك حصينة لا يمكن تسورها تبلغ مساحتها عشرة
آلاف متر تقريبا

وأعلن النجاشي قومه انه زاحف الى القلابات في وقت عينه قبل أوان
الزحف بالفعل ببضعة شهور فعلم التعاشي بالامر وقبل حلول الاجل هلك
حمدان أبو عنجة فارسل التعاشي أحمد على القاضي ومعه أبعة من القضاة حاملين
أوامر تولية الزاكي طمل وقد أسر اليهم ان يراقبوا الحركات الحربية حيث
اقترب ميعاد زحف الاحباش على القلابات

ولما وصل أولئك القضاة الى القلابات تلاقم الزاكي طمل بالاكرام واغدق
عليهم العطاء الوافر من أصناف الرقيق والنقود

وفي شهر شعبان سنة ١٣٠٦ هجرية هجم النجاشي يوحنا على (القلابات)
في مائتي الف مقاتل تقريبا جلهم من الفرسان واحاطوا بالقلابات وضربوا
خيامهم حولها وجلس النجاشي امام خيمته يحيط به خدمه وحشمه ووزاؤه
وهجمت جيوش الحبشة على القلابات هجمة الاسود على فرانسها واضرموا
النار في الزريبة فتقهقر الدراويش الى الجنوب واستولى الاحباش على نساءهم
وأولادهم ونهبوا دورهم

وبينما كان الاحباش مشتغلين بالنهب وصل الى الدراويش مدد من جهة
الشمال تحت قيادة فرج الله باشا السوداني الذي كان قومندان نقطة أم درمان
الذي جعله المهدي قائدا من قواده بعد ان سلم له وقد تقدم ذكر ذلك
وكان هذا المدد ببضعة آلاف من الجهادية المسلحين بالاسلحة النارية

وهم من جنود الحكومة القدماء فتقدم فرج الله باشا بجنوده وأطلق النار على الاحباش فاصيب النجاشي يوحنا برصاصة وهو جالس امام خيمته فقضت على حياته في الحال وانتشر خبر موته في عسكره فولوا منهزمين وساقوا السبي امامهم فتأثرهم الزاكي طمل حتي ارخى الليل سدوله فالتقوا عصا التسيار التماسا للراحة فداهمهم الزاكي في الغلس على غرة ووضع السيف في رقابهم فانتهبوا من نومهم مذعورين وقتل منهم خلق كثير وفر الباقون واستخلص السبي من أيديهم وأرشدهم أحد الرواد الى تابوت وضعت فيه جثة النجاشي ففتحوه وحزوا رأسه وقبضوا على سائر اسلابه ومن بينها تاج مرصع بالاحجار الكريمة وخاتمه وملابسه وعاد الزاكي الي القلابات مسرورا وغادر أحمد علي ومن معه من القضاة (القلابات) يحملون بشرى الانتصار الي التعايشي ومعهم رأس النجاشي وسائر الاسلاب

أما سرور التعايشي بهذا الانتصار فانه مما يعجز القلم عن وصفه حيث مكث أربعين يوما يذبح البدن ويدعو الناس الى تناول الطعام على قصعته المعلومة ولا حديث له غير هذا الانتصار وقد سمعته مرة يقول لمن حوله هل في الدنيا دولة تضارع الحبشة فيقولون كلا فيقول ان فتح مصر لا يكلفنا ما تكلفناه في الانتصار على الاحباش فيجيبونه بان حرب أوروبا برمتها أسهل من حرب الاحباش ثم أخذ يقول ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بهذا الانتصار قبل وقوعه ببضع سنوات ثم قال ان المهدي عليه السلام أخبره بان ترك الحبشة الذي أشير اليه في الحديث الشريف معني بزمن الخليفة عبد الله التعايشي

ولما نصبت رأس النجاشي يوحنا في السوق ووضع تاجه وسائر اسلابه

في مقصورة المسجد هرع الناس لرؤيتها وهم يشكون في صحة هذا النبا
ويقولون ان هذه الاسلاب قد سرقتها بعض الجواسيس من معسكر النجاشي
وأوصلوها الي التعاشي

هذا وقد كنت أنا وسائر الذين يترقبون الخلاص من نير المهديوة نود
من صميم افئدتنا انتصار الاحباش وفوزهم على الدراويش في القلابات عساهم
يتقدمون منها للاستيلاء على بقية السودان ولذا جاءت أخبارهم يمتهم بعكس
ما كنا نود فسبحان من يؤتي النصر من يشاء

شان خط الاستواء والمهدويين

أورد تحت هذا العنوان حوادث خط الاستواء مع المهدويين فاقول
ذكرت في أوائل الجزء الاول الاسباب التي حملت الطيب الاثر غردون
باشا على فصلي عن ولاية أقاليم خط الاستواء وبينت باسهاب المساعي السافلة
التي بذلها أمين أفندي طيب الحامية وقتئذ لنيل أمنيته من الولاية على أقاليم
خط الاستواء وكيف دفع السائح (ينكر) على الوشاية بي عند غردون
باشا حتى عاملني بالمعاملة القاسية التي شرحتها ثم ما كان من أمر ظهور
براءتي عنده بارشاد الضابطين اللذين كشفاه حقيقة المسألة
وعلى أثر هاته الحادثة امتلأ غردون باشا غيظاً من أمين أفندي وتبدلت
ثقته ومحبه فيه بوصمه بالخيانة والكرهية

ثم لما عدت مع غردون الى الخرطوم في المرة الثانية وتحادثنا في شؤون
كثيرة عن خط الاستواء علمت من حديثه انه حاق على أمين بك حاكم خط
الاستواء سي الظن به

ولما استولى كركساوي على أقاليم (بحر الغزال وشككا وحفرة النحاس)
غزا حدود خط الاستواء وعاد دون ان يظفر بشيء منها

وفي سنة ١٣٠٥ كان بام درمان رجل اسمه عبد الله الطريفي وهو عم
الحاج الزبير الذي ذكرنا في أول خلافة التعايشي انه أرشده الى سلوك
الطريق الذي سار عليه وكان عبد الله الطريفي هذا جابياً من قبل المهديوية
في إقليم القصارف فاغتال منه مالا جزيلا باتحاده مع ابن أخيه الحاج الزبير
وفي سنة ١٣٠٤ أرسل التعايشي الى (القصارف) من أوقفه علي خيانة الحاج
الزبير وعمه عبد الله الطريفي فقبض عليهما واستصفي ما اغتالاه من المال
وزجهما في السجن وبعد بضعة شهور أطلقهما وجعلهما تحت المراقبة النظرية
فعمدا الى وسيلة يتقربان بها اليه فدخل الحاج الزبير علي التعايشي وأخبره ان
عمه عبد الله الطريفي كان نخاسا في جهات خط الاستواء وله معرفة جيدة
بأخلاق وعوائد أهالي تلك البلاد وأبان له الثمرات التي تعود من فتح خط
الاستواء من جاب العاج وريش النعام والارقاء من تلك الديار فعول التعايشي
على انفاذ عبد الله الطريفي لفتح تلك الاقاليم

وعبد الله الطريفي هذا كان نخاسا وفي بداية ظهور دعوى المهديوية
قبضت عليه الحكومة وسجنته لاتيانه أمرا من انواع الخيل وذلك انه كتب
على بيض الدجاج لفظ الشهادتين وبعدهما ذكر اسم المهدي الذي عد هذا التزوير
من كراماته وكان عبد الله الطريفي هذا ذاهبا وحيل ومكر سيء

ولما صمم التعايشي علي انفاذ حملة لفتح خط الاستواء استدعاني الى داره
فذهبت اليه وانا في وجل شديد من هذه الدعوة فدخلت عليه فالفيتة جالسا
وحده فلما وقع بصره علي هش وبش فقبلت يده وجلست علي الارض

أمامه وقد ذهب روعي لما آنت من بشاشته فخطبني بما يأتي.
 يا ابراهيم فوزي اني عزمتم علي انفاذ حملة لفتح اقاليم خط الاستواء
 وبما انك كنت حاكما عليها فاني اود انفاذك اليها لتكون مرشداً صادقاً
 ومستشاراً أميناً لقائد الحملة وانني اود ان تكون راضياً بالقيام بهذه المهمة
 التي أعهد اليك القيام بها لانني عالم بانك صرت من اخلص المخلصين لنا.
 فاجبته بأنني أشكر مولاي على ثقته بي واعاهده على القيام بما عهدت الي
 بالصدق والوفاء . فسرده هذا الجواب واعطاني عشرة ريالاً وتناولت معه
 الغذاء على قصعة الضيوف وانصرفت الي منزلي مملوء الجوانح بالسرور وقد
 رايت انني استطيع النجاة من اسر هؤلاء البرابرة المتوحشين لدى وصولي
 الي خط الاستواء فقضيت ليلتي لايزور الكرى جفني لشدة ماداخني من
 السرور الذي تلاه الترح حيث استدعاني التعاشي الي مجلس حافل بالقضاة
 والحلفاء وارباب الشورى وبعد أن شكرني علي قبولي القيام بمهمة الدلالة لقائد
 حملة خط الاستواء عبد الله الطريفي قال لي انني اخشي عليك متاعب السفر
 واود ان تكون قريباً مني ولذا اقلنك من مأمورية مرافقة عبد الله الطريفي
 ولكن اكلفك بوضع رسم مشفوع بالتعليمات التي يجب العمل بها اذا وجدت
 بواخرنا النهر مسدوداً فوعده باحضار الرسم في الغد وبعد خروجي علمت
 ان سبب تاخيري ان عبد الله الطريفي وابن اخيه الحاج الزبير وشيبي عنده
 حيث قال له ان ابراهيم فوزي كان حاكماً لاقاليم خط الاستواء وقد
 شهد وقائع فتحها مع غردون باشا وانه من أعرف الناس باخلاق وعوائد
 أهلها وانا نخشى من مغبة وصوله الي تلك البلاد اذ بذلك يمكنه ان يأتي أي
 عمل يريد من ضروب الاضرار بنا وانه اذا لم يستطع ذلك فانه يستطيع

الفرار الى ماوراء بحيرة فيكتوربا نيازنا فأثرت وشايتهما على التعايشي وعدل عن
انفاذي مع تلك الحملة

هذا وقد اشتغلت ليلتي بعمل الرسم وتدوين التعليمات وفي اليوم التالي
قصدت دار التعايشي فالفيتها جالسا ومعه الذين كانوا معه بالامس وغيرهم من
الامراء وهو يلقى التعليمات على عبد الله الطريفي قائد الحملة فقدمت له الرسم
فتناوله كاتبه واوقفه على كل ما فيه فالتفت اليّ وشكرني وقال اني عزمتم علي
انفاذ الحملة ووجهتها كيت وكيت فهل عندك نصيحة فقلت نعم يا مولاي وقد
مالت نفسي للانتقام من عبد الله الطريفي وابن أخيه الحاج الزبير لوشايتهما
التي سدت في وجهي بابا كنت أرجو الخلاص بولوجه

فقال التعايشي هات ما عندك فقلت ان عبد الله الطريفي وسائر الذين
انتدبهم لهذه الحملة كانوا نخاسين وقد ذاق أهالي خط الاستواء من مظالمهم
ما جعلهم يبغضونهم أشد البغض وهم قوم لا خلاق لهم اذ كانوا يقتلون النفس
التي حرم الله قتلها الا بالحق ليكتسبوا من وراء قتلها دجاجة فلذلك تري
أهالي تلك البلاد يبغضونهم ويفرون من وجوههم كما يفر الانسان من
الضواري فاذا ذهب هؤلاء النخاسون الى تلك البلاد جاءت النتيجة بعكس
رغائبك حيث يلجأ الاهلون الى حاكم خط الاستواء ليكونوا معه على الذين
ذاقوا مرارة سيطرتهم فيما مضى ورزحوا تحت نيرهم زمنا والاولى عندي ان
يمهد مولاي قيادة الحملة الى أحد آل بيته ويشد أزره بجيش من الجهادية
ليكون قادراً على كبح جماح هؤلاء النخاسين الذين بمجرد ان تطأ اقدامهم أرض
تلك الارحاء يعودون الى أعمالهم السيئة التي تاباها عدالة مولاي وما وصلت
الى آخر هذه العبارة حتى بدت علامات السرور على وجه التعايشي والتفت اليّ

وبالغ في الثناء على وشكرني قائلاً إن ما قلته حل في لبي جرة مملوءة بماء
الشهد وعملاً بنصيحتك سأعين أحد آل بيتي لقيادة الحملة وقد أرجأت أمر سفرها
الذي كنت مزعماً انفاذه في الفسد ريثما اختار القائد الجديد الذي لا بد من
إمهاله أياماً ياخذ في خلالها اهبتة للسفر

وكان من جملة الحاضرين عبد الله الطريفي وابن أخيه الحاج الزبير نخرجا
يتعثران في أذيال الفشل ووجوههما مكفورة والله أعلم بما في قلوبهما من
النيظ والاحنة على

ولدي خروجهما قابلاً أحد اصداقائي المصريين وقال له أليق من فلان
ان يأتي ما أتاه امام الخليفة فقال لهما الجزء من جنس العمل لانكما بدا تما
بالوشاية عليه فنجحتما في الاضرار به وهكذا يكون جزاؤكما

وعلى أثر هذه المحادثة انتدب التعايشي احد اقاربه المسمى عمر صالح ومعه
نحو الخمسمائة جهادي وجعله قائداً للحملة وجعل عبدالله الطريفي كدليل له ويبلغ
مجموع رجال الحملة نحو ستة آلاف رجل جلهم مسلحون بالاسلحة النارية

وفي اواسط سنة ١٣٠٥ غادرت الحملة أم درمان على اربع بواخر ولما
وصلت الي اماكن السدود وجدتها مترامكة بها فتعذر عليها متابعة السير الى جهة
الجنوب فمكثت بقية سنتها تعالج فتح السدود فهلك من رجالها كثير وهلك
أيضا عبدالله الطريفي مع من هلك وقوبلت الحملة من أهالي البلاد بنفور عظيم
وامتنع الاهلون من تقديم الاغذية للرجال الذين انقسموا شطرين أحدهما
اشتغل بتحصيل القوت بالسلب والنهب من القبائل القريبة من شاطئ النهر
والآخر اشتغل بفتح السدود

هكذا وقد رايت ان اورد هنا شذرة من وصف السدود انما للفائدة التي

بالتاريخ

ربما تشرف اليها القارىء فاقول

يبتدىء خط السير في النيل الابيض من الخرطوم قبل ان يختلط مع
النيل الازرق وهذا النهر هاديء وضفتاه متراميتان عن بعضهما حتى يتعذر
في بعض الامكنة رؤية من بالشاطئ الشرقى الشاطئ الغربى مثلا ولو بالنظارة
المعظمة وذلك من بعد بركة السنيورة فاذا غادرت بحر الزال متجها الى
الجنوب عند حدود الاقاليم الاستوائية كان الامر بمكس ذلك فتشاهد ضفتي
النهر متقاربتين والماء مندفع بقوة حتى ان خريره يصم الآذان
وتربة تلك البلاد من طينة لزجة تكاد تضارع المواد الثروية الشديدة
اللزوجة كالصمغ ونحوه

ويثبت علي ضفتي النهر حشيش في طول قصب السكر والناظر اليه
لا يشك انه قصب السكر ولكنه مملوء بشوك صغير يتطار على من يدنو
منه وتحدث منه قروح قل ان يبرأ من تعلق به ولشدة اندفاع ماء النهر
تقطع من الجزر قطع من الطين عليها اجزاء من هذه الحشيشة التي يطلق
عليها اسم (ابو صوفه) فتتراكم عند مضيق النهر وتمنع سير السفن وطريقة
ازالتها هي ان تقطع اجزاء صغيرة يدفعها التيار الى المتسع من النهر

هذا ما كان من امر حملة المهديين واما امين باشا حاكم خط الاستواء
فانه غادر (اللادوه) عاصمة الاقاليم الاستوائية الى الجهات الجنوبية على اثر
ما اصاب جنوده من النشل منذ عامين امام (كرم الله كرساوى) داعية المهدي
في (شكا وبحر الغزال) وقد تقدم ذكر غارته على حدود خط الاستواء

ولما وصل عمر صالح الى (اللادوه) ووجدها خالية علم ان الحامية لحقت
(بالر جاف) جنوب اللادوه فتقدم نحوها وشن عليها الغارة وذبح بعض من بها من

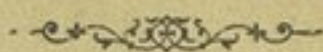
الجنود وفر البعض فاجتمعت الحامية في مكان اسمه (اللابورية) وهاجموا
ال دراويش فدارت الدائرة على الحامية وقتل كثير من جنودها وفر الباقون
الي (الدفليه) فاعاد الدراويش السكره عليهم واستولوا على خطوط النار عنوة
وتقهقرت الجنود ثم كرت على الدراويش وقتلت منهم خلقاً كثيرين واجلتهم
عن الدفليه فغادروها منهزمين لا يلوون على شيء ولحقوا بهواخرهم في
(اللادوه)

وفي غضون اشتغال الحامية بدفع غارة الدراويش وصل المسترستانلي
الرحالة الذي كلفته الحكومة الحديدية بسحب حامية خط الاستواء عن
طريق زنجبار

ولما سمعت الجنود بأمر هذا الانسحاب وعلمت ان طريقها الي جهة
زنجبار مملوءة بالمخاطر والصعوبات ولا دواب للحمل في تلك الارحاء واشيع
بينهم ان مسافة الطريق تبلغ مسيرة سنة تمرر السودانون منهم على امين باشا
وقبضوا عليه وسجنوه وعينوا حاكما رضباطاً من صغار الضباط السود كما قبضوا
على سائر الضباط المصريين والموظفين الملسكين وزجروهم في السجن
ثم نعى الي اولئك الجنود المتمردين ان الدراويش متقدمون نحوهم فهرعوا
الي لقاءهم في جهات جبال (الدفليه) فقام ضابط سوداني يدعي سليم مطر وهجم
علي السجن واطلق امين باشا وساروا الي جهة قريبة من بحيرة فيكتوريا نيازا
وقابلوا المسترستانلي هناك فعهد المسترستانلي الي سليم مطر تسكين ثأري
الحامية واسماتهم لمرافقته فتوجه الي (الدفليه) وحاول اقناع الجنود بوجوب امثال
أمر الحديد الذي يحمله ستانلي فلم يفلح ورموه بالحياة وكادوا يبطشون به وظل
المسترستانلي ينتظر عودته نحو شهرين ثم اجتاز النهر وابتدأ مسيره الي زنجبار

ثم حتمته في الطريق كتب من الضابط سليم اغا مطر يخبره فيها بجبوط مسعاه فتابع
المستر ستانلي سيره حتي وصل زنجبار بعد مسيرة تسعة شهور هلك فيها اكثر
من نصف الذين رافقوه من متاعب السفر حيث كانوا يسرون على الاقدام
ولولا سوء تصرف امين باشا وذبحه الافيال الهندية والثيران المروضة
لكانت رحلة ستانلي الي زنجبار من اسر الاسفار اذ الذين رافقوه لا يبلغون
الفي نسمة والثيران المروضة التي ذبحها تقرب من ثلاثة آلاف راس عدا
بضعة افيال

وعلى أثر ذلك صفا الجو للمهديين في خط الاستواء وانطلقت ايديهم
فيه يجلبون منه العاج والريش وسائر محصولاته والله الامر من قبل
ومن بعد



ذكر عزل محمد الخير من بربر وموته

ذكرنا ما كان من امر محمد الخير وقيامه بدعوة المهدي في بربر واحتلاله
دقناة بعد جلاء الحملة الانكليزية عنها

وفي اوائل سنة ١٣٠٤ حين استتب السلطان للتعايشي على البلاد ووجه
اهتمامه الي عزل الامراء الذين ولاهم المهدي واستبداهم بذوى قرابته او عز
يعقوب اخو التعايشي الي الحاج علي سعد امير الجعليين الذين يسكنون القرى التي بين
بربر وام درمان ان يكثر من الشكوى الي التعايشي ويتدمر من أعمال محمد
الخير ويقبح سيرته فيهم ويرميه بكل منكر وفضيحة وكان محمد الخير قد
احتكر وظائف الجباية والقضاء لاقاربه واتباعه ووعد يعقوب الحاج علي
سعد بالولاية بدل محمد الخير فاغتر بوعدده واسترسل في الطعن على محمد الخير

ونسب له أمورا هو براء منها وتعالى في تقبيح سيرته وتشديد النكير عليه
 فارسس التعاشي يستدعي محمد الخير الى أم درمان فقدم عليه وعند ذلك عقد
 التعاشي مجلسا عاما جمع فيه بين محمد الخير والحاج على سعد فسمع هذا الأخير
 محمد الخير مطاعنه فيه فبكى واتحب ورفع يديه الى السماء قائلا اللهم اني أشهدك
 اني برىء من هذا كله وكانت هذه المطاعن مما يتجاني القلم عن ذكره ومن
 جعلها رمي محمد الخير بارتكابه الزنا وقد ذكرنا انه كتب للمهدي على اثر فتح
 بربر يقبح له استباحة اعراض المصريين بضروب السبي التي سار عليها ملتصا
 منه الكف عن ذلك فاجاب التماسه وهذه الحسنة ادل دليل على أن الحاج على
 سعد كاذب في مطاعنه على محمد الخير لانه لو كان فاسقا كما ادعى لما رغب عن
 سنة السبي السيئة ولما رأى وجوب الكف عن هتك اعراض المصريين في بربر
 على أن هذه الاذكايب مدبرة بين التعاشي واخيه يعقوب يقصدان
 بها ابعاد محمد الخير عن بربر ليخلفه في وظيفته شخص بقارى ولما كان محمد الخير له
 شهرة بين اهالى السودان رأوا أنه لا يحسن الاقدام على عزله بدون اسناد
 فظائع اليه مثل التي فاه بها الحاج على سعد

وفي ذلك اليوم أصدر التعاشي أمره بعزل محمد الخير وتولية عثمان الديكيم
 بدله فسار الى بربر في خمسمائة فارس ونهب القرى التي في طريقه واتلف
 الزرع قبل ان يحصد وكان هذا العمل من مقدمات القحط الذي ضرب اطنابه
 في السودان وستري تفصيله فيما سيأتي

أما عثمان الديكيم هذا فهو شقيق يونس الديكيم واعماله واخبار جهاته تفوق
 الذي ذكرناه عن شقيقه

هذا وقد بقى محمد الخير في أم درمان بضعة شهور ثم سجن بتهمة انه

فاه بكلام يمس شرق التعايشي ثم أطلق والحق بدقلة كأحد صغار القواد
وتوفي بها في سنة ١٣٠٧

وحدث أناس من الذين حضروا وفاته انه لما احتضر جزع وقال اتني
كنت اظن أن دعوة المهديّة الله ورسوله فدعوت الناس اليها وأما الآن
فقد علمت انها دعوة الشيطان اراد بالاسلام والمسلمين شرا بظهورها وان الله
تعالى سياتخذني على ما جنته يداي ان لم يرحمني ويعف عن سيأتي ثم نطق بالشهادتين
وفاضت نفسه

النور ابراهيم الجريفاوي وتجار المصريين في بربر
النور ابراهيم الجريفاوي ذكروري استوطن ابوه أوجده قرية (الجريف)
التي تبعد عن الخرطوم جهة النيل الازرق ببضعة اميال وكان مشغلا بصناعة
اللبن وحرقه وبينه لسكان الخرطوم لتشييد المنازل
وقد ذكرنا انه اغتال قدرآ من المال دفعته له الحكومة ليورد لها به الغلال
فسرّب المال الي جيبه وكان اذ ذلك من أعضاء مجلس السودان حائزا للرتبة
الرابعة ثم لحق بدعاة المهدي

ولما عزل الخليفة التعايشي محمد الخير من بربرولي النور الجريفاوي هذا
امانة بيت مالها وكان النور هذا مشهورا لدى سكان الخرطوم ابان اشتغاله بصناعة
اللبن بالورع والتدين ودمائة الاخلاق وحسن المعاملة مع الحقير والعظيم
والصغير والكبير

ولما دخل في سلك موظفي المهديّة انسلخ عن هذه الصفات وانقلبت
كلها الي ضدها وصرت لا ترى منه غير رجل ظالم غاشم خرب الذمة قد نبذ

الورع والتقوي وراء ظهره شرس الاخلاق سيئ المعاملة لا يقول الا سوا
والويل ثم الويل لمن كانت له حاجة عنده والى ويل له ان كان مصريا فانه
لا يسمع منه غير الشتائم المؤلمة ولا يرى منه الا سائر ضروب الالهانة وحاجته
لا تقضي ولو كانت على طرف الثمام وبالجملة انه قد صفا له الموحي خلتاه شخصا
غير ذلك الذي كان يبيع الابن ولاغرو فان الظلم كمين في النفوس تظهره القوة
ويخفيه الضعف

وفي ابان اسناد امانة بيت مال بربر اليه كان يفد اليها ألوف من التجار
المصريين من أهالي مدبرية اصوان ولم يكن غرضهم الحقيقي الاتجار بل كانوا
ميالين الى دعوة المهديّة وانما تذرعوا بالتجارة لقضاء ما ربههم من المبايعة وحمل
تعاليم المهديّة الى بلادهم ونقل اخبار الحكومة للتعايشي فكتب النور الى
التعايشي يقول له ان هؤلاء التجار رواد للحكومة الخديوية وهم يتسترون
بالتجارة وعندهم من المال ما يجب ان يكون حقا لبيت المال فكتب التعايشي الى النور
يامره بمصادرة اموال اولئك التجار مع انه لا يجهد انهم معه على الحكومة
وليسوا مع الحكومة عليه ولكن طمعه في اموالهم اذ جاءه الى سلبها

وعلى اثر ذلك وثب النور الجريفاوى على تجار المصريين وقبض على بضعة
آلاف منهم وعذبهم ومزق اجسامهم بالسياط كي يدلوه على اموالهم التي
بلغت قدر اطنان اثم اطلقهم وهم لا يصدقون بالنجاة بعد ان وردوا موارد
الموت فعادوا الى بلادهم بقلوب مملوءة ببغض المهديين وحب الفرار من دعوتهم

السودان الشرقي

بعد ان دارت الدائرة على عثمان دقنه في (كوفيت) وفر من وجه الراس

الولا عاد الى كسله ثم استخلف عليها ابن أخيه وغادرها الي (طوكر)
 ولم تمض سنة حتى ثقلت وطأة عثمان دقنه على الاهلين فارتفعت
 أصواتهم بالتذمر من مظالمه الفادحة التي أحسوا بشقل وطأتها عليهم فهرعوا
 الى الخليفة يشكون مالا قوا فلم يجدوا منه غير التسوية والمطل والاتهام بالانحراف
 عن جادة الصراط المستقيم فناروا على عثمان دقنه عدة ثورات
 وفي أواخر سنة ١٣٠٣ كتب التمايشي الى عثمان دقنه يستقدمه وكانت
 أول مرة استقدمه فيها بعد ان قبض على زمام الملك فشخص من
 (طوكر) الي بربر ومنها الي أم درمان فاستقبله التمايشي بصنوف الاكرام وبعد
 انقضاء أيام عيد الاضحى أعطاه خمسة آلاف مقاتل من البقارة فسار بهم الي
 كسله عن طريق (القضارف) ثم سير خلفه الحاج محمد أبا قرجة في عشرة آلاف
 مقاتل وسلمه أمرا بانه امير شرقي السودان بدل عثمان دقنه الذي عزل من
 الامارة وجعل كواحد من القواد فسار أبو قرجة على طريق القضارف أيضا
 قاصدا كسله ولدى وصوله اليها أعلن عزل عثمان دقنه وولايته بدله فسكنت
 الاضطرابات وأمنت السبل وفتح طريق الاتجار بين مصوع وكسله . وبعد
 بضعة شهور أصدر التمايشي أمرا الي أبي قرجة بمغادرة كسله الي (طوكر)
 واستخلاف حامد على أحد أقارب التمايشي على كسله فسار أبو قرجه الي
 (طوكر) وعسكر فيها وجرت بينه وبين الحكومة في سواكن مخابرات سلمية
 أوجبت ارتياب التمايشي في الثقة به فنزله عن الامارة وأعادها الي عثمان دقنه
 وفي غصون ولاية أبي قرجة تقدمت جيوش الدراويش الي (هندوب)
 وضيق الحصار على سواكن فخرجت حاميتها عليهم وفرقت جموعهم فعادوا
 الي (طوكر) وعسكروا فيها

أما أبو قرجة فقد ولاء التعايشي على بربر فكث بها ثلاثة شهور ثم
 عزله وولى بدله الزاكي عثمان البقاري ونفي أبو قرجة الى خط الاستواء
 وسنعود الي ذكر هزيمة عثمان دقنه من (طوكر) والقضاء على نفوذه في
 السودان الشرقي

ظهور المهدي ابو حمزة في دارفور

لما رسخت قدم عثمان آدم في دارفور انحن في القبائل نهبا وسلبا وخرب
 المدن وحمل الاهلين نيرا ثميلا حتى باتوا ولاهم لهم غير الخلاص من ذلك
 النير فقام بين ظهرانيهم رجل من المشايخ اسمه محمد كان يجلس تحت شجرة
 من الجميز حتى كنى باسم (أبي حمزه) وادعى انه المهدي المنتظر وكان مشموذاً
 ذا قدرة على عمل خيالات يخالها الناظر حقائق فاتبعه أهل دارفور كلهم
 وترامت أخباره الى الممالك المجاورة لها فنسل اليه كثير من سكانها ولحقوا به
 واجتمع حوله جيش كثيف عسكر به في الجهات الغربية وكتب الي عثمان آدم
 يدعوه الي التسليم فارسل له جيشاً تحت قيادة (الحكيم موسى) التعايشي فهزمه
 شرهزيمة وبعد اللتيا والتي وجد القائد الي النجاة سييلا

فارسل عثمان آدم الي التعايشي يعلمه يامر أبي حمزة ويطلب منه الامداد
 فارتاع التعايشي لهذا النبا وأرسل الامداد الي عثمان آدم الذي أرسل لحرب
 أبي حمزة جيشاً آخر تحت قيادة (محمد بشاره) التعايشي فلم يكن نصيبه غير
 نصيب القائد الحكيم موسى ثم توالى الحروب بين أبي حمزه وعثمان آدم
 فكانت الدائرة تدور على دراويش عثمان في جميعها وخضعت بلاد دارفور
 الغربية كلها لابي حمزة وشمرت معه على حرب عثمان آدم الذي ضاقت الدنيا

في وجهه كما ضاقت في وجه التعاشي الذي أصدر أمرا الي عثمان آدم بالتقهقر
من دارفور الي كردفان

وبينما كان عثمان آدم يتأهب للتقهقر زحف عليه أبو جهمزة في جيش
عمر مرم ولكنه في غضون سيره أصيب بمرض الجدري ثم توفي بعد أيام
يسيرة فتابع أصحابه مسيرهم قاصدين (الفاشر) محل اقامة عثمان آدم
الذي قسم جيشه قسمين جعل أحدهما كميناً وتربص هو مع الآخر فتقدم
جيش أبو جهمزة حتى اجتازوا موقع الكمين والتقوا مع عثمان آدم فخرج عليهم
الكمين من الخلف وصاروا بين نارين فسقط منهم عدد كثير وتمسك الباقون
بأذيال الفرار فأثرهم عثمان آدم وقتل منهم خلقا كثيرين وما زال عثمان آدم
متأثرا للمهزمين حتى اجتازوا حدود دارفور ولحقوا بمملكة (أبي ريشه) وحملت
الي التعاشي رؤس جماعة من وزراء أبي جهمزة وهجر أهالي دارفور ديارهم
الي ممالك الغرب كي يمتصوا بهامن انتقام الدراويش فتخربت البلاد وصارت
بلقما ليس فيها ساكن ولا مساكن وانقطعت جباية الخراج وأصبح عثمان آدم
وجيشه في حاجة عظيمة الي النفقات فوجه اهتمامه الي الغزو في الجبال التي
حوالي دارفور لينحصل منها على قوته وقوة حاميته

شأن التعاشي وقبيلة التعاشية

لما تغلب التعاشي على مناظريه وسلب من أقارب المهدي القوة التي
كانت في أيديهم استبد هو بالملك وانفرد بالسلطان على كل بلاد السودان
وأضعف نفوذ الخليفين على حلو ومحمد شريف حتى صارا لا يبأ بهما خصوصا
محمد شريف فقد وصلت حالته الي فقدان الضرورى من القوت وانحط شأن

أقارب المهدي حتي صاروا في حالة يرثى لها ولا سيما أولاد المهدي فانهم
 صاروا يقاسون من شظف العيش ومرارة الفقر ما يعجز القلم عن وصفه
 وفي أواسط سنة ١٣٠٥ اتجهت عزيمة النعاشي الى استنفار قبيلة
 التعايشة من ديارها في جنوب دارفور ليشد بها عضده ويكون ذا عصبية
 امام الاقوام الخاضعة لجبروته وكان قبل ذلك يتألف قبائل البقارة لينال
 منهم مزايا العصبية والموازرة اذ لم يكن معه من أقاربه التعايشة الا نحو ثلاثين
 رجلا احتكر لهم الوظائف وولاهم الاعمال الخطيرة واستوزر أخاه لاييه
 يعقوب وأشركه في سلطانه حتي صار ذا نفوذ كبير وأصبح يضارع أخاه النعاشي
 في كل خواص الملك والسلطان وصار يعقوب هذا القائد العام للجيش والمدير
 المطلق لامور مملكة أخيه

وكتب النعاشي الى عثمان آدم في دارفور يأمره باستنفار قبيلة التعايشة
 كما كتب الى رؤساء هذه القبيلة يخبرها بانه صار ملكا عظيما وسلطانا فخما على
 جميع الاقطار السودانية وانه في حاجة شديدة لمعاضدتهم فانقسمت قبيلة
 التعايشة الى قسمين أحدهما رأي وجوب المبادرة لتلبية نداء النعاشي والآخر
 أظهر بغضه قائلا لا يرجي خير من سفل نال ملكا من طريق المصادفة
 صملوك كان متسولا بين ظهر انينا بالامس واليوم نذهب لننزل على حكمه
 ونضع أنفسنا بين يدي جبروته ثم هجر هؤلاء ديارهم ونزحوا الى مملكة
 (وداي) مفضلين النأي عن الديار على اللحاق بالنعاشي وانصاع القسم الآخر
 لمطالب النعاشي ونزحوا من ديارهم الى دارفور ومنها الى أم درمان وكانوا زهاء
 مائة ألف نسمة أو يزيدون

وقد أنفق النعاشي على استقدامهم أموالا طائلة حتي بلغوا أم درمان فتلقاهم

بالخفاوة والاكرام ووزع عليهم الاقوات والملابس

وكان بين هؤلاء القادمين (الغزالي احمد خوف) زعيم التمايشي وكان حائزاً
للمرتبة الثالثة من الحكومة وكان التمايشي يعمده بالهيل والهيلمان لدى وصوله
أم درمان فلم يوف له بوعده وسنعود الى ذكر بقية أخبار عثمان آدم وموته
هذا وقد كانت قبيلة التمايشة تحب السكر والتمر وطريقة تناولهم السكر
أن يكسروه قطعاً صغيرة ويأكلوه كما يأكلون الخبز

ومن النكات المضحكة ما نوردته عن أحد المصريين الذين يشتغلون في
مامل الذخيرة للتمايشي وذلك ان الزاكي عثمان الذي كان أمير بربر كلفه بتعبئة
خرطوش لغدارة صغيرة فأتى المصري العمل وذهب الى منزل الزاكي
ليدفع له الخراطوش فلتقاه بالاكرام وقدم له طبقاً كبيراً مملواً بقطع السكر
الصغيرة وجاءه بناء فيه نحو خمسة أرطال من اللبن الحليب فأخذوا يأكلان من
السكر ويشربان من اللبن ثم قال صاحبنا المصري لمضيفه لما ذال اتضع
السكر في اللبن فقال وهل يوضع السكر في اللبن فقال نعم وتناول المصري
السكر وألقاه في اناء اللبن فصاح به مضيفه فداتلفت السكر واللبن معاً فقال
له المصري لا تعجل فسيكت الزاكي ثم هز كتفيه ورأسه علامة على
اليأس فقدم له المصري اناء اللبن وقال له ذقه فقال له والغضب باد على وجهه
لاذوقه حتى تذوقه قبلي فشرب المصري وناوله الاناء فشرب منه ثم وضع الاناء
من يده قائلاً (قاتلكم الله يا معشر المصريين انكم خبيرون باتقان كل شيء) أما نحن
فلا نعرف ان مزج السكر باللبن يصيره حسناً مثل هذا ولم نتعود منذ
خلقنا الله إذابة السكر في اللبن ثم سأل المصري وهل يكون السكر لذيذا كهذا اذا
القيناه في الماء فقال نعم فظهر الارتياح ثم دخل الى بيته وعاد منه بسكر وقال

له ألقه في الماء لندوق طعمه فالتقه المصري في الماء وأمره ان يشرب منه
قبله كما شرب في المرة الاولى ثم عاد فشرب منه واخذ في ابداء الاستغراب
فساله المصري عن سبب امتناعه عن الشرب قبله فقال اني كنت اظن ان طرح
السكر في اللبن ربما تولد منه ضرر واخذ المصري يصف له الاطعمة التي يصلحها
السكر ثم انصرف عنه

ولقد اطلعت على منشور كتبه التعايشي الى قبيلة التعايشة يجب اليها
القدوم عليه وفيه اني ملكت بلاداً فيها جبال من السكر وشجر التمر وان أهالي
هذه البلاد الذين هم (الجلابة) صاروا عبيدي فسارعوا بالقدوم الى لتاخذوا
النصيب الاوفر من جبال السكر وشجر التمر وتقضوا وطركم من نساء
الجلابة وتركبو الخيول والحمير والهجن

ولما وصلوا الي كردفان كانوا يسألون من لاقاهم عن جبال السكر وشجر
التمر ومدوا ايديهم ونهبوا ساثر قرى كردفان وقتلوا مئات من الاهلين الذين
رفعوا ظلامتهم الى التعايشي فكان جوابه لهم لا تتأثروا من فعل المهاجرين
لانهم اخوانكم وشاهدوا ما حل بكم من الله تعالى ولا تنسبوه الي هؤلاء
المهاجرين اذ الفاعل الحقيقي هو الله

ذكر ضرر بخانة التعايشي

اسلفنا ذكر ضرر بخانة المهدي وما ضرب فيها من المسكوكات من نوع
الجنيه المصري والريال الذي نقش عليه (في الهجرة) وفي الطغراء (بامر المهدي)
ولما عزل التعايشي أحمد سليمان أمين بيت المال وخلفه ابراهيم عدلان
كانت مسألة الضرر بخانة من الامور التي احتج بها التعايشي على سوء ادارة

أحمد سليمان وشدد النكير عليه مدعيان اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم
لم ينفش في النقود ولا انشئت دار للمسكوكات على عهدده صلى الله عليه وسلم
فامر بجمع النقود التي ضربت في عهد المهدي فجمعت وانشأ ضرب بخانة لسك
النقود من نوع الريال وجعل نصفه من الفضة والآخر من النحاس وضرب
على أحد وجهيه (ضرب في أم درمان) وعلى الآخر طغرا مكتوب فيها (مقبول)
فسمى الريال المقبول وكان في كل سنة يأمر بتخفيض الجزء الفضي حتى صار الريال
كله من النحاس الا الطلاء الذي يغيرون به حمرة النحاس
ولقد هبطت قيمة هذا الريال الى حد أن صار لا يساوي اكثر من ملليم
اما المسكوكات الذهبية فقد منع اعادة ضربها كل ذلك ليحتكر لنفسه الذهب
والفضة ولا يدع للناس ما يتعاملون به غير النحاس
على ان التمايشي لم يكن يجهل ان ضرب المسكوكات وانشاء الضرب بخانة
كان بامر المهدي الذي ذكرنا ان أحمد سليمان كان لا يضع خيطا في خياط
الا بعد صدور أمره له بوضعه والحاصل ان التمايشي لم يترك شيئا وضعه
المهدي الا نقضه

ذكر انشاء دار للذخيرة والبارود

لما سقطت الخرطوم جمع المهديون رجالا من المصريين كانوا عمالا
في الجبه خانات وجعلوا لهم رواتب طفيفة ليشغلوا بتعبئة الخرطوم ووضع
المواد المفرقة فيه ثم أدرك التمايشي ان البارود والذخيرة التي عنده لا بد
من نفاذها فاخذ يسعى الى التوصل الى طريقة استخراج البارود فعهد الى
يوناني اسمه (ديمتري بردغاجي) استخراج البارود وانشأ دارا لهذا العمل

جعلها تحت نظر أخيه يعقوب وانفق أموالا طائلة لا تمام هذا العمل ورتب
 لعماله رواتب كبيرة فنجحت تجارب بردغاجي واستخرج شيئا من صنف
 البارود وعرضه على التعايشي الذي سر بهذا النجاح وسجد شكرا لله على
 ما منحه من النعم ومكث بردغاجي مشتغلا باستخراج البارود بضع سنوات
 وبينما كان ذات يوم يباشر عمله اذ اتهم جزؤ من البارود وتفرقع فامات
 بردغاجي وعماله واحرق الدار ونسف جدرانها فاستاء التعايشي وأظهر الحزن
 وركب الى محل الحادثة وأمر بجمع الاشلاء ودفنها

وكان التعايشي يتغالي في استرضاء بردغاجي ولدى شروعه في عمل
 البارود منحه خمسمائة ريال ومحظية من محظياته وجواري وغلانا للخدمة
 وجعل راتبه الشهري مائة ريال عدا رواتب عماله

أما المواد التي يستخرج البارود منها فانها فحم شجر الصنصاف وملح
 البارود وكبريت العامود وكان يستخرج في كل شهر عشرة فناطير من البارود
 وانشأ دار الاستخراج ملح البارود وكلف أحد الصيادلة المصريين
 بالعمل فيها

وكذلك انشئت دار لعمل المادة المفرقة التي توضع في الكبسوز المسماة
 (عجينة الكبسوز) واسند العمل فيها الى (لبتن بك) مسدير بحر الغزال
 وحسن افندي زكي أحد أطباء الحامية في الخرطوم

وانشئت أيضا دار لعمل الخرطوش وأطلق على الجميع اسم (الورش
 الحربية) وكان المشرف عليها كلها يعقوب اخو التعايشي
 وشيدت دار لحفظ الاسلحة وسميت (بيت الامانة) وكانت رواتب رؤساء

العمل مائة ريال شهريا من ريبالات التعايشي لكل واحد منهم واقل راتب
لاصغر عامل عشرة ريبالات

ذكر موت لبتن بك مدير بحر الغزال

ذكرنا أخبار لبتن بك وسجنه قبل سقوط الخرطوم

ولما سقطت الخرطوم أمر المهدي باطلاقه فخرج من السجن في حالة
يرثي لها من الفقر والحاجة ولما اشتدت به الحال قدم نفسه للخليفة التعايشي وقال
له انني أعرف صناعة تجهيز عيينة الكبسون فاثني عليه وأمر له بجائزة
وفي سنة ١٣٠٥ مرض لبتن بك ولما حضرته الوفاة أوصي سلاطين
باشا على بنتيه وامرأته التي أصلها سودانية تنصرت بدعوة الآباء الكاثوليك
ثم تزوجت لبتن بك ورزقت منه بنتين

وبعد وفاة لبتن بك زوج سلاطين باشا امرأته بحسن أفندي زكي
الذي كان يساعد زوجها في عمل عيينة الكبسون
واعتنى سلاطين باشا بامر البنيتين اعتناء عظيما حتى غادر أم درمان

المقدم عمر الجعلي واستخراج الرصاص

لما نفذ ما في مخازن التعايشي من الرصاص جاءه ذات يوم رجل من
الجعيلين اسمه المقدم عمر مشهور بالشعوذة يختلف على مدينة الخرطوم
ويحتال على ضعفاء العقول ويطلب منهم المال لشراء الادوات كي يحول النحاس
والرصاص ذهباً

وقد عرفه الناس فصاروا لا يخذعون باكاذيبه فقال للتعايشي انني أقدر

على استخراج الرصاص من احجار ام درمان فاعطاه التعايشي عشرة من
 المال وامر باعداد ما يلزمه من آلات النفخ وعدد الممل ومنحه قدرا من
 المال فاخذ يوصي اقاربه بشراء الرصاص فاذا اجتمع لديه بضع اقات وضعها في
 التنور ووضع حولها الحجارة ثم اضرم النار حتى يذوب الرصاص وتحترق الحجارة
 فينشذ يستدعي يعقوب اذا التعايشي لمشاهدة نتيجة العمل فياتي يعقوب
 ويرى الرصاص مذابا وسط الحجارة فيعتقد انه تحلل من الاحجار فيبلغ اخاه
 التعايشي فيامر للمقدم عمر بالمطايا من الجواري والمال

وفي ذات يوم صعد التعايشي المنبر وتكوف الناس حوله فقال لهم ان
 النبي صلى الله عليه وسلم اخبره بان المقدم عمر الجملي يستخرج له من الحجارة
 رصاصا يكفيه اتمتع الدنيا كلها وان الخضر عليه السلام اخبره بان وجود الرصاص
 في جوف الحجارة من كرامات المهدي عليه السلام

ولكن لم تمض بضعة شهور حتى فقد المقدم عمر الرصاص الذي كان
 يشعوز به عليهم وانقطع عن العمل مدعيا ان ادوات النفخ قد ضعفت فصنعوا
 له غيرها فلم يات بشيء ثم وكل التعايشي مراقبته الى اثنين من جواسيسه فعلم انه
 كان يتباع الرصاص من الخارج لان الناس الذين كانوا يبيعونه له كانوا
 يلتقطونه من حول متاريس الخرطوم وغيرها من مواقع الحروب ثم يذيه
 وسط الاحجار فاستدعى التعايشي المقدم عمر وعدد له سياته وما ارتكبه من
 الفس فاجابه المقدم عمر بان ما قيل عنه من الفس ليس بصحيح ثم قال له
 اأست قلت ان النبي صلى الله عليه وسلم والخضر عليه السلام اخبراك بكيت
 وكيت مذكرا له ما فاه به على المنبر وزاد ان قال له ان دعوى المهديية قامت اركانها
 بمثل هذه الاخبار فان كذب هذا الخبر فالمهديية كلها كذب في كذب فاغتاظ

التعايشي واستفتى القضاة فافتوا كما أوعز اليهم بقطع يده ورجله من خلاف
فقطعا في السوق وفي اليوم التالي توفي المقدم عمر وانقضى الامر

ذكر احراق كمال الدين عظام قتلى الخرطوم ونبش القبور
لما توفي لبتن بك واستمر حسن زكي في عمل عجينة الكبسون ونفدت
المواد الكيماوية التي تستخرج منها هذه المادة اهتم التعايشي لهذا الامر
فقام رجل يدعي كمال الدين من الهنود الذين ذكرنا نبأ قدومهم على المهديين
وقال للتعايشي اني اقدر على استخراج عجينة الكبسون بغير احتياج الى المواد
الكيماوية التي نفدت فسر التعايشي هذا القول وقال له من أي شيء تستخرجها
فقال من عظام الاموات فقال له هاهي عظام كفار الخرطوم وأمر باعداد
مايلزم لانجاز العمل فجمع كمال الدين عظام قتلى الخرطوم واحرقها بالنار ثم
سحقها في الاهوان ووضعها في أحواض كبيرة وصب عليها الماء ثم نبش
قبور قدماء أموات الخرطوم وصنع في عظامهم مثل ما صنع في عظام القتلى ثم
أقفلت الابواب على الاحواض وتركت ستة شهور فتولدت منها الديدان
وتصاعدت الروائح المنتنة منها

وبعد الستة شهور جاء يعقوب شقيق التعايشي ومعه جمع من الامراء
وفتحوا الابواب فراوا الديدان تولدت والروائح الكريهة تتصاعد منها فسألوا
كمال الدين فقال ان تولد الديدان وتصاعد الروائح علامتا نجاح العمل فاذا أقفلت
الابواب ثلاثة شهور اخرى ثم فتحت بعدها وجدت هذه الاحواض مملوءة
بعجينة الكبسون التي تؤخذ مباشرة لوضعها في الخرطوش فلم يصدقه يعقوب
وعاد الى ام درمان واخبر اخاه بان كمال الدين كاذب محتمل فاحتدم التعايشي

غيظاً على كمال الدين ولكنه لم يعاقبه بمقوبة
 وبلغت نفقات هذا العمل اكثر من اربعة آلاف ريال انفق كمال الدين
 جلها في حاجاته الخصوصية عداما أخذه من الجواري والركائب
 وبعد وقوف الخليفة على حيلة كمال الدين أصدر أمره له وللنود
 الذين قدموا معه بأخذ الالهبة للمودة الى بلادهم وأعطاهم كتباً بالدعوة للمهدية
 وخرج لوداعهم فقال له كمال الدين اني أريد منك أن تعطيني شيئاً على سبيل
 التذكار فاعطاه التعايشي نعله فأخذ يقبلها ووضعها في جيبه فطلب منه القاضي
 احمد على رد النعل الي صاحبها فلم يفعل حتى أعطاه اربع جوار وحماراً
 ثم قال القاضي لمن حوله لو طلب مني كمال الدين كل ما أملكه من حطام
 الدنيا لافتديت به نعل الخليفة وقصد القاضي من هذه الاقوال أن يبلغها
 الحاضرون للخليفة فترداد ثقتة به وسار كمال الدين ورفقاؤه الى سواكن ومنها
 الى الاقطار الهندية

تخريب بلاد الجزيرة

(وحشد أهلها بام درمان)

في أواخر سنة ١٣٠٤ هجرية أصدر التعايشي أمراً عاماً الى جميع سكان
 الجزيرة من الخرطوم الى حدود الحبشة والى حدود مديرية بربر من جهة
 الشمال وحدود مديرية فشوده من جهة الجنوب بالوفادة الى أم درمان وتوعد
 من بقي في داره ولم يهدم منزله بيده ويأت الى أم درمان وضرب لذلك أجلاً
 هو أواخر شهر رجب من السنة المذكورة ومن لم يصدع بالامر في ذلك
 الاجل عد عاصياً محارباً للمهدوية

وما اقترب الاجل حتى خربت جميع القرى والمدن التي في الجزيرة
وقدم سكانها الي أم درمان وتركوا غلالهم وحاصلات أرضهم في البلاد مودعة
في بطون الارض فمنهم الذين ساروا في البر حتي اجتازوا النهر الي أم درمان
باجرة باهظة فرضها عليهم أصحاب الزوارق ومن سار في السفن الشرعية
أدي أجرة لا تقل عن عشرة أضعاف الاجرة الاصلية لركاب السفن الشرعية
وبعد اجتماع سكان هاته البلاد في أم درمان وهم سكان مديريات الخرطوم
وسنار وفيزوغلي أنزلهم التعاشي في أم درمان في أماكن متفرقة حيث جعل
سكان كل قرية أو مدينة وحدهم فهلكت ماشيتهم التي لم تجد مرعى بام
درمان وانتدب التعاشي سرية من رجاله تحت قيادة (أبوأم فضالي) ليمروا على
القرى ويقبضوا على من تخلف عن امثال ما أمر به التعاشي فخرت هذه
السرية ما بقي من القرى ومد رجالها أيديهم الي الحاصلات الخبوءة تحت الارض
فهبوها ولم يبقوا على شيء منها

وكان سكان الجزيرة اكثر أهالي السودان دعة وسكونا وثروة
وبسبب هذا الانتقال فقدوا ماشيتهم وثورتهم وجاء هذا العمل من اكبر اسباب
تفشي المجاعة في السودان وهي مجاعة سنتي ١٣٠٦ و ١٣٠٧ اللتان أبادتا النفوس
وخربتا البلاد

وبعد استقرار هذه الخلائق في تلك المنازل استعرضها التعاشي في أم درمان
مرات عديدة ثم بعد مضي بضعة شهور أذن للمزارعين بمغادرة أم درمان لمزاولة
الزراعة فعادوا وقد عم الدمار بلادهم ولم يجدوا حاصلاتهم التي أودعوها
في بطن الارض فساءت حالتهم وأقاموا موسم الزراعة ولم يعودوا الي

أم درمان وسعود الى وصف تلك المجاعة وفشت أمراض الجدري والحميات
بين أهالي الجزيرة وصارت الوفيات في كل يوم تعد بالمئات والحاصل ان أهالي
الجزيرة هلك نحو نصفهم بالامراض التي تفشت فيهم وذهب الباقيون الى
مزارعهم بالحالة التي وصفناها

ذكر تخريب الخرطوم

ذكرنا ما كان من أمر التعايشي مع اسرى الخرطوم يوم جمعنا في المقرن
وأمرنا بمغادرة الخرطوم والسكنى بام درمان وبقي بعض الامراء ساكنين
في الخرطوم ولما عزم التعايشي على تخريب مدن الجزيرة أصدر أمراً للدرأويش
الذين كانوا ساكنين في الخرطوم بهدم المنازل التي يسكنونها وحمل الاخشاب
لتشييد منازل بام درمان فكانوا يهدمون الدور ويأخذون الانقاض يشيدون بها
منازلهم في أم درمان وهكذا تم خراب الخرطوم حتى لم يبق من المنازل
غير بضعة دور حوالى (الترسانة) أقيمت لسكنى عمال الترسانة وبقيت الحدائق
التي على ضفة النهر عامرة يبيع بيت المال محمولاتها وتجلب منها النماكة
والخضراوات الى أم درمان واحتكر التعايشي لنفسه حديقة سراي الحكمادارية
وكان المهدي وهب أحمد شرفى احدى حدائق الخرطوم الكبيرة واختص
الخليفة شريف بحديقة كنيسة الكاثوليك والحاصل ان الخرطوم صارت
خرابا بلقما ومنازلها وقصورها تلالا والدوام لله

ذكر فرار المؤلف وارجاعه الى أم درمان

في أول سنة ١٣٠٥ هجرية بعث لى صهرى عثمان فهمى باشا مائتي جنيه

انكازى مع شخص اسمه الحاج صالح على من قبيلة العبابدة فدفع لى منها
 مائة جنيه واغتال المائة الثانية فاخذت المائة جنيه ولم أطلع أحدا على أمرها
 وفي غضون ذلك جاءنى اعرابيان من قبيلة الكبابيش واخبرانى ان محمد
 ماهر باشا محافظ القاهرة الآن ووكيل محافظة الحدود وقتئذ أوصاهما بمساعدتى
 على الفرار ووعدهما بمكافأة قدرها مائتا جنيه لدى وصولي الى الحدود المصرية
 وبعد ان تداولنا في كيفية الفرار قالالى اناسافر من أم درمان على احدى السفن
 الشراعية قاصدين (الترعَة الخضراء) التى تبعد عن أم درمان مسيرة ثمانى
 مراحل جهة الجنوب على النيل الابيض ثم تقصد جهة (شركيله) فى الجنوب
 الشرقي من إقليم كردفان ثم نمتطي الجمال من هناك ونحترق إقليم كردفان
 من الجنوب الى الشمال حيث نكون فى جنوب (صحراء بيوضه) التى نحترقها
 الى الشمال وينتهي سيرنا بالوصول الى حلقا

على ان اختراق الصحراء كان يستدعى مسيرة ثلاثين مرحلة بسير الهجن
 الحثيث عدا مسافة السير من الترعَة الخضراء الى (شركيله) وجهات كردفان
 الشالية وقد كانت هذه الرحلة على ما فيها من الشقة كافة لنجاتى وخلصي من
 الاسر اذ المسافر فيها يأمن ان يدركه رجال التعاشي الذين لا يعرفون هذه
 الطريق وغاية ما يفعلونه ان يتأثروا الفارين فى الطريق التى تمر على بربر
 والصحاري التى حولها

ولما اجعت أمرى على الفرار مع ذينك الاعرابيين اللذين تعهدوا لى
 بأنهما لا يأخذان شيئا من النقود قبل ان نصل الى الحدود المصرية تركت
 لعائتي خمسين جنيها من المائة جنيه ودفعت نحو عشرين جنيها كنت مدينا
 بها لبعض التجار ولم أخبر أحدا بأمر الفرار وقلت لعائتي انى ذاهب الى جهة

قريبة في البحر الابيض لاعدود منها بشيء من الذرة تقتاتون به وتزودت
بشيء من خبز الذرة المجفف وأخذت قليلا من البصل وركبنا السفينة ومعي
الاعرايان وقد أوصياني بالابتعاد عنهما والتظاهر بعدم معرفتهما مادنا
في السفينة فغادرنا أم درمان وكان الفصل شتاء وليس معي غير الوعاء
الذي فيه خبز الذرة وملاءة من الانسجة الخفيفة المسماة (مرمر) ومعي
ثلاثون جنيا انكليزيا وضعتها في منطقة من الجلد تمنطقت بها تحت الملابس
وبعد مسيرة أربع ليال رست بنا السفينة في ساحل الترعَة الخضراء فحملت
وعاء الزاد ونزلت من السفينة والماء يكاد يبلغ تراقي والشاطئ بعيد عنا نحو
خمسة متر وتبني الاعرايان كأنهما لا يعرفان من امرى شيئا فخرجت من
الماء وقد جمد الدم في عروقي من شدة البرد فلجأنا الى غابة مظلمة
تزار فيها الاسد وتتواهب فيها النمر والذئب وسائر الضواري فقضينا تلك
الليلة حول نار أوقدناها للاصطلاء بها واتقاء السباع لأن صاحبي قال لي ان
السباع تفر ولا تقترب منها وقضينا مدة الليل لم يزر الكرى لنا اجفانا ولم
نضطجع على الثري

وفي الغداة سرنا نحن الثلاثة على اقدامنا نحترق الغابة متجهين الى جهة
الجنوب الغربي وقضينا مدة النهار في السير حتى أرخي الليل سدوله فسمعنا
نباح الكلاب حيث وصلنا الى قرية (الترعَة الخضراء) وهي قرية كبيرة
سكانها زهاء خمسة آلاف نسمة ثم غادرناها وانتهينا الى اكواخ خربة فدخلت
انا وواحد منهما في أحدها وذهب الآخر الى القرية كي يعود منها بالجمال
فذهب بعد ما قطع غصنا من الشوك ووضع على باب الكوخ فاضطجعت حتى
كان الثلث الاخير من الليل جاء صاحبنا الذي ذهب الى القرية بجملين فامتطياهما

واردني أحدهما خلفه وما سرنا نحو عشرين ميلاً وسط الفلاة ووجهتنا الجنوب
 الغربي حتى اسفر الفجر وهكذا ظللنا سائر نهار كله حتى مضى الثالث
 الأول من الليل حيث بلغنا (شركيله) في حدود كردفان الجنوبية وهناك
 نزلنا ضيوفاً على اعراب حلفاء لصاحبيّ فقدموا لنا جانباً من اللبن الحامض
 وخبزاً من الذرة وفي الغد قلت لصاحبي هيا بنا نتابع سيرنا فقلاً اننا منتظران
 شخصين تركناهما في أم درمان ليأتيا باناس فارين مثلك فضقت ذرعاً من هذا الكلام
 وأخذت في حثهما على السفر وأظهرت تخوفي من افتضاح الامر اذا عثر بنا الدراويش
 فلم يصغيا لقولي وأقمتنا في (شركيله) سبعة أيام ننتظر القادمين من أم درمان فلم يأتيا
 وفي صبيحة اليوم الثامن جلست أمام الكوخ فاذا اناب شخص راكب على حمار وخلفه
 عبد فأمعنت النظر فيه فاذا هو قبطي من كتبة جيش يعقوب أخي
 التعايشي فتقدمت للسلام عليه فترجل عن دابته وحياتي وصاحفي وعلامات
 الدهشة بادية علي وجهه ثم ابتدرني بالكلام قائلاً ان الخليفة فقدك وقد
 سير الركبان الي كل الجهات في طلبك فقلت له اني قصدت هذه الجهة لان
 لي بها صديقاً قديماً أرجو أن أنال من رفته درهيمات ثم استحلقتة على أن
 يكتم خبر رؤيته اياي في ذلك المكان خلف أن لا يذكر شيئاً من هذا الامر ثم
 انصرفت وتابع هو سيره قاصداً كردفان وعدت الي صاحبيّ فاخبرتهما بما
 أنبأني به القبطي وقلت لهما إما أن تسيرا بي في هذه الليلة واما أن ترجعاني الي
 الترة الخضراء فقلاً لا سييل الي السير مالم يحىء صاحبانا فألحمت عليهما
 بارجاعى الي الترة الخضراء وقضيت ذلك النهار وفي الاصيل رضيا باعادتي
 الي الترة الخضراء فركبا هجينيهما وأردفني أحدهما خلفه وابتدأنا السير من أول
 النهار وفي الغلس وصلنا الي ضفة النيل الابيض عند المكان الذي رست فيه

السفينة فأراد صاحبها أن يرجع على أعقابها فألححت عليهما بالبقاء ريثما يتباج
 الصباح ولما بدأت طلوع الصباح وولت جيوش الظلام ودعاني وعاداني
 طريقهما إلى (شريكه) والسباع تزجر حولي فحملت وعاء الزاد وسرت على
 ضفة النهر فوق بصرى على زورق يشبه قوارب الصيادين فدنوت منه
 عساني أجد عنده أيسا فلم أجد فقلت في نفسي لا بد لهذا القارب من صاحب
 يأتي إليه فكثت نحو ساعتين ولما لم يأت احد وأدركني بأس عظيم هون على
 حياتي التي سسستها دخلت في الزورق وقذفته في لجة البحر ووضعت وعاء
 الزاد تحت رأسي واضطجعت في الزورق الذي توسط لجة النهر وسار به التيار
 إلى جهة الشمال وظل هكذا حتى إذا كان الاصيل أبصرت قرية على ضفة
 النهر القريبة فرسا الزورق عند هذه القرية فوثبت للنزول إلى البر فأمسك
 بملابسي شخص وقال لي (يا ولد الريف ياسارق) ولطمني على وجهي عدة
 لطمات فأخذت أفرع له وكنت أود أن أعطيه جنيها من الثلاثين التي معي
 ولكنه مديده وسلب مني ملاءتي وعمامتي ومنطقستي ثم انصرف فدخلت
 القرية وسألت هل بها مصري فقيل لي ان فيها مصريا اسمه عبد الفتاح
 فقصدت محله فاذا هو ضابط برتبة ملازم ثان كان بحامية الخرطوم فتلقتني
 بالاكرام وأخبرني بان رسل الخليفة قصدت جميع الجهات في طلبي فأخرجت
 بضع جنيهات وقلت له أدركني بشراء عشرة أرادب من الذرة لاضعها على ضفة
 النهر وأجلس بجانبها حتى إذا أدركتني رسل الخليفة وجدتي على هذه الحال
 فأسرع عبد الفتاح بشراء عشرة أرادب من الذرة ووضعها على شاطئ النهر
 وجلست بجانبها وفي ضحوة الغد بينما كنت مضطجعا أبصرت راكبين قد
 أناخا هجيزهما بالقرب مني وبصرهما مصوب نحوى فمقلا جملتهما وتقدما

نحوى فوقفتهما وصاحفهما فجلسا بين يدي بأدب ووقار فقلت لهما أأنتما قادمان
 من البقعة المنورة فقالا نعم فقلت لعل خليفة المهدي عليه السلام بخير فقالا نعم بخير
 وهو يقرأ عليك السلام فوقفت على قدمي أجلا لا لذكر الخليفة وقد طار قلبي فزعا
 من هذا الكلام ثم قال لي ان الخليفة يدعوك للحضور عنده فقلت ولماذا لم تخبراني
 بذلك قبل التحية لان أوامر الخليفة يجب انفاذها في الحال فسالني أين عمامتك
 ومنطقتك فقلت سرقهما الاصوص مني في هذا المكان فقالا وما الذي جاء بك
 الي هذا المكان فقلت قصدت بعض معارفنا هنا فاحسنوا عليّ بهذه الذرة
 وها أنا مقيم لأجل حراستها ريثما تمر سفينة أحمله عليها وأقصد اذ ذاك أم درمان فقالا
 اننا نريد إشخاصك معنا الي أم درمان فكيف تقابل الخليفة بلا عمامة ومنطقة
 فارسلت في طلب عبد الفتاح فاسرع بالحضور وقال للرسولين انه جاء الي هذا
 المكان بقصد أن يتحصل على شيء من الذرة يناله من أولى البر والاحسان فجمع
 هذا القدر من الذرة وأخيراً أعطاني عبد الفتاح عمامته ومنطقته وتركت الذرة
 وديعة عنده ريثما يجد سفينة يرسلها بها الي بام درمان ثم قمنا للسفر فاردفني أحد
 الرسولين خلفه وغادرنا قرية (ولد الزاكي) قاصدين أم درمان وبعد مسيرة
 ثلاثة أيام وصلناها قبيل العصر وانحننا الجمال امام باب دار التعايشي الذي خرج
 علينا فقال له يوسف منصور هاهو عبدك ابراهيم فوزي فالتفت اليّ وقال الي
 أين ذهبت يا ابراهيم فوزي فقلت يا مولاي اني شخصت الي احسدي قري
 النيل الابيض لانال شيئاً من احسان أولى البر فجمعت عشرة أرادب من
 الذره فلم أجد سفينة شرعية تحملني فاقت في حراسة الذرة حتى جاءني هذان
 الرسولان وهنا قص عليه الرسولان ماراياه من حالتي فسكن جاشه وقال
 من الذي أذنك بالسفر فقلت أخذت اذنا من المقدم وهو قائد عشرين

مقاتلا في ترتيب جيش الدراويش فقال لي أمثلك يكون اذنه بيد المقدم فقلت
 كلاً ولكنني اضطررت لهذا السفر بسبب ما لحقني من الجوع وضيق العيش
 فصاح التعايشي قائلاً أين القاضي أحمد على بنجيء به فقال له أسلم هذا وأشار
 الى واحد الاعراب المواظبين على الصلاة بالمسجد ليكون رقيباً عليه فاسلمني
 القاضي الى بقارى كان أول كلمة سمعتها منه قوله لي (يا ولد الريف لماذا أنت
 ضخم هكذا) فاحنيت رأسي تذلاً له وقلت (هكذا خلقني الله) وبعد انقضاء
 صلاة العصر قال لي (يانوبي) وهي كلمة يقولها البقارة لكل انسان لم يكن
 بقارياً من جنسهم وهي تدل على ان المنادى بها رقيق الى أين تذهب فقلت
 الى منزلي فقال اذهب معك لأتعشى معك فقلت لا بأس فذهب معي وتناول
 الطعام وسأعود الى ذكر بقية اخباري مع هذا البقارى الذي ظلت أربع
 سنوات في اسره وتحت مراقبته

أما نبأ غيابي فقد وصل الى الخليفة بعد غيابي ببضعة ايام من يوسف
 منصور الذي كان موكلاً بجزايرتي منذ سقوط الخرطوم وهو من ضباط
 الحكومة وقد هال التعايشي امر غيابي حيث أيقن اني فررت الى الديار المصرية
 وفي مساء يوم وصولي لأم درمان أظهر التعايشي من الفرح والسرور
 ما حمله على أن دعا نفاخي الابواق وعازفي الطبول فقضوا ثلاث ساعات في
 اللهو والطرب ولم يخرج التعايشي لصلاة العشاء الا بعد منتصف الليل والحاصل
 اني أنفقت في بضعة شهور نحو عشرين جنيهاً من الثلاثين جنيهاً التي كانت
 معي في سبيل مداراة الاعرابي الموكل بي ولولا ان الله لطف بي ووصلت الى
 نقود مرسله من صديق الحميم محمد ماهر باشا محافظ القاهرة الآن لأوقني ذلك
 الرقيب في مهاوى الهلاك وسيأتي ذكر الرسائل والله الموفق

ذكر حرف المؤلف

ذكرت اني كنت مقياً بجوار منزل يوسف منصور و بجواري ضابط
برتبة يوزباشى اسمه على خير الدين كان بحامية سنار

وفى ذات يوم زارني أحد معارفي من أهالى السودان فأعطاني
خمسين ريالاً مجيدياً وأعطى جاري على خير الدين عشرة ريالاً ثم
انصرف فقال لى جاري أرى اننا فى حاجة شديدة الى حرفة نرتزق منها فقلت
ماهى الحرفة الذى ترى اننا قادران على القيام بها فقال نفتح حانوتاً نبيع فيه
(القهوة) فى ساحل الموردة فقلت لا بأس وذهبنا الى ذلك الساحل واشترينا
بوصاً وأخشاباً واستأجرنا أناساً عاونونا على تشييد كوخ فرشناه (بالابراش)
وهى نوع من الحصر يصنع من الخوص وفى اليوم التالى فتحنا الحانوت وما
مضت ساعتان على فتحه حتى جاءنا الحاج خالد العمرابى محتسب ساحل الموردة
وقبض وأمرنا بهدم الكوخ فأخذنا نتضرع له ونستعطفه فلم يجاوبنا بغير
الشتائم القبيحة ومنها يا كفار يا أولاد الريف يا أسرى وأخيراً أمر أعوانه بهدم
الكوخ فهدموه ونهبوا أدوات القهوة وأخذوا الحصر والاشباب ولم يتركوا
لنا شيئاً من البوص وكانت نفقات تشييد هذا الكوخ قد بلغت عشرين ريالاً
مجيدياً عدا ثمن أدوات القهوة فقلت لصاحبي على خير الدين ماذا نعمل فقال نبتعد
عن ساحل الموردة ونشيد كوخاً آخر نبيع فيه القهوة أيضاً فقلت ان مابق
لدينا من المال لا يكفي لتشييد كوخ آخر فقال ننفق مابق عندنا من النقود
أما ثمن البن فقد اتفقت مع تاجر مصري يبيع البن على أن نتداين منه
ما يكفينا من البن فابتعدنا عن دائرة نفوذ الحاج خالد العمرابى وشيدنا كوخاً

آخر وباشرنا بيع القهوة فيه

ولما أبصر من حولنا من الدراويش حانوتنا صاروا يترددون علينا شرب
القهوة واذا طلبنا منهم ثمنها أهانونا وضربونا وانصرفوا وبعضهم يقول لنا
اتركوا ثمن القهوة (في شان الله) اي لوجه الله فاذا قلنا لهم لا تتركه يضربونا
ويقولون انكم ما زلتكم كفاراً

ومكثنا نحو شهر نباشر هذه المهنة وقد بلغ ماتدايناه من التاجر عشرين
ريالاً لم تحصل منها على اكثر من ستين قرشاً وما بقى ذهب بين (في شان
الله) وبين ديون على بعض دراويش لا تقوي على مطالبتهم بسدادها لاننا
موقنون اننا لو ذهبنا الي مطالبتهم لقينا مانكره وربما رمونا بتهمة
الكفر وساقونا الي موقف يستحيل عودتنا منه سالمين فهدمنا الكوخ
وبعنا أخشابه وحصره وأدوات القهوة وذهبنا الي التاجر لنوفيه حقه فتنازل
عن النصف ودفعنا له النصف الآخر ثم زين لصاحبي عقله أن نحترف بمهنة
شراء البطيخ من المزارع وبيعه فاستحضرنا ثلاثين ريالاً مجيدياً جعلناها
رأس مالنا وذهب صاحبي الي قرية (العيلفون) واشترى بطيخاً شحن به مركبا
صغيرة وعاد الي أم درمان في العصر وكان ذلك في شهر رمضان فأخرجنا
البطيخ من المركب ووضعناه على شاطئ النهر ريثما نبيعه للبيعة وذهبت الي
منزلي وتركت صاحبي يحرس البطيخ وبيننا كنت عائداً من المنزل رأيت
موكب التعالشي ماراً فابصرت الدراويش الذين خلفه قد اختطفوا البطيخ
وبعد ان اجتاز الموكب ذهبت الي صاحبي على خير الدين فالفيته جاثياً على
ركبتيه واضماً يديه على رأسه شاخصاً ببصره الي الارض ووجدت
عنده بعض بطيخ مهشم فعضم علي نهب البطيخ ولصكتني أخذت في

تسليته وتهوين المصيبة وما زلت به حتى أخذته وذهبنا الى منازلنا
وكان التعاشي ذاهبا بموكبه الى منزل له بالقرب من هذه الجهة وبعد
ان أوصلت رفيقي الى منزله ذهبت خلف التعاشي فوجدته جالسا في المسجد
فقال له أحد الحاضرين ان ابراهيم فوزي ورفيقا له كانا يبيعان البطيخ فداهمهم
الانصار ونهبوا البطيخ فقال (في شأن الله) ثم قال لمخاطبه من هو ابراهيم
فوزي كأنه لا يعرفني فوقف بين يديه فقال هل البطيخ الذي أخذه الاخوان
لك فقلت نعم فقال ومن أين لك رأس المال فقلت تدايته من بعض الناس
على شرط ان يكون الرمح بيننا فقال وماذا قلت لما أخذه الانصار فقلت لم
أقل غير (في شأن الله وفي حب سيدنا الخليفة) فتبسم وقال أهكذا قلت مع
ان رأس المال دين فقلت لم أقل غير ذلك ثم حان وقت الافطار فدخل
التعاشي داره وذهبت الى منزلي للافطار أيضا ثم عدت وأنا لا أشك في
انه سيعطيني تمويضا فقضيت الليل حول مقصورته حتى انتهت صلاة القيام
ودخل الى منزله وبعد أيام قلائل ارسل لي مع أحد خدامه أربعين ريالاً من
الريال المسمى (مقبرل) الذي تقدر قيمته وقتئذ بخمسة قروش

وفي اليوم التالي قال لي صاحبي على خير الدين ان كثيراً من الذين
يتبايعون البقر والغنم يرغبون ان يكتبوا عقوداً بين البائع والمشتري يضمنونها
أوصاف البهيمة المشتراة وان أجرة تحرير عقد بيع الراس من المعز أو الضأن
قرش ومن البقر قرشان وكذا الابل فذهبت مع صاحبي الى السوق واستأجرنا
مظلة من البوص وجلسنا تحتها وجاء أصحاب الماشية للبيع فاخذنا نكتب
العقود فاجتمع لدينا نحو أربعين قرشاً قبل ان ينتصف النهار ثم أذن لصلاة
الظهر فجاء الدراويش بالسياط وأوسعوني وصاحبي ضربا وأخذوا ما جمعناه

وقالوا اذهبوا الى الصلاة ومن العادة المتبعة عند الدراويش انهم يضربون الباعة
وأصحاب الحوانيت بالسياط ليذهبوا لاداء الصلاة في المسجد والحقيقة انهم انما
يفعلون ذلك لينهبوا ما في الحوانيت من السلع فسرنا مع الدراويش الى المسجد
ونحن نلج في الضراعة ونلتمس الاحسان علينا بشيء من القروش التي أخذت
منا وبعد اللتياء التي اعطونا خمسة قروش بعد ان اشترطوا علينا عدم مباشرة هذه
الحرفة لما فيها من كثرة الايراد وحيث اننا مصريون وكفار بزعمهم فلا يصح
ان نحصل على شيء يزيد على ثمن الخبز بلا ادم
هذا وقد استطاع صاحبي على خير الدين الهرب واللاحاق بمصر بعد هذه
الكوارث بنحو عامين



ذكر عثمان الملقب بشيخ الدين بن عبد الله التعايشي
لما أفضت خلافة المهديوية الى التعايشي كان سن ابنه عثمان لا يتجاوز
عشر سنين تقريباً

ولما كان التعايشي ذا طموح لجعل الملك ورثاً في آل بيته مهد كل الصعوبات
التي تعترض هذا السبيل وخط من قدر انجال المهدي وسائر ذوى قرابته
وأخذ يعيرهم في مجالسه الخصوصية بانهم دناقلة أسافل لا يصلحون لشيء غير
حراسة الابواب

وفي أواخر سنة ١٣٠٥ دعا ابنه عثمان وعمره لا يتجاوز اذ ذاك ثلاثة
عشر عاماً وقال على رؤس الملائكة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ائنه بلقب
(شيخ الدين) وانه مرشح ليكون خليفة رابعاً ويجلس على كرسي عثمان بن
عفان عليه سحائب الرضوان

وبعد ان أعلن التعايشي بين أهله ترشيح ابنه عثمان للخلافة عاد فسكت
 عن هذه المسألة ولم يتكلم عنها بعد لان اخاه يعقوب حذره من ولوج هذا
 الباب وقال له انك ان فتحت باب الكلام في أمر الخلافة أوجبت على نفسك
 السير على حسب ترتيب الخلفاء وإذ ذاك يجب تقديم على حلو خليفة الفاروق على
 ابنك الذي تريد جعله خليفة لعثمان ولا يبعد ان الخليفة على حلو يحول بين الخلافة
 وبين ابنك ويجعلها وراثه لأولاده اذا قدر له ان يخلقك فعدل التعايشي عن تولية
 ابنه الخلافة واخذ في أسباب تناسي الناس ذكرى الخلافة واهمية الخلفاء فجلس
 ذات يوم والناس حوله وقال لهم ان النبي صلى الله عليه وسلم والخضر والمهدي
 اخبروه بان لا خلافة بعده وان الملك والسلطان سيكونان بيد اقرب الناس اليه
 وقال مرة ان النبي صلى الله عليه وسلم اخبره بعبارة مبهمه حيث قال له انت اربعون
 فلم يفهم معنى الاربعين أهى اربعون عاماً ام اربعون شهراً أم اربعون يوماً
 فاخذ من حوله من المتعلقين في البكاء وكان ابن النجومى حاضراً فقال لما اذا
 تبكون فقالوا لقد ساءنا ان سنى حكم سيدنا اربعون سنة فقال لهم التعايشي
 سواء كانت سنو حكمتى اربعين سنة أو اربعين شهراً أو اربعين يوماً فانه لا يبق
 بعدي على وجه الارض مؤمن وان الساعة لم يبق عليها غير ما هو باق من أجلى
 وفي هذه السنة أى سنة ١٣٠٥ زوج التعايشي ابنه عثمان بنت عمه
 يعقوب وبالرغم عن التقاليد التي سنها المهدي بتخفيض مهر البكر الى عشر ريبالات
 والثيب الى خمس ريبالات وتحذيره من الاحتفالات في ليالى الاعراس وتوعده
 من خالف هذه القواعد بالعقوبة الصارمة تفالى التعايشي في إظهار الابهة
 في الاحتفال بقر ان ابنه حيث اقيمت الافراح وادبت نحو خمسين مأدبة
 حضر كل واحدة نحو الالفين من المدعوين ومع بساطة الأطعمة في هذه المآدب

التي كانت قاصرة على اللحوم والتمر وبعض الخضراوات قد بلغت نفقاتها
قدراً طائلاً من المال

وكان لحمدان أبي عنجة دار كبيرة شيدها بالآجر والابن الأحمر فاخذها
التعايشي وأسكن فيها ابنه عثمان ومن ثم ظهر عثمان بن التعايشي بمظهر الامارة
وحاول أبوه ان يوليه قيادة الجيوش ويستورزه بدل أخيه يعقوب الذي اضر
لعثمان الكراهة وأوجس خيفة من ان يشرع أخوه التعايشي في اقصائه عن
منصبه ويستعويض عنه بابنه عثمان الذي أخذ يجاهر عمه يعقوب بالعداوة ويعيب
أعماله ويشدد النكير عليه حتى أفضى ذلك بينهما الى مناظرات شديدة ظهر بها
للتعايشي ان قبائل الاعراب البقارة سيما التعايشة شديدة التعلق بأخيه يعقوب
وانهم منقادون له انقياداً أعمى وكثير من القواد صنائه وفي الحقيقة ان صفات
يعقوب هي التي جذبت هؤلاء الاقوام وجمعت قلوبهم على ولائه والاخلاص
له لانه كان اكرم خلقاً من أخيه التعايشي وألين جانباً منه ولشدة دهاؤه وتفنته
في أساليب الخداع كان لا يباشر أحداً بسوء أما سياسة أخيه فكانت خرقاء ولذا
كان لا يظهر بغير مظهر القوة والجرروت فامتلات الافئدة برهبتة وفزعت
من قهره ومالت الى جانب أخيه يعقوب الذي كان قابضاً على زمام أعطية الناس
وبيده ارزاقهم فمن أرضاه منهم أمن غائلة أخيه التعايشي وتناول عطاءه وحصل
على رزقه وان كان من أولى الوظائف فانه يصير آمناً على وظيفته بعد ان يؤدي
الى يعقوب ما يفترضه عليه من المال وسيأتي أن ما كان يتناوله يعقوب من
رشا الوظائف وغيرها كان يدفعه الى أخيه التعايشي

هذا وقد ايقن التعايشي ان محاولة اقصاء يعقوب ستكون ذات
مغبة سيئة وكان يخشى أن يهب لمناواته حيث ان القوة في جانب أخيه

كانت ارجح منها في جانبه فضلا عما يعلمه من سير ابنه الذي شب ولا هم له غير
 اللهو والتفاني في حضور ليالي الرقص وشرب الخمر مع ان المهذوية منذ ظهورها
 شددت النكير على الراقصات وسنت العقوبة الشديدة عليهن كالجلد بالسياط
 وحلق الرأس ومصادرة الاموال وفي الحقيقة ان المهذوية بسنها هذه الاحكام
 أحسنت صنعا لان عادة الرقص سيما في الاعراس من أقبح عوائد السودان
 وأشدها مساسا للآداب العمومية اذ يجتمع في ليلة الزفاف عدد كبير من
 الشبان والفتيات يغنون بانغام مختلفة بين ثقيل ووسط وخفيف ويطنبرون
 باصوات مزعجة كأنها حشرة الصدور ثم ترقص الفتيات ومن ضمنهن
 العروس على هذه الانغام ويحنين ظهورهن حتى تكاد رؤسهن تمس الارض
 واجسامهن عارية ليس عليها غير الخلي وعلى عوراتهن سيور من جلد طولها
 أقل من عشرين سنتمرا تري من خلالها عورة الراقصة وتسمى هذه
 السيور (الرهط) ويظل الرقص والغناء مستمرا في منزل العروس مدة
 أربعين ليلة أو لاهن ليلة الزفاف

هذا ولنعمد الى ذكر عثمان شيخ الذين الذي طرح الوقار وتهتك في حب
 الراقصات ووالي السهر في ليالي الرقص وجمع حوله عددا كبيرا من المغنين المطنبرين
 وأخذ عمه يعقوب يرفع الى والده التعايشي أخبار ما يقف عليه من قبيح سيره
 واسترساله في قضاء الشهوات وشرب الخمر ولم يترك بابا من أبواب الفسق الا
 ووجهه وبالجملة انه ظهر في مسرح الخلاعة وضروب اللهو ظهور المهتكين وامسى ولا هم
 له غير اغتصاب كل بنت تعجبه والتمتع بها بضع ليال وجمع حوله عددا كبيرا
 من الخنثين وصار الامراء وسائر الناس يخفون اولادهم عنه حيث كان
 يأخذهم بصفة حراس وخدام له ولم يعمل أبوه لكبح جماحه عملا

سوى انه كان في بعض الاوقات يقبض على بعض ندمائه ويبعدهم الى جهات
خط الاستواء

هذا وقد مد عثمان يده الى الجباة وامراء الجهات فكانوا يدارونه
بالهدايا اتقاء شره وكانوا في حيرة من أمره لان عمه يعقوب كان يحذرهم
من إعطائه شيئاً من بيت المال

وجمع التعايشي نحو أربعمائة من غلمان الاحباش الذين أخذوا أسرى في
حروب الاحباش واركبهم الخيول الكريمة وجعلهم حراساً لابنه

وقد حذا حذو عثمان شيخ الدين في جميع اخلاقه واطواره شبان البقارة
الذين شبوا في أم درمان وصرت تري دور أمرأهم وقوادهم غاصبة بالمغنين
والمطبرين وانغمسوا كلهم في الترف واللغو وشرب الخمر حتي صاروا يتباهون
بذلك ويفاخر بعضهم بعضاً بهذه المنكرات وسيأتي الكلام على المخنثين وما
كانوا يعاملون به في أيام المهديين ثم ما صارت اليه حالتهم من الانقلاب
على عهد عثمان شيخ الدين واضرابه من شبان البقارة

والحاصل ان التعايشي رأى ان لا مناص له من ترك أخيه يعقوب يشاطره
النفوذ والسلطان في ملكه بالرغم عن طموحه لرفع شان ابنه وترشيحه لنيل
الملك من بعده ويبد الله كل شيء

الكلام علي الخراج والجباة والعمال

عقدنا هذا الباب لنأتي فيه على ذكر نظمات المهديين وعواندهم
في جباية الخراج وتعيين الجباة والعمال اذ من هذا الباب يقف القارئ على
نظمات القوم ويعرف أساليب الخراج وتعيين الجباة فنقول

تنقسم البلاد السودانية في كيفية جباية الخراج الى قسمين. القسم الاول
 أمراء البلاد الذين لهم شبه استقلال في اماراتهم ولاسلطة لأمين بيت
 المال عليهم وهؤلاء أمراء شرقي السودان كعثمان دقنه وأمير دنقلة عبد الرحمن
 النجمي والذين خلفوه وأمير جيش السلابات حمدان أبي عنجة ومن خلفه
 وأمير دارفور وكردفان عثمان آدم ومحمود أحمد الذي خلفه بعد وفاته وكذلك أمير
 بربر فهؤلاء الامراء لهم شبه استقلال في أعمالهم بحيث يقتلون وينفون في دائرة
 نفوذهم لانهم يقودون جيوشا جرارة ويحكمون على عدة أقاليم ولكل واحد
 من هؤلاء الامراء بيت مال خاص وسجن وشرطي خاص بامارته وهو الذي
 يعين الجباة من طرفه وينفق ما يجتمع في بيت ماله على الحامية التي تحت إمرته
 وكانوا في ظاهر الحال غير مكلفين بارسال شئ من خراج بلادهم الى أم درمان
 ولكن الحقيقة انهم يؤدون اكثر من نصف ما يجمعونه من الخراج الي يعقوب
 أخي التعايشي بصفة هدايا واذا صودرت أموال أحد الاغنياء فان القيمة
 التي صودرت ترسل برمتها للتعايشي وأخيه وابنه وفي جميع الاحوال كان
 ما يرسل الى الخليفة من نوع الذهب والفضة الخالصة ونوعي الريال
 المحيدي والنساوي وان كان الذهب أحب هذه الاصناف الي التعايشي .
 والقسم الثاني جباة صغار يعينهم أمين بيت مال أم درمان يبلغون عشرة
 جباة كل جاب لا يتجاوز دائرة نفوذه قسما من أقسام مديرتي الخرطوم
 وسنار وهذان الاقليمان هما اللذان بقيا تابعين لبيت مال أم درمان
 اما الخراج الذي يجبي فهو عبارة عن عشر الجبوب وزكاة الماشية من الغنم
 والبقر والابل حسب الفريضة الشرعية وزكاة الفطر يأخذونها قهراً من كل من
 مرسبهم وليس بيده قسيمة بتوقيع أحد الممال تفيد انه أدى زكاة الفطر وزكاة الممال

تؤخذ قسراً من التجار ومن يظن انه ذومال

هذه موارد خراج المهدوبين ومقاديرها ظاهرة لكن الحقيقة انهم كانوا يأخذون اكثر من ثلث محصول الحبوب وهذا اذا لم يدعوا على المزكي انه شرب خمرأ أو استعمل دخاناً ليتوصلوا بذلك الى مصادرة أمواله كلها

ويدفع الجابي قبل تعيينه الى يعقوب الف ريال من العملة القديمة ونحو خمسمائة ريال الى أمين بيت المال ونحو خمسمائة ريال لكتابة يعقوب وبيت المال وحجاب يعقوب فاجملة ثلاثة آلاف ريال ثم تصدر الاوامر من التعاشى بتعيين أولئك الجباة فيغادرون أم درمان في شهر محرم من كل سنة ويعودون اليها في العشر الاولى من شهر ذي الحجة فيؤدي كل جاب اثنى عشر الف ريال الى يعقوب ونحو خمسة آلاف أردب من الفلة عدا الماشية من أنواع البقر والغنم وعدا الركائب الجيدة من الخيول والحمر الاهلية والهجن وعدا هذا وذاك الجوارى الحسان

واذا صادر الجباة أموال أحد الناس أرسلوا المال كله الى يعقوب والوہل ثم الوہل لمن اخفى ولو شيئاً تافها

وجملة القول ان ما يتناوله يعقوب كان يبلغ خمسة وعشرين الف ريال ولا يحيص للجابي عن تقديم مثل هذا القدر الى بيت المال عدا ما يرشى به أمين بيت المال فيكون المجموع نحو ستين الف ريال أما الفسلا فانه لا تدخل تحت حصر لكثرتها ثم ان الجابي وكتبته واعوانه يتناولون من المال ما لا يقل عن نصف هذه القيمة عدا نفقاتهم مدة العمل حيث الأهلون مكافون بتقديم الاغذية لهم والملف لدوابهم

ولا يفوتن القارى ان ما كان يتناوله يعقوب من الرشوة كان يصل خزائن

التعاشي بحيث لا ينتفع يعقوب منه الا بالطفيف
 وكثير من كبار امرء البقارة يرسلون المال رأساً الي التعاشي بدون
 وساطة يعقوب وللاسباب التي سردناها تحولت ثروة السودان الي خزائن
 التعاشي وأخيه وابنه وقبيلته وبات الاهلون يقاسون الفقر المدقع ليس
 لديهم من المال غير ما يحرسونه وليت المهدوية كانت تترك لهم من ثمار أرضهم
 ما يقوم بحوائجهم الضرورية ولا حول ولا قوة الا بالله

ذكر المخنثين

يوجد في بلاد السودان مخنثون يتشبهون بالنساء في ملابسهم وربما
 سدلو شعورهم مثلن وهم يأوون الي اماكن المومسات ليقوموا بمهنة القيادة
 اليهن ولا تخلو بلد من بلاد السودان من مومسات اكثرهن من الجوارى
 التي يفرض عليهن مواليهن ضريبة يقمن بادائها في كل شهر وقد جاء في كتاب
 (السيف والنار) ذكر أولئك البنايا ومواليهن الذين هم وجوه أهل السودان
 واغنياؤهم ولا عيب عندهم في ارتكاب البنايا هذا الفعل الشنيع لما ان هذه
 العادة قديمة متأصلة عند أهالي السودان ولذا لا يأنفون من أخذ المشاهرة
 من هؤلاء الجوارى

ولما ظهرت المهدوية وأقيمت الحدود الشرعية على الزاني والزانية مد
 المهديون أيديهم الي البنايا فاغتصبوهن من ملاكهن بصفة سبايا وبقى أمر
 المخنثين على ما هو عليه حيث ظلوا قائمين بحرفتهم في أمكنة الفجور السرية
 وفي سنة ١٣٠٤ قبض التعاشي على مئات منهم وزجهم في ظلمات السجون
 وعذبهم بالاشغال حتى اشرفوا على الهلاك ثم استتابهم وجعل عليهم حراساً

ورقباء وأمرهم بمواظبة الصلوات الخمس في المساجد فتركوا التشبه بالنساء
وصاروا في وجل شديد ثم انه قبض على كثيرين منهم أيضا ونفاهم الى خط
الاستواء فلقوا حتفهم في الطريق قبل أن يبلغوها

ولكن ما لبثنا بضع سنوات حتى رأينا الرقباء والموكلين بالخنثين قد تركوهم
وشأنهم وصرفنا نزي أولئك الخنثين قد عادوا الي ما كانوا فيه من التشبه بالنساء
وارخاء الشعور وصار عدد ليس بقليل منهم يسكن دور عثمان شيخ الدين
واضرابه من شبيبة البقارة ومنهم محمود احمد اسير وقعة ابيه وأخوه ابراهيم
الخليل فتعلق الناس بالخنثين وبعد ان كانوا لا يسكنون في غير محلات الباغيات
وأحياء المومسات صار مأواهم دور الامراء ومنازل القواد ولا غرو فالتناس
على دين ملوكهم وكان محمود احمد قد تقالي في تعلقه بالخنثين الذين جمع منهم
في منزله اكثر من عشرين واحدا منهم يرافقونه في الشخوص الي دارفور
ويعودون معه لدى قفوله راجعاً الي أم درمان

والبقارة يطلقون على الخنث اسم (عقيط) ومن ثم صار الخنثون أصحاب
الكلمة النافذة عند عثمان شيخ الدين ومحمود احمد وسائر الامراء وبالجملة انهم
صاروا شفعا لا ترد شفاعتهم عند عثمان وسائر الامراء حتى صار أولئك الامراء
المفتونون يناظرون بعضهم بأولئك الخنثين

وقد بلغ من تقرب عثمان شيخ الدين للخنثين والانتصار لهم ان أحد
الرقباء الذين كانوا موكلين بمراقبة الخنثين وكان شديد الوطأة عليهم حتى كان
من أمرهم ما ذكرناه رماه بعضهم عنده بهمة أنه يود إعادة المراقبة عليهم
فقبض عليه وسجنه ولم يطلقه إلا بعد عناء شديد

ويزعم أولئك الامراء انهم لم يأووا الخنثين في منازلهم الا ليوكلوا اليهم

أمر تطيب نسائهم وتدريبهن على أساليب الفنج والدلال لانهم على زعمهم
أعرف من نسائهم بهذه الاشياء وهو عذر ان صح نقله عنهم أقبح من الذنب
لانه لا يبعد أن يتمتع أولئك المخشون بالنساء ويشاطرون هؤلاء الامراء المغفلين
الخطوة بهم كما ان العقل يستبعد سلامة أولئك الامراء من التلطيخ باوضاع تهمه
اللواط أعاذنا الله منها

حوادث دنقلة وقتل ابن النجومي

لم نذكر من حوادث دنقلة غير وصول عبدالرحمن النجومي وهنا نذكر
بقية حوادثها الي سفره منها ومهلكه بعد ان اجتاز حلقا فنقول
لما غادر عبد الرحمن النجومي ام درمان قاصدا بربر ومنها الي دنقلة كان عدد
مقاتله سبعين ألفا ولكنه لما وصل الي بربر تفرقوا عنه ولحقوا ببلادهم
ولم يبق معه منهم الا عشرون ألف مقاتل عدا الجهادية الذين يبلغ عددهم نحو
عشرة آلاف مقاتل وكان قد ارسلهم من بربر الي دنقلة تحت قيادة مصطفى
جبارة وكيل الجيش وكان قواد أولئك الجهادية آدم كرامة وسرور أبا عنجة اللذين
كانا في جنديّة الحكومة في الايام السالفة ولما وطئت أقدامهما أرض دنقلة
ورأوا أنفسهما قريبين من حدود الحكومة اشتد ميلهما الي اللحاق بها
فتشاورا علي اضرام نار الثورة وشق عصا الطاعة علي المهديين فاجتمعوا بصغار القواد
المرؤسين بهما وتحالفوا علي أن يباغتوا الدراويش ويأخذوهم علي غرة وعينوا
آدم كرامة قومنداناً عاما عليهم ولقبوه بآدم (باشا) كرامة ومنحوه رتبة
أمير اللواء ومنحوا سرور أبا عنجة رتبة (أمير ألي) وسموا لواءهم اللواء

الرابع وأحسن أمير اللواء على بقية الضباط بالرتب ومن بينهم واحد اسمه
عبد الله محمد كان حائزاً لرتبة ملازم ثان من الحكومة الحديوية منحه رتبة
الملازم فاستاء من ذلك وعده إهانة كبرى لشخصه ولكنه لم يخبرهم
بأستينائه . على انه لو أخبرهم بما داخله من الغيظ لمنحوه ما يشتميه من الرتب
ولكنه سكت نخلوا سكوتة رضاه

وأجمع آدم كرامة واعوانه على الوثبة على الدراويش في الغلس ورسوموا
كيفية الهجوم وانصرفوا الى منازلهم على ان يجتمعوا في وقت عينوه ولكن
لم يتم لهم ما اردوا فقد ذهب عبد الله محمد الى مصطفى جباره واخبره بما دبره
الجهادية فنقمص الجد وجمع حوله الفا وخمسمائة فارس وارسل خمسمائة مقاتل
قبضوا على آدم كرامة وسرور أبي عنجة وبعد ان سئلا فانكرا استشهد بعبد
الله محمد الذي قال لهما انكما دبرتما كيت وكيت ثم ضربت اعناقهما وأعناق
نحو عشرين من القواد الذين معهم وأرسل مصطفى جباره يخبر عبد الرحمن
النجومي بهذه الحادثة وكان عبد الرحمن يفضسه فاتخذ هذه المسألة
فريسة الى الانتقام منه فكتب الى التعايشي يبري الجهادية ممارماهم به مصطفى
جباره وادعى انه ماقتلهم الا لقصد سيء فرد التعايشي على عبد الرحمن النجومي
قائلا ان الحضرة النبوية أخبرته بصحة مقاله مصطفى جباره وان ما فعله لم
يكن عن سوء قصد كما قال عبد الرحمن النجومي الذي غادر بربر على أثر هذه
الحادثة ولحق بدتقلة وتكاملت جيوشه بها

هذا وقد ألمعنا الى ان النجومي كان من حزب الخليفة شريف الذي كان
التعايشي يسمى في تلاشي أمره واضمحلاله وقد كان من أمر النجومي انه رغب عن
الخليفة شريف واحتقره ومال الى التعايشي الذي قابل ميله بالفتور وعده

خيانة توجب الازدراء بمرتكبها وكان ابن النجومي ذا بساطة فطرية مع بله فلم يفتن لهفوته هذه وبقي منزلاً للتعايشي

وبعد أن وصل ابن النجومي الي دنقلة انتدب التعايشي مساعد قيسدوم البقاري في بضعة آلاف مقاتل كلهم من البقارة وارسله الي دنقلة ليكون وكيلاً لعبد الرحمن النجومي

ولما وصل مساعد الي دنقلة زاره النجومي ذات يوم بمنزله فقدم له شرباً من العسل دس له فيه زرنينجا فتناول منه النجومي جانبا فابتدأت فيه اعراض التسمم ولزم داره واشتدت به العلة حتي اشرف على الهلاك وبعد مدة عوفي وزال عنه الخطر واشتد النفور بينه وبين مساعد الذي كان يطالب أمين بيت المال بنفقات باهظة تعدل نفقات الجيش كله فشكاه ابن النجومي الي التعايشي الذي كان لا يجاوبه بغير العبارات المهمة مثل أنت قائد الجيش ومساعد انما هو وكيلك والامر مشترك بينكما فاستحکم النفور بين مساعد وابن النجومي حتى خيف انتشار الحرب بينهما وتفرقت كلمتهما وصار كل واحد منهما يستعرض جنوده على حدة

وفي ابان ذلك نمي الي ابن النجومي ان السير غرانفيل باشا سردار الجيش المصري ينوي الهجوم على معسكر الدراويش في جنوب حلقا وهو معسكر (صرص) فارسل يبلغ التعايشي الخبر ويستأذنه في التقدم الي صرص فكتب له التعايشي يقول انك لن تزال في دور النقاهاة فابعث مساعداً بجميع فرسان الجيش وهم زهاء ثلاثة آلاف فارس فانفذ النجومي مساعدا الي صرص فالتقي قبل وصوله اليها بجواسيس المهديوية قادمين من حلقا فاخبروه بان السير غرانفيل معه قوة كبيرة وانه ربما كن لكم في الطريق فارتاع مساعد وكان

جباناً رعديداً ثم تقدم الى صرص فلقية جواسيس آخر اخبروه بمثل ما خبره
به الاولون فترك الجيش وعاد الى دنقلة واستخلف أحد أقاربه على الجيش فتابع
سيره الى صرص ولم يصادف كيداً في طريقه ثم قفل راجعاً الى دنقلة ولم يلتق
بالجيوش المصرية التي قصدت صحراء (المرات) لاكتشاف آبارها

وفي سنة ١٣٠٥ استدعى التعايشي عبد الرحمن النجومي الى أم درمان
واكثر من تأنيبه وتحقيره أمام الملائكة حتى قال له انك رجل مغفل لا تصلح
للولاية على امرأتك وأولادك فضلاً عن ولايتك على جيش جرار

ولقد ذكرنا فيما مضى ان ابن النجومي كان من أعظم قواد المهدي
الذين لهم عنده اكبر منزلة وقد كتب اليه مرات عديدة يقول ان الخضره
النبوية تقرأ عليك السلام وقال له يوم سقوط الخرطوم مفسراً الآية الشريفة
(من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم
من ينتظر وما بدلوا تبديلاً) ان الذي قضى نحبه هو عبد الله بن النور الذي
ذكرنا خبر قتله في واقعة (الجريف) وان الذي ينتظر هو عبد الرحمن النجومي
فانظر كيف كانت منزلة عبد الرحمن بن النجومي عند المهدي وكيف سقطت
الي الحضيض عند التعايشي الذي أنبأت أفعاله انه لم يكن مصداقاً بشيء من
دعوى المهدي وتخرصاته وانه كان واقعاً على كنهه اكاذيبه بل كان مشاركاً له في
وضعها واختلافها

ثم أعيد ابن النجومي الى دنقلة في أواخر سنة ١٣٠٥ وأمر باخذ الالهبة
لفتح مصر فدخلت عليه سنة ١٣٠٦ ولم يتقدم اليها بل أخذ في مماطلة التعايشي
وود الاستقالة من عمله

وفي أواسط سنة ١٣٠٦ فشت المجاعة في السودان واشتدت وطأتها

على أهل دنقلة فاصدر التعايشي أمراً بعزل ابن النجومي وتعيين يونس الدكيم
التعايشي بدله وأمر يونس المذكور باكره ابن النجومي على مغادرة دنقلة
لفتح مصر

هذا وقد كان من الاسباب التي بعثت التعايشي لانهذا عبد الرحمن النجومي
الى فتح مصر أن بعض الجماعرة سكان مديرية أصوان كانوا يبعثون الكتب
تباعا الى التعايشي يظهرون فيها ولاءهم له وانهم ينتظرون بفروغ صبر تقدم
جيش المهديوية الى بلادهم وانهم سيلقونه في عدد عظيم من المقاتلة ويقدمون
له ما يحتاجه من الاقوات وتفشى المجاعة في السودان كله مع ما ظهر له من ان
الاهلين يودون الخلاص من ظلمه سيما وقد تفرقت دراويشه من حوله
وأسي وليس معه منهم في أم درمان اكثر من بضعة آلاف فاشار عليه
بعضهم بانفاذ جيش ابن النجومي الى حدود مصر ليظهر من الضعف قوة
ومن جهة أخرى كان هلاك جيش النجومي مما يسمي اليه التعايشي لانه كما
تقدم لنا من القول كان من حزب الخليفة شريف وكان ابن النجومي بعد ان عاد
من أم درمان قد عاوده المرض وانكست صحته فكتب يونس الدكيم الى
التعايشي يخبره بان ابن النجومي ملازم للفراش وان حالته منذرة بالخطر فاجابه
بان يحملوه على نعش ويسيروا به امام الجيش لان الحضرة النبوية اخبرته بان
فتح مصر سيكون على يده فحمل ابن النجومي على نعش سيروه امام الجيش
كانه تابوت بني اسرائيل وشخص من دنقلة ومعه اثنا عشر الف مقاتل
وعشرون الفا من النساء والصبيان وأعطى لكل مقاتل من مقاتلته كيتين
من الذرة وهو قدر لا يكفيه بضعة أيام

ولما اقتربت الدراويش من حدود الحكومة عند مكان اسمه (ارغين)

هاجمته الحامية هجوما عنيفا فسقط في ساحة القتال نحو نصف مقاتلته الذين

صاروا لشدة فتك المجاعة بهم كنفم تساق الي الذبح

ومن المضحك ان أحد قبيلة السكنوز الذين كانوا مع ابن النجومى أرسل

كتابا الي بعض أقاربه في أم درمان قبل مذبحه (أرغين) جاء فيه ما يأتى

اننى ذبحت فرسى في هذه الليلة وتعشيت من لحمها أنا ومن معى

وادخرت الباقى للتزود به حيث صرنا على مقربة من حدود الكفار وعمما

قريب يا تيكم نبا فتح مصر اه فانظر هذه النباوة واعجب لسخانة عقل من

تعشى من لحم فرسه وتزود بالباقى كيف يفتح مصر

وبعد واقعة (ارغين) سار ابن النجومى بجيشه حتى التقى بالسير غراتقىل

باشا قائد الجيش في (طوشكى) حيث قتل ابن النجومى وتمزق جيشه

كل ممزق

ولما كانت هذه الواقعة معلومة عند المصريين وقد وقفوا على تفاصيلها

فلا حاجة لا يراد شىء عنها زيادة عن هذا

اما تأثير هذا الخذلان على التعايشى فكان سيئا واكنه أظهر عدم

الاكتراث به

ذكر زواج المؤلف باحدى نساء التعايشى

بعد أن أسلمنى التعايشى للبقرى الذي وكل اليه مراقبتي فى الصلاة

ببضعة شهور جلس فى محراب المسجد بعد اداء صلاة الظهر وأخذ يكلم الناس

بامور زعم انه أخبره بها النبي صلى الله عليه وسلم ومن جملتها انه قال لهم سيظهر

كذاب يدعى انه المسيح عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه وان أوصافه

كيت وكيت فقال له من حوله ان ذلك الكذاب مصري وكنت مصفيا لاقواله
 فسمعتة يقول انه ابيض اللون تصير القامة ضخمة الجثة مستدير الوجه فقال
 لي بعض الحضور سرا يمازحني ان هذه الاوصاف تنطبق عليك فداخني
 وجل شديد وقلت في نفسي رب واش ابلغ هذا الطاغية عني اتي مزعم
 على ادعاء هذه الاكذوبة وانه قال مقالته هذه ليمهد بها طريقا للقبض على
 والايقاع بي . فتنحيت من موقفي وجلست في المسجد واسندت ظهري
 الي حائط وانا غارق في بحار الافكار فسمعت مناديا يقول يا فوزي فعلت
 ان التعماشي يدعوني فذهب عقلي وقت وانا لا أشك في تحقق ما وقع في روعي
 واني مدعو الآن للتكامل بي فمشيت مسرعا حتى بلغت مقصورة التعماشي
 فلما رأني قام على قدميه وخرج منها وأمسك بيدي ومشينا الى باب داره فقال
 الناس لا ريب ان الذي أمسكه الخليفة هو الذي قال عنه انه سيدعي انه المسيح
 عيسى بن مريم صلوات الله عليه وسلامه

ولما وصلنا عند الباب وقف معي وقال مخاطبا لي يا فوزي فقلت نعم
 يا سيدي خليفة المهدي عليه السلام فقال اني أريد ان أزوجه امرأة مؤدبة
 مهذبة حسنة التربية حسنة الخلق متدينة متورعة وهي احدي نسائي فقلت له
 يا سيدي اني متزوج فقال أليس لك زوجة واحدة فقلت بلى فقال وما المانع من
 ان يكون لك ثلاث زوجات أو أربع فقلت لا مانع سوى اني فقير مدقع وليس
 لي كسب يعاونني على القيام بواجبات زوجتين فقال لا تلتفت الى ذلك لان الله
 متكفل بارزاق العباد ثم قال لي ما قولك قلت انا لا أرغب عما يختاره لي مولاي
 فقال بارك الله لك فيها ثم قال لي لا تخبر أحدا بشيء من هذا الحديث ثم
 تركني ودخل منزله فتسكأ الناس على يسألوني فكنت أصرفهم بالمجاملة

وأقول لهم لم يقل لي الخليفة شيئاً تخشى مغيبته

وبعد بضعة أيام استدعاني التمايشي الي داره فوجدته جالسا ومعه
القاضي احمد علي وقاضيان آخران وبعد ان قبلت يده أمرني بالجلوس
فجلست على الارض بجانب هؤلاء الثلاثة ثم قال لاحد غلماناه أحضر الطعام
فجاء بقصعة مملوءة بخبر الذرة ادامها من الطبيخ الذي يصنع من البامية
الجففة (الويكه) وعلى وجه القصعة خمس قطع من اللحم يبلغ وزن القطعة
منهارطلا فتناول التمايشي قطعة منها وقال خذ هذه يافوزي ثم دفع لكل
واحد من القضاة الثلاثة قطعة واطبق لنفسه قطعة فامسكت قطعتي بيدي
اليمنى ونهشت جزءاً منها فوجدتها غير ناضجة وعلمت انها من لحم الابل
فامسكتها بيدي اليسرى واخذت آكل بيدي اليمين ولما فرغنا من الاكل وجدت
ملايسي ملوثة بالطبيخ فصاح بي التمايشي ماهذه القطعة التي تحملها يافوزي
فقلت له اني اكلت منها كفايتي واريد ان حمل الباقي الي آل بيتي ليتبركوا بقطعة
اللحم التي صنعت في بيت مولاي وناولني اياها بيده الشريفة فتبسم والتفت الي
القضاة وقال لهم لاريب ان فوزي صار من خيرة انصار المهدي وانه نبذ
الرفاهية ولم يلتفت الي شيء من الدنيا والتفت اليّ وبالغ في الثناء عليّ ثم
تناول من القضاة ما بأيديهم من قطع اللحم وضمها الي قطعتي وناولني الاربع
قطع وقال اذهب بها الي آل بيتك فحملتها في جيتي وخرجت من الدار
حتي اذا صرت في طريق خالية من المارين طرحت اللحم من جيتي على الارض
وذهبت الي منزلي واخبرتهم بما اتفق لي فاخذوا الجبة وغسلوها ومكثت
حتى جفت اذ لم يكن لي غيرها ثم لبستها وذهبت الي المسجد
وكان للتمايشي منزل في الجهة الجنوبية لام درمان عند حصن الحكومة

القديم فركب اليه ذات يوم بعد الظهر واستدعاني بعد وصوله اليه فقال اني
 ذاهب الي معسكر خارج المدينة وقد أمرت الخليفة على حلو بمباشرة عقد
 زواجك بالمرأة التي أخبرتك بامرها وقد أمرت الخصيان ان ينقلوها الي
 دارك في هذه الليلة فشكرته ودعوت له وبعد غروب الشمس أرسل الخليفة
 على حلو خصيا الي داخل الحرم ليسأل المرأة عن توكله فمادقائلا له انت وكيلها
 وكنت أنتظر ان تجري صيغة العقد طبق الشرع فلم يفعل الخليفة على شيئا غير
 انه رفع يديه وقرأ فاتحة الكتاب ثم قال لي بارك الله لك فيها وانصرف فدهشت
 لهذا العقد الذي لم يكن فيه ايجاب ولا قبول ولا ذكر للمهر البتة ثم قال لي احد
 الخصيان أرسل حمالين لحمل متاع السيدة فاحضرت عشرة حمالين ليحملوا
 متاعها ولما اخرجوه اذا هو عبارة عن (عنقرب) وحصير من الخوص (برش)
 وصندوق من الخشب فيه ملاءتان من القماش فتمجبت من هذا المتاع وانصرفت
 مع حمال واحد حمله وقصدنا منزلي

على اني أقول اني كنت خائفا من هذه الزوجة حاسبا لها الف حساب اذ
 كنت أظن انها ستكون عينا للخليفة في بيتي ورقيبا على أعمالني في داخل منزلي
 ولذا امرت آل منزلي باخراج الدخان الذي أستعمله سرا في منزلي وايداعه بمنزل
 احد أصدقائي وبعد هنيئة جاءت العروس راكبة على حمار التمايشي يحيط
 بها خصيان وبعد دخولها في الدار استدعيت اربعة من جيراني المصريين وقدرنا
 المهر وجددنا عقد النكاح بما يطابق الشرع الشريف سرا

وقد اتفق ان منزلي كان في تلك الليلة خلوا من الطعام فقدم لي احد جيراني
 المصريين أطباقا مملوءة اداما وخبزا من الذرة فقدمته للخصيين فامتنعا من
 الاكل حيث كانوا يريدان عطية من الدراهم التي لم أكن املك منها شيئا اعطيها اياه

فقالا وشتماي وقالوا (يا ولد الريف) اعلم ان هذه السيدة كانت حرم خليفة المهدي فافتح عينيك هكذا وحلقا بأصبعيهما الابهام والسبابة اشارة الى الريال فكنت أجابيهما بانني عارف بذلك ومقدر هذه النعمة حق قدرها وأخيراً انصرفا غاضبين وبعد نصف الليل دخلت منزلي كاتني أساق الى الموت لشدة ما تولاني من الفزع من هذه الزوجة التي مكثت معي بضعة أيام لم أعرف شيئاً من أمرها ومعاملي لها كانت بالحذر الشديد ولم أسألها عن عائلتها ولا عن بلدها

وفي ذات يوم جلست لتناول الطعام معها وكان رديتاً من خبز الذرة وادامه من ورق اللوبيا فرأيت الدموع تتساقط من عينيها فقلت لها ماذا يبكيك ف اشارت الى الطعام قائلة أما ترى هذا الطعام فقلت لها هذا طعام انصار المهدي فخنقتها العبرة ورفعت صوتها قائلة لعن الله المهدي وخليفته الظالمين الباغيين ألساها اللذان هتك عرضي وقتلا أهلي وسلبا نعمتي فاندشت من كلامها ورفعت هي صوتها بالعويل والنحيب للذين فتاكبدي فسألتها من هم أهلك وأين كان مقامك فقالت أنا بنت حسن أغا أرناؤد وكان مقامي في الخرطوم فعجبت من ذكرها هذا الاسم لاني اعرف أباه وانه تركي من قواد الاتراك في الخرطوم استوطن بها وصار من وجهائها وكان له ابن اسمه علي كان موظفا معي في خط الاستواء بوظيفة سامية فقلت لها ثم ماذا صار فقالت من يوم سقوط الخرطوم الى هذه الساعة مارأيت أهلي ولا أعلم هل هم أحياء أو أموات فداخني الريب في أمرها وظننت انها كاذبة في دعواها حيث انني أعرف والدها وأخاها ومالهما من الوجاهة وأعرف ان من أهلها من هم على قيد الحياة ومن حسن الحظ انهم كانوا يسكنون بالقرب

منا فارسلت اليهم في الحال فجاءوا وما وقع نظرهم عليها حتى عانقوها وارتفعت
 أصواتهم بالبكاء والنحيب ثم قصوا عليّ حديثها وأنها أخذت منهم مسبية بعد
 سقوط الخرطوم فلم يقفوا لها على أثر ولم يعلموا الى أين طوحت بها المقادير
 وقد قالت هي انها أخذت الى بيت الطاغية التعايشي وما زالت فيه حتى أراد
 الله خلاصها منه وقد رزقت منها بنت وهي في عصمتي الي الآن

على انني كنت اخاف مستقبلا ربما كان مما يزيد في شقائي ويضعف على
 أنواع الذل وعذاب الاسر حيث انه كان لي كما تقدم زوجة غيرها وكنت أخشي
 ان يتسع نطاق الخلف بينهما بسبب الغيرة فاقع بينهما في شقاء لا يذكر في
 جانبه ما أنا واقع فيه من شظف العيش وذل الاسر الذي سيأتى وصف كثير من
 ضروبه ولكن الله من فضله كفاني ما كنت اخشاه اذ صارت زوجتاي
 كأنهما أختان لا أثر للغيرة عندهما ولا هم لهما غير تخفيف ويلات حزني وتسلية
 خاطري من الاكدار التي تساورني فكانتا تقضيان النهار وشرطاً من الليل
 في خياطة بمض الملابس للدرأويش باجرة طفيفة

وقد كانت جالتي المعيشية تنتقل من ردي الى أردأ حتى سجدت ومع
 ذلك بقيتا على ما كانتا عليه من الصفاء والوفاق الى أن من الله عليّ بالخروج من
 السجن الذي سيأتي الكلام عليه في مكانه

ذكر الميرالاي حسن البهنساوي بك

كان الميرالاي حسن البهنساوي بك ميرالاي اللواء المصري الخامس
 وأصله ضابط مصري قضى من عمره زهاء عشرين سنة في السودان وكان
 لوائه قائماً بحراسة الخندق الجنوبي جهة المسكان الذي دخل منه المدو يوم

سقوط المدينة وقد شرحنا كيفية دخوله وان اللذين اطلعا المهدي على عورات الخندق هما الصنجقان الخائنات عمر ابراهيم والعطا الدود ولم نعلم شيئاً يدعو الى اتهام الميرالاي حسن بك البهنساوي بانه تواطأ مع المهدي على ادخال دراويشه من جهة الخندق الجنوبي اذ يستحيل وقوع مثل ذلك من مثل حسن بك البهنساوي حيث هو من خلاصة من صدقوا في ولاء الحكومة

وبعد سقوط المدينة وقع حسن بك في الاسر وعذب عذاباً شديداً وصودرت امواله واخذت بنته مسبية وقدمها أمين بيت المال للمهدي وكانت له زوجة هي بنت رجل من مشاهير التجار اسمه عبد السلام أصله من مدينة حلب قدم السودان مشغلاً بالتجارة فآثرى وكنت أنا متزوجاً بابنتها فاخذتا مسبيتين وماتت زوجتي غماً بعد ايام قلائل مضت بعد أخذها

وقد ذهبت يوماً مع حسن بك البهنساوي الى المهدي وكلمناه في أمر زوجتنا فامر أحد نوابه برد تينك الزوجتين فشكرناه وانصرفنا من حضرته وما كدنا نخرج من باب الدار حتى ابتدرنا جماعة من الدراويش اللذين اغتصبوا هاتين المرأتين بالضرب والاهانة وتوعدونا بما نخشاه اذا عدنا الى الشكوى فانصرفنا واقنعنا النائب باستحالة رد المرأتين ثم ذهب الى المهدي وكله بما جري لنا فلم يكن لكلامه أثر ومكث البهنساوي بك في الاسر زهاء سنة ثم فر الى بلاد الحبشة ماشياً على قدميه وما بلغها الا بعد ان نادى بروحه تزهق لشدة ما ناله من المشقة ثم غادر بلاد الحبشة ولحق بمصر وعلى أثر وصوله سمعنا خيراً ادهشنا وهو أن الحكومة اتهمت حسن بك البهنساوي بالخيانة وانه ادخل الدراويش مدينة الخرطوم في حين اننا نعلم الحقيقة دون الكثيرين وقد كان الطيب الذكر غردون باشا الى الساعة الاخيرة من

اجتماعنا يقولون ان عورات الخندق لا بد ان يكون المهدي علمها من عمر
ابراهيم والعطا الدود وانهما هما اللذان اطعاه في الهجوم على الخرطوم بعد ان كان
يتأهب للتقهقر الى كردفان على اثر ما اصاب دزاويشه من الهزيمة والانكسار
في واقعة (أبو طليح)

وبعد ان سقطت الخرطوم ووقعنا في الاسر تحققتنا من نفس قواد
المهدي ومستشاريه انهم كانوا على وشك الزحف الى كردفان لولم يقيض الله
عمر ابراهيم والعطا الدود لاطلاعهم على عورات المدينة. رجلة القول ان
حسن بك البهناوي براء من هذه التهمة براءة الذئب من دم ابن يعقوب
وقد ظهرت براءته امام المجلس العسكري العالي الذي عقد لمحاكمته وكفى
بذلك حجة على ان الذين رموه بالخيانة كانوا ذوي قصد سيء به

وقد يحار الانسان من اقدام الحكومة على محاكمة البهناوي بك مع
انها عاملت كثيرا من الخوان الذين لا يختلف اثنان في صحة مانسب اليهم من
الخيانة بالاعزاز والاكرام حتى انها قد اغدقت النماء على عمر ابراهيم ولم تترك
وسيلة لاسترضائه الا فعلتها وقد أعجز الناس فهم مقاصدها ولم يفسره كثير
من السودانيين الا بأنه من كرامات المهدي الذي تكافىء الحكومة الذين
صدقوا في ولائه ولقد قال لي واحد من السودانيين انظر الى عمل حكومتكم
كيف تصنع الجميل مع الذين ادوا خدما جليلة للمهدي مما يدل على صدق مهديته
وكيف عاملتكم انتم الذين بقيتم على ولائها وناوآتم المهدي فأخمني هذا
القائل ولم أحر جوابا أقنعه به لانني لم أفقه كنه مقاصدها فلعلها أقصى
نظراً مني

على ان الحكومة التي هدمت قبة المهدي لتقضي على الاعتقاد بمهديته

قد أحسنت معاملة جميع الذين والوه ولم تقم ببعض من كل للذين والوها
وبهذا التصرف الغريب مهدت كرامة جديدة للمهدي يتمسك بها السخفاء
الذين يقولون ان جثة المهدي رفعت الى السماء من قبره قبل أن ينبش ببضع
سنوات وسيأتي ذكر ذلك في مكانه

ذكر مآلقيه المؤلف في مقابلته بعض الامراء

من أنواع الذل التي قاسيناها وضروب الاهانة التي كنا نعامل بها من
أتباع المهدي ما أورده هنا

وذلك اني كنت ذات يوم ماشيا مع يوسف منصور في الخراطوم فررنا بمنزل
أحد أتباع المهدي المسمى الحاج خالد العمراني الذي أصله من تجار الابيض
فدعاني يوسف منصور للدخول عليه لاجل زيارته فدخلنا عليه فالتفتنا
جالسا على فروة فقام واقفا على قدميه واستقبل يوسف منصور بكل
احترام وفرش له فروة أيضا أجلسه عليها فتقدمت للسلام عليه فانهرتني وقال لي
اجلس هناك وأشار بيده الى أقصى مكان منه فجلست على الارض فجيء
بالقهوة فقدمها الغلام الى يوسف منصور فقال له قدمها لتوزي فقال له الحاج
خالد ولماذا تقدمه على نفسك فقال لانه ضابط عظيم وكان ضابطاً علي ولأنه
عزيز قوم يجب اكرامه فقال كان عزيز قوم كفره وأنت سيده وأفضل منه
وهو رقيق بل من يخرج من صلبه من الاولاد أرقاء الى يوم القيامة وانه
كافر يجب على كل مؤمن ومؤمنة اهانتة واحتقاره واطهار كراهيته فقلت له
يا سيدي الحاج خالد اذا كنت كافراً فيما مضى من عمري فقد أسلمت على يد
المهدي فأجابني بالشم وقال بل لا تزال كافراً يحمل بيعك واسترقاقتك أنت

وأولادك فقال له يوسف منصور مهلاً ان هذا الكلام غير لائق بك وان
المهدي عليه السلام أوصانا بمراعاة الاسرى وعدم كسر خاطرهم واشتد
اللاجاج بينهما فقامت من بينهما وانصرفت لسبيلي

ومن النوادر المضحكة اني كنت يوماً بحضرة محمد بن البصير الحلوي
داعية المهدي في (الحلاوين) وكان معي أيضاً يوسف منصور فقال ابن البصير ان
أصحاب المهدي أفضل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والدليل على ذلك
ان نبي الله الخضر شرب من هذه (الركوة) وهي إناء يصنع من الجلد ولم
يشرب من ركوة أحد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمنا الى تلك
الركوة وقبلناها وضممنها الى صدورنا ووضعناها على رؤسنا التماساً لبركتها
فقلت لاحد الحاضرين هل أنت مصدق بهذه الا كذوبة فالتفت اليّ وقال
يزعم التعايشي ان الخضر جاسوس له وهذا يقول انه شرب من ركوته ونحن
نقول لها صدقتا مادمننا لا نقدر على تكذيبهما ثم قال لي وهل نستطيع
تكذيبهما لو ادعيا على جبريل أمين الوحي باضعاف ما ادعيا به على الخضر فقلت
واني لنا القدرة على تكذيبهما فقال قبل وضم وضع واسكت والسلام

ذكر نفي عبد القادر بن أم مريوم

ذكرنا ماجري بين عبد القادر بن أم مريوم والمأسوف عليه غردون باشا
ولما أفضت خلافة المهديين الي عبد الله التعايشي قرب اليه عبد القادر
المذكور وأدخله في عداد النواب الذين يعاونون القاضي في نظر القضايا
التي ترفع اليه مع بقائه في وظيفة قائد لعرب (الكلاكله) الذين هم أقاربه
فازداد نفوذه بين أولئك الاعراب حتي صاروا يحكمونه فيما شجر بينهم

وكانوا يقصدون داره زرافات لهذا الغرض ويقدمون له الهدايا وكانت أخباره
تصل الى التعاشي الذي كان يكره تزلف الناس الى غيره فيغض الطرف عنها
ولا يبدي لعبد القادر شيئا يكدره

وفي ذات يوم جاء رجل يحمل البريد للتعاشي من احدي الجهات
فقال له عبد القادر سلمني المظروف الذي باسم التعاشي لاسلمه له فدفعه له
فاخذه وذهب الى المسجد ووضعها أمامه مما يلي مقصورة التعاشي حتى اذا
فرغ من الصلاة ناوله له فتركه وذهب الى منزله بعد ان قضيت الصلاة فعثر
به احد حراس الخليفة وقرأ عنوانه وسلمه له فاستغرب التعاشي وجود ذلك
المظروف فاستدعى الذي جاء به فاخبره ان عبد القادر بن أم مريوم استلمه منه
ليدفعه اليه فاستاء من ذلك ولم يكشف عبد القادر بشيء من أمر المظروف
ولكنه أعرض عنده كل الاعراض واقصاه من قربه فعمد عبد القادر الى طريقة
يستجلب بها رضي التعاشي فاشار عليه احد اصدقائه بتقديم ابنته هدية للخليفة
فقدمها له وكانت بارعة في الجمال فنالت حظوة عظيمة عند التعاشي فخرج
من منزله واستدعى عبد القادر واثى عليه وزاد في تقريبه والاحتفاء به بما أدهش
الناس اذ لم يكونوا عالمين بسبب الجفاء والابعاد الاولين كما انهم كانوا يجهلون
اسباب هذا التقريب الفجائي ولكن ظهرت الحقيقة بعد ايام قلائل وصار
عبد القادر بن أم مريوم أقرب مقربي الخليفة الذي آس هو منه شدة الميل الى
قضاء شهواته من الفتيات الحسنان فاخبره بوجود فتاة جميلة هي بنت رجل من
أهالي (الكلاكله) أقاربه فارسله الى ذويها يطلبها منهم فبعثوا بها اليه فراعها
جمالها ولكنه لما اقترب منها وجد خفاضها ليس على طريق خفاض النساء
في السودان فسألها عن سبب ذلك فقالت ان عبد القادر بن أم مريوم أشار

على أهلها ان يعملوا بها هذا العمل فاحتدم التعاشي غيظاً وخرج من غرفته ليلاً وأمر عشرة من رجاله أن يحضروا قطعة من جلد بقر نيء ويقبضوا على عبد القادر ويضعوا قطعة الجلد على عينيه ويتركوها عليها حتى تجف ويغسلوا يديه ويسافروا به الى الابيض عاصمة كردفان واعطاهم أمرا الى عامل كردفان باستلام عبد القادر منهم وزجه في السجن فذهب الرجال الى منزله ليلاً وهجموا عليه بصورة مزعجة وساقوه من بين أهله واولاده وانفذوا ما اشار به التعاشي وسافروا به ليلاً قاصدين كردفان واصبح الخبر شائعا في المدينة والناس لا يعلمون اين ذهب به الذين قبضوا عليه وخرج التعاشي علينا لصلاة الظهر والغضب ظاهر على وجهه والشرر يقدح من عينيه وبعد انقضاء الصلاة عاد فدخل الى منزله ولم يتكلم بشيء يختص بابن أم مريوم ولا بغيره ثم لزم السكوت ولم يتكلم بشيء ما عن هذه المسألة وبعد نحو ثمانية عشر شهرا جاء عبد القادر بن أم مريوم الذي ظل في سجن كردفان وعيناه معصوبتان لا يعرف في أي بلد هو ثم بعد ثمانية أشهر أمر التعاشي بازالة الجلد عن عينيه فازبل ولكنه مكث اياما لا تبصر عيناه شيئا ومكث بعد ذلك نحو عشرة شهور في سجن كردفان ثم اعيد الي ام درمان وأطلق سراحه ولم يعده التعاشي الى سابق قربه

ولما اعاد التعاشي عبد القادر بن ام مريوم اعاده بهيئة مزعجة حيث بلغت اظفاره منتهى الطول وشعر رأسه ولحيته يكاد يستر جسمه وكان مسجوناً في غرفة ليس فيها غير نافذة صغيرة يتناولونه الماء والخبز منها ومن أعان ظالما سلط عليه



ذكر قصتي المرأتين

المرأتان هما حماة عبد المولى صابون أمير الجهادية وشقيق حمدان أبي عنجة.
وقصة الاولى هي انها كانت امرأة أحد صنابق الشايقية ولها منه بنت ذات
جمال بارع أخذها المهديون سبية فأعطاها التعايشي لعبد المولى صابون الذي
تغالي في حبها وأقبل عليها وترك نساءه ولم يلتفت اليهن

وفي سنة ١٣٠٥ أصيب عبد المولى صابون بداء الجدام ولزم الفراش
فجزع التعايشي عليه اذ كان يحبه وأخذ يتردد على داره ليعوده فاعتم نساؤه
فرصة وجود التعايشي عنده للايقاع بالمرأة التي حازت منزلة عند سيدها اكثر
منهن حيث تركن كما قلنا ولم يلتفت اليهن فاجتمعن وقلن للتعايشي ان مرض
عبد المولى صابون مسبب من كثرة أعمال السحر والشعوذة التي تعملها له المرأة
الشايقية للاستئثار بحبته فصدقهن التعايشي لانه كان يعتقد السحر والشعوذة
ويخاف على نفسه كثيراً منهما فسأل المرأة فانكرت وقالت انها لا تخرج من
دارها وأنى لها بالدجالين والمشعوذين الذين يعملون هذه الاعمال فلم يصدقها
وعزم على القبض عليها فالح عليه زوجها وتضرع له ان يتركها فقيل له ان
امها هي التي تذهب الى خارج الدار وتروح الى الدجالين فاستنطقها فانكرت
وقالت له انني لم أصنع شيئاً من الاسحار والشعوذة ألبتة فقال لها ولماذا
أصيب عبد المولى بهذا المرض اليس ذلك نتيجة أعمالك السحرية وأمر بقطع
يدها فقطعت وتوفيت بعد بضع ليال

ولشدة جبن التعايشي خاف على نفسه من مثل ما أصيب به عبد المولى
معتقدا ان ذلك المرض لا يحدث الا من الشعوذة والاسحار وكانت له حماة من

أهل دارفور بنها من نسائه الأول وقد رزقت منه بولد وكان يمنع أقارب
 نسائه من رؤيتهن حتى ان المرأة كانت تظل عامين أو ثلاثة لا يؤذن لها بالدخول في
 بيته لرؤية بنتها وكان خصيان التعايشي يعظمون هذه المرأة ويكرمونها نظرا
 لاحفادها أولاد التعايشي ولذا كانوا يدخلونها خلسة لرؤية بنتها وفي ذات يوم
 رآها التعايشي لابسة تمام كألوف عادة نساء السودان اللواتي يلبسن
 أحجبة كبيرة فامر بالقبض عليها وتمزيق أحجبتها التي جعل يتأمل فيها كأنه
 يقرأ ما فيها بادية عليه علامات الدهشة والاستغراب وبعد أن أمر بسجنها
 نفاها الى خط الاستواء فماتت جوعا في الطريق وعاقب الخصيان أشد
 العقاب وقطع يد الذي اذن لها منهم في الدخول فتأمل

ذكر رسالة محمد ماهر باشا للمؤلف

كنت قد عرفت محمد ماهر باشا محافظ القاهرة الآن منذ كنا تلميذين في
 المدارس واتصلت المحبة بيننا من ذلك العهد
 ولما وليت على مديريات خط الاستواء كان هو وكيلا لبراوت بك
 الامر يكاني الذي كان حاكما على تلك الاقاليم قبلي. وفي أوائل سنة ١٣٠٦
 أمر التعايشي بهدم منزلي ومنازل جيراني لتوسيع موردة أم درمان فوقعت
 في حيرة شديدة لما كنت فيه من الاعسار وزيادة علي ذلك اني كرهت المقام
 بجوار يوسف منصور فعزمت على الاقامة بجوار السوق في حي المسلمين
 واسكنني كنت غير قادر على انفاذ هذا العزم لما كنت فيه من الفقر المدقع
 وبينما أنا في هذه الشدة طرق باب داري طارق بعد العشاء فسألته عن اسمه
 فلم يجاوبني فداخني الخوف وظننت أنه جاسوس وامتنعت من فتح الباب له

وأخيراً خفض صوته وقال لي انني آت اليك برسالة من مصر فطار عقلي ولم أشك في أنه عين عليّ فانهرته من داخل الباب وقلت له اذهب أيها الكاذب فاسرع الرجل بالانصراف خوفاً على نفسه أيضاً وبت ليلتي وأنا خائف أترقب وفي ضحوة الغد جلست أمام بابي فجاءني رجل بزي التجار المصريين فسلم عليّ وقال لي انني جئتك البارحة لأدفع لك نقوداً وكتاباً من أخ لك في أصوان فقلت له اني أخاف أن تكون عيناً عليّ فان كنت صادقاً فاقسم لي علي المصحف الشريف أنك صادق فيما تقول وانك لست بجاسوس خلف لي علي المصحف فاطمأنت وسكن روعي ثم دفع الي كتاباً فقضضت غلافه فرأيت فيه توقيع محمد ماهر باشا فقرأته فاذا فيه السؤال عن صحتي وانه مرسل اليّ باربعين جنبها انكليزيا ورجاني أن أخبره عن كل ما يلزمي ثم دفع اليّ الرسول الاربعين جنبها فأحببت مكافأته باعطائه خمسة جنيهات فلم يقبل وقال لي ان الذي أرجوه منك هو أن تكتب لي كتاباً الي أخيك محمد ماهر محافظ أصوان بانني أسلمت اليك الاربعين جنبها تامة لتظهر أمانتي عنده فوعده بذلك ثم انصرف وعاد اليّ في المساء بهدية من السكر والصابون والبن والملابس فكتبت له الكتاب بما أراد وأودعته ذكر الهدية التي قدمها لي الرجل من نفسه. تجزى الله عنى الشهم الهمام محمد ماهر باشا خير الجزاء وبلغه مأموله في الدنيا والآخرة آمين

وعلى اثر ذلك ذهبت الي حيّ المسلمين وبنت فيه منزلاً انفقت عليه اكثر من مائة ريال فذهب يوسف منصور وأخبر الخليفة بانني سكنت في حي المسلمين وطلب منه اخلاءه عن المسؤولية اذا فررت فاستدعاني التعاشي وأمرني بالعودة الي جوار يوسف منصور فبعت المنزل بربع قيمته

وعدت الى جوار يوسف المذكور

ومن الحوادث التي اتفقت لي بعد عودتي انه كان لي ابن اسمه محمد ولد بعد سقوط الخرطوم ببضعة شهور وكان عمره وقتئذ ثلاث سنوات وكان يراني اختبئ في قعر بيتي وأدخن السجائر وفي ذات يوم أخذ الورق الذي ألف فيه الدخان وقعد امام المنزل ولف فيه رملا على هيئة السجائر واتفق ان حسن ابن حسين أمير المصريين جاء لزيارتي وكان شديد التعلق بالمهدوية لسكنه كان يحب بني جلدته المصريين ويفار عليهم ويدفع عنهم كثيراً من المصائب فخرجت للقاءه فرأى ابني محمداً وبين يديه سجائر الرمل فسأله قائلاً ما هذه يا بني فقال له ان أبي يصنع مثل هذه ويشعلها بالنار فيخرج الدخان من انفه وفيه فقطن حسن حسين الكلامه وادرك انني أدخن في منزلي فهالني ذلك وانهرت ابني فقال لي اذهب الى داخل البيت واتي بالسجائر التي تدخنها فاسكته حسن حسين والتفت اليّ يحذرنى من وخامة العاقبة اذا شاع عنى ذلك ولم ينلني منه اقل مكروه لانه كان كما قدمنا مصر يا لا يرضى لقومه ان ينالهم سوء من المهدوية بالرغم عن تعلقه بها وبعد انصراف الزائر أمسكت الغلام وأوجعته ضرباً كيلا يعود الى مثلها

ذكر مسألة الشيخ محمد عبد الماجد وصلبه

كان في أحد أحياء أم درمان القريبة من سوقها رجل من اهالي مديرية بربر وكان ذا تدين وورع وكان ناقماً على المهدوية منكر آكل أعمالها وكان الخليفة كما تقدم قد حذر الناس من الاجتماع لجمعة أو جماعة في غير مسجده وكان الشيخ محمد عبد الماجد ملازماً لمنزله منقطعا عن شهود الجمعة مع المهديين

وجماعتهم وكان جيرانه وجلهم مصريون يجتمعون في منزله فيصلي بهم جماعة
 ثم يعظهم ويبين لهم فساد دعوي المهدوية ومخالفة مدعيها للشريعة المحمدية
 الغراء حتى أفتى بوجوب قتال هذه الفئة الضالة فمعي خبره الى التعايشي
 الذي أرسل اثنين من خاصته حضرا مجلسه وسمعا مايقوله وعادا اليه فاخبراه به
 فارسل اليه مائة رجل قبضوا عليه وعلى جارين له احدهما مصري وطرحوهم
 في السجن وكان الوقت ليلا وفي الغد عقد مجلس اجتمع فيه القضاة كلهم برئاسة
 الخليفة على حلو وقدم الرجل وجاراه للاستنطاق وكان المجلس هائلا اذ كانت
 القضاة والرئيس محاطين بألوف من الفرسان والمشاة والسيوف مسلولة على
 رؤسهم فلم يهب الشيخ محمد عبد الماجد هذا المنظر الهائل بل جلس ثابت
 الجنان ولما سئل اعترف بكل ما اسند اليه من التهم وسردها معززة بالادلة
 الشرعية وقال لهم هذا هو الحق واتم في ضلال وأنا أدعوكم الى التوبة والعدول
 عنه أما صاحباه فانكرا انهما يعرفانه وادعيا ان ليس بينهما وبينه علاقة وهما
 في ذلك صادقان اذ احدهما لم يكن ساكنا في هذا الحي بل جاء لزيارة الثاني الذي
 هو تاجر مشغول بتجارته لا علاقة له مع هذا الرجل الذي أخف من في المجلس
 بادلته حتى احتدم من فيه بالغيظ والحنق عليه فامروا بالرجل وصاحبيه ان
 يصلبا فسيقوا يحيط بهم بضمة آلاف رجل حتى قدموا الى المشنقة فصلب
 الشيخ محمد عبد الماجد الذي كان من أمره انه لما اقترب من المشنقة
 صعده الى الكرسي ساكن الجاش وفاه بكلام يدل على انه آثر الموت دفاعاً
 عن الحق وانتصاراً للملة الحنيفية فرحمه الله رحمة واسعة واكرمه بكرامة الشهداء
 أما صاحباه وهما عبد المجيد حسن ومحمد نور فاعيدا الى السجن وعوفيا
 من الصلب

ذكر تشييد قبة المهدي

سردنا كثيراً من أعمال التعايشي بعد وفاة سلفه المهدي ولما كان بعضها يدل دلالة صريحة على انه انما كان يظهر اعتقاد دعوي المهديّة حرصاً على سلطانه الذي ورثه من وراء هذه الدعوى ويدل على ذلك انه صادر أموال أقارب المهدي واضطهد أولاده وصار يحقرهم في مجالسه الخصوصيّة ويعيرهم بانهم دنقلبون لا يصلحون الا لحراسة الابواب والاشتغال بمهنة ملاحه السفن وتداولت الالسن هذه الاقوال وعدّها الناس دليلاً ساطعاً على انه لم يكن مصدقاً بالمهدي وانما كان يراى الناس عزم على تشييد قبة على قبر المهدي ليبرهن للناس على عكس ما خالج صدورهم فكلف مهندساً مصرياً اسمه اسماعيل افندي فوضع رسماً لهذه القبة ذا أربع زوايا يبلغ طول كل زاوية منها سبعة عشر ذراعاً وجعل عرض الاساس اكثر من مترين وبعد رفع البناء نحو خمسة امتار جعلوه مثنائهم مستديراً وفي يوم وضع الاساس اقيم احتفال كبير وذبحت البدن والثيران والخرفان وقدمت الاطعمة للالوف من الحاضرين وامسك التعايشي بيده معولاً وبدأ بحفر الاساس

أما الاحجار فانهم كانوا يجلبونها من انقاض منازل الخرطوم التي كانوا يهدمونها ومن انقاض ديوان الحكمدارية والمديرية والارصفة التي على ضفة نهر المقرن وانقاض ما هدم من الكنيسة الكاثوليكية. وجميع البنائين الذين بنوها مصريون أما القعلة فهم متطوعون من الدراويش والامراء وكان البنائون يقضون اياماً عديدة في العمل ولا يعطون شيئاً ما وفي بعض الايام جلس التعايشي وكلم من حوله قائلاً ان الذين يباشرون بناء قبة المهدي في الحقيقة هم الملائكة اما الذين

تروهم من البنائين والفعلة فلا عمل لهم في الحقيقة بل هم متحركون بارادة
 الملائكة فقال المهندس اسماعيل أفندي للبنائين أسمعتم ما قاله الخليفة فقالوا
 بلى فقال لهم ان الخليفة اعتبركم ملائكة في الحقيقة وهذا الاعتبار هو الذي
 حال دون اعطائكم شيئاً من الاجرة لان الملائكة في غنى عن الطعام والشراب
 اللذين من كان منزهاً عنهما لا يعطي شيئاً من أجرته فضحكوا وتعجبوا من
 وقاحة الخليفة وبعد سنة تم تشييد القبة ووضعت في داخلها المصابيح وفرشت
 بالابسطة وأحيط القبر بمقصورة من النحاس ووضع عليه تابوت من الخشب
 صنعه نجارون مصريون ووضع على التابوت كسوة من الجوخ وثريرات من
 الفضة والذهب وصار الناس يقصدونها للزيارة في كل يوم

ذكر المجاعة في سنتي ١٢٠٦ و ١٢٠٧

لما كانت هذه المجاعة قد لحقت السودان كله وكانت أسبابها مختلفة رأينا
 ان نذكر تأثيرها في كل إقليم على حدة مبتدئين بذكرها في أم درمان فنقول

المجاعة في أم درمان والجزيرة

من عادة أهل الجزيرة أنهم يخزنون محصولاتهم من الذرة اتقاء
 شر المجاعات التي تناب البلاد بسبب انجاس المطر عنهم
 وقد ذكرنا ان التعاشي لما أصدر الاوامر لأهل الجزيرة بمغادرتها
 وسكني أم درمان عادوا الى بلادهم فوجدوا المخزون من محصولاتهم قد نهبه
 الجهادية وفي سنة ١٣٠٦ لم تجد السماء عليهم بمطر فانتدب التعاشي ابراهيم
 عدلان أمين بيت المال ومعه عشرة من الامناء ووجههم الى الجزيرة لاغتصاب

ما يدي الاهلين من الجوب وأخيرا أصدر التعايشي أمره بمصادرة
 نصفها وترك النصف الآخر لهم فارتفع ثمن الذرة حتى بلغ ثمن الاردب
 منه أربعين ريالاً مجيدياً أي نحو سبع جنيهات انكليزية واغتال ابراهيم عدلان
 ومن معه من المندوبين عشرة آلاف أردب تقدر قيمتها بأربعمائة الف ريال
 وكانت بلاد العبيد الواقعة جنوب الخرطوم قد هطل فيها المطر بكثرة
 فهرع التجار اليها لطلب الغلال منها فأصدر التعايشي أمراً باخذ نصف جميع
 الغلال التي تجلب من خارج أم درمان بسعر ست ريات من الريال المسمي المقبول
 تباع لأقاربه التمايشة الذين تقدم لنا ذكر وصفهم لام درمان فارتفعت الاسعار
 وعز وجود القوت وهلك أهالي القرى الواقعة جنوب سنار وبادوا حتى
 صرنا ندخل القرية فلا نجد فيها دياراً والناس أموات على أسرة نومهم
 وداخل حجراتهم هم وأولادهم ولم تصب كردفان بشيء من هذا القحط اذ كانوا
 أمطروا بمطر غزير أحيا موات الارض وأبنت الزرع فهرع التجار
 اليها ليجلبوا أغلبها كما هرعوا الي بلاد العبيد وكان ثمن الاردب من دخن كردفان
 لا يتجاوز ريالين ولكن لا توجد جمال للحمل واني توجد وقد قصصنا عليك
 فيما تقدم ما حاق بالابل والقبائل الرحالة فكانت أجرة حمل الاردب من كردفان
 الي أم درمان أخذ نصفه ثم كانت النتيجة صعود الاسعار في (كردفان وفشوده)
 اللتين هرع الناس اليهما لطلب الاقوات منهما واشتدت وطأة المجاعة وتضاعفت
 ويلاتهما وزاد الطين بلة تفشي الطاعون البقري في ماشية السودان تفشياً مريعاً
 حتى هلك جل البقر ولم يبق منه في أنحاء السودان كله الا شيء قليل
 جداً فارتفعت أسعار اللحوم وساءت الاحوال وفي أواخر السنة هطلت الامطار
 فتغافل الناس خيراً وجادت الارض بمحصول وافر ولكن قبل اوان الحصاد

ببضعة أسابيع نزل الجراد على المحصول فالتهمه ولم يبق منه شيئاً
ودخلت سنة ١٣٠٧ والمجاعة لا تزال في أم درمان والجزيرة ولكن الاسعار
هبطت الى النصف حيث بيع الارب بعشرين ريالاً مجيديا وليس لذلك من
سبب غير فناء الناس ويقول الخيرون ان الذين هلكوا بالمجاعة لا يتقصون
عن ثلاثة ارباع السكان

المجاعة في اقليم بربر

ذكرنا ما كان من أمر عزل محمد الخير عن بربر وتولية عثمان الديكيم عليها
وفي أوائل سنة ١٣٠٦ حين بدأ القحط بأم درمان والجزيرة أصدر
التعايشي منشوراً بمنع ارسال الاقوات الى بربر وتوعد من حملها اليها بالقتل ووضع
حراساً على ضفة النهر لمنع السفن التي تحاول الوصول الى شمال أم درمان
ثم أصدر أمراً الى عثمان الديكيم حاكم بربر ببث الرجال في أنحاء البلاد لاتفاد
الزرع قبل استوائه فقلع الزرع وطوله نحو شبرين وبعد ذلك أمر بقطع
السبل ومنع أهالي بربر من مغادرة ديارهم وخطب على المنبر خطبة عدد
فيها سيئات الجعليين سكان ذلك الاقليم ولم يترك وصمة الا نسبها اليهم وقال
انهم اغتالوا المال يوم فتح بربر ولما أرسل لهم المهدي المنشورات وأمرهم برد
ماغلوهم من الغنائم كادوا يثورون على المهدي ويخرجون عن طاعته وكان
الانكليز وقتئذ زاحفين على (بربر وابوطليح) ثم أمر أن لا يترك زرع لهؤلاء
المنافقين وأن يحجر عليهم ليموتوا جوعاً في بلادهم فنفذت اوامره وهلك
الجعليون وماتوا في مضاجع نومهم ولم ينج منهم الا نحو العشر وبلغ ثمن الكيلة
من الذرة عشرين ريالاً وفقد القوت بالكيلة

المجاعة في دنقلة

اما المجاعة في دنقلة فمن أهم أسبابها انخفاض النيل في تلك المديرية لان ري مزروعاتها مثل ري اطيان صعيد مصر يتوقف على زيادة النيل وزد على ذلك ان المهديوية منذ حلولها في دنقلة حافت على النفوس وصادرت الاموال وبلغ ثمن الكيلة من الذرة عشرين ريالاً ولكن ساعد على تخفيف وطأة المجاعة وجود التمر بكثرة في دنقلة من محصولات النخيل

المجاعة في كسلة

ذكرنا ان التمايشي فصل مديرية كسلة عن سلطة عثمان دقنة وولى عليها قريبه حامدين على الذي حكمها بصرامة وصادر أموال قبائلها وقطع السبل عليهم فهلكت القبائل ونزح اكثرها الى بلاد الحبشة وهلكت قبيلة الهدندوة التي كان عدد نفوسها نحو مليون نسمة . ومما يجب ذكره هنا ان حامدين على أرسل الى التمايشي نحو مائتي ألف ريال عدا الذهب والفضة اللذين سلبهما من الاهلين

المجاعة في القضارف

ذكرنا القضارف وخصوبة تربتها وكثرة حاصلاتها ولما تفشت المجاعة في السودان في أوائل سنة ١٣٠٦ لم تكن وطأة القحط شديدة على تلك الجهة وفي بداية سنة ١٣٠٧ زحف الزاكي طامل من القلابات بعد ان ترك بها حامية لا تتجاوز ألف مقاتل الى القضارف ووزع جنده في القرى فأنهبوا ما بأيدي الناس من الغلال وجمعها في بيت المال وأمر أن لا يباع الا ردب منها الا بمائتي ريال

فهلك الناس واكلوا الميتة والجلود واكل بعضهم اولادهم وقد حكى لي من كان بالقضارف وقتئذ ان احدى نساء الامراء توفيت بغتة وكانت ضخمة الجثة فتآمر أناس ممن عرفوها ونبشوا قبرها في الليل وقطعوا لحمها وانضجوه في القدور واكلوه قبل ان يسفر الفجر وفي الغد وجد القبر منبوشا ففتشوا المنازل فوجدوا فيها لحوم الآدميين وعظامهم مما يدل على ان أهالي القضارف كانوا يقتاتون بلحوم بعضهم ولذلك لم يعرف من نبش قبر تلك المرأة

ولم ينج من مخالب المجاعة في القضارف غير أولى اليسار ولقد رأيت في ام درمان رجلا من اهل القضارف متسولا وقد كان رأس مال تجارته لا يقل عن مائة الف ريال وكان له نحو النفي مملوك يشتغلون بحراثة أراضيه الواسعة فذهب رأس ماله وأراضيه ومماليكه في شراء الغلة حتى خرج من تلك السنة لا يملك شروي نقيير. والحاصل ان القضارف لم يبق فيها من السكان اكثر من بضعة آلاف نسمة وهلكت قبيلة (الضباينة) ايضا وهي قبيلة رحالة كبيرة تفوق قبيلة الشكرية التي تقدم ذكر فنائها ماشية ونفوسا

وأما كردفان فقد قلنا ان المطر هطل فيها بكثرة فرويت ارضها ونجت حاصلاتها من الجراد وبالرغم عن ذلك كاه وقعت في المجاعة لان التعايشي جمع اكثر من عشرة آلاف فارس من أقاربه وانفذهم اليها فنزلوا القرى ونهبوا ما بأيدي سكانها من الحبوب وذبحوا ماشيتهم فارتفعت أسعار الحبوب وفشت المجاعة في البلاد حتى تجاوز ثمن الارذب عشرين ريالا أما مظالم المهديوية في كردفان فحدث عنها ولا حرج اذ قد تجاوزت حد المعقول وبعد ان كان أهاليها اغني أهالي السودان لان الصمغ وريش النعام من اكثر محصولات بلادهم صاروا في نهاية الفقر المدقع وخربت قري عديدة

وهجرها سكانها ولحقوا بالجبال التي حوالى كردفان وسكنوا بها ليمعدوا عن
المهدويين وظلمهم الفاحش

وأما دارفور فقد اجتاحت الحروب بلادها وفشى القحط فى ارجائها
وخربت بلادها ونزح اكثر سكانها الى الجهات الغربية واستوطنوها ومنهم
من اعتصم بالجبال ولحق بها. والخلاصة ان البلاد السودانية كلها قد عصت
بناب القحط وحل الخراب والدمار محل العمار حتى صارت تلك البلاد كلها
ينطبق عليها قول الشاعر

أمت خلاء وأمسى أهلها احتملوا أخنى عليها الذى أخنى على لبد

وليس لذلك من سبب سوى قصد التعايشى حلول هذه المصائب بأهالى
تلك البلاد ليضعفهم ويأمن عاقبة ثورتهم عليه فانه لو لم يرسل الجماهيرية
ويوعز اليهم بنهب محصولات الجزيرة لما وصل حال المجاعة الى الدرجة التي
وصفناها لان أهالى السودان يخزنون الغلال بكثرة حتى ان الواحد منهم ليخزن
فى السنة غلة تقوم بقوته عدة سنوات اتقاء شر المجاعات التي تتابهم فى
اكثر السنين وقد علمت ان مجاعة الجزيرة لم تصل الى الحد الذى تقدم لنا
ذكره الا بعد ان صودرت غلات أهلها ومجاعات بربر لم يقصد بها التعايشى
غير هلاك أهلها وكذلك مجاعتنا كسلة والقضارف قد علمت أسبابهما وكل
ذلك لم يقصد به التعايشى الا اضعاف الاهلين فانه لما أحس بامتعضهم منه
وخشى عاقبة ثورتهم عليه لم يغير سياسته العوجاء التي أوجبت امتعضهم
منه بل عمد الى اهلاكهم وفنائهم ليصبح آمناً على مركزه وبيت مطمئناً على
ملكه فصار مثله مثل اليوم يسر بالخراب اكثر من العمران
ونقل لى ثقة أن احد مقربي التعايشى قال له يوماً ان الكلب اذا جاع

لزم سيده فقال له التعاشي ان قتل الكلب ومحو اثره من الارض خير
 من اجاعته وكان قصد ذلك المقرب من كلامه أن يصادر التعاشي غلات
 رعاياه فتكون نتيجة ذلك الجوع فاجابه بان موتهم خير من هذه الطريقة
 أما ما اصاب المؤلف من هذه المجاعة فانه يفوق الوصف فمن
 ذلك أني ذهبت يوما الى دور البقارة لالتقاط الجوب المبعثرة حول
 اسطبلات الخيول وبعد ان جمعت نحو مدين منها جاءني اعرابي فاخذه
 مني فيشت من الحياة وكدت أهلك انا واولادي لو لم تصل الي تقود
 رسالة من صديقي الوفي محمد ماهر باشا محافظ مصر الآن اذ بها امكنتي
 أن اتخلص من مخالب المجاعة الاولى حتى دخلت سنة ١٣٠٧ وهبطت
 أسعار القوت الى النصف والذين استطاعوا الخروج من هذه السنة
 من أولي اليسار لم يخرجوا الا فقراء لا يملكون شروى تقير أما الفقراء فقد
 ماتوا رحمة الله عليهم

وقد ملك التعاشي كثيرا من اقاربه البقارة الاراضى التي مات اهلها
 في سنتي المجاعة فانطلقت ايديهم في البلاد بالسلب والنهب وما بقي في
 ايدي الاهلين من مواد الحياة اصبح عرضة لعبث البقارة ومع ذلك كله
 كانوا ناعمين عليه غير راضين باحكامه حتى أنهم كانوا يحنون الى ديارهم
 ويودون العودة اليها

ذكر فرار الغزالي وقتله

الغزالي بن احمد خوف زعيم قبيلة التعاشيه وكان ذا ثروة واسعة من الماشية
 ونفوذ عظيم في قبيلته وكان فارسا صنديدا تهابه القبائل وتقي بأسه الاعداء

ولما استقدم التعايشي قبيلة التعايشة ليشدها عضده وعد زعيمها
 الغزالي بان يجعله وزيره وبذلك تمكن من استمالته
 وكان الغزالي بعد وصوله أم درمان يستنجر التعايشي الوعد فلا يجد منه
 غير الماطلة والتسويق وكان من سياسة التعايشي ان يسند الوظائف الى
 ضعفاء البقارة وزعانفهم ممن تؤمن غائلته لا الى من يكون فارسا قوى الشكيمة
 مثل الغزالي خوفا من استمالته الناس بقوته وحزمه

ولما يئس الغزالي من نيل ما تروق نفسه اليه من الرئاسة وشاهد مظالم
 التعايشي وسوء تصرفه ووطن عزمه على الفرار من أم درمان والحق ببلاد
 التعايشة في دارفور حيث يلحق بالذين تخلفوا عن مرافقته الي أم درمان من
 قبيلته وكان يظن ان اكثر قومه الذين جاؤا معه يرافقونه ولا يتقاعدون عنه
 ولكن خاب ظنه ولم يتبعه الا أحد مواليه وابن أخته فغادر الثلاثة أم درمان في
 أول الليل وساروا متجهين الى جهة الغرب وفي الغد نفي خبرهم الي عبد الله
 التعايشي فامر نحو سبعائة رجل ان يتأثروهم وبعد مسيرة بضعة ليال ادركوهم في
 الطريق وقد بلغوا جهة يقال لها (كجر) بالقرب من بلاد كردفان الشمالية
 فوقف الغزالي وقفه من لا يحسب للموت حسابا وأطلق على رجال التعايشي
 النيران من بندقيته حتى طرأ عليها خلل أوقف متابعه الاطلاق فامتشق
 حسامه حتى أحاطت به الخيل وقتلوه وحملوا رأسه الي التعايشي امار فيقاه
 فقد وقعا أسيرين وقفل القوم راجعين الي أم درمان وقد ساء وقع هذه
 الفاجعة في قلوب التعايشة واشتد حنقهم على عبد الله التعايشي وسيأتي ذكر
 شيء من نتائج هذه المسألة

هذا وقد تقدم لنا ان نحو النصف من قبيلة التعايشة كرهوا ان يرجعوا

الي أم درمان فسادروا ديارهم ولحقوا ببلاد (وداي) ولولم يفتّر الغزالي
بسراب وعود التعاشي ويجب دعوته لما جاء الي أم درمان أحد من قبيلة التعاشي
التي كان يجيئها شوما وويلا على البلاد وعلى كل حال فان الغزالي ذهب كما ذهب
غيره من الذين ساعدوا المهديونية وعاونوا المهدي وخليفته على المظالم ولا غرو
فمن أعان ظالما سلط عليه

وكان يعقوب شقيق التعاشي يضمير السوء للغزالي ويخاف على مركزه
منه لزعامة على قبيلة التعاشية ولذا سعى بينه وبين أخيه التعاشي حتى أوقع
النفرة بينهما لينام مطمئناً في منصبه الذي كان حريصاً على بقاءه فيه

ذكر صلب ابراهيم عدلان امين بيت المال

ذكرنا ما كان من أمر عزل أحمد سليمان أمين بيت المال واستناد منصبه الي
ابراهيم عدلان الذي كان صنيعته وأحد اعوانه في بيت المال
ولما مات المهدي وظهر ما يضمره التعاشي لأحمد سليمان مال ابراهيم
عدلان عنه وصار يشي به عند التعاشي حتى بوأه منصبه وقربه منه وصيره
من ذوى شوره فاستخدم هذا المنصب وجمع بسببه أموالاً طائلة وقد أشرنا
الي ما اغتاله من الغلال في سنة المجاعة الاولى والحاصل انه أصبح ذا ثروة
كبيرة تعد بمئات الالوف وتمكن الفرور منه حتى صار ينازع يعقوب
في النفوذ ويسمى به عند أخيه التعاشي الذي كان يندهش من جرأته
ويخفي تأثره من وقاحته التي دفعته الي منازعة أخيه وقد رأيت ابراهيم المذكور
جالساً بحضرة يعقوب غير مكترث به ولا جاث على ركبتيه كما يفعله
الدرابيش

وصار ابراهيم المذكور ذانفوذ عظيم وشاد لنفسه داراً واسعة ملاها بالمحظيات من التقيات الحسان وجمع حوله عدداً كبيراً من العلمان وتغالي في اظهار الابهة وتمادي في الفرور حتى حسده القريب والبعيدوا كثروا من السعاية به عند التعايشي وكان يعقوب في طليعة أولئك الواشين

وفي أواخر سنة ١٣٠٥ قبض عليه التعايشي وزجه في السجن وصادر ماظهر من أمواله حيث لم يهتد الى جميعها ثم اطلقه وأعادته الى منصبه

وفي جمادي الثانية سنة ١٣٠٦ نفذت الاقوات التي كان ابراهيم عدلان صادرها من أهالي الجزيرة كما ذكرناه فيما تقدم ثم دخلت سنة ١٣٠٧ وقد اتهم الجراد محصولات البلاد قبل زمن الحصاد وقتل وورود الغلة الى أم درمان حيث لم يجد الجبابة محصولاً جديداً يأخذونه لبيت المال وهلك الناس من مجاعة السنة الماضية ولم يبق غير أولي الثروة الذين نفذ معظم ثروتهم ولم يبق لديهم من المحصول غير قليل من الذرة استبقوه لقوتهم وأصبح التعايشي عاجزاً عن تقديم الاقوات الى أقاربه البقارة فعزم على مصادرة ثلاثة ارباع مابقى من الغلال في ايدي أهل الجزيرة فاستدعي ابراهيم عدلان وعرض عليه انفاذ هذا الامر فامتنع من قبوله وقال للتعايشي ان مابقى بايدي الاهلين لا يقوم بحاجتهم وان مصادرة هذا القدر منهم ضربة قاضية على من في الجزيرة من السكان فاجابه هكذا أمرت وعليك ان تسافر بنفسك لانفاذ هذا الامر فامتنع وغانر أم درمان وأقام بالجزيرة زهاء ثلاثة أشهر فتكت في خلالها المجاعة فتكا ذريماً بالبقارة وظل التعايشي ينتظر من وقت لآخر مجيء الاقوات من ابراهيم عدلان الذي لم يوافه بشيء ما وأخيراً عاد الى أم درمان وطفق يخبر التعايشي بما استعقب المجاعة من تدمير البلاد وهلاك

السكان ظننا منه ان هذه الاقوال تكون اعظم شنيع له لدي التعايشي الذي كان لا يجهل صدق قوله ولكنه لما كان يقصد خراب البلاد وهلاك سكانها أظهر تكذبه واستدعى القضاة فاستنطقوا ابراهيم عدلان عن سبب عدم ارساله الغلال من الجزيرة فاعتذر لهم بما تقدم فاستدعى التعايشي رجلا اسمه (أحمد السني) من عمال بيت المال فتعهد له باحضار الغلال من الجزيرة فزوده بالأوامر وذهب اليها وبعد ايام قلائل أرسل له السفن مملوءة بالغلال ويحییء فيما بعد ذكر بقية أخبار أحمد السني وما آل اليه أمره من الرئاسة على الجزيرة كلها ولا يعزب عن القاري انه قام بانفاذ رغبة التعايشي حيث صادر ما بقى بيد الاهلين من اسباب الحياة . على ان امتناع ابراهيم عدلان من انفاذ ما أرادته التعايشي عاد بفائدة هي قرب موسم الزراعة حيث كان ما بيد الناس من الغلال يقوم ببعض ضرورياتهم ريثما يجيء زمن هطول الامطار ثم ان التعايشي قبض على ابراهيم وكبله بالحديد وفي الغد شكل مجلسا لمحاكمته تحت رئاسة الخليفة على حلوه فحكم عليه بالاعدام شنقا ونفذ ذلك الحكم بعد ساعتين من صدوره

وابراهيم عدلان هذا أصله من قبيلة حقيرة في الجزيرة اسمها (الخوالدة) وأمه من قبيلة تسكن (ولد مدني) يقال لها (المديسين) وكان يتجر في كردفان بأموال بعض تجار الاسرائيليين المصريين ثم لحق بالهدى حينما حاصر الايض ومن ثم اصطنعه احمد سليمان أمين بيت المال ووكل اليه بيع الارقاء والماشية التي لبيت المال ثم جوزي كما جوزي سنمار وسيأتي ان أحمد السني سمي بابراهيم عدلان عند التعايشي فكان من أمره ما كان

ذكر بقية اخبار ابراهيم عدلان ومسألة مصادرة العاج

لما ألقى التعايشي القبض على ابراهيم عدلان انتدب الزاكي عثمان
البقارى واحمد دى أحد كتبتة لمراجعة دفاتر بيت المال وابداء رأيهم في أعماله
فتبضوا على كاتب أسرار ابراهيم عدلان وأودعوه السجن وقتشوا بيته فوجدوا
ضمن أوراقه وريقة فيها رسم من نوع الرسوم التي يسميها جماعة المشعوذين
(الوافاق) أو (الخواتم) مكتوبا فيها « الملك عبد الله) أي التعايشي
وفيها أيضا اسم ابراهيم عدلان فاستنتجوا من ذلك ان تلك الورقة صنعت
لاستماله قلب التعايشي لمحبة ابراهيم عدلان فعرضت تلك الوريقة ضمن
أوجه الاتهام التي اتهم بها ابراهيم المذكور فقال قضاة الجهل والظلم ما يأتي
« ان تسمية الخليفة بالملك تدل على ان فاعلها غير مصدق بالمهدية ومن كان كذلك
فهو كافر ودمه هدر وماله وأولاده غنيمة للمسلمين »

ومنذ استوات المهدوية على أقاليم بحر الغزال وخط الاستواء صار عمالها
يجلبون لها العاج وفي آخر عهد ابراهيم عدلان جاءت ارسالية من العاج
فاصدر التعايشي أمراً ببيعها من التجار الذين أذن لهم بحملها الي سواكن
ليبيعها هناك فتلاعب ابراهيم عدلان في تقدير قيمتها حتي انه كان يبيعها
للتجار بنصفها ويشركهم في الربح وأثبت كاتب أسراره انه أعطى أحد أولئك
التجار أربعة آلاف ريال وكتب صكاً بينهما على أن يكون رأس المال ديناً
على التاجر والارباح مناصفة بينهما فاشترى التاجر بالاربعة آلاف ريال عاجا
من بيت المال تقدر قيمته الحقيقية بثمانية آلاف ريال فعمد التعايشي مجلسا
من القضاة وقال لهم انه لم يأذن لابراهيم عدلان في بيع العاج وقد باعه وأنفق

ثمنه في مصارف بيت المال العامة مع ان العاج فيء والقبيء من نصيبه
 الخاص به واستدعى أعوان بيت المال ووبخهم على ما فعله رئيسهم ابراهيم عدلان
 فلم يكن منهم غير الاستغفار والتضرع بطلب العفو وهم لا يجهلون ان الأمر
 ببيع العاج هو التعايشي وفي بيت المال الأمر الصادر منه ببيعه ثم
 أفتى القضاة بإبطال بيع العاج وجواز مصادرته من التجار فأرسل مندوبين
 خلفهم الى سواكن أخذوا ما بأيدي التجار من العاج قبل أن يتصرفوا فيه
 وكتب التعايشي بدفع العاج المصادر الى تاجر سواكني اسمه (عمر كشه) ليبيعه
 بمعرفته وليشترى منه بعض أدوات كياوية تحتاج لها معامل الخرطوش
 وبلغت قيمة ما صودر من العاج أربع مائة ألف ريال مجيدي وبقداً أكثر من
 أربع مائة تاجر رأس مالهم وصاروا في حالة يرثى لها ولم يبق لديهم نفقة عودتهم
 من سواكن الى أوطانهم

وأكثر التعايشي من البحث والتنقيب على ثروة ابراهيم عدلان فلم يعثر
 على شيء منها والمرجح انه غيب أمواله في جوف الارض ولا يعرف موضعها
 غيره وستكون نصيب من يخدمه الحظ فيفتنم تلك الخبيثة التي تقدر بمئات
 الألوف من الذهب

وخلف ابراهيم عدلان في وظيفة أمانة بيت المال النور ابراهيم الجريفاوى
 الذي كان أمين بيت مال بربر وقد ذكرنا فيما مضى طرفاً من سيرته وأعماله

ذكر حوادث العبادلة وابعادهم

العبادة قبيلة تسكن حوالي مدينة أصوان وهي تنقسم الى بطنين
 (العشاباب) و (المليكاب) وهؤلاء أقل عدداً من الاولين وقوام معيشتهم

الماشية كسائر الاعراب ولكن بسبب عدم خصب البلاد التي
يسكنونها لا تقوم الماشية بمعيشتهم قياما يصرف وجهتهم عن غيرها من
سبل الارتزاق

ولما افتتح المغفور له محمد علي باشا السودان اشتغل رجال قبيلة العبايدة بمهنة
تسيير القوافل التجارية والحربية في طريق الصحراء بين (كروسكو وأبو حمد)
وبالرغم عن قلة عدد المليكاب وكثرة سواد المشاباب استأثر المليكاب بالزعامة
على القوافل التي تسيير بين مصر والسودان وبالعكس ونبغ منهم رجال احرزوا
الشهرة والنباهة في الازمان التي تقدمت ولاية ساكن الجنان محمد علي باشا
على الديار المصرية

ولما قامت ثورة المهديوية في السودان كان حسن ابو خليفة بن اخي حسين
باشا خليفة قابضا على رئاسة تسيير القوافل بين مصر والسودان فانضم الى
المهديين وكتب له المهدي أمرا بالرئاسة على قبيلة العبايدة والدعوة له حوالى
مديرية اصوان وشهد بعض الوقائع التي انهزم فيها دعاة المهدي في اقليم دنقلة
وبسبب استبداد المليكاب بالرئاسة على القوافل دون المشاباب تولدت
بينهم العداوة واستحكمت الاحنة في صدورهم ونالوا من دماء بعضهم ما زاد
الطين بلة والطنبور نفمة واستقرت العداوة بين تينك البطين وتوارثها
الحظف عن السلف

وقبض كثير من المشاباب على وظائف بريد التعاشي وبعض وظائف
بيت المال فاشتدت المناظرة بينهم وبين المليكاب الذين ولي التعاشي رئيسهم
حسن ابا خليفة الامارة عليهم ووكل اليهم رئاسة القوافل أيضا وجمعهم مرابطين
في (آبار المرات) بين كروسكو وأبو حمد

واستخدمت الحربية أيضا عدداً ليس بقليل من رجال العباددة ليجولوا
 في الصحاري وناطت بعضهم مهنة التجسس للحكومة وصار آخرون
 منهم تجسسوا للتعايشي فاستحکم النفور بين المليكاب والعشباب وصار جواسيس
 الحكومة من العشباب يسمون عند الحكومة بجواسيس المهديوية ويلحقون بهم
 المصائب اذا كانوا من المليكاب أما اذا كانوا من العشباب فلا يتعرضون لهم
 وربما اعانواهم على قضاء أوطارهم وبمثل هذه المعاملة يعامل المليكاب جواسيس
 المهديوية فينكفون بالعشباب ويتركون أقاربهم

ولبت العشباب والمليكاب يحاربون بعضهم في دائرتي نفوذ الحكومة
 والتعايشي وينكفون بعضهم أشد النكال وفي سنة ١٣٠٦ قوت حظوة
 محمد بشير كرار أحد العشباب عند التعايشي حتى جعله قائداً لدابته يأخذ
 بخطامها في المواكب واتفق ان الحكومة ارسلت صالح بن حسين خليفة
 الى ابن عمه حسن خليفة للمخابرة فنزل عليه ضيفاً في (أبار المرات) ثم قفل
 راجعاً الى اصوان فتمى خبره الى التعايشي فاستشاهظ غيظاً وكانت وشايات
 قائداً دابته قد تمكنت من قلبه وكتب جمع من الامراء الذين في بربر
 والمرابطين في أبو محمد الى التعايشي يتهمون حسن خليفة بالخيانة والميل
 لجانب الحكومة فاستقدمه التعايشي الى أم درمان فلما قدمها قبض عليه
 فيها وسجنه وأصدر أيضاً أمراً بالقبض على سائر أفراد قبيلة المليكاب من
 ذكر وانثى وكان معظمهم يسكن حوالى بربر فقبض عليهم وصودرت أموالهم
 وسيقوا الى أم درمان يرسفون في القيود والاغلال وسيت نساؤهم وهم
 يبلغون بضعة آلاف

وتوفى محمد خليفة والد حسن خليفة غماً مما أصاب ابنه وقومه وكان

شيخا كبيرا وفي أوائل سنة ١٣٠٧ هـ حملوا الى منقار في خط الاستواء على السفن الشراعية بغير زاد فمات النساء والاطفال جوعا وهلك الرجال أيضا وعلى أثر ذلك خلا الجو للعشباب واستأثروا بمنافع دولة التعايشي وانتقموا من اعدائهم شر انتقام وقطع دابر المليكاب من السودان فسبحان من يغير ولا يتغير

ذكر غارة العبابدة على ابو محمد وقتل سليمان نعمان قمر
ذكرنا ما كان من أمر الجماعة التي فشت في السودان وقد خلت الحدود من المرابطين فيها وقتل وجود المقاومة حتى صار عدد الموجودين بام درمان من المقاومة لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل ويات التعايشي خائفاً يترقب تقدم الجنود المصرية لمناجزته حيث لا يجدون من يدافع عن البلاد أقل دفاع

وزيادة على ذلك ان التعايشي أيقن بانحراف الناس عنه وميلهم لجانب الحكومة على أثر ما أرهقهم به من المظالم والمغارم

قلنا ان الحكومة وكلت حراسة (آبار المرات) الى صالح بن حسين خليفة الذي هاله ما أتاه الخليفة مع ابن عمه حسن أبي خليفة وقومه المليكاب فجمع نحو مائتي راكب من قبيلته وأغار بهم على معسكر (أبو محمد) وانتشبت الحرب بينه وبين من فيه من الدراويش ومعهم سليمان بن نعمان قمر قاتل الكولونيل ستيوارت فاقتحم سليمان صفوف العبابدة وقاتل حتى سقط قتيلاً بينهم فخر وأرأسه واحتملوها

وكانت الحكومة نشرت نشرة فخواها ان من يأتيها برأس

سليمان هذا فله جائزة عظيمة ثم ألني امر هذه الجائزة قبل قتله ورجع
 المغيرون من العبادة بعد ان قتل منهم وقتل من اعدائهم فكوفي صالح
 خليفة رئيسهم على قتل سليمان نعمان براتب خمسين جنبها شهر يا وقد كان
 اثر هذه الحادثة على التعايشي سيئا حيث وقع في روعه ان الحكومة تنوي
 التقدم لفتح السودان واستدل الناس على ذلك بانه خرج بعد ان قرأ
 بريد (أبو حمد) فصلى بالناس صلاة العصر ست ركعات ثم سجد للسهو فمرف
 الناس ارتباك اذ كانت عادته ان يسهى في الصلاة اذا فوجيء بنسأ يفزعه
 ثم هدا روعه بعد ايام حيث علم انها غارة بسيطة ليس وراها فتح

ذكر موت الحاج علي سعد

الحاج علي سعد من قبيلة الجعليين وكان وضيعاً خامل الذكر ذاهنة دينية
 ولما دخلت دعوة المهدي في بربر رفع محمد الخير منزلته حتى صيره أميراً
 على سكان القرى الواقعة جنوب نهر (ابره) ثم كان من أمره مع محمد الخير
 أمير بربر ما تقدم لنا ذكر طرف منه حيث سمي بمحمد الخير عند التعايشي
 على أمل أن يخلفه في اماره بربر وقد وعده التعايشي بالوصول الى غايته
 وقضاء لباته فبالغ في توجيه المطاعن الى محمد الخير فعزله التعايشي وولي
 بدله أحد أقاربه البقارة وقلب ظهر الحجن لعل سعد ثم أمره باحصاء عدد المقاتلة
 الذين تحت امرته فبلغوا سبعة آلاف مقاتل فأمره بأن يصحبهم الى دنقلة
 في أوائل سنة ١٣٠٦ لينضموا مع ابن النجومي فقاد علي سعد بربر وحق
 بابن النجومي في دنقلة فأحصى من معه من المقاتلة فاذاهم ستمائة مقاتل فقط
 فكتب ابن النجومي الى التعايشي يخبره بأن مقاتلة علي سعد ستمائة رجل فقط

لاسبعة آلاف كما قال فاستاء التعاشي وأضرر السوء لعل سعد الذي يس من
 نيل أمانة بربر وامتعض من التعاشي واخيه يعقوب الذي خدعه
 وأغراه علي الطمن في محمد الخير توصلا الي عزله واقصانه عن الامارة وأطمعه
 في تبوي ذلك المنصب ثم لم ير منه وفاء بل قلب له ظهر المجن

وفي أوائل سنة ١٣٠٧ استقدم التعاشي علي سعد من دنقلة وقدم
 له غذاء وضع فيه مادة سمية فما كاد يفرغ من تناوله حتى أحس
 بانحراف شديد فلزم داره وتوفي بعد ليال قليلة بعد أن ظهرت عليه
 اعراض التسم

وخلقه في وظيفته أخوه عبدالله سعد الذي خرج علي التعاشي قبل فتح
 أم درمان فقتله الامير محمود في من قتله ويجيء ذكر ذلك فيما يلي والله الامر
 من قبل ومن بعد

ذكر موت عثمان آدم وتولية محمود احمد بدله
 ذكرنا ما كان من أمر عثمان آدم أمير دارفور وكيف جمع جيشاً جراراً
 هاجم به دارفور واستولي عليها بعد ثورة اهل سلطنتها القديمة ثم ما كان من أمر
 ظهوره على (أبو جيزه)

ولما فرغ عثمان من أمر أبو جيزه عم الدمار بلاد دارفور حيث اباد
 القحط البعض والبعض الآخر هجروا بلادهم وطمقوا بالبلاد التي في الغرب
 وكانت لم تخضع للمهدين مثل بلاد (أبو ريشه) وبلاد (وداي) وغيرها
 وأخذ عثمان يوالي الغارة على سكان الجبال ليتحصل على نفقات جنده حيث
 صارت البلاد خراباً لا تقوم ببعض نفقات واقوات أولئك المقاتلة فتحصل

على شيء كثير من الاقوات والماشية ثم وجه عزيزه الى بلاد الغرب لفتح
 بلاد (مسلات) وبلاد (أوريشه) وهما مملكتان واقمتان بين (برقو ودارفور)
 فظفر ببعض قرى في تخوم تلك البلاد وقصد التوغل لفتح البلاد كلها حتى
 يقف عند حدود (برقو) فاصيب بحمي خبيثة وقضى نحبه بعد ثلاث ليال فاحتمله
 جنده وتقهروا به راجعين الى دارفور وأخفوا وفاته على العامة واقاموا
 وكيله محمد بشاره مقامه وارسلوا بنعيه الى التعايشي الذي وقع عليه هذا الخبر
 وقع الصاعقة وسالت الدموع من عينيه لانه كان يحبه ويعتقد فيه الكفاءة
 في دفع الملمات ومقدراً نجاحه في دارفور حق قدره

وبعد ايام يسيرة من وصول نبي عثمان آدم أعلن التعايشي نبأ تعيين ابن
 عمه محمود أحمد بدله

وعلى ذكر محمود هذا نأتى هنا على ترجمته تيمناً للفائدة فنقول انه ابن أحمد دى
 عم التعايشي وكان مولده ببلاد التعايشة بجهة (الكلكه) وقد رأيناه بعد سقوط
 الخرطوم مع والده وكان عمره اذ ذلك لا يتجاوز خمسة عشر عاماً ووجهه
 مشوه بآثار الجدري والمتربة ظاهرة على اطواره البالية لا يأنف من مديد
 السؤال الى أولى اليسار من الامراء والوجوه حتى وصلت خلافة المهدي وبين
 الى ابن عمه التعايشي. والحاصل ان المترجم كان مثل سائر أقاربه في الغاية القصوى
 من الفاقة وشظف العيش وأهالي السودان الاوسط يحترقون سائر البقارة
 الذين هم في الدرجة القصوى من الهمجية والبداوة الوحشية ولغتهم مع
 كونها شبه عربية تكاد تكون غير مفهومة. وبالجملة ان المترجم كان بقارياً
 في جميع أخلافه وأطواره ولكنه مالبت بعد ان صار قريبه التعايشي ذا
 سلطان على السودان حتى غير أخلاقه وعوائده وتشبه بأهل السودان

الايوسط واسترسل كعثمان ابن التعايشي في الدعارة وانهمك في حضور ليالي الرقص والغناء التي ذكرنا بعض اوصافها وتغالي في حب المومسات وجمع حوله عددا ليس بقليل من المخنثين المتشبهين بالنساء وله أخ اسمه ابراهيم الخليل هذا حذوه وسار على وتيرته

وقبيل توليته توفي والده وكان فيما يزعمون بارعا في معرفة علم الرمل ومعرفة البخت مثل ابن أخيه عبد الله التعايشي الذي كان خيرا بهذا الفن والحاصل ان ترجمة محمود أحمد لا تختلف كثيرا عن ترجمة عثمان ابن التعايشي وفي أوائل سنة ١٣٠٨ خرج التعايشي لتشييع محمود وسار معه أيضا مندوبون من القضاة ليعلموا أمر توليته ويأمروا القواد بطاعته

ولما وصل الي دارفور امتعض القواد منه لانهما كه في الشهوات وعكوفه على المعاصي والدنات وظهر لمروسيه الفرق بينه وبين سلفه الذي كان على نهج كبار المهديين

والحاصل انه قبض على زمام دارفور وبقي بها حتى شغب الدنقليون أقارب المهدي على التعايشي وتحفز الاهلون كلهم للشورة عليه فاستدعاه من دارفور الي أم درمان بجيشه وسيأتي ذكر ذلك في مكانه

ذكر صفة معيشة التعايشي

كان التعايشي قبل ان يفضى اليه الملك مثل سائر بني جلده البقارة في الدرجة القصوى من الحشونة والبدانة لا يعرف شيأ من ضروب التنم في الاحوال المعيشية على طريقة المترفين من أهالي السودان الاوسط التي هي وان كانت عوائد بربرية غير مألوفة الا أنها تمد مدينة بالنسبة لحشونة البقارة

الذين لا يعرفون من أنواع الاطعمة غير العصيدة وادام (المندية) الذي سبق لنا تعريفه ولحوم الصيد

وقد كان التعايشي عريقاً في هذه العوائد وكان يتطيب بكبريت العامود ذى الرائحة الكريهة التى تنقبض النفس من شمها وكان احسن الطيب عنده وهذا بخلاف اهالي السودان الاوسط فانهم يتطيون بعطور الصندل والمحب وغيرها من انواع الطيب التي يبتدئها المصريون وينفرون من رائحتها والحاصل أن عوائد التعايشي وقومه تباين عوائد اهالي السودان الاوسط وتختلف عنها اختلافاً كبيراً وهي كما قلنا في منتهي الخشونة والبداوة

وكان قبل افشاء الخلافة اليه نحيف الجسم مقوس الظهر كانه شيخ هرم طويل الوجه غائر الصدغين المنتشر بهما آثار الجدري

وكان يلبس مرقعة بالية ممزقة يظهر جسمه من خلال خروقتها ويتمم على قلنسوة من (الدمور)

ولم يلبث بعد ذلك حتى نبذ عوائده كلها ولبس المرقعات النظيفة وتشبه بالمهدي في ملابسه واخذ يتطيب بعطر المحلب والصندل وصار يأكل الاطعمة المصرية التي كان يقوم باقتانها نسوة مصريات من أهل الخرطوم وجمع عنده نحو مائة وعشرين امرأة من أجمل نساء السودان وضخمت جثته وتغيرت سحنة وجهه حتى انه يخيل للناظر اليه انه شخص آخر غير التعايشي ولكن لم تمض عليه ثلاث سنوات حتى تنفص عيشه بما اعتراه من ضعف أعضاء تناسله وخمود شهوته فاستدعى طبيباً مصرياً اسمه حسن زكي من أطباء الحكومة السابقين وتاجر في اسم أحدهما محمد طه الشامي واسم الثاني بندليه اليوناني وشكاهم ما انتابه من الضعف وفقدان الشهوة وسألهم ان

يبحثوا له عن الاشياء التي تقوي الباه وأكد عليهم في الكتمان فذهبوا وبعد
 المداولة قر رأيهم على ان يحضروا له شياً من العنبر مضافاً على نوع الحشيشة
 المطبوخة المسماة (قراوش) فقصداوا محل رجل كان يبيع الحشيشة سرّاً اسمه
 بكتاش أفا وعادوا بالقدر الكافي ثم طبخوه مع العنبر ووضعوه في حق
 وذهبوا الى دار التمايشي الذي فقنته رائحة العنبر فأمرهم ان يأكلوا منه
 بحضرتة خشية ان يكونوا قد دسوا له فيه السم فاكلوا منه فشكرهم واجاز
 كل واحد منهم بعشر ريبالات وأكثر من أكل هذا النوع حتى نفذ فأمرهم
 تجهيز غيره وصار ذلك عادة له لا يقدر على تركها

ذكر حادثة البطاحين

البطاحين قبيلة بدوية تسكن شرق النيل الازرق غرب صحراء (بره)
 وماشيتها من الغنم والبقر وبمض الابل ورجالها مشهورون بالشجاعة والاقدام
 مع قلة عددهم وكلهم لصوص وقطاع طرق ولا توجد عصابة سطو أو جمعية
 سلب في سائر انحاء السودان الا من البطاحين وقد أمسكت الحكومة
 كثيراً منهم قبل المهديوية وعاقبتهم على ما كانوا يأتونه من قتل النفوس
 ونهب الاموال

ولما ظهرت دعوة المهديوية كانت قبيلة البطاحين في مقدمة القبائل
 التي مالت اليها طمعاً في النهب والسلب اللذين هما دينها. ولحق بالمهدي
 في جبال (قدر) أحد رجال هذه القبيلة المدعو عثمان بن أحمد وكان
 من حفظة القرآن وهو كقومه البطاحين الذين جيلوا على الفساد وسفك

الدماء وكان ذا دهاء تمكن به من الظهور بمظهر الزهادة والنفاني في حب
 المهدوية والاخلاص لها فجعله المهدي نائبا من النواب الموكل اليهم النظر في
 القضايا الكلية فاستخدم هذه الوظيفة في سبيل اطلاق يد قومه البطاحين
 في النهب والسلب ووقف وظيفته لدرأ كل عقوبة يراد عقابهم بها على ما يرتكبونه
 من جنایات السطو والقتل وقطع الطرق فانطلقت ايديهم في النهب
 والسلب بلا خوف من طائلة عقاب حيث صار قريتهم نائبا من نواب
 المهدوية ومقربا من مقربي التعايشي وارتفعت الشكوى منهم الى التعايشي
 الذي كان مع ظلمه لا يرضي بجولان يد في العبث والفساد غير يده وايدى
 قومه البقارة فكتب الى قبيلة البطاحين يأمرها بمغادرة ديارها والحقاق بان
 النجومي في دنقلة وذلك في سنة ١٣٠٥ فسافر منهم نحو الف رجل واختفى
 الباقون في قفار بلادهم وصحاريها حتى كانت سنة ١٣٠٦ وفشت المجاعة
 في السودان

وفي اواخر هذه السنة ازدادت مفسد البطاحين وانتشروا في بلاد
 شرق النيل وقطعوا الطرق على القوافل التجارية والسابلة التي تجتاز الصحراء
 بين النيل الازرق ونهر (اتبره) وحدود الحبشة وابدوا عدة قوافل بعد ما نهبوا
 وسطوا على أكثر القبائل النازلة في انحاء تلك الصحراء وكلما رفع المجنى عليهم
 شكواهم وأحبلوا على القضاء الذي من اكبر رجاله قريتهم عثمان السالف الذكر
 خرجوا ظافرين بريئين

وفي ذات يوم جلس التعايشي في محرابه وحوله القضاة والنواب فقال
 لهم لقد طفي البطاحون وزادت شرورهم ومفسدهم فأجابهم عثمان النائب بقوله
 يا مولاي انهم تركوا السطو وقطع الطرق منذ بايعوا المهدي ونصروا دعوته

فقال له التعاشي كلاً بل أخبرني الحضر عليه السلام انهم لم يتركوا شيئاً مما كانوا فيه بل زادوا جرأة واقداماً على السطو وقطع الطرق فسكت عثمان واذعن لقول التعاشي

وفي أوائل سنة ١٣٠٧ انفذ اليهم التمايشي رسولا اسمه ابن جابر النبي فذهب الى حيهم وقرأ عليهم أمراً من التعاشي بمغادرة بلادهم واللحاق برباط دنقله فقابلوا الرسول بالضرب والاهانة وهموا بقتله وألقوا به وبمن معه جروحاً خفيفة فقر من وجوههم وقتل راجعاً الى أم درمان فلقى التعاشي خارجاً من داره لصلاة المغرب فأخبره بما أصابه فأمر في الحال باعداد نحو عشرة آلاف مقاتل بين فرسان وجهادية مسلحين بالبنادق وان يغادروا أم درمان بعد صلاة العشاء تحت قيادة قريبه عبد الباقي عبد الوكيل

وبعد صلاة العشاء ركب التعاشي والابواق حوله قاصدا ضفة النهر لتوديع الجيش وتزويد القائد بالوصايا التي يعمل بها وما انتصف الليل حتى اجتاز الجيش كله النيل على البواخر والسفن وتابع مسيره في الصحراء الى المساء وبعد ثلاث ليال داهم حى البطاحين في الغلس وأمطرهم النيران الحامية فسقط منهم نحو ألفي قتيل وسبق الباقون أسرى بنسائهم وأطفالهم ونهبت ماشيتهم كلها وجرى نحو ثلاثة آلاف أسير منهم الى أم درمان عدا الصبيان والنساء فاختر التعاشي مائة وخمسين رجلاً من أعيانهم ومشايخهم وأصدر أمراً بجلب خمسين منهم في ميدان السوق وضرب أعناق خمسين أيضاً وقطع أيدي وأرجل الخمسين الآخرين

وركب التعاشي في ظهر ثاني يوم ووصلهم الى ميدان السوق وشهد انفاذ هذه الاحكام الفظيعة ومات أكثر الذين قطعت أيديهم وأرجلهم ونجا

الذين أدركتهم غيرة أولي الشفقة فصبوا على جراحهم الزيت المحمي بالنار
 لقطع زيف الدم وقد قال التعايشي وقتئذ لمن حوله اني لم أفعل ذلك الا باذن
 من النبي صلى الله عليه وسلم والخضر والمهدي فانهم أمروني بالامس بهذا
 العمل فقال رجل من الدناقلة وهو نوتي ان صدقنا انهم أمروا بالصلب وضرب
 الاعناق وقطع الايدي والارجل فهل نصدق أنهم أمروا باخذ النساء الحسان
 ونكاحهن كوطوات بملك اليمين فسمعه بعض الحاضرين وأبلغ التعايشي مقالته
 فأمر باحاله على المحاكمه حيث ادعى عليه أنه لعن أبا المهدي فحكم القضاة بضرب
 عنقه فضربت في اليوم التالي في محل استعراض الجيش

وأخذت نساء البطاحين مسيبات ووزعن على البقارة والقواد وامتلات
 أم درمان بالمتسولين منهم وكانوا كما قدمنا من أشد القبائل تشيعاً للمهدوية ومن
 شدوا أزرها فانتقم الله منهم بيدها ومن أعان ظالماً سلط عليه
 وبيعت ماشيتهم التي جلفها من الضأن والبقر في أم درمان فهبطت اثمان
 المشية حتى بلغ ثمن الرأس من الضأن نصف ريال

شان محمد خالد زقل بعد ذلك

ذكرنا ما كان من حوادث محمد خالد زقل في دارفور وما وقع له مع
 حمدان أبي عنجه الي سجنه بام درمان بضعة شهور وخروجه من السجن حيث
 أمره التعايشي بملازمة الصلوات الخمس في المسجد معه وكان زقل هذا ذا دهاء
 شديد فأخذ يتظاهر بولاء التعايشي ومحبته حتى خدعه ما يتظاهر به الي أن
 دخلت سنة ١٣٠٦ وكثرت الاختلافات بين عثمان دقنه وأبي قرجة الذي
 تولى على شرق السودان بدله

ولما استنفذت تلك الاختلافات انفذ التعايشي الشيخ الطاهر بن المجذوب
ومعه محمد خالد زقل الى السودان الشرقي ليفصلا بين المختلفين فتوفي الشيخ
الطاهر في (طوكر) وقفل محمد خالد زقل راجعا الى ام درمان ومعه عثمان دقنة
ثم عزل التعايشي ابا قرجة واعاد عثمان دقنة الى الامارة ثم ولي محمد خالد
زقل على دنقلة زهاء سنة حتى دس له يعقوب أخو التعايشي الدسائس
وكان في دنقلة أميران من البقارة هما مساعد قيدوم الذي تقدم لنا ذكره
مع ابن النجمي وكان قائد المقاتلة من البقارة وعربي دفع الله وكان قائد الجهادية
المسلحين بالبنادق

وعربي هذا كان خادما عند محمد خالد زقل تربى في منزله بدارفور
ولما عين زقل أميراً على دنقلة وصار عربي تحت إمرته حفظ لزقل
حق التربية فكان يتواضع أمامه ويجلس متأدبا بحضرة ولم يكن
في الحسبان أن ينقلب حالهما ويتبدل صفاؤها بالعداوة لولا مادسه يعقوب
أخو التعايشي لعربي حتى دفعه الى السعي بزقل عند التعايشي . وفي ذات يوم
جمع عربي رجاله وكانوا زهاء الفين وأحاط بهم منزل زقل ومنعه
من الخروج فانقسم جيش دنقلة فريقين فريقاً ينتصر لزقل والآخر
يظاهر عربي عليه وهذا مؤلف من الجهادية والبقارة وذلك من
الذناقة والجعليين وكان قد وصل في غضون هذه الحوادث أحد أعداد
جريدة مصرية فيه نبأ يشير الى أن زقل أمير دنقلة اتفق مع الحكومة
على ان يسلمها دنقلة بغير مقاومة وأن الحكومة الحديدوية وعدته
بالمكافأة الحسنه فلم يبق ريب لدي التعايشي في صحة الخبر وخشى ان يكون
زقل قد قرر ذلك مع من معه من القواد فانفذ اليه يونس الديكيم ومعه أمر

بانه عينه خادما يحمل نعل محمد خالد زقل فادرك سر المسألة وكتب الى التعايشي
 يستأذنه في القدوم عليه ويسأله ان يعين من ينوب عنه في دنقلة فاجابه بتعيين
 يونس نائبا عنه وأمره بالقدوم عليه فاستقبله بالاكرام وبعد أيام يسيرة عقد
 مجلساً لمحاكمته لما جاء في الجريدة المصرية فحكم المجلس باعدامه ولكن
 التعايشي أوقف التنفيذ وأمر بسجنه ومصادرة أمواله ووضع في رجليه من
 القيود ما أثقله حتى عجز عن المشي ونهبت أمواله وبقي في السجن بضع سنوات
 ثم نفي الى خط الاستواء في مستهل سنة ١٣١١

وكان زقل شديد البغض للمصريين مع انه كان موظفاً أميرياً بدارفور
 كما قدمنا وحازراً للرتبة الثالثة ولما استولى على دارفور ارسل الى المغفور له الخديو
 توفيق باشا كتاباً ينصحه فيه بالتسليم للمهدوية واستهل كتابه بمقدمة مملوءة
 بالوقاحة والسفاهة والمطاعن الشخصية التي يتجافى اليراع عن رقتها. ولما ولي على
 دنقلة أرسل له كتاباً آخر لا يختلف عن الكتاب الاول مملواً بالمثالب والمطاعن
 وقد اتصل بنا ونحن نبيض هذه السطور ان محمد خالد زقل فر من منفاه بخط
 الاستواء بعد هزيمة التعايشي بأم درمان ولحق بمملكة (برقو) فأمسكه سلطانها
 كأسير ولم يفلته حتى الآن ويقول العارفون بعادات تلك البلاد انهم
 لا يسمحون لغريب ذهب الى ديارهم أن يعود من حيث جاء مخافة أن يكون جاسوساً
 يجوس خلال الديار ويعود منها مزوداً بالاسرار ومهما يكن من الحال فان زقل
 لم يتمتع بلذة الحكم على بلاد دارفور التي استخلصها من جنود الحكومة بالصفة
 التي تقدم لنا ذكرها الا زهاء سنتين كانت مغبتهما السجن ونهب ما جمعه من
 الاموال في خلالها ولا غرابة في ذلك فهكذا كانت معاملة المهدوية لكل من
 أعانها والله الامر من قبل ومن بعد

ذكر استخراج الرصاص والنحاس

والكحل من معادن حفرة النحاس

تقدم لنا ان الطيب الذكر غردون باشا افنتح جهة (حفرة النحاس)
المملوءة بمعادن النحاس وشرع في استخراج النحاس منها ثم أهمل خلفه أمر
هذه الحفرة ولم يحفل باستخراج النحاس منها حتى دخلت بلاد دارفور في
حوزة المهديوية

وفي سنة ١٣٠٧ أنفذ التعايشي أناسا الى تلك الجهة فاستخرجوا شيأ
كثيراً من الرصاص والنحاس والكحل فاستخدم الرصاص في تعبئة الخرطوش
بعد ان جبطت مساعيه التي بذلها في استخراج هذا الصنف بسبب الغش
الذي قطعت يد ورجل المقدم عمر الجعلي من أجله
وصنع من النحاس ظروف الخرطوش ثم لم يعد لاستخراج شيء
من هذه الأصناف بعد أن حصل على كفايته منها

ذكر بنات الجميلين

الجميلين اسم قبيلة تقدم لنا تعريفها في حوادث بربر
وفي أوائل سنة ١٣٠٨ أنفذ التعايشي رجلا اسمه محمد وهي بن حسين
اداي المشهور بالرئيس وكان من موظفي الحكومه في بربر الى قرى الجميلين
الواقعة بين بربر وأم درمان على احدى البواخر ليأخذ كل حسناء من بنات
الجميلين ويحملها على الباخرة ويأتيه بها فمكث بضعة شهور متجولا في شواطئ
تلك القرى بباخرته ثم عاد بها وهي مكتظة بالنساء الحسان وجلهن عذاري
وسمعت من أحدهن ان التعايشي كان يأمر بنزع ثيابهن عنهن لدى وصولهن

اليه فكانت الواحدة منهم تدخل عليه في حجرته وهي عارية كيوم ولدتها أمها
وبعد ان ينعم نظره فيها وهي مقبلة يأمرها ان تدبر ثم يدينها منه فاذا أعجبتة
أبقاها في داره موطوءة بملك اليمين وان لم تعجبه أمر باخراجها واهدائها
لاحد أقاربه البقارة

أما دخول النساء عليه وهن عاريات فكان لا يقصد به التمتع بالنظر اليهن فقط
بل كان يخاف ان يحملن تحت ثيابهن سلاحاً أو مادة سامة وهو يعامل كل نسائه
بهذه المعاملة الا من يثق بامانها وقل ان ياتمن واحدة منهم

ذكر انسحاب الجيش من القلابات

تقدم لنا ذكر ما كان من أمر محاربة الدراويش والاحباش الي قتل
النجاشي يوحنا

ويقولون ان النجاشي منليك الذي خلف يوحنا في سلطنة الحبشة
عقد مهادنة مع الدراويش على ان يكفوا عن حربه والتعمدي على حدوده
لانه لم يرغب عنه ان المملكة الحبشية مشتتة بدفع غارة الايطاليين عليها من جهات
(أسمره) وفتحها بابا للحرب مع الدراويش يضاعف مشغوليتها ويزيد خسارتها
فداهن الدراويش بل صافاهم على انه كان موقناً بان سوء تصرفات سلفه
هي التي فتحت على المملكة هذا الباب الذي كانت في غنى عنه لكي تفرغ
للقوف امام المغيرين على بلادها من الفاتحين الايطاليين

والتعاشي لم ينشر شيئاً يدل على وقوع هذه المهادنة الا ان قران الاحوال
تدل عليها لان بعض مصادر الاخبار تؤكد ان غارة الدراويش على الاحباش
لا تخلو من يد للايطاليين في تديرها. وفي نفس الوقت الذي كان منليك

يستمد فيها لمناجزة الايطاليين في الواقعة الاخيرة بينهما كانت جيوش
الدراويش أيضاً تحف من جهة أخرى لمهاجمة مراكز الايطاليين مما يدل على ان
الدراويش كانوا أولاً على وفاق مع الايطاليين ضد الاحباش ثم انعكس الحال
فصاروا مع هؤلاء على أولئك

والحاصل ان التعايشي بعد أن ملأ القلابات خيلاً ورجالا ونال جنده
من الاحباش ما نالوه من الظفر حصن القلابات بسور من الحجارة وأصدر
أمراً الى الزاكي طمل قائد الجيش ان يترك القلابات ويوكل حراستها الى الف
رجل تحت إمرة أحمد على البقاري فصدع الزاكي بالامر وغادر القلابات
وعسكر في القضارف وارهق أهلها نهياً وصادر غلاتهم بالكيفية التي ذكرناها
في الكلام على القحط الواقع في القضارف

وفي أواخر سنة ١٣٠٧ قدم الزاكي طمل على التعايشي ودفن له مائة
وثمانين الف ريال وقناطير مقنطرة من الذهب والفضة فأمره بالعودة
الى القضارف وأخذ الالهبة لاختراق الجزيرة والغارة على بلاد (الشلك)
باقليم فشودة

ذكر غارة الزاكي طمل على الشلك

الشلك اسم لقبيلة من العبيد تسكن اقليم فشودة وهم حفاة عراة يلبس
الاغنياء والعظماء منهم قطعة من خرقة تستر أنصاف أنخاذهم فإذا جلس احدهم
طوي الخرقة ووضعها على كتفيه وبقيت عورته بلاستر
أما النساء فيأتررن بفروة من الجلد اذا كن متزوجات أما اللاتي لم
يتزوجن فهن عاريات كيوم ولدتهن أمهاتهن وهؤلاء النسوة يحلقن شعر

رؤسهن مما يزيد في تقبيح مناظرهن وتشويه خلقهن والرجال يسبلون شعورهم
ويدهنونها بالمواد الغروية كالصمغ ويمسكون منها شكلا يخاله الرأى من بعد
قبح الافرنج

وهم غلف لا يعرفون الختان ان يزعمون ان الختان هو كسر أربعة أسنان
من اسنان الرجل أو المرأة من الفك الاسفل ليتمكن احدهم من اخراج
اللسان بغير أن يقف شيء في طريقه

ويزين الرجال نحورهم وأذرعهم بكثير من الخرز وأجراس النحاس
الصغيرة وقطع العاج وزينة المرأة شيء من الودع والخرز على خصرها وعلى
كل حال تربو زينة الرجل وحليته على زينة المرأة وحليها والرجال مع استئثارهم
بالنصيب الاكبر من الزينة على ما ذكرنا تراهم مع سواد بشرتهم طوال القامات
حسان الوجوه مفتولي السواعد يبدو على وجوههم العجب والزهو ويحملون
بأيديهم الاسلحة من المزاريق والحراب ولا يعرفون هم ولا نساءهم لبس
نعل أو حذاء

وديانهم وثنية همجية لهم صنم من الخشب اسمه (النيكامه) به تطيش
النون وأما (الكجور) فهو كعالم ديني يرجعون الى مشورته في أمور الدنيا
والدين والطب وهو إن صح ما نسمعه من قومه عنه لا يخلو من معرفة شيء
من علم النجوم والانواء علما نظريا لانه كثيرا ما يخبرهم بأخبار المطر وغيره
قبل الحصول

ومما يدل على ذلك ان وظيفة الكجور لا تكون الا وراثية من
الاسلاف للاعقاب وبالجملة ان الكجور عند الشلك أشبه شيء بالكاهن
والعراف في عهد الجاهلية

وأغذيتهم من لحوم الصيد ولبن الماشية والبوظة المسكرة وما شيتهم من
النعم والبقر كثيرة جداً وهم يقدسون الفحل من البقر ويلقون على قرنيه
الاجراس والخرز وسائر أنواع الزينة ويسمونه (مجوك) ويخرجونه في الحفلات
والمواسم حيث يكون موضع احترام الجميع

وإذا خرجوا يستسقون المطر يخرجون الفحل أمامهم متوسلين به
والحاصل أن (مجوك) عند الشلك يشبه العجل (أبيس) عند قدماء المصريين
وعادة الزواج عندهم أن الرجل يتزوج بما شاء من النساء بمعنى أنه يتزوج
ما شاء من النساء بغير قيد ولا حد

ومهر الزواج لا يقل عن ستين رأساً من البقر للمتوسطة من النساء ومائة
لاهل الطبقة العالية ولا يجيزون أن يكون المهر أقل من أربعين رأساً من البقر
والمهر حق لا قارب الزوجة يأخذ أبواها القسم الأكبر منه ويوزع الباقي على
أقاربها من جهة الأب والام وهؤلاء يناههم أكثر مما ينال أولئك

وإذا توفي الزوج خلفه أكبر أبنائه على جميع نساؤه عدا أمه والأولاد الذين
يولدون له منهم يعتبرهم أخوته لأنه يرى نفسه نائباً عن والده واسم (صريم)
علم جنس النساء كما أن اسم (ثور) علم جنس الرجال كلهم وتخضع قبيلة الشلك
كأهلها إلى ملك يسمونه (الملك) وحكمه نافذ فيهم وطاعتهم له عمياء وهم يعتبرونه
مقدساً يستمد سلطته من معبودهم (النيكامه) كما كان قدماء المصريين
يعتقدون شبه هذا الاعتقاد في فراعنتهم

وهذا الملك عاري الجسم مثلهم ولا يدنو منه أحد إلا بعد أن ينحني
ويزحف على ركبتيه ولا يرفع أحد عينه إليه بل يظلون جلوساً كأن الطير على
رؤسهم ويجلس حوالبه الشيوخ والكجور فاذا عقدت جلسة لمحاكمة جلس

الملك وبين يديه أنواع السلاح كلها وإنما يعاقبون بالقتل وعند نهاية الجلسة يتناول الملك نوعاً من السلاح الذي بين يديه يومئذ به نحو الجاني وينصرف فينفذ الحاضرون العقوبة عليه بنوع السلاح الذي أو مآبه

ومن دأبهم مع ما هم فيه من التوحش والهمجية حيث لا فرق بينهم وبين الأنعام المحافظة على الآداب حتى يظن الإنسان أنهم في نهاية التسدين فلا توجد بينهم فاحشة ألبتة والزاني والزانية لا عقاب لهما إلا القتل

ومما زاد في إعجابي بأولئك الأقسام أن المرأة منهم في نهاية الحرية تختلط مع الرجال وتجالسهم وهي محترمة عندهم كاحترامها عند الأفرنج ومن عوائدهم أن الرجل إذا انتصب ذكره وهو جالس مع غيره عوقب بالقتل في الحال مع أنهم يجلسون عمارة والنساء معهم

ومنازلهم أكواخ مستديرة وأعالها مستطيلة كالقبة والنظافة متوفرة فيها حتى أن أرض منازلهم مرصوفة بشيء من الحجارة يخالها الناظر لأول نظرة رخاماً وفي كل قرية مكان كبير يحرقون فيه روث البقر حتى يصير رماداً ينامون عليه ويتمرغون فيه

ويغسلون وجوههم ببول البقر ويتضمضون به ويضعونه في اللبن والسمن وما يكون الميتة والدم ولا يذبحون الماشية إلا إذا اشرفت على الهلاك فيئذ يذبحونها بقصد الحصول على الدم إذ هو أحسن غذاء عندهم وفي بعض الأحيان يجرحون البقر في شرايينها ويتزفون الدم في آنية ثم يضمدون الجرح ويربطونه حتى يندمل

ولهم مهارة غريبة في اقتناص الضواري كالقيل والسبع والنمر وبقر الوحش والزرافة وسائر أنواع الوحوش. ولنذكر هنا طريقة صيد

الفيل وبقر الوحش وهي ان يجتمع اثنا عشر رجلا منهم بيد كل واحد منهم
 حربة طويلة ويقترّبون من الفيل أو بقر الوحش ثم ينفرد واحد منهم دون
 رفاقه فيطعم ما يريدون صيده في اقتراسه ويتجه نحو مطاردته فيثب عليه الباقون
 ويطعنونه بحراهم في دبره قبل ان يتمكن من اقتراس رفيقهم لان الطعن
 لا يؤثر في بقية جسمه لملاسة جلده وصلابته. أما صيد بقية الوحوش فانه دون
 هذا في العناء وللملك نصيب من كل ما يصطاده الافراد فاذا كان من نوع الفيل
 فله العاج وأطياب اللحم أما الغزلان فانهم يقدمون له أحسن نصيب من لحمها
 ومهارتهم في صيد دواب الماء تكاد تفوق تفننهم في صيد وحوش القلاة
 وذلك انه يوجد في بلادهم فرس البحر بكثرة والتمساح والاسماك الكبيرة التي
 يزيد طولها عن مترين ولهم زوارق صغيرة مصنوعة من الخشب ومن
 العجب انهم يربطونها بالخيط فقط اذ لا مسامير من الحديد عند عمم والزوارق
 المذكورة محكمة الصنع متساوية الاطراف يركبونها ويحملون بايديهم
 مزاريق صغيرة رؤسها كالصنارة يقذفون بها الاسماك في عمق الماء فلا تعود
 بغير مصيد وينسدر أن يخطي المزارق وصيد التمساح يقرب من هذه
 الطريقة. أما طريقة صيد فرس البحر فهي انهم يربطون جبلا متينا في أسفل
 حربة رأسها كالصنارة وفي آخر الجبل حزمة من نوع خشب اسمه (العمبيج)
 يشبهه (الفلين) في خفته وطفوه على وجه الماء ويتربصون على ضفاف النهر
 بعد غروب الشمس حتى تخرج فرس البحر لتأكل الحشائش التي تنبت على
 الضفة فيرمونها بالحربة في دبرها فتولى عنهم وتعود الى اليم وقد
 غاصت الحربة في دبرها والجبل والعمبيج خلفها وبعد أيام قلائل يتعفن الجرح
 فيجتمع الصيادون في زوارقهم الصغيرة ويمسكون الجبل ويطاردون الفرس

التي تظهر على وجه الماء بعد جذب الحبل فيرشقونها بالسهام حتى يقضى عليها
فيقتسمون لحمها بعد اخراج اطابيه للملك ويجففون جلدها الذي يصنع منه
السياط المعروفة في مصر

وهم يسكنون الضفة الغربية للنهر ويسكن الضفة الشرقية أمة اسمها
(الدينكة) لا تختلف في شيء من المعادات عن الشلك الا انهم لم يحرزوا
صفات الشجاعة التي للشلك ولا يعرفون صيد البر والبحر مثل الشلك
ولا ملك عندهم بل لكل قرية رئيس مطلق ولذلك يضطهدهم الشلك
ويغيرون عليهم وينهبون ماشيتهم حتى ان الواحد من الشلك يطارد عشرة من
الدينكة الذين لهم صنم من خشب كصنم الشلك يسمونه (دينديت) وعدد
نفوس الدينكة يبلغ أضعاف الشلك وبسبب فرقة الدينكة صاروا عرضة لغارة
جيرانهم الشلك الذين هم مع ما هم فيه من القوة والعزة رآهم اذلاء امام جيران
لهم في الجنوب وهم أمة اسمها (نوير) حيث يوالون الغارة على الشلك وينهبون
ماشيتهم مع ان عدد نفوس الشلك يبلغ أربعة أضعاف عدد نوير والحاصل
ان نوير آفة الشلك كما ان الشلك آفة الدينكة

وعوائد نوير واخلاقهم مشابهة لعوائد الشلك الا انهم اكثر ثباتا من الشلك
واجراً وقاماتهم أطول منهم

وأرض الشلك والدينكة ونوير خصبة التربة وريها بالامطار التي تهطل غزيرة
جداً عندهم غير انهم كسالي لا يحرثون من الارض الا شيئاً قليلاً يقوم
بضرورياتهم

وحاصلاتهم الذرة الرفيعة والسوسم والدخان الذي يستعمله رجالهم ونساؤهم
صغارهم وكبارهم ويمتاز الدينكة عن الشلك بزيادة الحاصلات وكثرة الحرثة

ولما دخلت السودان تحت حوزة مصر لم يلتفت الحكام والولاة الى تنظيم حكومة للجهات الجنوبية على النيل الابيض التي منها فشودة بل كان الشلك وغيرهم من سكان البلاد عرضة لغارة عصابات النخاسين الذين يجلبونهم ارقاء وينهبون حاصلاتهم وماشيهم

وفي سنة ١٧٨١ اعتنى المرحوم موسى باشا حمدي حاكم دار السودان بامر الجهات الجنوبية ونظم حكومة لها فكانت فشودة أول مديرية أسسها وولى عليها القائم مقام حلمي بك الذي طرد النخاسين عنها ولكن الشلك قابله بالجفاء ونفروا منه وشهروا عليه الحرب حتى اضطر الى ان يتحصن منهم في نقطة فشودة الواقعة في وسط الاقليم واختارها عاصمة لمديريته وبعد ذلك هادنوه فقدم لهم كثيراً من الهدايا والملابس التي كان يفرغ جهده في اقناعهم بضرورة لبسها فلم يفلح بل كان كبراً وهم يلبسون بعضها عند قدومهم الى مركز الحكومة فاذا عادوا الى قراهم خلعوها وبقوا عراة كما كانوا

ولما ولي المرحوم جعفر مظهر باشا حكمه دارية السودان اهتم بشأن مديرية فشودة وبذلت الحكومة الجهد في استئلافهم حتى صاروا يادون لها بعض ضرائب لا تقوم بعشر معشار نفقات الحامية والادارة

ولدى تولية الطيب الذكر غردون باشا على جهات النيل الابيض أنشأ في فشودة عدة مراكز وشاد معاقل في الجهات الشمالية والجنوبية وكان اذ ذك ملك الشلك من عائلة اسمها (كيكون) فاخذ ذلك الملك في أسباب التمدين وصار يلبس الثياب ويأكل على الموائد . وقد اهدى له غردون باشا عدة هدايا ومنحه لقب (بك) فزاد اخلاصاً للحكومة الا ان قومه امتعضوا منه وذموا مخالفته لموائدهم وتشبهه بالترك واضمروا له الشر فثاروا على الحكومة عدة

ثورات قتل في احداها يوسف بك حسن المشهور بكرده مدير فشوده
وتقدمت تلك المديرية في مدته تقدما عظيما. ولما ظهر المهدي على جند الحكومة
في جزيرة (آبا) ولحق بجبال (قدير) وحمل عليه راشد ايمن بك مدير فشوده
وكان من أمره ما تقدم لنا إرادته في مكانه كان (كيكون بك) ملك الشلك معه
وقتل مع من قتل فقام أحد رؤساء الشلك وأخذ معه وفداً شخص
به الي المهدي في جبال قدير فكتب له المهدي بالامارة على الشلك وسماه
(عمر) واعطاه أبواقاً من التي غنمها من الحكومة فعاد الي الشلك وأخبرهم
بان المهدي اله وانه أخو معبودهم (النيكامه) وانه ولاء ملاكا عليهم فاتبعوه
لانهم كانوا يرفرن المهدي منذ كان شيخاً في جزيرة (آبا) فجمع عمر قومه
وشرع في مناوأة الحكومة وامتنع عن تأدية الضرائب وتوطد نفوذه بينهم
وحافظ على عواندهم التي تقوا على كيكون بك ملاكهم السابق من أجل نبذها
ولما فك المهدي بحملة الجنرال هيكس وقررت الحكومة جلاء
حاميتها عن فشوده لتعزير حامية الخرطوم خلا الجو لعمر ملك الشلك واستقل
بالتصرف في البلاد كلها

ولما توفي المهدي أعلن عمر أن المهدي استخلفه على العبيد واستخلف
الحامية على العرب وهم يسمون العرب (بون) بتعطيش النون واستمر
في بلاده مستبداً بالحكم فيها حتى دخلت سنة ١٣٠٦ هجرية وفشا القحط في
السودان ونسل الناس من جميع الفجاج الي فشوده جلب أنفلة فارسل التعايشي
باخرتين تقلان الف مقاتل احتلوا فشوده وكتب الي الملك عمر بأمره بتأدية
عشر محصولات بلاده منذ عودته من جبال قدير أي نحو ثمانى سنوات
وأرسل له هدية من الجوارى الحسان والسكر وبيض ملابسهم عن ثمرة

السكر فاذا قوه طعمه فقال انه لذيد ثم قال ان الجواري اللاتي أهداهن الي الخليفة يمنني من قبولهن أنهن متدنات يلبسن الثياب وكان يمكنني قبولهن لو كنت أجدهن في بلادي ثياباً مثل التي يلبسها وأخشى ان يصبن بضرر اذا أزمتهن بان يظلمن عاريات مثل نسائي وأما الملابس فلا أستحسن أخذها حيث اني لم أعود لبسها والاولى ان اردھا الى الخليفة ليهديها الي من يلبسها وأما السكر فان في بلادي عسل النحل بكثرة ويمكنني أن استعيض به عنه واني وان وجدته لذيداً واشتيت نفسي تناوله ولكنني أمنعها عنه لانه غير موجود في بلادي اذا أخشى أن تتعلق نفسي به في وقت لا أجده فيه

واما الاعشار التي يطالب الخليفة مني تاديتها له فلا أدفعها اذ لست خاضعا له لاتي مولى من قبل المهدي الذي هو مثل (النيكامه) والخليفة ملك العرب وأنا ملك الشلك وانا مثله فلا تلزمني طاعته ولا تلزمه طاعتي غير اتي أدفع له أني اردب من الغلال على سبيل الهدية ومكافأة له هلي هديته التي رفضت قبولها لعدم صلاحيتها لي

وكتب الملك عمر كتاباً الي التعايشي ضمنه هذا المعنى وأنفذه مع رسولين من قبله فقدا على التعايشي بام درمان فعجب من وجود من يحسن الكتابة عند الشلك وأخيراً علم أن الكاتب غلام ابوه مصري وأمه من الشلك وكان مع والده في الخرطوم حتي قتل يوم ستموطها فقر مع امه ولحق ببلاد الشلك اخواله وأمه قريبة احد رؤساء الشلك الكبار فجعله الملك كاتباً له وحدث في بعض الايام ان أحد الدراويش أراد نهب جدي من ماشية لرجل من الشلك فلم تكده تصل يد المتعدي الي لمس الجدي حتى

طعنه صاحبه بحربة جندلته في الحال وثار الشلك كلهم ورفعوا رايات
الحرب التي من عادتهم رفعها بالليل بكيفية يفهم منها الاهبة للحرب
وهي ان ياخذوا قنارة يدهنونها بالزيت ويشعلون النار فيها فيراها أهل القرية
القريبة منها فيرفعون مثلها لأهل القرية التي تليها وهكذا حتى يعلم أهل البلاد
كلها بالحرب في ليلة واحدة ويحتشدوا في أسرع ما يمكن ويرسلوا وفودهم
لتلقى الأوامر بالحرب

وبعد عناء شديد وأخذ ورد بين قائد الدراويش وملك الشلك ثاب
التأثرون إلى السكينة وعاد الأمان إلى مجراه

وكان مع الدراويش شلكي من رؤساء القري التي في الشمال ولكنه بالنسبة
لقربه من بلاد العرب تشبه بهم وصار يلبس الثياب فأخذه قائد الدراويش
معه بصفة دليل واسمه (ايك) بن (غري) وهو من أقارب عائلة (كيكون)
التي منها الملك كيكون بك. وحدثني أحد الحاضرين ان الملك عمر أرسل
خمسين مقاتلا ومعهم عشرة من الشيوخ والكجور إلى منزل (ايك)
وكان بجوار معسكر الدراويش فجلس العشرة معه ووقف الخمسون على بعد
واخذوا يوبخونه على مخالفته عوائد الشلك وتشبهه بالعرب وانه جاء مع
العرب بصفة دليل وعدوا ذلك خيانة للملك يعاقب عليها ثم وثبوا عليه وضربوا
عنقه وحملوا راسه إلى الملك فلم يجسر أحد من الدراويش على مقاومتهم أو
الذب عنه واخيراً استاء التعاشي من عصيان الشلك وخطرت ملكهم
فجهز إليهم في سنة ١٣٠٨ الزاكي طمل أمير جيش القلايات في نحو
عشرين ألف مقاتل جلهم فرسان ومسلحون بأسلحة رامنجتون فسار الزاكي
من القصارف ثم اجتاز النيل واخترق الجزيرة حتى وصل إلى أطراف فشوده

وهناك وجد البواخر التي انفذها له التعايشي وحشد الملك عمر جيشه
للدود عن بلاده فهاجمهم الدراويش هجوما عنيفا وقتل الملك عمرو حملت
رأسه الى التعايشي

ومكث الزاكي نحو ثلاث سنوات في فشوده يعمل في الشكك السيف
والنار فغربت القرى التي على ضفة النهر وسالت الدماء كالانهر وصادر
ماشيتهم وارسلها الى الخليفة فكان يختار منها ما هو صالح للنتاج ويؤلف
منه قطعانا ينتفع بنتاجها ويبيع الباقي بواسطة بيت المال هذا عدا الارقاء الذين
جلبهم منهم حتى هبط ثمن الجارية الى بضع ريبالات وثمان الرأس من البقر الى
ريالين وبالجملة ان الزاكي طمل خرب بلاد الشكك كلها ودمرها ووجب منها
اهلها ارقاء اختار التعايشي نحو خمسة آلاف من غلمانهم جعلهم من ضمن
الجهادية حراسا له وسيأتي ذكر بقية أخبار الزاكي وقتله

ذكر بقية اخبار عثمان دقنه

قلنا في ما تقدم ان التعايشي استدعى عثمان دقنه الى ام درمان وعزز
قوته بعشرة آلاف مقاتل مع أبي قرجة على أثر ما علمه من انحراف القبائل
في السودان الشرقي ونفورهم عنه

ولما غادر عثمان دقنه طوكر اغارت عليها القبائل الخارجة عليه بمساعدة
بعض جنود الحكومة ثم عادت عنها بغير جدوى اذ لامقاتلة فيها ولا جنود
تدفع غارتهم عنها

وفي منتصف سنة ١٣٠٤ وصل عثمان دقنه الى سواكن معززا بقوة ابي قرجه
الذي ولاه التعايشي على السودان الشرقي بدله اتقاء لثورة الاهلين ونفورهم

عن عثمان دقنه الذي شق عليه العزل ومكث في كسلة هو وابو قرجة الذي
 سار في الناس سيرة حسنة فثاب اكثر الثائرين على عثمان دقنه الي الطاعة
 وأمن أبو قرجة السبل واعاد الصلات التجارية بين مصوع وكسلة
 واخذ في مخابرة القبائل التي حوالي طوكر وسواكن بلهجة سلمية وقصد بذلك
 ارجاعها الي الطاعة فلم تفلح مخبراته لان أنصار عثمان دقنه كانوا يذيعون في
 الناس أن ولاية ابي قرجة اسم بلا مسمي وأن الغرض منها تسكين الثوار
 حتى يمودوا الي الطاعة فاذا عادوا صاروا تحت سلطة عثمان دقنه الذي هو
 الأمر الناهي لابي قرجة في باطن الامر فقشلت مساعي ابي قرجة
 وذهبت ادراج الرياح على اثر اذاعة انصار عثمان دقنه هذه الاقوال التي
 لا تخلو عن الصحة

وأنفذ ابو قرجة حملات متتابعة الي بعض القبائل التي تسكن في المنطقة
 القريبة من حدود الاحباش حوالي جيلي (البيكوت والمناع) وأكثرها القبائل
 مجوس لادين لهم وهم من قبائل الزنوج القديمة واشهرها قبيلتنا (الباريه
 والبازه) وقوام معيشة هذه القبائل لحوم الماشية والصيد والابلان ويندر
 بينهم من يعرف الخبز وهم مثل سائر اهالي شرقي السودان من حيث المعادات
 حيث لا يعرفون اكل الخبز والخضراوات التي يعتبرونها غذاء الانعام يترفع
 عن اكلها الآدميون ويسكن معظم تلك القبائل فوق قمم الجبال الشاهقة
 وفي سفوحها وكهوفها التي يتخذونها معاقل اذا دهمهم عدو وهي متسعة بأوون
 اليها بماشيتهم التي هي الغنم والابل والبقر ورجال الباريه والبازه فرسان
 لا يشق لهم غبار ولا يصطلي لهم بنار يقطعون السبل ويمترضون القوافل
 للساب والنهب

ولهم عادات ومراسم تقرب مما نسمعه عن طوائف اليزيدية والدروز
هذا وقد أثنى أبو قرجة في هذه القبائل وأغار عليها إغارات كثيرة
ونهب شيئاً لا يحصي من ماشيتها

وبعد سنة زحف إلى طوكرو واحتل (هندوب) وهي موقع يبعد من
سواكن ببضعة أميال وأغار على القبائل التي خلت الطاعة فظفر ببعضها وفر
أكثرها ولجأ إلى الجبال واعتصم بالكهوف

وحصلت جملة مناوشات بين عمان دقنة والاعراب الموالية للحكومة وبينه
وبين الحكومة من جهة أخرى وقد جرح كتشنر باشا جرحاً أخيفاً في إحدى
المناوشات وكان وقتئذ قرمندان حامية سواكن وكانت الحامية في غضون هذه
المناوشات مشغولة ببناء الحصون وتشديد الأسوار على سواكن

ثم حصلت بعد ذلك واقعة بين عمان دقنة وحامية سواكن قتل فيها
ضابط إنكليزي اسمه الكابتن تاب

وفي شهر رجب سنة ١٣٠٥ شفي كتشنر باشا وعاد إلى سواكن. وفيه
هاجم عمان دقنه مقل (ردوت والجيزه) وأمد أبو قرجة عمان دقنة
بسبعة آلاف مقاتل وتمززت قوة الدراويش في هندوب ولكن خرق
الخلاف اتسع بين عمان دقنه وأبي قرجه فهذا يرى أن لفائدة في مناوشة
سواكن والمرابطة في هندوب وذلك يخالفه ويتهمه بالجنون وعدم الاقدام بل
بالخيانة والميل لجانب الحكومة واذاع عمان دقنة أن أبا قرجة كان يجتمع
مع قواد الحكومة ليلا فاستدعى التعايشي أبا قرجة على أثر ما علمه من عمان
دقنه الذي أعيد للإمارة وخلالها الجو في السودان الشرق

وفي شهر ذي الحجة من سنة ١٣٠٥ اشتدت مضايقة عمان دقنه لسواكن حتى

اقتربت متاريسه من الاسوار وصارت على بعد خمسمائة (برده) فقط
وعين عثمان دقنه رجلا دنقليا اسمه عثمان النائب قائداً للمقاومة الذين
في المتاريس الامامية ووالوا اطلاق النيران على سواكن حتى خيف سقوطها
في أيديهم لولم تدركها حماية السفن الانكليزية في البحر وأحرق حصن شانه
الذي كان من الشوك وضويقت سواكن وافتقرت حاميتها الى النجدة وكانت
الحكومة ترى وقتئذ اجلاء الحامية وترك المدينة للدرأويش وبعد مداولات
قررت حفظها

ثم دخلت سنة ١٣٠٦ وسواكن في حالة ضيق شديد وطم العدو اكثر
الآبار التي تستقي الحامية منها اذ كانت خارج الاسوار
وفي أوائل شهر صفر من السنة المذكورة وضع عثمان دقنه المدافع على
حصونه وصار يطلقها على حصون الحكومة فاندحش القواد من انتظام
مقدوفاتها واصابتها المرمي

وفي ربيع الثاني من السنة المذكورة وصل الى سواكن الجنرال غرانفيل
باشا سردار الجيش المصري وقتئذ فارسل اليه عثمان دقنه كتابا يخبره فيه بان
أمين باشا حاكم اقليم خط الاستواء والمستر ستانلي السائح الانكليزي المبعوث
لانقاذ حامية خط الاستواء قد وقعا في أسر المهدوية وكان مقصده من ذلك
الارهاب والتضليل

وبعد أيام قلائل اجم الجنرال غرانفيل معاقل عثمان دقنه بمدة طوابير
من الجيش المصري فدمرها وقتل من فيها من المدافعين وكانوا لايزيدون
عن سبعمائة مقاتل ولكنهم ابلوا بلاء حسناً ودافعوا عن موقعهم دفاع الابطال
وكانت هذه الواقعة في أواخر شهر ربيع الثاني عام ١٣٠٦ هجرية

وعقب واقعة المتاريس تفهقر عثمان دقنة الى طوكر وعسكر بها وكانت
 الجماعة وقتئذ ضاربة اطنابها في انحاء السودان كله خلا طوكر فان الاقوات كانت
 تجلب اليها من سواكن ومكث عثمان دقنة في طوكر بقية سنة ١٣٠٦ يوالي
 الفارة على الاعراب الذين انحازوا الى الحكومة وشقوا عصا الطاعة
 عليه لاشتداد وطأته عليهم حيث زاد المكوس زيادة فاحشة وصار
 يقتل منهم في كل يوم عشرات فكانوا يهرعون الي الخليفة متظلمين منه فلا
 يجدون لديه مايشفي غليلهم وكثيراً ماأمسك المتظلمين وجلدهم بالسياط
 حتى أنه جلد واحداً منهم الفا وخمسائة جلدة بسياط قد وضعت فيها حلقات
 من الاسلاك الحديدية حتى مات

ولما علم الاهلون ان لانصاف من عثمان دقنة ولا راحة من مظالمه
 قلبوا للمهدوية ظهر المجن ووالوا الحكومة وحالفوها على حربه فوزعت
 عليهم الاسلحة النارية ومن ثم اشتغل عثمان دقنة بالفارة عليهم وكان في اكثرها
 يرجع مدحوراً متكبداً خساراً حمة

وفي أوائل سنة ١٣٠٧ استقدمه التعايشي الى ام درمان عن طريق بربر
 ثم اذن له في العودة عن طريق القضارف فكسلة فطوكر واعطاه أمراً الى
 جميع الامراء ان لا يعترضوا من رغب من الناس في مصاحبته

ولما وصل القضارف تبعه أناس كثيرون من أهلها فارين من الجماعة
 التي أناخت عليهم بكالكها ومنهم كثير من اسري المصريين الذين كانوا في كسلة
 ثم لما وصل الى كسلة تبعه كثير من المصريين أيضاً ولحقوا بطوكر فرارا من
 الجماعة أيضاً كمن تقدمهم

ووصل عثمان دقنة الى طوكر وجعل همه الفارة على الاعراب

الموالين للحكومة وسنعود الى ذكر بقية أخباره وهزيمته في طوكر

ذكر هزيمة الدراويش من هندوب واخباراً مارأر
 أمارأر اسم لقبيلة في ارباض سواكن وهي قبيلة رحالة ماشيتها من الابل
 والغنم ولغتها أعجمية مثل سائر سكان السودان الشرقي وكانت هاته القبيلة
 أول من خلع طاعة الحكومة وظاهر عثمان دقنة عليها وزعيمها أحمد بن محمود
 كان اكبر انصار المهذوية في أوائل الدعوة اليها ولم يكن لذلك من سبب سوي
 انه كان من صريدي الشيخ الطاهر المجذوب استاذ عثمان دقنة

ثم مالبث طويلاحتي ميج عثمان دقنة وبفضه بسبب ما رهنق به (أمارأر)
 قبيلته من المظالم والمغارم واشتد الخصام بينهما فتحفز عثمان دقنة للوثبة على
 على احمد محمود شيخ أمارأر والبطش به ففر ولجأ الى حكومة سواكن ثم فر منها
 ولحق بالتعايشي بام درمان وقدم مالا طائلا الى يعقوب اخي التعايشي وسأله
 ان يكون وسيطا له عند اخيه ليكتب له بالامارة على قومه على أن لا تلزمه
 طاعة عثمان دقنة فأجاب التعايشي طلبه وكتب له بالامارة على قومه وان
 يجعل معسكره في هندوب وفوض اليه أخذ العشور من التجار الذين
 يخرجون ببضائعهم من سواكن فقاد احمد محمود أم درمان آيا الى سواكن
 في أواخر سنة ١٣٠٧ فتوفي في أحد المناهل التي بين بربر وسواكن وكتب
 التعايشي الى أحد اخوته بان ينوب عنه في عمله

وفي أوائل شهر رجب سنة ١٣٠٨ ارسل أحد جواسيس التعايشي في أصوان
 عدداً من اخدي الجرائد المصرية فيه أن عدة طواير من الجيش المصري
 ستبحر من السويس الى سواكن لتأليف قوة حربية تهاجم معسكر الدراويش

في هندوب ثم تعود تلك القوة الى سواكن حيث تبحر منها الى ثغر (ترينكيتات)
ومنه الى طوكر برا

وبعد ليلتين مضتا على وصول هذا النبا جاء الى التعايشي خبر من هندوب ان
ثلاثة طوابير زحفت من سواكن على هندوب فباغتت الدراويش عند شروق
الشمس وكان شيخ (أمارار) ومن معه من قومه كانوا على علم بهذه المباغثة
فامتطوا دوابهم ولم يسدوا أقل مقاومة وولوا مدبرين من وجه الحامية
المصرية التي كانت سائرة الى المعسكر بسكينة وانتظام كأنها داخلة الى
احدي ثكناتها العسكرية ونجا رجال (أمارار) ووقع في أسر الحكومة بعض
اعراب من الذين يجهلون ما بين الحكومة وشيخ أمارار الذي قيل إن ما اتاه
أخوه احمد محمود كان بايعاز من حكومة سواكن وان ما قدمه ليعقوب أخى
التعايشي من المال كان من مصروفاتها السرية

ويدل على ذلك انهم بعد هزيمتهم من هندوب عادوا الى سواكن من
طريق آخر فقبولوا بالاكرام واجريت عليهم المرتبات وبلغني أن موت أحمد
محمود لم يكن الا من سم دسه له التعايشي في الدسم
والحاصل ان قبائل السودان الشرقى التي كانت موالية لعثمان دقنة
على الحكومة رجعت بالعداء عليه وصارت مع الحكومة عليه

ذكر هزيمة عثمان دقنة من طوكر

ان من يتأمل في الحالة الاولى التي كان عليها عثمان دقنة في اوائل دعوته
للمهدوية وما كان يصادفه في خطواته كلها من النجاح والظفر ثم ما آل اليه
أمره من الفشل والهزيمة يرى انه قضى على نفوذه بنفس السلاح الذي كان

يضرب به هام رجال الحكومة

وذلك انك ترى فيما كتبناه عنه في ما تقدم من هذا الكتاب أنه أحرز شهرة تكاد تضارع شهرة المهدي نفسه لأنه قام بدعوة قبائل السودان الشرقي بالصفة التي تقدم ايرادها وكان في بداية أمره يتدرب بنفوذ استاذه الطاهر المجذوب ولكنه مع هذا النفوذ أظهر سياسة تكفلت بالتفاف القبائل حوله واستيلائه على قلوبهم حتى بلغ من أمره انه لو قال لهم خوضوا البحر الأحمر حتى تباغوا الهند لبوا الى ذلك مسرعين

وتوجد مشابهة بين المهدي وعثمان دقنة وذلك أن المهدي عرف كيف يتمكن من التأثير على أهالي السودان بما يفتره من الدعاوي الطويلة العريضة وهي مهارة لا يتردد أحد في ان متوخيا عرف ان لا سبيل للتأثير على الامم الا من الجهة التي تميل اليها

وكان عثمان دقنة يتأثر المهدي الذي كان ذا طلاقة في اللسان وتصرف في البيان يقدر معه على التعبير عما يكنه فؤاده بجمل عامية يفهمها الجهلاء ويمثلون بخمرة بلاغتها من حيث تأديتها المعنى المقصود بالفاظ عامية توافق أذواق السامعين سيما أهالي السودان الشرقي الذين لا يتكلمون باللغة العربية بل لغتهم أمجمية همجية وكان من المحال ان يبلغ المهدي غايته من التأثير عليهم فقام فيهم عثمان مقام المهدي وعرف طريقة استمالتهم بما أوتيته من البراعة في لغتهم حتى انه كان اذا قام فيهم واعظا أو خطيباً يؤثر عليهم تأثيراً يجعلهم له أطوع من بنانه

وكان يقرأ عليهم آيات القرآن الشريف ويعقبها بتفسير معانيها . على ان أهالي السودان الشرقي كانوا لا يعرفون من الاسلام الا اسمه وكانوا في

حالة بدواة تكاد تكون قريبة من حالة الشك التي تقدم لنا وصفها
 فاجتذب عثمان بمذوبة الفاظه وبلاغة كلامه أفئدتهم للاسلام حتى تمكن
 الايمان من قلوبهم وحكى لنا اكثر من واحد أنه جمع ذات ليلة نساء
 (المهندوه) ووعظن حائاهن على الصدقة وانفاق المال في سبيل الله فما
 منهن واحدة الا ونزعت ما عليها من حلل ومصاع وألقته بين يديه فاجتمع
 من هذه الصدقات مقدار وافر من الذهب والفضة وبلغ من حماس أولئك النسوة
 انهن كن يرافقن أزواجهن في الغزوات يحملن الماء والزاد لتداء المقاتلين
 ويجهزن على المجروحين بما يحملنه في أيديهن من السلاح حتى صرن يمثلن
 باشلاء القتلى تمثيلاً شنيعاً وقد تقدم لنا ذكر ذلك

والحاصل ان عثمان دقنة نال حظوة في السودان الشرقي كانت كافلة له
 أن يسقى بمد موت المهدي في مركزه ولو كره ذلك التعايشي الذي كان
 يعجز عن مناوآته ولكنه ما لبث أن انفض الناس من حوله وجاهروه
 بالعداوة ولا ضر وفان الظلم مرتعه وخيم

هذا وقد أمد التعايشي عثمان دقنه بالجيوش الجرارة بقصد ارغام الاهالي
 على الطاعة فلم تقرن أعماله بالنجاح ولو فرض أنه نجح في اخضاع الناس فلا
 يكون خضوعهم الا مداراة حيث كانت القلوب منصرفة عنه كما بات التعايشي
 في أخريات أيامه تداريه الاسنة والقلوب تتربص به الدوائر لتخلص
 من وطأة ظلمه الذي أرهقهم به

وأصبح عثمان دقنه اثر ذلك فريداً لأنصاره من أهالي البلاد وكان جنده
 عبارة عن المقاتلة التي أمدته التعايشي بهم وجلبهم من مقاتلة أبي قرجة الذين
 بغضوه ونفروا عنه لما كان بينه وبين قائدهم أبي قرجة من المنافسة التي تقدم لنا

الاماع اليها وفر أكثر هؤلاء المقاتلة ولحقوا بديارهم في الحرطوم لانه كان لا يعطيهم ما يقوم بحوائجهم الضرورية

ويظن كثير من الناس ان عثمان دقنه قد ندم في أخريات أيامه على ما فرط منه من متابعة المهدوية لما شاهده من أعمال التعاشي التي تخالف أعمال المهدي على خط مستقيم ولكنه كان لا يأمن جانب الحكومة بعد ان أتى ما أتاه معها

ولقد حكي لي أحد القواد الذين كانوا معه انه سامرته في خلوة وقال له ان الحكومة تدعوني الى الطاعة وتعدني بكل خير ان أنا خضعت لها فماذا تظنها تفعل بي اذا أسلمت نفسي لها فقال القائد وقد ظنه يختبر ما يضره لا تأمن جانب الكفار فاني أرى انهم اذا تمكنوا منك سجنوك وجعلوا غذاءك الغلة تمضنها كما تمضغ الخيل الملوقة وربما فتموا عينيك وتركوك في قعر السجن فاربذ وجه عثمان وقال له ما قلت الا حقاً

وحكي آخر ما يفهم منه ان عثمان دقنه أدرك خشونة مركبه وانه صار بلا سند في السودان الشرقي ولذا أصبح في حاجة للاستمرار على ولاء التعاشي الذي كان يبغضه في السر وينسب الى سوء ادارته ومظالمه خراب السودان وأنه قال يوماً لبعض خاصته ما يأتي

أحلف بكتاب الله هذا (ووضعه يده على المصحف الشريف) أتى لأخاف الا من ثلاثة فقال جليسه ومن هؤلاء الثلاثة فقال هم الخالق عز وجل والمجنوب بن أستاذي الشيخ الطاهر والخليفة التعاشي فقال له لم أفهم قصدك وأرجو أن تفصح لي عن مرادك فأجابه عثمان اني أخشى الله تعالى لانه قادر على خذلاني في الدنيا وعذابي في الآخرة وأما خوفي من المجنوب فلانه رجل

قليل الأدب يضيق صدري من وقاحته وأخشي أن تفرط مني كلمة تغير
خاطره ولو تغيراً خفيفاً فاكون قد أسأت والده أستاذي الشيخ الطاهر
الذي أجله وأحبه أكثر من حبي لنفسي وأفديه بأبويّ وانه كما علمت أهدي
إليّ الامارة وبوأني منصبها وانني أطلب من الله أن أخرج من الدنيا
وتكون حياتي ومالي فداء لشراك نعل اي أحد من عتره أستاذي الشيخ
الطاهر رحمة الله عليه. وأما خوفي من الخليفة التعايشي (وعندئذ تنهد عثمان
وخنقته العبرة وقال يضيق صدري ولا ينطلق لساني) فاني أخاف ان أنا
خالقته ان يقبض عليّ وينفيني الي خط الاستواء (ثم سكت طويلاً) فقال
واقسم لك على كتاب الله اني لا أهاب الموت ولست جباناً ولكنني أتقى
شانه الأعداء

ومن هذا الحديث يفهم القاريء ما وصلت اليه حالة عثمان دقنه من
الارتباك في أيامه الاخيرة

ولما دخلت سنة ١٣٠٨ منعت الحكومة خروج الاقوات من سواكن
فتصاعدت الاسعار ثم عز وجود المؤنة في معسكر طوكر فقرر من المعسكر
كل من قدر على الفرار من المقاتلة وتجهز عثمان فيمن بقي معه منهم للفرزوكي
يحصلوا من النهب ما يقوم بحاجتهم من القوت فاوغل في وسط الجبال ونازل
الاعراب الموالين للحكومة ففاجأه نبأ احتلال الجنود المصرية هندوب فاسرع
الابوة الي طوكر فبلغها قبل ان تهاجها الجنود ببضع ليال

وفي أواخر شهر رجب سنة ١٣٠٨ هاجم هو لدسميث باشا طوكر
ببضعة طواير من الجيش المصري فخرج عثمان دقنه للقائه في ببضعة آلاف
مقاتل وانتشبت الحرب بين الفريقين وحاول الدراويش اقتحام المربع

فصدمتهم المقدوفات وولوا منهزمين لابلوون على شيء وكان عثمان واقفاً
وراء مقاتلتهم بعيداً عنهم بمسافة ألفي متر
وبعد الهزيمة احتملوا ماخف من امتعتهم ونساءهم وقصدوا كسلة
وتخلف عن مرافقتهم عدد كبير من المصريين ولم تقدم القوة الي طوكر
وخاف المصريون ان يكر عليهم عثمان في الليل فحملوا الاسلحة واستعدوا
لدفعه عنهم حتي تبليج الصباح وسار أحد أسرى المصريين الي معسكر
الجنود المصرية واخبر القائد بفرار عثمان دقنه وتخلف المصريين عن مرافقته
وانه ودر او يشه حملوا متاعهم ونساءهم وغادروا طوكر قاصدين كسلة منذ صباح
أمس ولم يبق في طوكر غير المصريين الذين كانوا مأسورين فتقدمت الحامية
واحتلت طوكر ومن العجب ان الجنود مدوا أيديهم وسلبوا ممتلكات
المصريين وعاثوا في أعراضهم فلا حول ولا قوة الا بالله.

شان عثمان دقنة بعد ذلك

لما انهزم عثمان دقنة من طوكر سار فيمن بقي معه من المقاتلة خائفين
مذعورين يتعدون عن الفجاج التي تقرب من العمران ويختفون في الغابات
خشية أن تشمر بهم قبائل الاعراب النازلة بين تلك الغابات والجبال وجعلوا
وجهة سيرهم كسلة فهلكت دوابهم ومات اكثر الضعفاء من الاطفال
والنساء ونفذت أقواتهم حتى صاروا يقتاتون بورق الشجر وكان سيرهم
بطيئاً لما هم فيه من الجوع وفقدان الدواب والخوف من الاعداء
ولما وصلت أنباء هزيمتهم الي التعايشي أظهر غضبه على عثمان دقنة
ونسب اليه سوء التصرف في الامور وان أنصاره ما انفضوا من حوله وتركوه

وحيداً إلا بسبب فظاظته وسوء سيره

وكان عثمان دقنه مدركاً لما أحدق به من الخطر بسبب غضب التعايشي الذي لا يطفؤه غير الرشا التي تدفع لآخيه يعقوب ويحسن أن أورد هنا قصة تحققت ثقة راويها وهي أن عثمان دقنه كان قد خبأ قدراً عظيماً من المال في أحد الجبال القريبة من كسلة فخرج في سيره إلى كسلة على ذلك الجبل وأخذ نحو مائتي ألف ريال وزرع منها خمسين الفاً على من كان معه من الاعوان وحمل الباقي معه إلى أم درمان حيث بلغها في أواخر شهر ذي القعدة فدفع منه مائة ألف ريال ليعقوب أخى التعايشي الذي توسط له عند أخيه فصنع عنه. وفي أواخر شهر ذي الحجة أمر التعايشي عثمان دقنه أن يذهب إلى جهة (دارامه) على نهر اتبره بين بربر وكسلة وأن يجتهد هو وجنوده في زراعة الذرة ليحصلوا على قوتهم منها ودفع لهم نحو مائة رأس من البقر والغنم ليقتاتوا من نتاجها ففادى عثمان دقنه أم درمان وعسكر في (دارامه) وأخذ يغير على أطراف سواكن للسلب والنهب ولم تعد له أهمية تذكر

حالة السودان بعد ذلك على الأجمال

ظهر لك مما تقدم كيف استبد التعايشي بالملك وكيف قدر على التغلب على من ناوأه وكيف أزهق البلاد بمظالم تنوء بحملها الجبال وقد ذكرنا ما حاق ببعض القبائل الكبيرة من الهلاك والدمار ولا يظن القاريء أن القبائل الصغيرة والعشائر التي تسكن القرى قد سلمت من ضرر هذا السيل الجارف فانها نالت نصيباً من الحيف لا يقل عما نالته القبائل الكبيرة

عدا المجاعة التي عمّت السودان كله

ونحن لم نذكر تفاصيل ما أصاب القبائل الصغيرة والعشائر التي تسكن القرى لعلنا ان ذلك يستغرق مجلدين ضخمين لا يتقبل حجمها عن حجم كتابنا هذا ولكن الذي لا يدرك كله لا يترك جله. وهانحن موردون لك نرأ من تلك المظالم ليكون لك دليلا على ما أصاب السودان ونبدأ بذكر حادثة « قري وادي شعير » فنقول

هذه القرى واقعة في جنوب شرقي الخرطوم بمسيرة بضع مراحل وتبعد عن النيل الازرق بنحو عشرة أميال وأرضها خصبة تجود بمحاصيل وافرة من الذرة والقطن ذهب اليها جماعة من الدراويش لجباية الضرائب ثم دخلوا احدى القرى ومدوا أيديهم الى الماشية فذبحوا منها ما زاد على كفايتهم ثم نهبوا الاغذية من داخل البيوت فلم يعترضهم السكان ولا حركوا ساكناً لمنعهم بل تركوهم وشأنهم فمدوا بعد ذلك أيديهم الى النساء وعبثوا بهن فهبّ الاهلون حينئذ ووقفوا في وجوههم وقفعة المدافع عن عرضه الذاب عن حريمه فلم يثن الدراويش عن الاعتداء ولجوا في الطفيان وضربوا الاهلين بالاسلحة فسقط منهم قتلى وجرح منهم كثيرون ونشبت الحرب بين الفريقين وسالت الدماء واستصرخ أهالي القري بعضهم وتآلبوا على قتال الدراويش الذين فروا أمامهم مدحورين حتى بلغوا ضفة النهر وهناك بعثوا يخبرون التعاشي فأرسل خمسة من النواب توجهوا الى محل الواقعة وعادوا فاخبروه بما وقفوا عليه فأصدر أمره بمصادرة أموال سكان تلك القري وأخذ نسائهم مسييات لانهم كفار حاربوا دراويش المهدي ولم يرضخوا لكل ما أتونه من المنكرات

هذا ما وقع لاهالي (قري وادي شمير) ولم توجد في بلاد السودان
كلها قرية لم يقع لها مثل ما وقع لها من القرى وانما أوردنا جادتها مثالا يقاس
عليه ما حاق ببقية القرى لضيق المقام عن استيعابه

وكان من العوائد المألوفة عند الدراويش انهم اذا سافروا من بلد الى خري
لا يحملون زاداً ولا مسيرة بل يذبحون ما يصادفهم في طريقهم من الماشية
ويدخلون منازل السكان يأخذون ما يجدونه فيها من الاغذية يأخذون
الحبوب لعلف دوابهم وينزل القواد في منازل الاكابر فيقدمون لهم الاغذية
الفاخرة وليتهم يقفون عند ذلك بل لا بد من دفع الرشاهم فاذا تناولوا المال
وأكلوا ماشاؤا من الاطعمة ورحلوا عن القرية أو البلد بدون أن ينتحلوا لها
أسبابا يستحلون بها أخذ المال وسبي النساء عند ذلك من أكبر النعم على أهل
تلك القرية وفي غالب الاحوال تكون نجاتهم هذه لاسباب منها ان لا تكون نساؤهم
جميلات وأن لا تكون أموالهم الاقدر ما يقوم ببعض ضرورياتهم أما اذا كانت
النساء حسانا والمال زائدا عن الضروريات فلا بد لهم من يوم يذوقون فيه
العذاب الاليم

ونقل اليّ واحد من المصريين سافر مع احدى السرايا الى جهة النيل
الابيض وكان الدراويش زهاء ألفي مقاتل أنهم بعد ان غادروا أم درمان بمائة
ميل ذبحوا مائة وخمسين رأسا من البقر ومائتي رأس من النعم وهكذا كان
فعلهم بالماشية التي تقابلهم في الطريق أما الغلال فكانوا لا يأخذون منها غير كفايتهم
وفي ذات يوم وصلوا الى أحد الاسواق وفيه أجران الغلة فهبوها وكانت
نحو ثلاثة آلاف أردب

وجملة القول ان بلاد السودان في أوائل سنة ١٣٠٨ أصبحت بسبب

المجاعة فاقدة تسعة اعشار سكانها وأصبحت البلاد قاعا نصفنا وكان التعايشي
انما رضى بتلك النتيجة لانه بها أمسي آمنا على ملكه من ثورة الاهالي عليه
وأخذ في توزيع أقاربه البقارة واسكانهم في المقاطعات الحصية
أما بلاد كردفان فانها لم تصب بالمجاعة في الستين الماضيتين لان الامطار
هطلت فيها غزيرة ولكن التعايشي أرسل لها نحو اثني عشر ألف فارس
انتشروا في البلاد انتشار الجراد فالتهموا محصولاتها في أشهر قليلة وما جاء آخر
سنة ١٣٠٧ حتى تصاعدت أسعار الاقوات ودخلت سنة ١٣٠٨ والمجاعة فاشية
في اقليم كردفان وانحبس المطر عنها وهلك من هلك من السكان وفر باقيهم
ولجؤا الى الجبال

ويرى الذين وقفوا على الحوادث السودانية منذ بدايتها ان المهديوية
تلاشى أمرها منذ سنة ١٣٠٦ ولم تقم لها قائمة بعد ذلك وانهمزمت جيوشها
في أكثر الجهات ففي سنة ١٣٠٦ قتل ابن النجومي في حدود مصر وسيأتى
ان الايطاليين هزموا الدراويش شر هزيمة قبل أن يحتلوا كسلة في واقعة
(غردت) ثم أخذت في التلاشي والهبوط

ومن الحقائق التي لامراء فيها ان الحكومة المصرية لو قصدت فتح
السودان في سنة ١٣٠٦ أو ما بعدها لتدرت على الاستيلاء عليه بغير عناء يذكر
بالنسبة لما صادفته في طريق فتحه فقد أرسل اليها في سنة ١٣٠٦ أكثر الامراء
المرابطين في دنقلة يعرضون خضوعهم لها ويسألونها العفو عن جرائمهم

أما التعايشي وقومه البقارة فقد انغمسوا في الترف وتعموا بالملاذو بذلك
فقدوا ما كان فيهم من صفات الشجاعة والبدادة ومع ذلك فقد كان
لا يوجد بين الاهلين خمسة في المائة يخلصون لهم الولاء بل كان الكل يثنون

من ثقل وطأة مظالمهم ويتأفقون من سوء سيرهم ولكن بقيت في قلوب
 الاهلين بقية من الاعتقاد بمهدوية المهدي وكانوا يلقون تبعه المظالم كلها على عاتق
 التعايشي ويسعون في الخلاص من ظلمه بمبايعة أحد الخليفين على حلو ومحمد
 شريف الا أن آمالمهم في هذا الأخير كانت أوثق منها في ذلك نظراً لقربته من
 المهدي ولان ذلك كان له بعض حظ في دولة التعايشي

ومن المضحكات ان الناس لفرط ما أصابهم من ظلم التعايشي قام كثير
 منهم وكل يزعم أنه المسيح عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه يرومون
 بذلك الوصول الي سلب الملك من التعايشي اذ ظهور المسيح يعقب المهدي فكان
 لا يمر يوم الا ويظهر فيه كثير منهم عدا الذي ذكرنا خبره في (القلابات)
 ولقد قام رجل مصري من أهالي الخرطوم اسمه (خليل جامع) مدعياً
 ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بأنه خليفة عثمان بن عفان عليه
 سبحانه الرضوان وأمره بتوزيع مافي بيت المال من الاموال فقبض عليه
 وسيق الى التعايشي الذي كان يعرفه حيث كان متزوجاً بنت عمه فقال له
 يا خليل ماهذا الذي تدعيه فانهره وقال له هذا أمر جاءني من الله ورسوله
 وأنت لا تجهله فقال التعايشي انه مجنون وان الجنى الذي مسه ساكن في بيت
 المال فاذهبوا به الى سجن بيت المال فمكث فيه بضع سنوات ثم أطلق سبيله
 واستمر على حالة جنونه

وكان بجوار بيت المال قبطي اسمه (محروس) يسكن مع قريبة له
 اسمها (مصطفية) وكلاهما من أهالي الخرطوم أصيب ذلك الرجل بجحة فصعد
 على رابية عالية وخطب في الناس قائلاً انه (ماري جرجس) فدنت منه
 قريبته المذكورة وقالت له يا محروس انك بدعواك هذه تلتصق بنا تهمة أنا

لانزال نصاري فأرجوك أن تترك هذه الدعوى وتدعي غيرها كما يدعي المسلمون فانتهرها وقال لها اذهبي فقالت له انتظر الموت لان أصحاب الدعوى الملائمة لاذواق المسلمين يقتلون ويسجنون فكيف بمن يدعي مثل دعواك التي تدل على انه نصراني ثم هرع أقاربه اليه وحملوه الى داره فمات بعد أيام يسيرة

والحاصل ان اهل البلاد صاروا في حالة غريبة وجل الناس تغيرت عقيدتهم في المهدوية وتبدلت أميالهم نحوها بالنفور عنها ولم يعد التعايشي يثق بأحد من الاهالي غير أقاربه البقارة ولذا جمع الوفا من العبيد (الجهادية) وسلحهم بالاسلحة النارية

وقد نفي الى خيبر حادثة لأري بأسا بآرادها وان كنت لأجزم بصحتها وهي أن رجلا من التعايشة أقارب الغزالي الذي تقدم لنا ذكر قتله استأذن على التعايشي فأذن له ولمن معه وكانوا زهاء عشرين رجلا وبعد ان أخذ الحراس مامعهم من السلاح دخلوا عليه وأوجعوه ضربا (ولم يشمر بذلك ظلما له لبعدهم عن غرفة جلوسه التي لا يؤذن لهم في الدنومنها الا اذا استدعي واحدا منهم) حتى أغمي عليه ثم تركوه وانصرفوا وكانت هذه النادرة في شهر ذي القعدة سنة ١٣٠٨ وفي الغد قبض على الرجل والذين كانوا معه ونفوا الي خط الاستواء واشتد مرض التعايشي حتى أرجف الناس بموته وبمكث مريضا الى العشر الاولي من شهر ذي الحجة . وقد تضاربت أقوال الناس في اسباب نفي أولئك الرجال فمنهم من يرى ان السبب فيه هذه الحادثة ومنهم من يقول ان التعايشي أسر اليهم كلاما فافشوه في ليلتهم فقبض عليهم في الغد والذين رووا الحكاية الاولي يخالفونهم ويؤيدون قولهم بمرض

التعاشي والله أعلم بالحقيقة

وقد حدث في خلال السبع سنوات التي مضت على ولاية التعاشي كثير من الحوادث التي لو اوردناها لضاق بنا المقام وأخصها مصادرة أموال كثير من الاغنياء لاسباب تافهة ان لم نقل انها مختلفة يقصد بها الحصول على أموال الناس

وقد حور التعاشي اكثر الاحكام التي وضعها المهدي في الحدود منها أن المهدي لما كان في جبال قدير أصدر منشوراً بشأن الدخان قال فيه ما يأتي « من استعمل الدخان مضغاً في الفم أو حرقاً بالنار أو وضعاً في الانف يجلد سبعا وعشرين جلدة بالسياط »

ثم بعد استيلائه على كردفان أصدر منشوراً آخر جعل فيه العقوبة ثمانين جلدة وحبس سبع ليال وبمثل هذه العقوبة يعاقب شارب الخمر. ولما ولي التعاشي قال للناس وهو على منبر الخطابة (من وجد في بيته ربع درهم من الدخان يجلد ثمانين جلدة ويؤخذ جميع ماله غنيمه للمسلمين) وذلك مخالف لما قاله المهدي وليست مخالفته من جهة العقوبة فقط بل ومن جهة ان المهدي اشترط ثبوت استعماله بالالوجه التي اوردناها وامتلات البلاد بالجواسيس الذين يهجمون على المنازل لضبط الدخان مع أنهم يحملونه معهم ويدعون أنهم ضبطوه في المنزل ليتذرعوا الي مصادرة أموال أولى اليسار ولهم في ذلك حكايات يطول شرحها

ونقل لي ثقة مارايت ايراده تفكهم للقاري، وذلك ان أحد أهل العلم من أهالي الخرطوم فقد كل ما يملكه وقتل كثير من ذوى قرابته فصار في حالة تقرب من حالة الجنون. ومن نكاته المضحكة انه كان يتشاءم من يوم الاثنين الذي كان فيه سقوط الخرطوم فكان يتكف في داره لا يخرج

منها منذ عصر يوم الاحد ويصبح منقطعاً عن كل عمل كما يفعل اليهود في السبت
ومكث على ذلك زهاء سنة ثم انه ذهب يوم الثلاثاء الى النهر للاستحمام فاخطفته
الامواج وكان لا يحسن السباحة فانتشل بعد أن أشرف على الهلاك فخرج
من النهر وهو يقول اللهم لا اعتراض على حكمك في يوم الاثنين عذبتنا بالقتل
والنهب وفي يوم الثلاثاء عذبتنا بالغرق فتشاءم من يوم الثلاثاء أيضاً وصار يمتكف
من عصر الاحد فلا يخرج الا صبيحة الاربعاء وبعد أشهر مضت وهو على
هذه الحال دخل عليه في داره جماعة من الدراويش وأوسعوه ضرباً بدعوي انه
يستعمل الدخان وبعد اللتيا والتي خلع منهم فقال اللهم ارفع غضبك عنا في
يوم الاثنين عذبتنا بكذا وفي يوم الثلاثاء بكذا وفي يوم الاربعاء بالضرب
بالسياط وتشاءم أيضاً من يوم الاربعاء وصار لا يخرج من داره الا في صبيحة
يوم الخميس ثم توفي بعد ذلك رحمة الله عليه

هذا وقد انهمك التعاشي وبطائه في الترف اكثر من ذي قبل
وصار في حالة من السمن بحيث يكاد الذي رآه حين افضاء الملك اليه
أن لا يعرفه وقد تقدم لنا انه كان نحيف الجسم مشوه الحلقة بآثار الجدري
التي تركت في وجهه كهوفا صغيرة زادت في شناعة منظره أما في سنة ١٣٠٨
فقد محيت آثار تلك الكهوف من وجهه فصار مستديراً بعد ان كان قبيحاً
مستطيلاً وصارت عيناه كأنهما عينا لث يظنهما الرأى مصابتين برمد اشدة
احمرار بياضهما

وقد فعل التعاشي أشياء كثيرة تخالف ما كان المهدي ينهي عنه ويحذر من
استعماله بل كان يرمي مستعملها بالمروق من جادة الحق وآداب الدين
فقد كان المهدي يلبس حذاء شرقياً ويلبس نعلاً عربياً سبق لنا تعريفها

وأما التمايشي فلا يوجد في بلاده الا النعال العربية فكان في بداية أمره لا يلبس غيرها وقد رأيت بعيني شقوق قدميه التي تكاد تختفي الحشرات الصغيرة فيها كل هذا ذهب وأصبح في خيبر كان وصار يلبس الاحذية الشرقية والحف

وكان المهدي قد حذر من سكنى القصور وبالغ في ذلك حتى ألزم الذين يشيدون المنازل باللبن النبيء ان لا يتجاوزوا في ارتفاعها أكثر من ذراع أو ذراعين وكان التمايشي شديد البغض لمن يرى داره مرتفعة عن هذا الحد وكثيراً ما أمر بهدم بعض المنازل التي يزيد ارتفاعها عن ذلك

هذا ما يعامل به الناس أما هو فقد شاد داراً واسعة شرقي الجامع واحاطها بسور من اللبن المحروق ورفع بناءها حتى كانت يخالها الانسان حصناً أو معقلاً وشاد قصرآ فيما يلي جدار المسجد وجعل نوافذه مطلة عليه وعلى ساحة الاستعراض « العرضة » الواقعة غربي المسجد ومنع الناس ان يقولوا انه « قصر » وكان القضاة يعزرون من يقول ذلك وقال التمايشي للناس انه ما شيده ليسكن فيه بل ليصعد عليه في كل غداة جمعة لينظر الى ساحة استعراض المقاتلة وأطلق عليه اسم « كشافة العرضة » مع ان نوافذ القصر كما قلنا مطلة على المسجد والناس يرون باعينهم المصاييح فيه وروائح المطر تفوح من نوافذه ولا يجسر أحد على القول بان التمايشي ساكن في ذلك القصر وهدم حمام سراي الحكمدارية ونقل انقاضه وأدواته من الخرطوم الى أم درمان وشاد بها حماما في داره يستحم فيه ونقل منبر مسجد الخرطوم ووضع في مسجد أم درمان وشاد فوقه بناء شاهقاً واحاطه بمقصورة من قضبان الحديد وخصصه للخطابة

في غير الجمعة فاذا صعد عليه احتشد الناس حوله فيبدأهم بقوله « السلام عليكم
يا أصحاب المهدي » فيزدون تحيته ثم يكلمهم بما شاء ويأمرهم بما يريد ويعظمهم
ويحثهم على مواظبة الصلوات الخمس في المسجد
وجملة القول ان التعايشي تغيرت عليه قلوب الناس وتبدل ولاؤهم له
بنفساً وسرت روح الثورة في جميع انحاء البلاد وبتنا ننتظر انقلاباً نرجو
من ورائه فرجا

ذكر تعيين المؤلف وجماعة من المصريين امرأه

قلت اني لما رجعت من قرية (ولد الزاكي) في البحر الابيض اثر
هروبي الى (شركيله) ورجوعي منها أسلمني التعايشي الى بقارى يقوم
بحراستي في المسجد وقد ظلت خمس سنوات في اسره وسيأتي بيان ما قاسيته
في تلك السنوات حتى دخلت سنة ١٣٠٩ هجرية وحالة السودان على الصفة
التي بينهاها

وفي عصر أحد الايام سمعنا مناديا يقول ان الخليفة يدعو جميع اولاد
الريف (المصريين) الى الاجتماع ضحوة الغد في ساحة دار أخيه يعقوب ققز عنا
من هذا الخبر وبتنا بليلة طويلة نتوقع في غداتها سوا يصيبنا وذلك ان التعايشي
عودنا انه لا يدعونا الا لامر نكرهه وتقدم بيان بعض دعواته فيما مضى
وفي ضحوة الغد اجتمعنا في منزل أخيه يعقوب وكنت جالسا خلف
المحتشدين من المصريين وكانوا زهاء خمسة آلاف رجل وبعد هنيهة جاء
التعايشي فوقفنا اجلالاً له ورفعنا أصواتنا بكلمة الشهادة فسلم على يوسف
منصور رئيس الطوبجية المهديوية والسيد جمعه الذي كان مدير النفاشر ثم صار

طوبجيا مع يوسف منصور وأثني عليهما وامتدح اخلاصهما للمهدوية وقال
يا حبذا لو صار المصريون كلهم مثلهما في الاخلاص للمهدوية ثم التفت الى
يمينه ويساره وقال مالي لا أرى ابراهيم فوزي فأسرت بتلبية ندائه وخرجت
من الصفوف فقال لي يا فوزي أما ترى الاخوين الصادقين المخلصين لنا يوسف
منصور والسيد جمعه فهلا اقتديت بهما وفعلت فعلهما ألم ترهما يقضيان أكثر
الوقت في بابي ولا ترتاح نفوسهم الى غير رؤيتي فقلت يا مولاي اني أشد اخلاصا
منهما ولكنك لا تقربني منك كما قربتهما فسكت وقال لقد أزممتي الحجة ثم
جلسنا وقد موالنا أربع زكائب مملوءة تمرًا وثروها أمامنا على الارض
فصرنا نأخذ التمر من التراب ونأكله فقلت له يا سيدي أريد أن أحمل جزءاً
من التمر تبركاً لآل بيتي فضحك وقال لي حمل كل منكم ما شاء

وبعد الاكل استدعاني أنا واسكندر بك وأعطاني راية لا كون أميراً على
جميع المصريين الذين كانوا من جند الحكومة النظاميين ودفعت الى اسكندر بك
راية وجعله أميراً على جماعة (الخلبة) أي الرعاع الذين يقضون حياتهم رحالة
وبحترقون بالتسول بعضهم بالقردة وبعضهم بالدفوف ويتغنون على
نفاتها ويضحكون الناس وهم المعروفون في مصر باسم (عجبر الشام) ودفعت
الى رجل كردى الاصل اسمه (حسن قره شوللي) راية وجعله أميراً على
الذين كانوا من جند الحكومة الغير نظاميين (باشبوزق) وكان أيضاً
للمصريين أميراً آخر اسمه (حسن حسين) مصري الاصل كردفاني المولد
والنشأة عينه المهدي أميراً على جميع (الموالييد) وهم المصريون الذين ولدوا في
انحاء السودان وكان حسن حسين هذا تقياً ورعاً صالحاً يتظاهر بالاخلاص
للمهدوية ذا منزلة عليية عند المهدي والتعايشي وسائر الامراء وموظفي المهدي

وكان مع ما هو فيه من شدة التمسك بالمهدوية ذاتوية حسنة لقومه المصريين فكان يدافع عنهم عند التعاليشي الذي كان لا يرد له قولا وكثيراً مادفع عنهم الضرر وبالجملة انه كان يريد منهم أن يتظاهروا بولاء المهدوية ليتسكنوا من داخلتها ويقبضوا على كثير من وظائفها التي لا يمكن لغيرهم القبض عليها وقد ذكرت فيما تقدم انه رأى ابني محمد يمثل تدخين السجارة فسأله عن ذلك فأجابته بقوله هكذا يفعل أبي وأخيراً حذرني من اطلاع هذا الصبي على مثل هذا العمل ولم يصنع معي شيئاً يكدرني مع ان مثل هذه المسألة لو وقف عليها غيره جلبت علي ضرراً بليغاً

وعلى ذكر المصريين نذكر هنا حالتهم التي كانوا عليها في اسر المهدوية وهي لا تقل عن الحالة التي قاسيتها الا أن بعضهم نالوا وظائف كتابية في بيت المال وعند عمال الحراج ونال بعضهم وظائف صناعة البارود وتعبئة الخرطوش وسائر الادوات الحربية وقد أشرنا الى ذلك فيما تقدم وفريق منهم وأكثرهم من الضباط وذوي المراتب السامية قبل الاسر احترقوا بهم من تافهة وفتح كثير منهم حوائط الاطعمة والخبز ومع ذلك كانوا كلهم في حالة الاضطهاد والتحقير من جميع السودانيين ولم يكن لذلك من سبب سوى بياض بشرتهم الذي يدل على جنسيتهم

ومن الغرائب المضحكة ان رجلاً كان جاوياً مصرية ثم صار يبيع « الترمس » وكان يرفع صوته في السوق ويقول (تفرج) فأمسكه حاكم السوق وقال له انك تقصد بكلمة « تفرج » عودة حكم الترك وزوال المهدوية فتصل من هذا التأويل وحلف انه لا يقصده فأمر بجلده بجلد مائة جلدة وفي أثناء الجلد كان يصيح بقوله « لا تفرج » لا تفرج ثم إنه ترك

كلمة فرح في ندائه على بيع الترمس واستبدلها بقوله « خليه على الله » فامسكوه
 ثانياً وجدوه بعد ان قالوا له انك تقصد بهذه الجملة مقصدك الاول ومثل
 هذه العبارة كثير يعد بالالوف ومنها ان امام أحد المساجد في الجزيرة قال في
 خطبة الجمعة « اللهم حول حالنا الى أحسن منه » فجلدوه وعضلوه وقالوا له انك
 تقصد عودة الحكومة السابقة فقال لهم ماذا أقول فقالوا قل (اللهم أدم علينا
 هذا الحال » فالتزم ذلك

على ان كثيراً من المصريين تقدموا عند المهديين ونالوا وظائف كتابية
 وصناعية جمّة كانوا بواسطتها في رغد من العيش الا انهم كانوا عرضة للسخرية
 والازدراء من العامة حيث كانت ألوان بشرتهم بيضاء وكانوا ممنوعين من السفر
 الى الجهات الشمالية كيلا يفرّوا الى مصر حتى ان التعايشي كتب منشوراً باهدار
 دم أي مصري وجد في جهة (خورشنبات) شمالي بلدة أم درمان بستة
 أميال تقريباً

هذا وقد فاتني ان اذكر ان التعايشي لما مثلت بين يديه في هذه المقابلة
 قال يافوزي ان النصارى كتبوا لنا في شأنك وهم على ما ظن يحبونك فقطعت
 عليه الكلام وقلت هم يحبونني لانني خدمتهم باخلاص فيما مضى وانني أقسم
 بالله اني أخدك باخلاص أشد مما خدمتهم به لانني اذا كنت خدمتهم
 بصدق وهم كفار فكيف لا أخدمك وانت خليفة المهدي عليه السلام الذي
 هو خليفة رسول الله صلي الله عليه وسلم فضحك وتمايل طرباً من هذا
 المدح وقال لي جزاك الله خيراً وبارك فيك أيها الرجل الصادق
 هذا وقد فرحت بالامارة لانني رجوت بها خلاصاً من ربقة الموكلين
 بحراستي في المسجد الذين سيجيء ذكر ما قاسيته من عذابهم بضع مدة سنوات

ذكر ملازمتي الصلوات في المسجد

قد تقدمتني لما فررت في أوائل سنة ١٣٠٥ عدت الى أم درمان بالكيفية
التي مرّ الكلام عليها

وفي يوم عودتي الى أم درمان اسلمني التعايشي الي بقاري يقوم بحراستي
في الصفوف التي خلف مقصورته ولما رأي ذلك البقاري قال (يا ولد الريف)
لماذا أنت ضخم الجثة ولماذا وجهك أبيض مع أنك كافر فقلت هكذا خلقتني
الخالق فقال احمل سلاحي وسر خلتي فحملت سلاحه وذهب ممي الى منزلي
وتناول طعام العشاء ممي

وفي اليوم التالي بدأت بأداء الصلوات بجانب ذاك البقاري الذي
انضم اليه آخر ليكونا معاً في حراستي فكانا يمتعاني من الخروج من المسجد ولو
لقضاء حاجة الوضوء كما يمتعاني من أخذ الراحة فلا أجلس الا جانيا على ركبتي
كما يجلس المصلي وقال لي يوماً (يا ولد الريف) اعلم أنك كافر وان الخليفة اسلمك
الينا لنعلمك الصلاة والصوم وضيقاً على حيث صرت لا أقدر على التخلف عن
الصلاة بالمسجد وكان منزلي يبعد عن المسجد جهة الجنوب بنحو أربعة أميال
فكنت أخرج من منزلي قبل طلوع الفجر بنحو ساعتين وبعد أداء الصلاة
أجلس لقراءة (راتب المهدي) حتى ترتفع الشمس ثم أعود لصلاة
الظهر قبل نهاية الساعة الثامنة من النهار على الحساب العربي لانهم انما يصلون
الظهر في بداية الساعة التاسعة وبعد نحو ساعتين يصلون العصر وفي بعض
الاحيان لا يصلون العصر الا قبل الغروب بنحو ساعة وصلاة المغرب
في الغالب تكون بعد غروب الشمس بنحو ثلثي ساعة وبعد ذلك اذهب

الى منزلي الذي كنت لا أدرك فيه راحة اكثر من بضع ساعات حتى صرت
 في حالة يرثي لها من العذاب الاليم والحاجة الى الراحة فاتفقت مع البقاريين
 الحارسين على ان أدفع لهما ريالين عن كل وقت أتخلف فيه عن حضور الصلاة
 قبلا بعد رجاء شديد وعدا ذلك أنهما كانا يذهبان معي الى منزلي ويتناولان
 معي الطعام ويكفاني بشراء ملابس لهما ولولادهما ونسائهما بعد كل شهرين
 أو ثلاثة وفي بعض الاحيان يأخذني احدهما الى الحى الذي تقيم فيه عشيرتهم
 فيجتمع حوالي منهم نحو مائتى شخص أظل نهاري كله اكتب لهم الخطابات
 الى ذويهم في جهات مختلفة واقرا لهم الخطابات التي تأتيهم منهم وكلهم يدعوني
 (النوبى الذى دفعه الخليفة رقيقاً لهم)

وتصنع نساؤهم آنية من سعف (الدوم) محكمة الاطراف الى درجة
 ان الماء لا يقطر منها كانها من الاجسام الصلبة ويتخذها الناس أنيسة يشربون
 فيها الماء فكانا يأتينى ببضع أواني منها فى الاسبوع ويكفاني ببيعها والويل
 ثم الويل لي اذا لم أجد من يشتريها فكنت أحملها واذهب الى موارفى واكفهم
 بشرائها وأعود بئنها اليهما .

وفى ذات يوم قضيت نحو نصف النهار ولم أجد من يشتري تلك الآنية
 فعدت بها اليهما فاغتاظا وقال لي انك لا تزال كافراً يا منحوس وسنخبر الخليفة
 بذلك فجمد الدم فى عروقي واسرعت الى حانوت أحد أصدقائى التجار وكان
 أوروبيا والدمع يسيل على خدي فاخبرته الخبر فاسرع باعطائى ثمن الاواني
 وأخذها لنفسه فعدت اليهما ودفعته لهما فقال لي الآن اسلمت .

وصرت بعد ذلك الح عليهما واكثر الاعتذار حتى صارا يقبلان ريالاً واحداً
 عن كل وقت من أوقات الصلاة أتخلف عن حضورى فيه ثم بعد بضعة شهور

أعدت الرجاء عليهما حتى رضيا بثلاثة ارباع الريال ثم بنصفه وهكذا حتى
صرت ادفع عن كل وقت قرشين

ولما اشتدت المجاعة في سنتي ١٣٠٦ و ١٣٠٧ كانا يقولان لي يظهر لنا
انك في سعة من العيش فكنت أحلف لهم اني في نهاية الضنك و فقدان
القوت و كنت في ذات يوم تناولت غذاء من اللحم و جئت المسجد فتجشيت
فصاحابي هل تغذيت بلحم فقلت كلا ففضبا و شتماني و قالوا لي انك لا تزال
مصرًا على الكفر و كلما اعتقدنا فيك حسن الاسلام يبدو منك ما يغير هذا
الاعتقاد لانك تاكل اللحم و حذك فاجتهدت في نفي هذه التهمة عنى و زدت
لهما الراتب و بعد عناء شديد تحصلت على رضاها و صرت أمانع التجشي
و انا جالس معهما

و مما يشبه هذه النادرة ان أحدها قال لي يوما ان بنته مريضة و هي
تشتهي السكر فقلت له اتى ما ذوقته منذ خرجت من الخرطوم لان المهدي
أوصاني بالزهد في الدنيا و السكر ذو طعم حلو لا يليق بالزهاد تناوله فمعجبا
من قولي و قالوا لي لا بد من احضار (عجل سكر) هكذا يسمون القمع من
السكر فقلت لهما ان ثمنه مرتفع جداً و لا يمكننى دفعه و بعد اللتيا و التي تمكنت
من إقناعهما بتركه و قلت في نفسي يكفينى تقديم الملابس لهما و معلوم الاوقات
فاذا فتحت باب السكر و اللحم اكون قد جنيت على نفسي جنابة ربما كانت
مغبتها سيئة على

و مكثت على مثل هذه الاحوال من سنة ١٣٠٥ هجرية الى أوائل
سنة ١٣٠٩ حيث تعينت اميراً كما مر
ولما تعينت اميراً امتنعت من حضور الصلاة بجانب ذنك البقاريين

فاعلمنا التعايشي فاستدعاني وهو جالس في مقصورتة بالمسجد وقال لما
 ذا امتنعت من حضور الصلاة مع رفيقك فقلت له يا مولاي انك عينتي
 اميراً ولاريب انك رايت في أهلية لان اكون مرشداً لمن وليتني عليهم فانا
 أقوم اليوم بتربيتهم وحضور الصلاة معهم فضحك وقال لدينك البقاريين
 اتركاه وبذلك خلصت من ربة ذلها وبت آمناً من وشايتها في اكثر أوقاتي
 والله الحمد من قبل ومن بعد

ويوجد مئات من الناس قضاوا اكثر ايام المهديوية في مثل هذا الحال الذي
 وصفناه وكثير منهم فقدوا ثروة طائلة في سبيل استرضاء الموكلين
 بحراستهم بمثل الطريقة التي تقدم الكلام عليها مما يدل على ان المقصود الحقيقي
 من وضع الناس تحت المراقبة في الصلاة هو تسريب مافي جيوبهم من المال
 الى جيوب ضمفاء البقارة وكذلك أمر السجن فان السجناء واعوانه يتناولون
 من المسجونين أموالاً طائلة حتي أصبح السجناء ارباب أموال كثيرة

ذكر انتفاض الخليفة شريف واولاد المهدي

الخليفة شريف ابن عم المهدي وثالث الخلفاء كما مر الالمام الى ذلك وهو
 الذي لقب (بخليفة الكرار) وكان قبل وفاة المهدي صاحب الحظوة عنده
 بالرغم عن تقدم التعايشي عليه

وقد ذكرنا انتفاضه على التعايشي بعد وفاة المهدي وكان للمهدي ثلاثة
 اولاد هم الفاضل ومحمد والبشري وكانوا في سن الطفولية لما توفي أبوم
 وفي أوائل سنة ١٣٠٧ زوج التعايشي محمد بن المهدي بنته واسكنه
 معه في داره فكان يظهر لها الكراهة والنفور لان التعايشي اضطهد اخوته

وأقاربه ومنع عنهم العطاء من بيت المال منذ وفاة المهدي فكان الخليفة شريف يعطى مرتباً شهرياً يبلغ مائتي ريال وهو قدر زهيد بالنسبة لما كان يتناوله في أيام المهدي وليتهم كانوا يتقدونه إياه في كل شهر إذ الحقيقة أنه كان لا يقبضه إلا مرتين أو ثلاثاً على الأكثر في السنة كلها وزد على ذلك أن التعايشي انتزع رايته من يده ووزع جيوشه التي أهمها الجيش الذي هلك مع ابن النجومي في الحدود المصرية

وكان للخليفة شريف حراس من ذوي قرابته يطلق عليهم اسم (الملازمة) يركبون الخيول الكريمة ويحملون الحراب الطويلة ويحيطون به كلما خرج من داره فانتزعهم التعايشي منه والحقهم بعثمان دقنة في السودان الشرقي وبالجملة أصبح الخليفة شريف مجرداً عن كل مميزات الخلافة التي كان حائزاً أو فر نصيب منها في أيام قريبه المهدي وكذلك أولاد المهدي الذين ذكرناهم فانهم صاروا في نهاية الاضطهاد الا محمداً الذي تزوج بنت التعايشي فانه كان معتنياً بشؤونها ويقدم الطعام لها ولصهره فقط

وكان للمهدي أولاد غير هؤلاء في سن الطفولية ونساء يزيد عددهن على المائة وكان الكل في نهاية الضنك يتضورون جوعاً ولما فشت المجاعة في سنتي ١٣٠٦ و ١٣٠٧ كادوا يهلكون من الجوع لو لم يتداركهم ذووم

ولما دخلت سنة ١٣٠٩ وصارت حالة السودان الى ماأشرنا اليه وتغيرت قلوب الاهلين وتحفزوا للوثبة على التعايشي اغتم الخليفة شريف وأولاد المهدي والمضطهدون من أقاربهم هذه الفرصة وارسلوا الدعاة سرا الى بلاد الجزيرة يدعون الاهلين للانتفاض على التعايشي ومبايعة الخليفة شريف

وضربوا لذلك اجلا يجتمعون فيه بام درمان وهو السابع والعشرون من شهر رجب سنة ١٣٠٩ ودخل في هذه البيعة كثير من الوجوه والقواد واكثرهم من حزب التعايشي الذي لم يكن عالما مما دبروه حتي اذا كانت ليلة الثاني والعشرين من شهر ربيع الثاني دخل عليه أحد الجواسيس وأوقفه على المسألة فاستدعى رجلا من أهالي كردفان وهو دنقلى الاصل اسمه السيد المكي بن اسماعيل الولي وكان أول انسان بايعه يوم توفي سلفه المهدي وقال له اذهب الى الخليفة شريف وبايعه بما يريد على شرط ان تقف على مادبره وتخبرني به فاطاعه وذهب الى شريف وعاهده على المصحف الشريف وعلم منه كل ما يريد التعايشي الوقوف عليه ثم عاد اليه واخبره به فجمع التعايشي أخاه يعقوب وذوي قرابته ليتداولوا في الامر فقرر رأيهم على ان يهجم رجال التعايشي على الخليفة شريف وأولاد المهدي ويقبضوا عليهم قبل ان يحل الاجل المضروب وكان فوزي وأحمدى ابنا محمود باريه الدنقليان كآتين للتعايشي فاعلما الخليفة شريفا بما أجمع عليه رأى التعايشي لانهما كانا ممن عاهدوه على اتمام امره

وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر ربيع الثاني فشا الخبر بين الناس فاصدر التعايشي أمرا الى الجهادية بالزحف من معسكرهم الى داره فخرجت الجهادية مارة على (الموردة) وما حولها من السوق فنهبوا كل ما صادفهم في طريقهم حتى وصلوا الى دار التعايشي

واجتمع حول منزل الخليفة شريف نحو عشرة آلاف مقاتل جلمهم من الدناقلة وأهالي القرى التي حول أم درمان وكان منزل التعايشي لا يبعد عن منزل الخليفة شريف باكثر من مائة متر واحتشد في المسجد اكثر السكان الذين يظن التعايشي انهم مع عدوه فامر الجهادية بالوقوف على أبواب المسجد ومنع من به

من الخروج حتى لا ينضموا الى الخليفة شريف وحولت الازقة التي بين منزل
الخليفة شريف ومنزل التعايشي الى متاريس وخطوط نار

وكان التعايشي وقتئذ في بيته فلم يخرج حتى وثق من ان مقذوفات
المنتقضين لا تصل اليه وأقيمت عدة متاريس على جدار منزل المهدي الملاصق
لمنزل الخليفة شريف ووقع الرعب في قلوب البقارة وفر ثلاثمائة فارس منهم
قاصدين كردفان وبلغ الحماس مبلغا عظيما من المنتقضين حتى ان النساء تسلحن
مع الرجال وفي أصيل النهار هجمت مائة امرأة منهم على نحو خمسين فارسا
من البقارة كانوا يستقون خيولهم على ضفة النهر فاوسعهم ضربا بالاصصى ففروا
وتركوا خيولهم غنيمة للنساء المتحمسات

وبات الناس ليلتهم يحترس بعضهم من بعض والتعايشي يرسل الرسل الي
الخليفة شريف ويلين له الكلام

وفي منتصف الليل هجمت رجال الخليفة شريف على صفوف التعايشي
حتى زحزحوم عن مواضعهم ونهبوا بعض أمتعتهم
وانضم الى الخليفة شريف أحمد سليمان الذي كان أمينا لبيت مال المهدي
وسعيد محمد فرج من وؤساء القبائل في دنقلة وكان قد وفد على التعايشي في أم درمان
متظلمًا من يونس الديكيم أمير دنقلة وانضم اليه أيضا شايب بن أحمد أحد أمراء
الداقلة المشهورين وكان مع عثمان دقنة وأخبار فروسيته وإقدامه معروفة
يتحدث بها أهل سواكن

أما موقف الخليفة على حلوا الملقب (بخليفة الفاروق) في هذا الانتقاض
فكان موقف خديمة للخليفة شريف ومباطنة للتعايشي لانه كان يظهر للخليفة
شريف انه معه ويقال انه هو الذي أخبر التعايشي بأمر انتقاض الخليفة

شريف عليه

وقد جمع الخليفة على حلو مقاتلته وكانوا زهاء خمسة آلاف فارس ونحو
 عشرة آلاف من الرجال وكلهم من عشيرته (دغيم وكنانة) وهم الذين مرلنا
 الكلام على أنهم اول من بايع المهدي يوم اجتاز النهر من جزيرة آبا الى الضفة
 الغربية وهم الذين نصرروه في جبال (قدير)
 وفي غداة اليوم التالي فرق التعايشي مقاتلته فأحاطوا بمنزل الخليفة
 شريف من جميع الجهات وابتدأ إطلاق النيران من الفريقين واستمر نحو
 ساعتين لم تظهر في خلالهما نتيجة غلبة أحدهما وهجم شايب احمد شاهرا سيفه على
 مائتين من جهادية التعايشي فولوا مذعورين

وفي ساعة وقوع القتال كان الخليفة على حلو مع الخليفة شريف يعرض
 عليه شروط الصلح وهي كما يأتي

أولاً تعاد للخليفة شريف رايته

ثانياً يدفع له مرتب ٢٠٠٠ ريال في كل شهر

ثالثاً يدفع لكل واحد من اولاد المهدي مرتب يكفيه

رابعاً يعفو التعايشي عن كل الذين بايعوا شريفنا على الانتقاض

خامساً يتعهد الخليفة على حلو بانفاذ هذه الشروط

سادساً يعزل يعقوب أخو التعايشي عن وزارة أخيه لانه مرتش

ولانه سبب جميع المظالم التي أخربت البلاد

سابعاً يعزل قاضي الاسلام أحمد على

ثامناً لا يقطع التعايشي أمراً دون مشاورة الخليفة شريف

تاسعاً يطلق سراح محمد خالد زقل (الذي تقدم لنا ذكر سجنه)

وقد تم الاتفاق شفاهياً على هذه الاوجه وحلف الخليفة على حلو على
المصحف الشريف أن يكون ظهيراً للخليفة شريف ان لم تنفذ هذه
الشروط ثم اصطحب الخليفة شريفاً معه الى منزل التعايشي الذي قابله
بالتجلة والاكرام وأخذ يبكي ويمانع الخليفة شريفاً ويقول له ان المهدي
جاءه في الحضرة وأمره باجابة مطالب الخليفة شريف وان النبي صلى
الله عليه وسلم أوصاه به وحلف التعايشي على المصحف أنه لا يبدل شرطاً
من الشروط التي اشترطها عليه الخليفة شريف وانصرف الخليفة شريف الى
داره وارسل له التعايشي ثلاثة آلاف ريال وأمر الناس بالكف عن الحرب
وأمر الرؤساء بالذهاب الى تجديد بيعة التعايشي فوق ذلك على الجميع موقع الصاعقة
وعلموا ان ذلك خدعة وان التعايشي سيقبض منهم فلاموا الخليفة شريفاً
على تسرعه في ابرام الصلح بدون مشورتهم فاخذ يؤكد لهم استحالة
اقدام التعايشي على الانتقام منهم فهزوا بقوله ولسكنهم لم يجدوا سبيلاً عن
الكف عن الحرب والتوجه لمبايعة التعايشي الذي قابلهم بالبشاسة والاكرام
وعفا عنهم وحلف لهم على الوفاء بما جاء في الشروط التي أوردناها فلم يصدقوه
وايقنوا ان العاقبة وخيمة

ويقال ان الخليفة شريفاً عمداً الى المصالحة مضمراً الفدر حيث كان
موعد الاجتماع عليه في أواخر شهر رجب فصالح على ان يقوم بأمره عند حلول ذلك
الاجل حيث يجتمع عليه الناس ولكن ساء فاه واتخذ التعايشي الحيلة لاجباط
ذلك كله

وفي اليوم التالي ركب التعايشي في نحو ستة آلاف فارس واجتاز الاحياء
التي يسكن فيها المنتقضون مع الخليفة شريف وأمر الفرسان بنهب ما في المنازل

من المتاع ففعلوا وكانوا يجردون النساء من ملابسهن حتى المآزر
وانفذ السرايا الى الجزيرة فقبضوا على رؤساء الذين باعوا الخليفة شرفا
وهبوا أموالهم

على ان اكثر الناس كانوا مشايخين للخليفة شريف وكانوا على يقين بان
قيامه سيأتي بفائدة الخلاص من نير البقارة وأنه لو لم يصالح على الشروط المتقدمة
وشهر الحرب لظهر على التعايشي الذي لا قوة عنده غير الجهادية الذين اكثرهم
يظاهرونه على التعايشي

والحاصل ان ثورة الخليفة شريف جاءت مغتبا سيئة عليه وعلى كثير من
الذين مالوا اليه اذ يبلغ عدد من ذهبت دماؤهم هدرًا بسببها بضعة آلاف شخص
كلهم ماتوا في المنفى وقتلوا بسيف انتقام التعايشي كما سيأتي ذكر ذلك كله في
مكانه فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

ذكر القبض على كبار حزب الخليفة شريف وقتلهم

تقدم لنا الكلام على المعاهدة التي انحسنت بها ثورة الخليفة شريف
وقد مضت على هذه المعاهدة اثنتان وعشرون ليلة يبدى التعايشي في كل يوم
منها من دلائل الاحترام للخليفة شريف ما جعله له أطوع من بنائه حتى
أسلمه جميع الاسلحة النارية التي كانت عنده وكانت تبلغ زهاء النى بندقية من طرز
رامنجتون وكان التعايشي يركب في كل يوم والى جانبه الخليفة شريف الذي غمره
بكثره عطاياه حتى وردت عليه انباء من انفذهم للقبض على رؤساء القبائل الذين
لهم ضلع مع الخليفة شريف وجرى بهم مقرنين في الاصفاد فقلب له ظهر
المجن وأرسل في اليوم الثالث والعشرين لتقرير المعاهدة من قبل علي أحمد

سليمان امين بيت مال المهدي وفوزي واحمد بن محمود باريه واخويهما
 وسعيد محمد فرج من رؤساء قبائل دنقلة وادريس وريدي أحد قضاة
 بيت المال وهو قريب فوزي واخوته وخمسة عشر رجلا من أقارب
 المهدي وبني عمومته وكلهم من الذين أسسوا دعوى المهديوية وجرى
 بهم الى منزل التعايشي وكان جالسا ومعه القضاة والخليفتان على حلوه ومحمد
 شريف فلما مثلوا بين يديه رحب بهم وهش وبش في وجوههم كأنهم
 مدعوون لوليمة عنده وأمرهم بالجلوس وبالغ في اكرامهم ثم قال لهم
 يا اخواني ان النبي صلى الله عليه وسلم أمرني في الحضرة ان ازجكم في
 السجن اياما قلائل ريثما يأمرني باطلاقكم فما قولكم فاجابه الخليفة
 شريف بقوله لا يمكن سجنهم لان ذلك مخالف لما تعاهدنا عليه فسكت التعايشي
 وأجاب الخليفة على حلوه الخليفة شريفا بحدة وغضب قائلا أنت تعارض
 في أمر النبي صلى الله عليه وسلم ووثب رجل من قواد (دقيم) اسمه
 ابن أبي بلال وانهر الخليفة شريفا وقال له كان المهدي قريبك يحكم في
 الخلو بامر الحضرة ولا يستطيع احد ان ينكر عليه فلماذا أنتم اليوم تحرمون
 على غيركم ما كان لكم حلالا بالامس فسكت الخليفة شريف وعلم ان
 الخدعة تمت عليه وترك الكلام في أمر معارضته في حبس رؤساء حزبه
 وأخذ يحتج على ما كان من اهانة ابن أبي بلال له مع ان ذلك لم يحصل
 منذ قامت دعوة المهديوية لانه لا عقاب لمن يتجارى على مخاطبة
 أحد الخلفاء باقل شيء تشم منه رائحة الاهانة غير القتل ففیر التعايشي الكلام
 وخاطب أحمد سليمان بمبارات المحبة والتبجيل وذكر قربه من المهدي
 وحظوته عنده ثم قال يا اخواني طبوا نفسا ولا تظنوا سوا قوموا واذهبوا

الى السجن الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بادخالكم فيه وقال للخبراء
الذين يحيطون بهم سروا السجن ان لا يضع في رجلي كل واحد منهم غير قيد
صغير لانهم من أجل أصحاب المهدي عليه السلام وذوى قرابته ثم قال لهم
هيا اذهبوا على بركة الله فودعوه وخرجوا من الباب فاحاط بهم نحو خمسمائة
بقارى وضربوهم الضرب الذي يسمونه (مطر دصبت) وكيفيته ان يجتمع مائة
نفر فاكثر ويضربوا بالمصى شخصاً واحداً أو عدة أشخاص

ثم سيقوا الى السجن وعاد الخبراء واخبروا التعاشي بانهم قد
أودعوا السجن فامر الناس بالانصراف الا واحداً من أقاربه فلما انصرفوا
قال لاحد الخبراء عد الى السجن وقل له ضع في كل واحد عشرة قيود
وزن كل قيد عشرون رطلا من الحديد ثم قال لقريبه اعلم اني منذ ست
وعشرين ليلة مازار الزوم اجفاني أى من يوم سمعت بامر الخليفة شريف
الذي لم يكن في ظني ان مساعي تقرر في مسألته بالنجاح وتأتى بمثل هذه النتيجة
المرضية ومنذ حبست أحمد سليمان ومن معه شعرت براحة في نفسى وهجم
النوم على جفنى فاستودعك الله لانني ذاهب الى حجرة نومي فودعه وانصرف
ودخل التعاشي الى حجرة نومه فلم يستيقظ الا بعد ظهر اليوم التالي ومكث
أحمد سليمان ومن معه ثلاثين ليلة في السجن ثم حملوا الى فشوده على إحدى
البواخر النيلية وأرسل معهم التعاشي كتابا الى الزاكي طمل وكان معسكراً
وقئتد في فشوده لقتال (الشك) كما قدمنا

ولما وصلوا اليه استدعاهم في مجلس خاص بقواده وخاطبهم لماذا يامعشر
الداقلة تحاربون خليفة المهدي فردوا عليه أقبح رد وقالوا له ان المهدي الذي
أورثكم الملك دنقلي منا وانتم بقارة ارقاء فساءه ذلك وقال لهم لا قتلنكم كما قتل

الكلاب وأمر أن يضرب كل واحد منهم عشرة أشخاص بالعصى الغليظة حتى يموت فكثروا على هذه الحالة بضع ساعات حتى تهشمت رؤوسهم وسحقت سحقاً

ولما شرعوا في ضربهم قال أحمد سليمان لفوزي نحن الآن على شفا الموت ولا مطمع لنا في الحياة فانا أناشدك الله هل المنشور الذي يتلى كل يوم في المسجد وفيه ان التعاشي أوتي الحكمة وفصل الخطاب مطابق للاصل الذي صدر من المهدي فقال فوزي اللهم لابل التعاشي هو الذي أمرني بوضع الزيادة التي زيدت فيه فقال أحمد سليمان اعلموا ان المهدي كان ينوي الفتك بعبد الله التعاشي ولم يستخلفه الا لانه كان مطلقاً على كثير من اسراره وكان يظن انه ترك قوة عظيمة في يد الخليفة شريف نقدر على كبح جماح التعاشي متى أراد الخروج عن طوره ولكن بالأسف ان الخليفة شريفاً خدع في بداية الامر وأسلم راياته للتعاشي وأصبح بلا قوة ثم خدع في هذه المرة وسيلاتي ماجنته يدها فالتفت اليهما سعيد محمد فرح وقال لهما كفا عن هذا الهذيان واعلم يا أحمد بن سليمان ان مهديكم كاذب ظالم وعقله اسخف من عقل قريبه الخليفة شريف والدليل على ذلك انه لم يختار من جميع الناس الذين تبعوه ممن هو أهل لخلافته غير بقاري أجهل من الحمار وليته كان بقارياً ذا حيثة في قومه بل هو كما يعلم الكل دكروري من أوباش البقارة ثم طراً عليهم كلهم مامنهم عن الكلام فأتوا وأتيت اسلاؤهم للكلاب والذئاب

وكانوا كلهم عدا سعيد محمد فرح من اكبر انصار المهدي ومن خيرة اعوانه وقد تقدم لنا كلام عن أحمد سليمان ومنزلته عند المهدي فلا حاجة لاعادته هنا وقد ذكرت أيضاً ما لحقني من تعذيبه لي

أما فوزي واخوته فانهم كما قلنا دنقليون كان أبوهم قاضيا في أحد مراکز
 كردفان فلحق فوزي بكتابة التعاشي حتى صار رئيسهم
 وقد صودرت أوالهم وأخذت نساؤهم مسديات وهدمت منازلهم
 وأصبحوا عبرة لمن يعتبر والى الله مصير كل شيء

ذكر القبض على الخليفة شريف وحبسه

لما قبض التعاشي على احمد سليمان ومن معه لزم الخليفة شريف منزله
 وامتنع من الذهاب الى منزل التعاشي الذي أمر بالقبض على نحو ألفي رجل
 من حزب الخليفة شريف ونفاهم الى النيل الاعلى وقتل اكثرهم في الطريق
 وشاع بين الناس ان التعاشي ظفر بالقائمة التي فيها أسماء من بايعوا
 الخليفة شريفا وجلهم من الامراء ووجوه البلاد فخافوا العاقبة وأرسلوا
 للخليفة شريف سرا يدعونه للفرار من أم درمان واللحاق بالجزيرة
 ليظهروا مبايعته ويقوموا بأمره وحينئذ يكون أحد الامرين إما الموت
 أو الظفر وهذا قريب من الصحة لما قدمناه من انحراف الناس عن التعاشي
 وسعيهم في الخلاص من يده

ولما كان الخليفة شريف هذا بليدا لم يلتفت لما أشار به أنصاره ولم يعبأ بما
 عرضوه عليه من الآراء الخازمة وظل مقبلا في داره حتى شاع بين الناس
 ان التعاشي أوشك أن يقبض عليه فذهب واحد من خواصه وأخبره
 بذلك فسخر منه وقال له ان ذلك لا يمكن أبداً لاني ثالث الخلفاء وان
 المهدي أخبر عني في أحد منشوراته بان المهدي لا تقوم قائمتها بغيري
 وعلى ذكر المنشور نقول انه يوجد منشور منسوب للمهدي ولكنه لم يدرج

ضمن كتاب المنشورات التي تقدم لنا ايراد بعضها لان التعاشي منع من طبعه
وفي المنشور معميات والغاز كالتى يستعملها بعض المتصوفة ومنها كلمتا (دهودى
همودى) وفيه أيضا عبارة تشبه اللغز وهى (انه لن يصح انتقالى من الدنيا
حقيقية مادام الخليفة شريف موجوداً بها)

على ان بعض الناس ينكرون صدور هذا المنشور من المهدي والحاصل
ان الخليفة شريف كان آمناً على نفسه اعتماداً على هذه الخزعبلات ولذلك لم
يعبأ بمشورة الذين حثوه على الفرار

وتوجد مسألة خلاف تديمة بين التعاشي والخليفة شريف وهى ان
المهدي زعم فى أوائل دعواه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أهده سيفاً
قال له هذا سيف النصر وخاصيته أنه لا ينصر أحد على من كان حاملاً له وقد
جعل من ضمن الكرامات التي خص بها وقد تقدم ذلك فى كثير من
المنشورات التي تقدم ايرادها

ولما توفى المهدي أمسك الخليفة شريف هذا السيف وامتنع من تسليمه
للتعاشي الذي كان يلح في طلبه من الخليفة شريف لالاعتقاد بما يقال عنه
بل لانه كان يرى ان بقاء هذا السيف في يد غيره يخفض من شأنه قليلاً في
حقوق الخلافة اذ العامة من الدراويش تتحدث بشيء كثير عن كرامات هذا
السيف فيقول بعضهم انه يضطرب ويسمع له صوت كقصف الرعد اذا
اقترب العدو من مدينة المهدي. ومنهم من يقول انه اذا اقترب منه الجنب
ضرب عنقه بغير ضارب ولا يستطيع أحد حمله غير صاحبه المهدي الى غير
ذلك من أقوال البسطاء. ونقل لي مصري كان مقرباً من المهدي انه سيف
مثل سائر السيوف وليس فيه خاصية مما تتحدث به العامة ويصدق البسطاء

وشعراء المهديّة ينظرون فيه الموشحات ويذكرونه كثيرا في قصائدهم
 وكان الخليفة شريف متقلده في غضون ثورته
 وفي اليوم الثالث من شهر رجب سنة ١٣٠٩ جمع التمايشي القضاة
 والامراء وطلب منهم ان يكتبوا محضرا يقولون فيه ان الخليفة شريفا
 اعتزل الجمعة والجماعة واصر على العصيان ولزم منزله فكتبوا ذلك ثم قال لهم اذهبوا
 مع الخليفة الي حلو وادعوه الى الحضور في داخل قبة المهدي ثم اقبضوا
 عليه فذهبوا وارسل اليه الخليفة على حلو يدعوه الى الحضور فامسكه محمد أحد
 أولاد المهدي وقال له لا تذهب واعتذر بانك مريض فاذا أرخى الليل سدوله
 فاهرب الى الجزيرة فقال له لا تخف فانهم لا يستطيعون اىصال الاذي الى
 فذهب معهم وما كاد يستقر به المجلس حتي وثب عليه من حوله وقبضوا عليه
 واخذوا سيف النصر من يده وأوسعوه ضربا وساقره الى باب التمايشي
 وأسلموه للحراس الذين أخذوا يلطمونه ويهينونه ودخل الخليفة على حلو
 والقضاة على التمايشي واخبروه بما صنعوا. ويقال ان التمايشي طلب منهم ان
 يوافقوه على صلبه وأخيراً أمر به فسيق الى السجن وما وصله الا بعد أن بلغت
 روحه التراقي لكثرة ما لحقه من الضرب وهناك وضعوا في رجليه عشرة
 قيود من الحديد ووضعوا في عنقه جنزيراً وزنه خمسون رطلا وسنعود الي
 ذكر بقية أخباره

ذکر القبض علی عبد القادر سانی علی

ومحمد عبد الکریم وقتلها

عبد القادر سانی علی ابن عم المهدي ومحمد بن عبد الکریم

ابن أخي عبد القادر ساني علي وكان الاول فقيها شاعراً أديباً ولد في الخرطوم
وتربى فيها ولحق بقريبه المهدي في كردفان فاكرم وقادته وعرف منزلته
وصار مبعجلاً عنده وعهد اليه برئاسة الامناء الذين ينوبون عنه في نظر المسائل
العمومية وجعله أميناً على خاتمه

وكان عبد القادر ساني علي شديد البغض للتمايشي يعيبه بالجهل ويرميه
بالظلم وكثيراً ما طلب من المهدي اقصاءه عن منصب الخلافة وكان يمانه في
انفاذ كثير من مآربه ويزدرية ويحقره ولا يجلس بين يديه جاثياً على ركبتيه
كما هي عادة الدراويش في آداب الجلوس عنده

ولما توفى المهدي كان أول عمل أتاه التمايشي عزل عبد القادر عن منصبه
ثم بعد بضع سنوات صادر أمواله وحبس به بضعة شهور. وكان لعبد القادر معرفة
بالطب فاشتغل بهذه المهنة ليحصل منها على قوته حتى اتصل بالتمايشي ان
عبد القادر أصبح ذا ثروة عظيمة من مهنة التطيب فاستدعاه الى مجلس حافل
بالقضاة وقال له لا يليق بك وأنت عم الامام المهدي عليه السلام ان تشتغل
بمهنة دينية كالتطيب فقال له (نعم يليق بعم المهدي ان يموت جوعاً) فقال له
اياك ثم اياك والتطيب واعلم أنك ان لم تنته عن هذه الصناعة تكن قد
عصيت أمري وأنت عالم بعقوبة من يعصيني فذهب الى منزله وامتنع من
التطيب خوفاً على حياته حتى صار في حالة يرثى لها من الفقر وفقدان القوت

وأما محمد عبد الكريم فانه ابن عم المهدي وكان من اكبر قواده وهو
الذي فتح سنار واغتال منها قناطير مقنطرة من الذهب كما سبق الكلام على ذلك
وكانت طريقته في الازدراء بالتمايشي لا تختلف عن طريقة عمه عبد القادر
وقد صادر التمايشي أمواله أيضاً جملة مرات

ولما انتقض الخليفة شريف كان محمد عبد الكريم معه أما عمه عبد القادر
فكان ملتزماً بجانب الحيات

وبعد ان قبض التعاشي على الخليفة شريف وسجنه قبض على عبد القادر
ساتي وابن أخيه محمد عبد الكريم وأرسلهما إلى الزاكي طمل في فشوده فقتلها
ضرباً بالعصى كما قتل احمد سليمان ومن معه

وقد جرت بينهما وبين الزاكي طمل مكالمة تشبه التي جرت بينه وبين
احمد سليمان ورفقائه وقد أظهر عبد القادر ساتي عليّ جلاً وشجاعة بخلاف
ابن أخيه محمد عبد الكريم فإنه جين وخارت عزمته وطمع في الحياة بالتزلف
للزاكي الذي كان لامندوحة له عن انفاذ ما أمر به التعاشي

هذا وقد جئنا بذكر قتل هذين لشهرتهما بين أقارب المهدي الذين يقدر
عدد من قتل منهم ومن أقاربهم بسبب هذه الحادثة بنحو ثلاثة آلاف رجل عدا
الشبان الذين كانوا حراساً للخليفة شريف فقد طرح عدد كبير منهم طعمة
لاسماك النيل

وكان لمحمد عبد الكريم محظيات في نهاية الحسن والجمال فكان التعاشي
يرسل إلى الواحدة منهن ويطلبها إلى منزله فإذا قضي منها وطره أخرجها
وأعادها إلى منزلها

ذكر شأن نساء المهدي مع التعاشي

ذكرنا ان المهدي مات عن نيف ومائة امرأة اكثرهن قد استحل
وطأهن بملك اليمين على الطريقة التي تقدم الكلام عليها فلاحاجة لاعادتها
ولما مات المهدي وأتمت النسوة عدة الموت جمع التعاشي الخلفاء

والقضاة وعرض عليهم اخلاء سبيل كل امرأة لم ترزق ولدًا من المهدي
 لان كثيرا منهم لم يقترب منهم فعارض الخليفة شريف في هذا الامر وقال
 ان نساء المهدي كنساء النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وهن أمهات
 المؤمنين اللواتي أمرهن الله بعدم الخروج من بيوتهن وأورد الآيات التي
 نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم كأنها نزلت في نساء المهدي فقبل
 الحاضرون قوله وأعرضوا عما أشار به التعايشي

ومكث أولئك النسوة في داخل بيت يسكن كل خمس منهن في كوخ
 من البوص واجري التعايشي على كل واحدة منهن راتباً شهرياً قدره خمس
 ريات يتناولنه في السنة كلها مرتين أو ثلاثة و وكل حراستهم الى نحو خمسين
 من الحصيان الذين كانوا ملجأ لوجوه وأعيان المصريين في سائر مدن السودان
 وصارت حالة النساء والحصيان تنتقل من سيء الى أسوأ. وبالجملة لولم
 يكن لهاته النسوة أقارب يتساركون بهن ببعض القوت لمتن من الجوع
 وكذلك الحصيان كان قوام معيشتهم من التسول ومد يدى السؤال للامراء
 واعيان البلاد

وفي سنتي المجاعة مات كثير من النساء اللواتي لم يكن لهن أقارب ومات
 كثير من أطفالهن أولاد المهدي

وكن كلما شكون الى التعايشي ما هن فيه من شظف العيش يبكي وينتحب
 ويقول لهن انكن آل بيت المهدي لانصيب لكن في الدنيا وليس لكن غير الآخرة
 حتى اذا كانت سنة ١٣٠٩ وانتقض الخليفة شريف على التعايشي قام نساء
 المهدي بمظاهرة ولأء للخليفة شريف فاغتاظ التعايشي وأمر باحاطة منزل
 المهدي بسور من الحجارة ليفصله عن ملاصقة منزل الخليفة شريف وبعد أن

قبض على الخليفة شريف جاء التعايشي الى منزل المهدي ومعه ألف مقاتل
 مسلحون بالاسلحة النارية فاحاطوا بنساء المهدي وهن داخل ستر وضع لهن
 وقال لهن (انكن عصيبن الله ورسوله ومهديه وكفرتن بهم وقد حكم القضاة
 باعدا يمكن رميا بالرصاص) فرفعن رؤسهن فوجدن أفواه البنادق موجهة
 اليهن نصرخن ولطمن وجوههن ومنهن من هربن لتساق الجدران التي
 كانت تناطح السحاب ومنهن من القت نفسها في بئر وبالجملة ان أولئك النساء
 روعن روعا شديدا فضلا عما هن واقعات فيه من شظف العيش وسوء الحال
 ولما رأي التعايشي ما صارت اليه حالتهم وأن بعضهن ثبتن وقلن له انا
 لا نرهب الموت الذي تمهدنا به لانك انما تقتل نسوة لا يشرفك قتلهن
 ومع ذلك فان قتلنا شيء لا يذكر في جانب كفرانك بنعمة المهدي الذي اجلسك
 على الملك فاذا كنت تنادي كل يوم وليلة على رؤس الاشهاد بان المهدي
 دنقلي فان قتلنا لا يذكر في جانب هذه الشتائم

ويقال ان زينب اكبر بنات المهدي امرأة الخليفة شريف أغلظت
 له القول واهانت بالشتائم فانصرف وقال لنساء المهدي اتني عفوت عنكن وانما
 قصدت بفعل هذا ارهاب اللواتي تظاهرن منكن بولاء الخليفة شريف
 والحاصل ان نساء المهدي وخصيانه مكثوا في الذل والهوان يقاسون
 من شظف العيش أشده حتى فتحت أم درمان وانقشع ظلم دولة الدراويش
 عن السودان

ذكر سجن اولاد المهدي

لم يكتف التعايشي بما فعله بالخليفة شريف والذين بايعوه حتى أمسك اولاد

المهدي الثلاثة وهم الفاضل ومحمد والبشرى وسجنهم في منزل جدمهم لامهم أحمد شرفي ومنعهم من الخروج منه وكان محمد متزوجا بنت التعايشي فطلقها منه ومكث الثلاثة في الحبس ولم يخرجوا منه الا بعد استيلاء الجيش المصري على دنقلة

على ان اولاد المهدي لم يكونوا طامعين في الخلافة وانما كانوا متذمرين مما اصاب ذوي قرابتهم من الظلم والاضطهاد ثم القتل والنفي وكان محمد كما قلنا متزوجا بنت التعايشي وكان يبغضها ويسب أباهما بمحضرتها ويذكر كفرانه بنعمة أبيه وعدم وفائه بهمهه فكانت تخبر أباهما بذلك كله حتى آل الامر لطلاقها منه

وعلى ذكر اولاد المهدي نذكر الشيخ الحسين زهرا الذي أوردنا قصيدته الحمزية التي امتدح بها المهدي ونصحه فخبسه التعايشي ثم انه بعد وفاة المهدي قدم للتعايشي قصيدة ملامها بالنصح ومن ضمنها قوله له ان استخفافك باولاد المهدي واضطهادك لاقاربه يحملان الناس على الاعتقاد بانك غير مصدق بمهديته فغضب عليه التعايشي وسجنه وبعد أيام أطلقه وأمره أن يسكن في قريته في جهات (المسلمية) على بعد ثمان مراحل من أم درمان جهة الجنوب والحاصل ان جميع أقارب المهدي أصبحوا بين قتلى ومسجونين وكذلك الامراء والقواد الذين أسسوا دعوة المهديوية معه فقد فعل بهم التعايشي ما فعله بأقارب المهدي وأولاده ولا غرو فان المهدي سبب كل هذه المصائب التي حاقت بأقاربه وقواده حيث استخلف التعايشي عليهم وهو لا يدري ان عدوا عاقلا خير من صديق جاهل

ذكر مؤامرة عبد المولى صابون علي قتل التعايشي

عبد المولى صابون اخو حمدان أبي عنجة فاتح بلاد الحبشة الذي تقدم لنا ذكره وكان عبد المولى هذا قائدا للجهادية في أم درمان وفي سنة ١٣٠٥ أصيب بمرض الجذام وقد مر لنا الكلام على ان التعايشي كان يحبه وانه قد نفى أم زوجته بعد ان قطع يدها لما قيل له ان مرض عبد المولى ناتج من كثرة ما تصنعه له من الشعوذة والاسحار اللتين تقصد بهما استمالته لمحبة بنتها ولما توفي حمدان أبو عنجة في القلايات كان أخوه عبد المولى يتوق لنيل منصبه فلم يفلح وولى التعايشي الزاكي طمل بدل أبي عنجة وعزل عبد المولى أخاه من قيادة الجهادية وولى بدله أحد أقاربه البقارة فاغتاظ عبد المولى من التعايشي وأضر له السوء وحالف الخليفة شريفا عليه ولكنه لم يظهر مخالفته له وانضم اليه نفر من التعايشة أقارب الغزالي الذي تقدم لنا ان التعايشي قتله لما فر من أم درمان وتآسروا على قتل التعايشي غرة بين منزله ومنزل أخيه يعقوب حيث تعود التعايشي ان يسير بينهما بحراس قليلين ولكن المتآسرون في الطربق قبل الوقت الذي يخرج فيه التعايشي من داره الى دار أخيه يعقوب بنحو ساعة من الزمن ليفتكوا به اذ ذلك

وبينما كان التعايشي يتأهب للخروج استأذن عليه أحد المتآمرين فأذن له ولدي دخوله عليه ترامي عليه مظهراتوبته واخبره بما دبره له عبد المولى ومن معه فارسل التعايشي من قبض عليهم وأودعهم السجن ثم نفوا الى خط الاستواء وهناك لقوا حتفهم

وكان عبد المولى هذا ذا فظاظه وكبر ونال من الرفعة والثروة في أيام التعايشي

ماله خطر مع انه عبد اسود من عبيد (البنضلة) لمجاورين للتعايشة كما انه أخذ
من حرار النساء نحو خمسين امرأة من بنات الاعيان كلهن موطوات
بملك اليمين

وبعد سقوط الخرطوم بامين كان لي عبد قد أبق ولحق بجهادية
أم درمان الذين يقودهم عبد المولى هذا فذهبت اليه أسأله ان يعطيني ذلك العبد
أو ثمنه فكان أول كلمة كلني بها أن قال لماذا أنت ضخم يا ولد الريف أعندك مال مخبأ
تخرج منه ما تنفقه على نفسك فطار لي من هذا الكلام وقلت له لا
يا سيدي بل أنا رجل فقير أعيش من هبات سادتي الامراء امثالك فقال
وهل هبات الامراء تسمنك الى هذا الحد فقلت نعم وان مولاي خليفة
المهدي عليه السلام يتماهدني باحسانه في كثير من الاوقات فانكسرت
شوكة حدته وقال لي ماذا تطلب الآن فقلت أطلب عبدي فقال أنت عبده
فقلت له نعم انني عبده لانه صار عبداك فشفع لي عنده أحد الحاضرين
فقال انني سمحت لك باخذ العبد اكراما لحاظ من شفيع فيك واحذر من ان
تعود الي بمثل هذا الطلب فاني اذ ذك أضرب عنقك هذا المملوء لهما فاخذت
العبد وانصرفت به الى النخاس وبعته باول ثمن عرضة على فيه

ذكر قدوم محمود احمد من دارفور

مر لنا الكلام على موت عثمان آدم أمير دارفور وتولية محمود أحمد
ابن عم التعايشي بدله وذلك في سنة ١٣٠٧ وقد سار محمود هذا سيرة عوجاء
أوجبت انحراف القواد عنه ونفور الجنود عن ولائه واشتدت الحالة في إبان
ثورة الخليفة شريف فتخوف التعايشي من هذه الحركة وكتب الى محمود

يستقدمه الى أم درمان بمن معه من المقاتلة وقصد بذلك ان يهرب أهالي الجزيرة الذين مالوا للخليفة شريف ويربهم قوته التي في دارفور وأن يوفق بين محمود والذين تقموا عليه من جنوده ومقاتلته فقاد محمود أحمد الفاشر عاصمة دارفور ومعه نحو أربعين الف مقاتل منهم بضعة آلاف من الجهادية ومثلهم من الفرسان والبقية من المشاة

وبعد ان وصلوا الى جهة (النود) وهي أول بلاد كردفان مما يلي دارفور ثار عليه قواد الجهادية واطلقوا عليه الرصاص وكادوا يقتلونه وكانت عدة الثوار خمسة عشرة قائدا يقود كل واحد منهم مائة مقاتل كلهم مسلحون بالاسلحة النارية من طرز (رامنجتون) وانفصل الثوار عن المعسكر وابتعدوا عنه فارسل اليهم محمود قاضي المعسكر يدعوهم الى الطاعة ويعددهم بلغو عن جريماتهم ثم دفع لكل واحد منهم الف ريال فاخذوا المال ولم يقبل العودة الى الطاعة غير ثلاثة منهم وأصر الباقون على عصيانهم وابتعدوا عن المعسكر ولحقوا بجبال (اب جنوب) وهي جبال واقعة في الجنوب الغربي لكردفان وسكنها من العبيد (النوبة) الذين تقدم لنا الكلام عنهم فلا حاجة لتكراره هنا ووصل محمود الى أم درمان في منتصف ذي القعدة سنة ١٣٠٧ أي بعد ان زالت مخاوف التعايشي من الخليفة شريف والذين بايعوه فخرج لاستقباله خارج البلدة وظهر سرورا عظيما بمقدمه وبالغ في اكرامه الى درجة انه أمر بعمل ألعاب نارية اجريت امام محمود وجنوده وهي أول مرة صنعت فيها تلك الألعاب في ايام المهديوية

وارتفعت أسعار الاقوات على أثر قدوم محمود أحمد ومقاتلته الذين قدموا بنحو مائة الف نسمة من الارقاء باعوها في أم درمان كما تباع البهائم

وقدم محمود هذا أموالاً طائلة للتعايشي وأخيه يعقوب

ثم أنه تزوج براقصة شهيرة اسمها بنت بدوي كان الشعراء يتغزلون
ببراءتها في الرقص وجاهر في حفلات الزواج بشرب الخمر وأحيى إلى
الرقص بما يخالف آداب المهذوبة وصادر كثيراً من الجوارى المومسات
وأشهرهن جارية اسمها « السكات » وجمع حوله كثيراً من المخنثين والمغنين
الذين تقدم لنا الكلام عليهم وسيأتي ذكر الجارية السكات وانها اباحت قرية
(الجمعباب) للجهادية فهبوها وألقوا بها العار
وأقام محمود بام درمان بضعة شهور ثم قفل راجعاً بجنوده إلى دارفور
وستجيء بقية أخباره

ذكر القبض على أمراء الجعليين ونفيهم

ذكرنا أن جل تجار كردفان من قبيلة (الجعليين) التي تسكن بربر وقد سبق
لنا شرح أحوالهم فلا حاجة لاعادته هنا وقد استوطنوا كردفان منذ زمن مديد
وكان من أمرهم أنهم أعانوا المهدي على الاستيلاء على الأبيض عاصمة كردفان
وكان الياس باشا أم بربر في مقدمة أولئك التجار الذين تقدم لنا الكلام عليهم
وقبيل ثورة الخليفة شريف باشا جمع التعايشي نحو أربعين من أمراء
الجعليين ودفع لكل واحد منهم راية وكان من بينهم عمر بن الياس باشا الذي
ذكرنا بعض ما أتاه في دارفور لما ذهب إليها مع محمد خالد زقل
وعين التعايشي قائداً عاماً على الأربعين أميراً اسمه البدوي بن العريف
كان أخوه محمد بن العريف سر تجار الأبيض عاصمة كردفان ومن أكبر الذين

ساعدوا المهدي على الاستيلاء عليها

ولما ثار الخليفة شريف كان هؤلاء الامراء في جملة من بايعوه من
الناس فوشى بهم الى النعائشي أحد خصميين المهدي المسمى « شكر الله » ثم
ذهب أولئك الامراء وأخبروا النعائشي بانهم ما فعلوا ذلك الا ليقفوا على سر
المسألة كي يوقفوه عليه فشكرهم وأظهر لهم عظيم الميل والانمطاف وبعد
حبس الخليفة شريف بأيام دعاهم الي مجلسه وأخبرهم ان رباط كسله ذو أهمية
لا تخفي وان الايطالين يطعمون في التقدم الى كسله وان أميرها مساعد
قيدوم البقاري ضعيف الرأي وانه ينوي انفاذهم الى كسله ليقوموا بحفظ
الرباط فشكروه وانصرفوا بعد ان تعهدوا له بأن يجهزوا أنفسهم ومقاتلتهم
من ملهم الخاص

وبعد أيام غادروا أم درمان وخرج النعائشي لوداعهم وساروا الى قرية
(رفاعة) التي تبعد عن الخرطوم بست مراحل في النيل الازرق ليضموا
اليهم المتفرقين من مقاتلتهم في قري الجزيرة وأقاموا فيها نحو شهر وبدلا من
أن يجمعوا الرجال ويسيروا الي وجهتهم ضربوا على كل مقاتل ضربة يقدمها
كفدية ليتركوه فجمعوا من ذلك أموالا طائلة والنعائشي يكتب لهم في كل
يوم يحثهم على مغادرة رفاعة واللاحق بكسله وهم يقدمون له الاعذار في كل
مرة وفي ذات يوم أرسل لهم مندوبين قبضوا عليهم في رفاعة ونهبوا أمتعتهم
وما جمعوه من ضريبة الكفدية وجيء بهم الي أم درمان يرسفون في القيود
والاغلال ونهبت دورهم التي بأم درمان

ولما أدخلوا السجن ناداهم الخليفة شريف قائلا « ان خيانتكم لم
تدفع عنكم مكروها » ومكثوا في السجن نحو شهر ثم نفوا الي خط الاستواء

وقد رأيتهم وقت خروجهم من السجن يحيط بهم الحراس والاضلال في
 أعناقهم والقيود في أرجلهم فكان الحراس يحملون الواحد كما يحمل المتاع ويرمونهم
 في عنبر السفينة كما ترمي الامتعة وهكذا ساروا الى خط الاستواء وكان
 ذلك في أواخر سنة ١٣٠٩ هجرية

ذكر نفي الأمير أبي قرجة

ختمت سنة ١٣٠٩ وحوادث السودان فيها تحاكي ما جري على الخليفة
 شريف وحزبه وأقارب المهدي ودخلت سنة ١٣١٠ ولم يبق من الأمراء أو
 أصحاب المقامات من الذين تجتمعهم مع الخليفة شريف جامعة التحزب أو
 الجنسية غير أبي قرجة الذي تقدم لنا كلام كثير عنه حيث هو من أكبر أمراء
 المهدي الذين حاصروا الخرطوم وولى القيادة العامة على جيش السودان الشرقي
 بدل عثمان دقنه كما مر ذلك

ولما عزل أبو قرجه عن بربر أعيد الى السودان الشرقي ولما نار الخليفة
 شريف كان هو غائبا لم يحضر تلك الحوادث فاستدعاء التعايشي في أوائل سنة
 ١٣١٠ وأظهر له رغبته في توليته الامارة العامة على خط الاستواء لسابق
 خبرته بتلك الانحاء فجمع نحو ثلاثمائة مقاتل سافر بهم الى خط الاستواء
 على احدى البواخر وسافر معه قائد من قواد البقارة يحمل كتابا من التعايشي
 فخواه القبض على أبي قرجة ومن معه وزجهم في السجن حينما يلفون خط
 الاستواء ودفع التعايشي الى أبي قرجة أمرا مضمونه انه أمير عام على سائر انحاء
 خط الاستواء

والحاصل ان أبا قرجة سافر من أم درمان أميراً على خط الاستواء ولكنه

كان موقنا بأنه ساع الى حتفه بظلمه لانه كان ذا ذكاء وعقل
ولما وصل خط الاستواء أودع السجن هو ومن معه وقد بلغنا ونحن نهيء
هذا الكتاب للطبع انه قد فر من سجن خط الاستواء ولحق باحد
معسكرات بلجيكا التي في جهات بحر الزل ثم لحق بمملكة « برقو » فكرم
وفادته سلطاتها وانزله على الرحب والسعة لكنه لم يسمح له بالعودة الى بلاده
على ما لوف عادة اهل تلك البلاد خشية ان يكون رائداً يجوس خلال الديار
هذا وان أبا قرجة وان كان عاملاً مهماً من عمال دعوة المهديية لكنه كان أقلمهم
شراً وأكثرهم خيراً واقربهم الى العدل والاحسان
وانني بسبب ما ذكرته عنه واحسانه الي في يوم كنت أساق فيه للاثوث
لايسمى الا ان اتمني له نوال الخير في غربته والخالص من رتبة أسرته

عود الى ذكر بيت المال

ذكرنا آنفاً ما كان من صلب ابراهيم عدلان أمين بيت المال السابق
وتولية النور الجريفاوي بدله
وقد كان النور هذا ذا ثروة عظيمة جمعها مما نهبه من تجار المصريين
في بربر كما صر ذلك وقد تناول سبعة عشرة ألف ريال من الحكومة ليشتري
بها غلال فاعتادها وفر بها ولحق بالمهديين وبعد ان مضى عليه عامان في
بيت المال زادت في خلالها ثروته زيادة عظيمة أخذ يفكر في وسيلة يتمكن
بها من ترك وظيفة امانة بيت المال ليتاح له الانزواء بعيداً عن نظر التعاشي
الذي كان يطمح الى ثروته فتظاهر في أواخر سنة ١٣٠٩ بالجنون على أثر وقوعه
من جواده وأخذ يخلط في الكلام بمحضرة التعاشي

وقد روى لي ثقة ان النور هذا كان سائراً من المسجد الى منزله في ليلة
 حالكة الظلام منفرداً وكان الراوي متأثره وهو لا يراه فسمعه يحدث نفسه
 ويقول « أحلف بالطلاق ان التعايشي سيصلبني كما صلب ابراهيم عدلان
 ليحصل على ثروتي والاجدر بي ان أسلمه هذه الثروة واحفظ حياتي لانفرد
 بنفسى واحترف بادنى حرفة يتعيش منها اطفالي » ثم يعود فيقول « كلا اذا
 دفعت له أموالى فانه يظن اننى خبأت معظمها ولم أظهر له غير جزء يسير
 منها واذا ذاك تحرك اطماعه ويعذبني لاسلامه الباقى ولاشك فى اننى أموت
 بسبب العذاب وحينئذ اكون قد جنيت على نفسى » ثم يقول « أحلف
 بالطلاق الثلاث ان المسألة موقدة لا يقدر أحد على حلها والاولى بي أن أظاهر
 بالجنون والله تعالى يفعل بي ما يريد »

ثم انه أظاهر بالجنون مدة حتى بداله أن يتضرع الى التعايشي ليقبله من
 أمانة بيت المال فأجابته التعايشي الى ذلك على شرط ان يجزىء اختصاص بيت المال
 الى ثلاثة اجزاء احدها أمين بيت مال يختص بمعامل الذخيرة (الورش
 الحربية) والثاني يختص بمال النبيء الذي نزع التعايشي انه خاص به والثالث
 هو بيت المال العام وأن يكون النور الجريفاوى اميناً لبيت المال الاول وان
 يكون محمد بشير كرار العبادي قائد دابة التعايشي اميناً للثاني وأن يكون العوض
 المرضى اميناً للثالث

وعلى ذلك صار اختصاص أمانة بيت مال (الورش الحربية) منوطاً بالنور
 الجريفاوى وعليه ان يتفق مع التجار الذين يفدون الى الديار المصرية ليجلبوا
 المقاقير اللازمة لتلك المعامل ويهربونها حتى لا تظفر بها الحكومة وللهذه
 المسألة كلام خاص بها سنورده فى غير هذا المحل

أما اختصاص بيت مال الفيء فهو عبارة عن جميع موارد الإيرادات المهمة وذلك مثل خمس سلع التجار المصريين وعشر بضائع التجار السودانيين وخمس واردات بلاد الحبشة وغيرها من البلاد الأجنبية وعشر الصادرات التي تخرج من البلاد السودانية إلى البلاد الخارجية كالصمغ والماج وريش النعام وكذلك عشر واردات التجارة التي ترد على أم درمان من داخلية السودان وأهمها الحبوب والملح والباح والخوص الذي يصنع منه الحصر المسماة (إبراش) وكذلك إيراد السنن الشرعية التي تنقل الحاصلات من جميع الجهات التي اغتصبها التمايشي كلها وجعلها ملكاً له وكذلك عوائد التزام (التمدية) في جميع الجهات وكل هذه الإيرادات مضبوطة بدفاتر وحسابات جارية لا يصرف منها فلس واحد في غير لوازم التمايشي على يد رئيس خصيانه (عبد القيوم)

وأما اختصاص بيت المال الثالث فإنه قاصر على الإيرادات التي تجلب بواسطة الجباة التي تقدم لنا الكلام عنهم وله اختصاص آخر هو مصادرة أموال الأغنياء وطلب القروض المالية من التجار حيث لا ترد لهم أبداً ومن امتنع صودر ماله كله وتنفق هذه الإيرادات على أقارب التمايشي فقط والحاصل أن التمايشي استأثر بجميع إيرادات البلاد حتى أصبحت في نهاية الفقر المدقع وأخذ يتفنن في أساليب زيادة الخراج ومضاعفة المكوس التي صارت التجارة معها كاسدة لا تربح شيئاً وبالجملة فإن الحالة كانت تنتقل من سيء إلى أسوأ ويبد الله كل شيء



ذكر سورام درمان

قبل الكلام على السورناتي بتمهيد في تخطيط مدينة أم درمان ومواقع
احيائها ليكون القاريء على بينة من ذلك فنقول

من الاصطلاحات التي جرى عليها المهديون أن يسموا كل جهة سكن
فيها للمهدي باسم (البقعة) وقد يضاف هذا الاسم الي اسم المدينة الاصلية
أو الجهة التي سكنها المهدي فيقال (بقعة الابيض) مثلاً لان المهدي كان
ساكناً فيها أو (بقعة الرهد) وهو منهل جنوب الابيض لانه كان نازلاً فيه
كما تقدم لنا ذكر ذلك

ولما زحف المهدي على الخرطوم كان أول معسكر اتخذه في جنوب أم
درمان على بعد عشرين ميلاً عند مكان اسمه (الفتيح) بعيداً عن شاطئ
النهر اتقاء لمقذوفات البواخر التي كانت تحاربه في الخرطوم ولم يجسر على الدنو
من شاطئ النهر الا بعد سقوط الخرطوم في قبضته

وقد أشرنا فيما تقدم أنه عقد مجلساً للمداولة في أمر سكنائه فلم يوافق على
ذلك الامراء لانهم قالوا ان نقطة أم درمان يمكن أن تغادرها بسهولة الي
کردفان اذا حدث ما يضطرنا الي التقهقر فنزل المهدي بها واختط المسجد
وداره بعيداً عن ضفة النهر بنحو ميل واحد ونزل التعايشي جنوب بيت
المهدي بنحو مائة متر في الجنوب الشرقي للمسجد حذاء منزل المهدي المقابل
لنقطة الوسط من قبلة المسجد وكان بين منزل التعايشي ومنزل المهدي ميدان
فسيح ونزل الاعراب والبقارة الذين أصلهم من جهات كردفان ودارفور
وهم التابعون لرايات التعايشي جنوب منزله وامتدت مساكنهم الي الجنوب

الغربي والجنوب الشرقي الي قرب المعسكر الذي كانت به جنود الحكومة
وهو (خندق أم درمان) ويبعد عن المسجد جهة الجنوب ببضعة أميال
وقد اتخذ هذا الخندق معسكراً للجهادية الذين يقيمون بأم درمان
وسمى معسكراً أبي عنجه

ونزل جماعة من المصريين الذين كانوا بكردفان شمال هذا المعسكر
عند نقطة (الموارد) وأمير هؤلاء المصريين هو حسن حسين الذي تقدم
لنا الكلام عنه

ونزل يوسف منصور رئيس الطوبجية ومن معه من المصريين شمال
معسكر أبي عنجه

ونزل الخليفة على حلو في الشمال الشرقي من منزل المهدي ونزل أتباعه
(دغيم وكنانة) في الشمال الغربي من المسجد ممابلي السوق الذي نزل فيه
جماعة من التجار وجلههم من اليونانيين واليهود والسوريين وأطلق على حيههم
اسم (حارة المسلمين) ونزل الخليفة شريف شرقي منزل المهدي ونزل
أقارب المهدي وسائر أتباع الخليفة شريف الذين جلهم من أهالي السودان
الاولسط في الجهة الشرقية من منزله وامتدوا الي الشمال حتى اتصلت
منازلهم بضفة النهر وحد المدينة يومئذ يقف في جهة الشمال عند معسكر
ابن النجومي الواقع في شمال المسجد بنحو ميلين فقط ولما أمر التعميشي
بتخريب مدن الجزيرة في سنة ١٣٠٤ وحشد سكانها في أم درمان نزل سكانها في
الجهة الشمالية لمعسكر ابن النجومي وصاروا يسمون أحياءهم بأسماء بلادهم الاصلية
فيقال (حي المسلمية) و (حي رفاة) وغيرهما من بلاد الجزيرة حتى وصل امتداد
حدود المدينة الي جهة (خورشبات) التي تبعد عن المسجد بستة أميال

وعقب افضاء الخلافة للتعايشي وسع منزله حتى ادخل فيه الميـدان
الذي كان بين منزله ومنزل المهدي
ولما نار الخليفة شريف وأقاربه وصارت مقذوفات جماعة الخليفة
شريف تقع في وسط دار التعايشي خاف التعايشي عاقبة اختلاط المنازل
فامر باخراج جميع اقارب المهدي واتباع الخليفة شريف من منازلهم التي
هدم جلها وأسكن أقاربه البقارة فيما بقي منها ليكون منزله محاطا من جميع
الجهات بمن يأمنهم على حياته

وأسكن من أخرجوا من منازلهم في الجهة الواقعة شمال معسكر ابن
النجومي الذي صار لا يسكن جنوبه غير البقارة وقد قاسى الناس أهوالا
شديدة من جراء اخراجهم من منازلهم وصاروا في حالة تفتت الكبد اذ
صاروا بينما يكونون في منازلهم يدخل عليهم البقارة فيأمر ونهم بالخروج
منها بغير ان يتمكنوا من حمل امتعتهم التي يأخذ البقارة جلها فيخرجون
وليس عليهم غير ثيابهم وما خف حمله من تافه متاعهم فيتضون على هذه
الحالة النعيسة زمناً لا يستطيعون في خلاله تشييد مساكن الا ان كانوا من أولى
اليسار وقليل ما هم وظل الفقراء في هذا الشقاء حيناً وقد كان نصيب من
هذه اللصية عظيماً وسيأتي تفصيله بعد حيث اخرج المعريون الساكنون
بالقرب من معسكر أبي عنجه من منازلهم وكنت أنا من جملتهم
على أن بناء سور أم درمان يدل على ماخامر التعايشي من الخوف على
حياته من ثورة الخليفة شريف

وفي ذات يوم رقى التعايشي منبر الخطابة وقال ان النبي صلى الله عليه وسلم
أمره باخراج من أخرجهم من منازلهم وأمره ببناء سور من الاحجار يتدىء

من ضفة النهر حتى يبلغ منزله ثم يتجه الى الشمال حيث يصير شرقي المسجد
وغربي منزله ثم ينتهي الى ضفة النهر أيضا وانه صلى الله عليه وسلم أمره أن
لا يأذن في السكنى داخل هذا السور لغير البقارة والجمادية ووضع أساس السور
وجعل عرضه أربعة أمتار ووزع حصصاً على القبائل ومن جملة المصريين
الذين كإمر الكلام كنت أحد أمرائهم فكانوا ذهب الى شاطئ النهر فنسخرج
منه الحجارة ونحلمها الى محل العمل ومكثنا على هذه الحالة نحو سنتين ثم في
خلالها تشييد السور بسخرة الناس وبلغ ارتفاعه فوق خمسة أمتار

ذكر قدوم الزاكي طمل من فشودة الى أم درمان

لما فرغ الزاكي طمل من قتال الشلك وأخضعهم لسلطة المهديوية حيث
قتل ملكهم (عمر) الذي قيل عنه أنفا انه مولى من قبل المهدي وحمل رأسه
الى التمايشي الذي أمره بمهادنة الشلك وإبرام معاهدة معهم وتولية ملك
عليهم يكون من اعداء عائلة الملك السابق فأقام رجلاً من أطراف الشعب
سماه (عبد الفضيل) ملكاً عليهم غادر فشوده بجيشه قاصداً أم درمان وذلك
في أوائل سنة ١٣١٠

ولما بلغ أم درمان استقبله التمايشي بالخفاوة والاكرام وقدم له الاغذية
ثم قدم الزاكي للتمايشي مقداراً عظيماً من المال الذي غنمه من الشلك وكثيراً
من الماشية وأمره بأخذ الالهبة والاستعداد لمغادرة أم درمان الى بلدة
أبو حرز

الزراكي في ابو حراز

أبو حراز قرية في الضفة الشرقية للنيل الازرق تبعد عن أم درمان مسيرة سبع مراحل وهي مفتاح الطريق الموصل الي القضارف عن طريق الصحراء المسماة (عقبة العذنبلية) وهي موطن لقبيلة صغيرة اسمها (المركيين) ومن هذه القبيلة نبع رجال في القرون الماضية اشتهروا بالصلاح وحازوا منزلة عالية في مشيخة الطريقة القادرية وأشهر هؤلاء النابغين (الشيخ الطريفي) وكان معاصراً على ما رووه للشيخ تاج الدين الفاكهاني من مشاهير رجال الطريقة القادرية ببنداد وقد صحبه الشيخ الطريفي وأقام معه في بنداد زهاء عشرين عاماً عاد الى قرية أبو حراز وانتشر نفوذه الديني في سائر أنحاء السودان حتى اكرمه ملوك السودان واقطعوه الاراضي الواسعة وخلق له عدد كبير من أولاده كانوا على قدمه في الشهرة واعتقاد الناس وماتوا كلهم ولهم قبور شيدت عليها قباب

ومن نسلهم الشيخ حمد النيل العربي وكان ذا نفوذ كبير في السودان وكتب له المهدي كتاباً تقدم لنا ايراده يتوعده هو وعوض الكريم بن أبي سن زعيم قبائل الشكرية لانهما ساعدا الحكومة على قتل داعيته الشريف احمد طه الذي تقدم ذكر قتله

ولما ولي النعاشي بعد المهدي صادراً أموال الشيخ حمد النيل وقتله صبراً في سجن أم درمان

ولنعد الى ذكر الزاكي طملاً فنقول انه لما وصل الى أبو حراز - كرهها وأباحها لجنوده فأرهبوا سكانها سلباً ونهباً وأمر بقباب المشايخ فهدمت وشاد بانقاضها

داراً لسكناء وأطلق العنان لمقاتلته فانتشروا في مدن الجزيرة كلها ونهبوا أموال
الاهالي وحملوهم من المظالم والمغارم ما تنوء بحمله الجبال حتي كان آخر سنة ١٣١٠
أصدر التعايشي أمره الى الزاكي طمل بمغادرة أبو حراز واللاحاق بالقضارف وهي
البلاد التي ذكرنا فيما مضى أنه خربها وحمل أموالها الى التعايشي ثم من القضارف الى
كسله التي اتخذها معسكراً له بقصد شن الغارة على حدود الايطاليين في مصوع

علائق التعايشي ومنليك

يدل نتبع الحوادث التي جرت بين المهديين والاحباش على أن منليك
نجاشي الحبشة الذي خلف النجاشي يوحنا الذي مات قتيلاً بيد الدراويش
في واقعة القلابات التي مر الكلام عليها وعلى ما تقدمها من حروب الدراويش
والاحباش على هزيمة هؤلاء وظهور الاولين

وأول هاته الأدلة أن الاحباش لما انهزموا من القلابات وقتل ملكهم
يوحنا كان المنتظر أن يعيدوا الكرة لاخذ الثار وجلاء المار فلم يفعلوا
وعلم من ذلك أن منليك الذي خلف يوحنا أيقن أن مصلحة مملكته تقضى
بالكف عن مناوأة الدراويش لينفرغ لصد الفاتحين من الايطاليين الذين اغاروا
على الحبشة من جهة مصوع وانتقصوا المملكة من أطرافها وهم طامعون في
الاستيلاء عليها والقضاء على استقلالها

وقد أشرنا فيما تقدم الى أن سبب الحرب بين المهديين والاحباش أن
النجاشي يوحنا خاف من انتشار دعوة المهدي بين مسلمي الاحباش فشرع
في اضطهادهم واجبارهم على اعتناق النصرانية ديناً فساء عمله اقبال الحبشة
واستهجنوه وخافوا تفرق كلمة الاحباش الذي لا محمد عاقبته وكان منليك

قيل (التيقره) وقتئذ أول مستهجن لهذه السياسة الخرقاء وقد نصح النجاشي بالعدول عنها فلم يلتفت لنصائحه

ولما قتل يوحنا النجاشي السابق وخلفه منليك أعاد الحرية الدينية الى حالتها الاولى ومن ثم اُزمت جنود الحبشة حدودها وامتنعت من الاعتداء على تخوم الدراويش وبعد سنة سحب التعاشي جيشه من القلابات كما تقدم ولم يترك لحراستها اكثر من ألف مقاتل

وقد ذكرنا أنه وجه جيش القلابات لاختراع اشلك في فشوده ثم وجهه الى القصارف ومنها الى كسله لمهاجمة تخوم الايطاليين من جهة مصوع وكان هذا الاستعداد في وقت كان الايطاليون يستعدون فيه للوثة على الاحباش في (الاريتره) مما يدل على أن تقدم الزاكي الى كسله متفق عليه بن التعاشي ومنليك وسيجيء أن التعاشي لما أحس بدنو الحملة الانكازية المصرية من أم درمان أنفذ سفيرا يستصرخ منليك لمعاونته

ولا مندوحة لنا عن الاشارة هنا الى أن الايطاليين كانوا حلفاء للدراويش على الحبشة وقد تمت هذه المحالفة بمعاوضة بعض رؤساء الحبشة الذين كانوا على رأي البعض معاضدين لانكائرا التي كانت ترمي بهذا الغرض لاشغال المهديين بمحاربة الحبشة عند حدود مصر حيث تجني انكائرا وايطاليا من وراء تلك الحروب أضعاف ما يجني الدراويش والاحباش معاً لتقضي ايطاليا لبانها من هؤلاء وتدرك انكائرا غايتها من أولئك

على أن ذلك كله مأخوذ من قرائن الاحوال ومن روايات بعض الذين لهم اطلاع على سياسة التعاشي الذي لم يصرح بشيء من أمر المحالفتين مما يدل على أنهما سريتان والحاصل أن منليك أفصح في سياسته التي نهجها اذ جني

من عاقبتها اراحة المباشرة من حرب دينية كحرب الدراويش ومن جهة أخرى انه تمكن من اشغال قسم من حامية ايطاليا بدفع الدراويش عن حدود بلادهم ثم كان من وراء ذلك انتصاره الباهر في واقعة (الاريتره) التي لا يجملها القراء وهو ما يجعلنا في غنى عن التصدي لبرادها وتدوين تفاصيلها

ذكر سجن الزاكي طمل وقتله بام درمان

الزاكي طمل هو الذي خلف القائد أبا عنججه في قيادة جيش القلابات كما بسطنا ذلك في مكانه وفي بداية ولايته انهزمت جيوش الحبشة في القلابات وقتل النجاشي يوحنا ثم وجهه التعاشي لاختضاع الشك في فشوده فقتل زعيمها عمر وأتى فيها ما سبقت الاشارة اليه وأهله من قبيلة اسمها (البنضله) وهي التي منها أبو عنججه سلفه وهي قبيلة من العبيد المتوحشين في جنوب دارفور تسكن قبيلة (التعايشة) وقد تقدم تعريفها بأوفى من هذا فلا حاجة لتكراره هنا وكان الزاكي هذا في بداية أمره جنديا مع النخاسين الذين يعيشون الفساد في بلاد العبيدوم المعروفون باسم (البحارة) وفي أيام المهديوة صار قائداً من قواد جيش أبي عنججه حتى صار وكيله

ولما خلف أبا عنججه في الامارة خلفه في كثير من أحواله وصار فظاً غليظاً يسفك الدماء ويقتل مرؤسيه لاقل هفوة وأخذ يتظاهر بالانغماس في الترف وشاد اسكناه القصور في القلابات حتى أنه شاد قصرأ زوج فيه ابنه وشرع في نقشه وزخرفته بصفار بيض الدجاج وفرض على الاهالي تقديم البيض ومن تأخر عن الميعاد المضروب له عاقبه عقابا صار ما فارتفع ثمن البيضة الواحدة الي بضعة قروش ورحل الناس من القصارف على ظهور الهجن الي

بلاد الجزيرة جلب البيض حتى تم النقش والتبييض
ولما اتصل بالتمايشي خبر هذا القصر أرسل الى الزاكي يأمره بهدمه فهدم
الدور الاعلى وترك الدور الاسفل وكان قد جلب له البنائين والنجارين من
الخرطوم وكلهم مصريون
وبعد هدم القصر أمر التمايشي الزاكي بمغادرة القضايف والحق بكسله
لاخذ الاهبة للغارة على الايطاليين فغادر القضايف وعسكر في كسله
وكان الزاكي في جميع احوال ولايته حكاهم مطلق يفعل كل ما يراه واذا
قدم أم درمان يستقبل بالخفاوة والاكرام ويخرج أنى سار في موكب يحيط به
خمسون حارسا مسلحون وكان بما احرزته من الانتصارات على الاحباش والشك
وما كان يقدمه للتمايشي من الاموال الطائلة يرى نفسه ذامنة على
التمايشي حتى أخذ يتفوه في حديثه بانه قادر على سلب الملك من يد التمايشي
ولولا انه لم تقم له قائمة فسمى به الى التمايشي وبعد وصوله القضايف نظمت فيه
السماية وارتاب التمايشي في أمره ونمي اليه انه طامح للاستقلال فارسل
اليه يستقدمه فقدم عليه وخرج للقائه وبالغ في الاحتفاء به حتى انه تنازل
الى معانته وهي خفاوة لم يسبق من التمايشي مثلها وبعد بضعة أيام اجتمع في
منزل يعقوب جماعة من مشيريه أحدهم القاضى أحمد بن على وانفقوا على
طريقة القبض على الزاكي فاستدعوه من منزله وجلس يعقوب داخل ثلاثة
أبواب فلما دخل الزاكي الباب الاول حجبوا عنه الحراس فدخل بالاحراس
ثم قابله القاضى أحمد وجلس معه داخل الباب الثانى ثم فارقه حيث ولج الباب
الثالث الذى فى داخله يعقوب فجاء اليه جماعة بصفة رجال من حراس يعقوب وجثوا
على ركبهم امام الزاكي ومد أحدهم يديه مسلما عليه فدفع له يده ليقبلها فأسكها

ووثب الآخرون وأمسكوا سيفه ثم صرعوه وغلوا يديه فأخذ يصبح مستغيثا
 يعقوب الذي أمر بإرساله إلى السجن فوضعهوا في رجلية عشرة قيود
 وجزيرا كبيرا ومكث ثلاث ليال مع سائر المسجونين ثم عزل إلى غرفة في
 السجن تسمى (غرفة الأعداء) فأجلسوه في وسطها وشبحوه بالأغلال
 حتى كان لا يتمكن من التزحزح عن مقعده يمنة أو يسرة وربطوا الكمام ملابسه
 وصار اثنان من السجنائين يذهبان إلى الخربات ويلتقطان المقارب ويدخلانها
 داخل ملابسه وقد منع عنه الغذاء والماء فكث أربع ليال يصبح صياحا يفتت
 الجمادات حتى ضعفت قوته ومات في منتصف الليلة الخامسة وحملت
 جثته وألقيت خارج البلد غذاء للطيور والكلاب وعين أحمد علي التعايشي
 قائدا للجيش بدله ولحق بكسلا بعد أن تلقى أوامر التعايشي بالهجوم على
 الإيطاليين وسيأتي ذكر هزيمة الدراويش من وجه الإيطاليين

ذكر قتل صالح حسين خليفه

تقدم لنا إيراد شيء عن قبيلة (العبادة) والمناظرات الشديدة التي بين
 (المشاباب) و(المليكاب) وقد أوردنا أن المشاباب نالوا إرهابهم من المليكاب
 في دولة التعايشي وتمكنوا من الإيقاع بحسن أبي خليفه الذي كان معسكرا
 في نقطة آبار (المرات) بجيش من قبل التعايشي
 ولما قبض التعايشي على حسن أبي خليفه ونفاه إلى خط الاستواء كما مر
 ذلك احتل ابن عمه صالح بن حسين خليفه تلك النقطة برجال من قبيلته
 (المليكاب) الذين كانت الحكومة المصرية تدفع لكل رجل منهم رواتب
 من جنيه لاثنتين فاخذوا يغيرون على حدود المهديين وقد ذكرنا فيما مضى

إغارته على (أبو حمد) وقتلهم ابن نعمان قاتل الكولونل ستيوارت قبل
سقوط الخرطوم

وفي أوائل سنة ١٣١٠ هجرت شردمة بن الدراويش على ضابط انكليزي
برتبة بكباشي وآخرين في جهة وادي حلفا وقتلوهم غرة وحملوا رؤسهم الى التعايشي
وقعد صالح خليفة ومن معه بالسبل وقبضوا على كثير من جواسيس
المهدوية الذين هم من مناظرهم (العشاباب) ومن بينهم رجل اسمه كرار
ابن بشير كرار رئيس حملة بريد التعايشي وأسلموه للحكومة فأودعته
سجن اسوان ولم تطلقه الا بعد ان كلمها في شأنه بشير ابو جبران شيخ قبيلة
العشاباب فعاد الرجل الى أم درمان وأخبر التعايشي بما يقاسيه جواسيسه من
تضييق صالح خليفة عليهم وقطعه السبل عليهم فسأله التعايشي عن عدد المقاتلة
الذين معه فأجابهم بأنهم لا يتجاوزون المائتين فأرسل التعايشي الى يونس الديكيم
أمير دنقلة يأمره بانفاذ خمسمائة راكب من (المرات) تحت قيادة عثمان ازرق
للهجوم على صالح خليفة فانفذهم وفي صباح بعض الايام هجموا عليه ونشبت
الحرب بينهم فقتل صالح خليفة وحملت أسلابه الى التعايشي الذي خطب
في الناس بأن الله تعالى قد أهلك صالح بن خليفة ومنتقله بيد أنصار المهدوية
شرقتة

ذ كر واقعة (غوردت) بين الايطاليين والمهديين

لما وصل أحمد على الذي خلف الزاكي طمل في القيادة الى كسله سار
بجيشه وكان نحو عشرين الف مقاتل واغار على حدود الايطاليين وأنخن
في القبائل الموالية للحكومة الايطالية واستولى على أحد الحصون وفر من

وجبه الايطاليون خدعة ثم كروا عليه وهاجموه على غرة فسقط أكثر من
 اثني عشر الف قتيل من الدراويش وقتل أحمد علي ومن معه من القواد
 ولم ينج غير النوراء مرة أحد القواد ومعه نحو ستة آلاف مقاتل ولو امدعور بن
 حتي وصلوا الى كسله وأرسلوا يخبرون التعاشي بأمر الهزيمة التي ساء وقعها
 عنده وجزع جزعا شديدا حيث لم يبق عنده جيش يعول عليه غير جيش
 محمود الذي هزم في واقعة ابره

ذكر احتلال الايطاليين كسله

ذكرنا ما كان من أمر كسله وسقوطها في قبضة المهديين الذين التفت
 القبائل حولهم في بادي الأمر عندما القبائل التي كانت قاطنة بالرب من
 نعر مصوع فانها بقيت على ولاء الحكومة حتي احتل الايطاليون نعر مصوع
 وأشهراته القبائل قبيلتنا (بنى عامر والهباب)
 وكانت كسلة تابعة لامارة عثمان دقنة الذي لم يمض على سقوط للمدينة
 في قبضته الا عام واحد نفرت في خلاله القبائل عنه واشتدت وطأته عليهم
 فلجأ جلها الى ارباض مصوع واحتموا بالايطاليين
 وكان الحاكم على كسله من قبل عثمان دقنة محمد بن علي دقنة وهو ابن
 اخي عثمان دقنة وفي أيامه نارت قبيلة الهدندوه عليه لانه سجن زعيمها
 وهجمت على السجن وأطلقت من اعتقاله
 وعقب ذلك ولي التعاشي اباقرجة وعزل عثمان دقنة عن منصب الامارة
 كما مر ثم عزل اباقرجه أيضا وفصل حكومة كسله عن إمارة السودان
 الشرقي وولى عليها حامد بن علي احد أقاربه البقارة فعمها الظلم والدمار

وهلكت قبيلة الهدندوه التي كان عدد نفوسها ثربو على مليون نسمة كما هلك غيرها
من القبائل التي لا يقل مجموع نفوسها عن مليوني نسمة وحمل حامد بن
على القناطير الممنطرة من الذهب والفضة الى التعاشي وأخيه يعقوب

وفي سنة ١٣٠٩ عزل التعاشي حامد بن علي وولي عليها مساعد بن
قيدوم الذي كان في دنقلة مع ابن النجومي وقد ذكرنا بعض أخباره ضمن
حوادثها التي تقدم إيرادها

ثم تلا ذلك الواقعة التي قتل فيها أحمد بن علي وهلك معه اثنا عشر
ألفاً من الدراويش

وكان مع مساعد في حامية كسله عبد الرحمن بن بان النقا الذي كان مع
الجنرال هيكس وقد ذكرنا بعض أخباره هناك وأنه أصابته ضربة سيف
فقتت عينه فأخبر عبد الرحمن هذا مساعد بأن الإيطاليين اقتربوا من المدينة فهزأ
بقوله ولم يأخذ لنفسه حيلة حتى ارتفعت الشمس فاذا الإيطاليون زاحفون
على المدينة بانتظام حيث كانت القوة مشككة من قلب وجناحين فاندعر
مساعد ومن معه من الدراويش وأسرعوا بالفرار وتركوا نساءهم في المعسكر
الذي دخله الإيطاليون ووضعوا السيف في رقاب من فيه وأحرقوا الأكواخ
بالبترول والنار

وتخلف عن الدراويش كثير من أسري المصريين وكذلك تخلف في
المعسكر عبد الرحمن بن بان النقا الآنف الذكر فاصابته رصاصة أودت
بحياته ويقال أنه كان يرسل الإيطاليين ويظلمهم على عورات الدراويش
هذا ما كان من أمر الإيطاليين أما مساعد ومن معه من المارين
فأنهم لحقوا بمكان اسمه (اصوري) في الضفة الاخرى من نهر اتره وعلى

بعد نحو ست مراحل من كسله وهناك أرسلوا يبلغون التعايشي الذي كاد
يفقد صوابه لشدة الفزع ماجرى فأرسل إلى بان النقا والد عبد الرحمن يخبره
أن ابنه مات كافراً لأن مساعدا لم يجد عذراً يعتذر به عند التعايشي غير أخباره
بان عبد الرحمن كان بطلع العدو على عورات المعسكر ويرفع إليه أخباره
وأخيراً قدم مساعداً إلى أم درمان فتقبل من البقارة والتعايشي بالازدراء والاحتقار
لفراره من وجه العدو ولكن التعايشي أصدر منشوراً قال فيه إن المهدي
أخبره بأمر هذه الواقعة وإن مساعداً شجاع وليس جباناً ونهى الناس عن
تحقيره وتعميره

وقد استولى الخوف والرعب على قلب التعايشي وخاف تقدم الإيطاليين
إلى جهات القصارف فأمر بأقامة معسكر في جهة (اصوبري) على ضفة
نهر اتبره

ذكر معسكر اصوبري وأخبار حامد علي وأحمد فضيل

(اصوبري) اسم لمكان على نهر اتبره لم يكن حوله عمران ولا بلاد
وغاية الأمر أنه علم على جهة صحراء (دبره) التي كانت قبيلة الشكرية البائدة
ضاربة أطناها في أرجائها وهي صحراء واقعة بين النيل الأزرق ونهر اتبره
ولما خلت الصحراء من أعراب الشكرية باتت اصوبري وغيرها قفراً
بلقما ليس فيها دار ولا ديار غير وخوش الفلاة وحيوانات القفار
ولما انهزم الدراويش وأجلوا عن كسله لحق الفاروق بجمعة اصوبري
حيث اجتازوا النهر وصاروا آمنين غارة الإيطاليين الذين كانت طلائعهم تصل
إلى الضفة الشرقية من نهر اتبره الذي صار حداً فاصلاً بين الفشتين

وبعد ان جاءت اخبار الايطاليين الى أم درمان بايام جمع التعايشي رؤساء
 قبيلتي (الجعليين) والدنقلين وجلهم من التجار وأولى اليسار وخاطبهم في
 المسجد « قائلًا انكم انصار الدين واصحاب المهدي الاقدمون وقد توفي المهدي
 وهو عنكم راض وقد علمتم امر الايطاليين وأنهم قد أخذوا كسله منا ونحن
 نود منكم ان تكفونا ما اهمنا من أمرهم وقد جعلت لكم ميزة على غيركم
 وذلك اني تركت لسكم الخيار في من ترضونه أن يكون قائداً عاماً عليكم
 وانكم لا تجهلون ما فيه بيت المال من العسر وأتم بحمد الله موسرون فعليكم
 أيضاً أن تقوموا بنفقة سفركم من خاصة أموالكم » وأعقب ذلك بكلام طويل
 في مدح المجاهدين بأموالهم وأنفسهم واستشهد بالآيات الشريفة الآمرة والمادحة
 للمجاهدين بأموالهم وأنفسهم فقام جماعة منهم وقالوا لا نرى أهلاً لهذا المنصب
 غير حامد بن علي الذي كان أميراً على كسله وهو أخو أحمد بن علي الذي
 مات قتيلًا في واقعة ابره فاندھشنا من كلام هؤلاء الذين لم يروا أهلاً
 للرئاسة عليهم غير بقاري ولكننا ما لبثنا أن علمنا انهم موعز اليهم بهذا
 الاختيار لانه لا يمكن أن يولي الرئاسة في دولة التعايشي غير البقارة .
 فاستدعي حامد بن علي وصدر نطق التعايشي الذي كانوا يسمونه ابان دولته
 باسم (النطق الشريف) كما كانوا يسمون بابه باسم (الباب العالي) بتعيين حامد
 علي قائداً على الجعليين والدنقلين ومرابطاً في معسكر أصوبري

هذا وقد كنا نظن أن التعايشي يروم أن يرمي الايطاليين من هذا الجيش العرمرم
 بما لا قبل لهم به ولم يكن يدور في خلدنا أن غايته الاستفادة من ثروة الجعليين
 والدنقلين وجلهم كما قلنا من التجار وأولى اليسار فقد أصدر أمراً يخواه
 التفويض لحامد بن علي في إشخاص من يري إشخاصه وترك من يري تركه

من الرؤساء والمرؤسين من الاجناد والمقاتلة فاقبل الناس الى داره يقدمون له
الرشا على تركهم فكانت الرشوة عن كل شخص خمسمائة ريال فصاعدا
كل بحسب ثروته وما يملكه من المال فاغتنم حامد بن علي القناطير المقنطرة
من الذهب والفضة وقد كان للتعايشي وأخيه يعقوب النصيب الاوفر
من هذه الغنيمة

وبعد أن فرغ حامد بن علي من أخذ الرشا سار في بضعة آلاف
الى أصوبري وجعل معسكره على ضفة نهر (أبهره) وأقام الناس وهم في حالة
ضنك شديد لان ما حوالى أبهره لم يكن مأهولا بفير الاعراب الرحالة الذين
بادوا وختل الديار منهم منذ أعوام وكذلك كان من في المهـمكر في شظف من
العيش تجلب لهم الجبوب من القضارف التي تبعد عنهم بمسيرة عشر مراحل
ودواب النقل قليلة جداً وليس في المهسكروشيء من الخضر وقس على ذلك
سائر حاجيات الافرات وشاد حامد داراً واسعة لسكناء وقصر همه على
مصادرة أموال من معه من المقاتلة واغتصاب نساءهم حتى جمع في داره من
المحظيات اللواتي تضرب الامثال بجماهن اكثر من عشرين محظية ونحو أربعمائة
غلام لا تتجاوز أعمارهم خمسة عشر عاماً فاشتد البلاء على الذين معه من
القواد وعيل صبرهم وأخذوا في رفع الشكاوى تباعا الى التعايشي يوضحون
بها سوء سلوك حامد المذكور ويخبرونه بأن معسكرهم لا أهمية له وأن
الايطالين لا يتقدمون خارج كسله

وكان في القضارف أحمد بن فضيل البقاري ابن عمه التعايشي أميراً من
قبله عليها فكتب اليه يأمره بالشخص من القضارف الى معسكر أصوبري
لتحقيق شكاوى الامراء من حامد بن علي فشخص الي أصوبري وقدم له

الامراء أموالا طائلة ليدمي في خلاصهم من ظلم حامد بن علي أولا ومن
معسكر أصوبري ثانياً فأمرهم بتدوين مطالبهم في عريضة يقدمونها له فعملوا
وكتب إلى النعماني يسأله اجابة التماسهم فأصدر أمره إلى أحمد بن فضيل بمصادرة
أموال حامد بن علي والغاء معسكر أصوبري وإضافة مقاتلته على القصارف
فتناول أحمد بن فضيل أموال طائلة من حامد وأرسلها إلى النعماني وقفل
راجماً إلى القصارف ومن يومئذ أني معسكر أصوبري

اجمال حال السودان بعد ذلك

رأيت من مفصلات ما سردناه أن حالة المهديوية تبدلت تبديلاً عظيماً
وتوالى عليها الفشل في أماكن متعددة وبالجملة فإنها لم تقم لها قائمة منذ سنة
١٣٠٦ ولم تجني ثمرة انتصار في ميدان قتال بعد نصرتها على أبي حمزة في
دارفور ونجاشي الحبشة يوحنا في (القلابات) وكلا الانتصارين كانا في سنة ١٣٠٦
ثم تلت ذلك الفتن الداخلية والاضطرابات الأهلية كانتفاض الخليفة
الشريف وغيره ممن بينا لك حوادثهم واستقصينا فيما تقدم أخبارهم
وقد أضربنا عن ذكر كثير من سفاسف الامور فراراً من التطويل
ولأنها كثيرة تحتاج إلى مجلدات ومنها أخبار الذين حاولوا قتل النعماني الذي
صار لاهم له غير المحافظة على حياته ودفع من يريدون به السوء ولذلك زاد
في عداد حراسه حتى بلغوا ثلاثين ألف مقاتل فكان إذا خرج من منزله إلى
المسجد أحاط به عشرون ألفاً مدججون بالسلاح ثم يحيطون بالمقصورة بعد
دخوله فيها فلا يستطيع أحد الدنو منها
أما هو فقد انغمس في ملاذة أكثر من ذي قبل وضخم جسمه حتى

صار أضعاف ما كان عليه قبل ذلك

أما الأهلون فقد فقدوا كل شيء ولم يبق بأيديهم من وسائل الحياة سوى بعض الأراضى التى يستغلون منها الحاصلات التى يأخذون بها المال نحو ثلاثة أرباعها

وكثر النفي والقتل فى الأعيان لا - باب غير انتقاض الخليفة شريف ومن الذين نفوا وقتلوا فى منفاهم اسماعيل بن عبد القادر ابن أخت الشيخ المكي وكان فقيهاً أزهرياً اجتمع بالمهدي فى الأبيض واشتغل عدة سنوات بكتابة سيرة المهدي وتدوين وقائع المهدي وفى أخريات أيامه صار من مقرري التعايشى فوشى به حساده بأنه يعقد اجتماعاً سرى ضد المهدي فنفى الى خط الاستواء وقتل فى منفاه

وأصدر التعايشى أمراً قال فيه ان كل رجلين اجتماعاً بعد صلاة العشاء خارج المسجد يعد اجتماعاً لغاية هى الانتقاض كما أصدر أمراً بإبطال المنتديات العمومية (القهاوى) لان أكثر الذين يديرونها مصريون ولان الذين يجلسون فيها لشرب القهوة يتكلمون فى أشياء تمس المهدي وهذا كله كما لا يخفى خوف من الاجتماعات التى ربما اتفق المجتمعون فيها على خلع طاعة التعايشى وقد تغيرت حالة العمال والجبلة الذين سبق لنا الكلام عنهم حيث عين التعايشى أحمد السنى جليلاً عاماً على أقسام الجزيرة وألزمه بتقديم مائتى ألف ريال الى أخيه يعقوب وثمانين ألف أردب من الذرة ومائة ألف ثوب من خرقة (الدمور) وهذا عدا الهدايا والتحف والجوارى الحسان والخيول

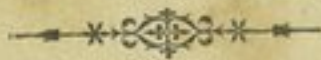
وعلى ذكر أحمد السنى نورد هنا ترجمته فنقول هو من عشيرة صغيرة تنسب

الى رجل اسمه مدني السني وأصله من عشيرة (البصيلية) في جنوب مقاطعة
قنا سكن هذا الرجل في قرية بين الخرطوم وسنار يطلق عليها اسم (ودمدني)
ثم مصرتها الحكومة ابان الفتح الاول وجعلتها قاعدة حكومة السودان وكان
المترجم من رعا ع وأوفاد هذه العشيرة وكان يرعي غنم المرحوم الشيخ محمد
بخيت الجمل سر تجار تلك المدينة

ولما خضع السودان للمهدوية وصار ابراهيم عدلان الذي تقدم لنا
ذكر تعيينه أميناً لبيت مالها وكانت أه من هذه العشيرة لحق به المترجم فلم
يزال ابراهيم يرفعه رعاية لحقوق القرابة حتي صار رئيساً لقلم مبيعات بيت
المال فكان جزاء ابراهيم أن أحمد السني هذا صار من أعدائه الذين وشوا
به عند التعاشي وكانوا السبب الاقوى في الايقاع به كما ألمعنا الى ذلك فيما
تقدم من هذا الكتاب

وبسبب وشاية هذا الوضع بمن أحسن اليه ورفعته من حضيض
الخنول الى ذروة العلي التي صار بها ذا حيثية في الوجود رفعه التعاشي حيث
آنس منه لؤما ودناءة هو في حاجة الى استخدامهما للنهب والسلب وأكل
أموال الناس بالباطل فولاه على الجزيرة كلها فارهق أهلها ظلماً يعجز عن
وصفه القلم وسلب ما بقى في يد الاهالي من الثروة ووسائل الحياة وجمع
لنفسه أموالاً طائلة تقدر بمئات الالوف

والحاصل أن حالة السودان في هذه السنة أي سنة ١٣١١ هجرية
كانت تفتت الاكباد وتنذر بسوء المصير ولاغربة فان الظلم مدمر لكل عمران



ذكر قراءة الناس بالالواح

كان التعاشي أميا يجمل الكتابة والقراءة وكان اذا أم الناس في الصلاة
الجمهرية يسر في القراءة حتى لا يسمع من وراءه قراءته التي يرجح
الاكثرون انها لم تكن قرآنا لانه فضلا عن جهله المركب كان بليد الفهم
حتى قيل ان الذي أقرأه فاتحة الكتاب نضي معه مدة في سبيل تلقينه اياها
وفي سنة ١٣١١ شرع في قراءة السور الصغيرة من القرآن الشريف
وخطب في الناس قائلا يجب على كل فرد من أفرادكم صغيرا كان أو كبيرا أن
يحضر بعد ثلاث ليال لوحا من الخشب ويبتديء في كتابة القرآن كما يفعل صبية
المكاتب فاجابه أحدهم بأن كثيرا من الناس يحفظون القرآن عن ظهر قلبهم
ومنهم العلماء والفقهاء فالأولى أن تكون القراءة الزامية بالنسبة للاميين والذين
لا يحفظون القرآن فاجابه التعاشي بان حفظه القرآن والعلماء والفقهاء لا تنفعهم
معرفةهم ولا تنفي عنهم فتيلا الا اذا امتثلوا ما أشرت به عليهم فاجابوا بالسمع
والطاعة وانصرفوا الى حوانيت النجارين لصناعة الالواح فارتفعت أثمان
الالواح وكان الفائز من يحصل على لوحه قبل الميعاد المضروب لكيلا يصبح
تحت طائلة العقوبة

وبعد ثلاثة أيام أحضر جل الناس الالواح فلما رآهم رقى منبر الخطابة وقال
لهم هيا ابدأوا بقراءة القرآن من اوله وعلى كل أمير أن يجمع أتباعه في المسجد
بعد غروب الشمس ويوقد نارا من الحطب يحيط بها الناس ويقرؤون الواحهم
على ضوءها حيث يصير الامير كفقير يعلم الصبيان فينتهر هذا ويزجر ذاك
وهكذا ثم يمر التعاشي متفقدا تلك الحلقات كأستاذ أكبر ويقف على كل حلقة

ويبدي ما يعين له من الانتقاد فانظروا الى هذه السخافة فكأن هذا الطاغية
 النشوم لم يكنف بما صار له من السلطان على الناس يحكم فيهم كيف شاء
 حتي أراد ان يجعل نفسه معلم صبيان ويجعل شعبه كاطفال يتعلمون
 على أنه ربما كان الباعث له على هذا الامر هو أن والده (التعايشي) كان
 يعلم الصبية القرآن وقد كانت نفسه قبل نيله الملك تتوق لان يكون معلم
 صبيان كايه وكان بينه وبين تلك الامنية صموبة تعامه القراءة والكتابة فلما قدر
 له أن يكون ملكا رأي أن يقضي وطره من تلك الامنية التي كان دون وصوله
 اليها خبط القناد هذا ما يمكنني ان ابرر به سخافة ذلك الظالم ان كان ثمت ما يبرر
 السخافة والا فالناس كلهم كانوا في حيرة لا يهتدون معها الي الباعث له الي
 هذا الامر

والحاصل أن الناس ظلوا أكثر من عامين عاكفين على القراءة في المسجد
 والتعايشي بتلذذ بالتبختر حولهم وتفقد حلقاتهم التي كانوا يتكوفون فيها
 ويرفون أصواتهم بالقراءة

ولست أندري بعد ذلك هل زالت عنه بلادة الفهم ووفق الي حفظ بضع سور
 من القرآن الشريف فانه استمر على القراءة سرا سواء كانت الصلاة مما يسرفي
 قراءتها أو يجهر فيها وكان يحمل لوحا مثل بقية الناس يخرج به من منزله ويمود
 به وكان من جملة ما أمر به أن يحمل أرباب الحوانيت من التجار والصناع الواحا
 تكون معهم مسدة العمل وبعد غروب الشمس يحملونها الي المسجد لينضموا
 الي الحلقات التابعين لها حتي ارتفعت أصوات الناس بالندم والشكوى وبعد
 أكثر من عامين أصدر أمره بما فاتهم من اقراءة فتركوها وهم فرحون

ذكر بقية اخبار سلاطين باشا وفراره

وعدت بذكر بقية أخبار سلاطين باشا التي وقفت فيها عند ذكر سجنه لما وقعت عليه تهمة مخابرة المأموف عليه غردون باشا واقول الآن انه ظل مسجوناً الى ما بعد سقوط الخرطوم حيث أطلقه التمايشي من السجن وأمره بالازمة بابه مع شريطة من حراسه يطاق عليهم اسم (اللازمة) فظل مقبلاً هكذا وشاد لنفسه داراً بالقرب من منزل يعقوب أخي التمايشي وكان يقضي معظم ليله ونهاره في باب التمايشي رافعاً صوته بالتهليل وكان صوته أشبه بنغمات الافرنج وكان عنده من الخيل حصان يركبه كلما ركب التمايشي وكان في بيته جوار خدمته أهداهن له التمايشي وهن رقيات عليه وكان يلبس الملابس الرثة اظهاراً للزهد وتمويهاً على اجتناب الرفاهية وكان يمشي في أكثر الاحيان حافياً وكان له حذاء من نوع النعل الذي يقال له (شقبانه) واذا ركب جواده في موكب التمايشي تعمم بعمامة حمراء وتمنطق بمنطقة حمراء مثل سائر الفرسان وفي بعض الاوقات يحمل بندقية من طرز رامنجنون من النوع المخصص للفرسان وكان شديد الحذر والنتيظة فلا يظهر ما تكنه نفسه من المقاصد وله اصدقاء كثيرون منهم من لا يصدق بدعوى المهديوية أصلاً وهؤلاء لا يحترس من التصريح لهم بما يوافق مشربهم وله اصدقاء أيضاً من الذين يصدقون بدعوى المهديوية لكنهم ينقمون على التمايشي ويودون أن يكون سيره مطابقاً للمدالة التي تكفل عمران البلاد وتنظيم الحالة وهؤلاء يظهر لهم انه من الذين من الله عليهم بالهداية الى الاسلام وانه يود من صميم قواده ان تصبح دولة المهديوية من أرقى دول الارض ويتفهم بكثير من أخبار تقدم الممالك وما

يلزم له من ضمانه المدالة والمساواة اللتين هما اس العمران وله اصدقاء
غير هؤلاء واولئك وهم البقارة والذين معه في ملازمة باب التعايشي وهؤلاء
يظهر لهم في كل لحظة وحين انه من اخاص المخلصين للتعايشي وربما اتى عليهم
من المواعظ ما يزيدهم تمسكا بولاء التعايشي حيث يقول لهم ان لاسلامه
للانسان في الدنيا والاخرة بغير ان يكون طائعا لخليفة المهدي في كل
ما يأمر به

والخلاصة انه صار ذا صداقة مع جل الناس ومع ذلك كله لا تجرد منهم
من لا يحترمه ويشهد له بالعقل والدماء
وأما علائقه مع قلم المخبرات في مصر فبالطبع انه كان يكتمها كل
الكتمان ولكن يظهر انه كان ذا علاقات كثيرة معه اذ كان يوافيه ببعض الانباء
مع حذر وتيقظ

هذا بحمل حال سلاطين باشا وفي اواخر سنة ١٣٠٣ كان التعايشي
انفذه بمأوزية الي يونس الديكيم لما كان ممسكرا في (ود العباس) فماد منها
ويقال انه قدم للتعايشي نصائح عديدة كان البعض يظن وقوعها موقع القبول
عند التعايشي فغابت ظنونهم

وأما فراره فقد تم الاتفاق عليه بين قلم المخبرات وشخص يدعى
(احمد الفحل) احد أفراد قبيلة الجميلين وكان علي ما بلغني جاسوسا لقلم المخبرات
براتب قدره عشر جنيهات وكان يتستر بالتجارة في ذهابه وايابه الي مصر
وكذلك يوجد شخص آخر اسمه (الصادق بن عثمان) كان يعاون أحمد الفحل
لانجاز هذه المهمة قدم الشخصان أم درمان وخبيا الجمال وادلاء الطريق خارج
أم درمان واخبراه بالامر فلم يربدا من الفرار لانه أصبح في خطر من

التعايشي بسبب ان بعض التجار جاء باعداد من احدي الجرائد المصرية وفيها
من الاخبار ان الحكومة باذلة جهدها لانقاذ سلاطين باشا وان الجائزة
التي كانت مجمولة لمن ينقذه ضوعف مقدارها فاشترى سلاطين باشا احدي
تلك النسخ بمبلغ من الريالات ثم علم بوجود غيرها وانه لا سبيل الى شرائها
بغير مبالغ عظيمة وذلك من جملة الاسباب التي جرأته على المخاطرة بحياته
في سبيل الفرار كما قيل

اذا لم يكن غير الاسنة مركبا فلا يسمع المضطر الا ركوبها
وكان التعايشي وقتئذ ملازما داره لانحراف طرأ على صحته فاغتم سلاطين
باشا الفرصة وغادر ام درمان فارا الى اصوان حتى بلغها بعد جهد جهيد وبعد
ما عين الهلاك بعينه ولا فائدة لنا بعد ذلك في سرد ملاقاه في الطريق من
الصعوبات وما قاساه من فادح الاخطار لانه والحق يقال شجاع من الذين
لا يبالون بالاخطار وذو ذكاء تضرب بحذقه الامثال على انه اذا كان الفضل
لكتشرباشا فيما أبداه من الحنكة والتدريب في فتح السودان وونجت باشا في
ادارة المخبرات التي تتوقف عليها أسباب النجاح فان سلاطين باشا لا يصح
أن يغفل ذكره كلما ذكر هذان القائدان اذ هو صاحب المعلومات التي كان
الاشنان في حاجة لها في جميع أطوار الحملة. والخلاصة انه من الذين كانوا السبب
الاكبر في انقاذ بلاد السودان من ربة الظلم والاستبداد وسيذكر ما ذكر
هذا الفتح المجيد والى الله عافية كل شيء

وأما التعايشي فلم يتصل به نبأ فرار سلاطين باشا الا بعد ايامين مضتا على
فراره فاحتدم غيظا واركب خلفه الركبان الذين رجعوا بغير أن يدركوا غباره
وقد كان من شدة غضب التعايشي انه أمر بسجنى خوفا من فرارى كما سيحيى

ذكر لك مفصلاً فيما يأتي وكما سيجيء ذكر القبض على اللذين دبرا له الفرار
وهما أحمد الفحل والصادق عثمان

ذكر نفي أحمد الفحل والذين ساعدوه علي فرار سلاطين باشا
قلت ان أحمد بن الفحل كان جاسوساً لقلم المخابرات المصرية يتناول
راتباً قدره عشرة جنيهات ورفيقه الصادق بن عثمان كان كذلك لكنني لا أعرف
مقدار الراتب الذي كان يتناوله على الجاسوسية
وأحمد الفحل هذا من قبيلة صغيرة من الجعليين تسكن قرية اسمها
(الفحلاب) في الضفة الغربية لانيل وعلى بعد بضعة أميال جنوب بربر وأما
الصادق عثمان فإنه كان من أهالي بربر وكان من جنود الحكومة (الباشبوزق)
ثم ترك الجندية وصار يتجر بالسلع ظاهراً وبالجاسوسية باطناً
ولما عقدا الاتفاق مع قلم المخابرات الذي لا بد أن يكون نفعها شيئاً من
المال يستعينان به على ابتياع الجمال وشراء الدواب واستئجار الادلاء غادرا
القاهرة ولاحقاً بربر ويظهر أنهما كانا غير مباليين بعاقبة ما عقدا النية على انفاذه
حيث أخذوا في شراء الجمال بنفسهما ومعها الادلاء وهما في بربر وقد كنت في
حيرة عسر على الاهتداء معها الى الاسباب التي ملات قلوبهما جرأة حتى
صارا في حركة كانت سبباً في وقوعهما في بران التعاشي حتى نقل الي بعضهم
أن أحمد الفحل قدم رشوة من المال الي الزاكي عثمان أمير بربر يومئذ وأطلعه
على ما ينويه فوعده بالكف عن عرقته حتى صار يباشر شراء الجمال غير خائف
ولا متريب حتى أن التعاشي لم يستدل علي اللذين هربوا سلاطين باشا الامن
احد أهالي بربر كما تراه مبسوطاً في هذا الباب ويظهر جلياً للمتأمل صحة هذا

القول ولو لم يكن كذلك لما خفي على الزاكي ما يحاوله أحمد الفحل ولا استطاع أن يقبض على سلاطين باشا قبل مغادرته قرية الفحلاب وقد نقل الى مخبري أيضاً أن أحد الجواسيس أخبره بأن سلاطين باشا لما بلغ قرية الانجلاب ذهب وأخبر الزاكي بمكمنه فأمر بإيداعه السجن لكيلا يذاع الخبر وبعد بضعة ليال أطلقه بعد أن أمره بكتمان هذا الامر

والخلاصة اني أرجح اشتراك الزاكي في مسألة هرب سلاطين باشا وأنه تناول رشوة اذ كان أحمد الفحل صديقاً حميماً له ومقرباً عنده. والحاصل أن أحمد الفحل ورفيقه لما غادرا بربر ولحقا بأمر درمان وأوعزا الي سلاطين بالهرب وظل التعايشي في حيرة لا يعرف معها من ساعده علي الهرب قدم عليه عبد الماجد بن الحاج محمد وهو ابن أخي محمد الخير الذي كان داعية المهدي في بربر فأخبره أنه رأي أحمد الفحل ورفيقه الصادق عثمان ومعهما دليل يتعاون الجمال في بربر فأرسل التعايشي الموض المرضي أمين بيت المال الى أحمد الفحل فاستدعاه اليه وقال له اننا نريد منك أن تجلب لنا موسيقي من القاهرة فقال لهم نعم أتهددكم باحضارها وبينما هو في الكلام اذ هجم عليه العبيد وقبضوا عليه وأوثقوه كتافهم زجوه في السجن وكذلك قبض على رفيقه الصادق عثمان وعلى شخص آخر يدعي ابن أبي بشر اتهم بانه كان يعينهما ثم أرسل التعايشي الي بربر فقبضوا على الدليل الذي رآه معهم وهو عبد الماجد الآنف الذكر ولما أوقف الدليل بين يدي التعايشي خاطبه قائلاً اذا صدقتني الخبر فانت آمن علي نفسك ومالك فاجابه قائلاً ان أحمد بن الفحل والصادق عثمان استأجرا من بربر وجاءا بي مع الجمال التي اشترياهما منها وتركاني في سفح جبل (كرري) ثم أتاني في يوم كذا بنصراني مبتور الاصبع الوسطى وقالوا

لى أوصله قرية (الفجلاب) و سلمه الى أخوة أحمدنا أحمد الفجل فذهبت
وأوصاته لهم ثم لا أعلم ماذا صار فامر به الى السجن وبعد أيام أطلقه ولم
يصبه بسوء إذ تحقق صدقه ثم أرسل نقبض علي أخوة أحمد بن الفجل
الثلاثة وأودعوا السجن وبعد أن مضى عليهم شهران في السجن سجنتم في
خلالها معهم كما ذكر ذلك في مكانه ثنا شعرت الا ونحو خمسين عبداً من حراس
يعقوب دخلوا السجن وبايديهم السياط فاخرجوا أحمد الفجل والصادق عثمان
وابن أبي بشر وأخوة أحمد الفجل الثلاثة ونزعوا ثيابهم عنهم وقرنوهم في
الاصفاد وأخذوا يضربونهم بالسياط حتى تمزقت جلودهم وسالت الدماء منهم
وكانت إحدى البواخر راسية على ضفة النهر فسبوا اليها وهي تلى وشك
السفر الى خط الاستواء ولما وصل هؤلاء المسجونون الى ضفة النهر أغمى
عليهم من شدة الضرب فكان الحراس يحملونهم كما يحمل المتاع ويلقونهم
في عنابر الباخرة فكنت تسمع مصادمة اجسامهم مع جسم قاع الباخرة
كانهم من نوع المتاع ثم اقلعت بهم الباخرة الى خط الاستواء وهناك لقوا حتفهم
فهؤلاء هم الذين ذهبوا ضحية سلاطين باشا وانا سابعهم لكنني والله الحمد
نجوت بعد عذاب قاسية خمس سنوات في السجن كما سيأتي ذكر ذلك

ذكر سجن ابراهيم حمزة وجماعة من اعيان بربر

ابراهيم حمزة عميد قبيلة في بربر اسمها (الانقرياب) ولما وصلت دعوة
المهدي الى بربر نفر عنها ابراهيم وقومه وبقى على ولاء الحكومة حتى اكره على
الخنوع للمهدوية وهو كريم جواد ذو أيد بيضاء على جل اسري المصريين
وذو سعة وسيجيء في اخبار سجن المؤان ذكر كثير من شمائله الفراء

ولما فر سلاطين باشا كما تقدم وبلغ قرية (الفحلاب) ذهب مخبر الى
 ابراهيم حمزة هذا وأعلمه بمكمن سلاطين فامتنع من القبض عليه وبحث اليه
 من حذره وامره بسرعة الرحيل وأوصي آومه بعدم التعرض له وتظاهر
 بعدم العلم بامرهم فاتصل ذلك بالتمايشي فارسل يستقدم ابراهيم وبعض أقاربه
 ومنهم ابن عمه محمد الشايبي وكذلك استقدم منصوراً ومحمداً ابني العجمي وهما
 عميدا عشيرة في بربر أيضاً

ولما قدم ابراهيم جلس التمايشي مع القضاة واهل الشورى وادخل
 عليه فسأله قائلاً لماذا تركت سلاطين اجتاز بلادك فاجابه يا مولاي اني لم
 اعلم بامرهم وانه شيطان قدر على الفرار من بابك وقلت من ايدي الالوف
 من حراسك فكيف لا يقدر على اجتياز بلادي التي هي فلاة مملوءة بالادغال
 والنبات فاطرق التمايشي ثم امر بسجنه وابن عمه وكذلك ابني العجمي
 ووضع في رقبة كل منهم جنزيرا من الحديد وجملة من القيود فكثروا في السجن
 خمس سنوات حتي اتقدم اللورد ككتشنر يوم فتح ام درمان وسنذكر بقية
 اخبارهم في السجن وما كان من احتفائهم بي فيه اذ لولا ما كان يبذله
 ابراهيم حمزة من المال في سبيل دفع أذي السجنانيين عني لهلكت فجزاء الله
 عني أحسن الجزاء

تمهيد في ذكر السجن ونظاماته واطلاق اسم

الساير على كل سجن

علمت مما تقدم كيف هرب سلاطين باشا الذي لم أثبت بعد فراره الا
 أياما قلائل صار سجنى عقبها حيث ظلمت في السجن خمس سنوات ثم أطلق

اعتقالي منه اللورد كتشنر يوم دخل أم درمان
ولما كان جل ما يجيء ذكره في أخريات هذا الجزء من أخبار السجن
التي قاسيتها رأيت أن أقدم هذا التمهيد في ذكر نظمات السجن وترجمة السجنان
المسمى (الساير) ادريس الذي اطلق اسم الساير على كل سجن من سجون
المهدوية وفي الانحاء الخاضعة له الا لاجله فاقول أما ترجمة الساير المذكور فانه أعرابي
من قبيلة (الجمع) التي تسكن شرقي كردفان وقد تقدم لنا ذكر شيء من
عوائدها التي من جملتها ان الفتاة لا تتزوج الا بعد ان تلد بضعة أولاد من الزنا
ليبينوا اخاها ويطلق عليهم اسم (عينة خالهم) وكان الساير هذا من أكبر أشقياء
تلك القبيلة وكان رئيس عصابة تقطع الطارق بالهيب والسلب
ولما ظهرت دعوة المهدوية في جبال قدير لحق بها الساير فقلده المهدى
وظيفة سجان ومن ثم اطلق على السجن اسم الساير
وأما أوصافه فانه كان ربة في الطول بدين الجسم ولونه نحاسي غامق ووجهه
عبوس وكان عيذه شعلة نار
وكان التعايش لا يدفع له مرتبا ولكنه ذو ثروة عظيمة تقدر بمئات الالوف
جمها من الذين أوقفهم نكد الطالع بين يديه وسترى فيما يأتي أمثلة من ضروب
ابتزازه اموال المسجونين
وأما عوانه منهم كثيرون وجلهم من البيد (الجهادية) ورؤساؤهم من ذوى
قربته من قبيلة الجمع
وأما السجن نفسه فانه عبارة عن سور من اللبن الاخضر على أكمة
مرتفعة عند ضفة النهر وفي داخل السور امام عدة اسوار ومبان سكنى
الخبراء وجلوس السجنان

وأما غرف المسجونين فهي كثيرة منها ما هو مشيد بالحجارة وجلها ليس له نوافذ لتبديل الهواء ويوجد من الغرف ما يطلق عليهما اسم (الاعدام) وعلى كل حال فإن السجن نوعان خفيف وثقيل أما الخفيف فهو عبارة عما يعامل به الذين يسجنهم القضاة بسبب الديون أو الحدود وغيرها وأما الثقيل فمخصوص بالذين يسجنهم التعاشي وهم في الغالب ذوو الجرائم السياسية وما يلحق بها وسترى فيما يأتي ذكر كثير من أخبار السجن وغرائبه والله الموفق

—————

ذكر سجن المؤلف

لما فر سلاطين باشا استدعى التعاشي القضاة وكثيراً من أهل شوراه وجلس معهم وعدد لهم ما أتاه مع سلاطين باشا من أنواع الاكرام وما غمره به من الاحسان ومع ذلك فقد كفر تلك النعماء وارتد عن الاسلام ولحق ببلاد الكفار فأجابوه بالاستغراب وقال له أحدهم انه لا أمان لمن كان وجهه أبيض خصوصاً اذا كان ذا وظيفة في الحكومة وقال له آخر ان سلاطين قد كان مضمراً للكفر مظهراً للاسلام والدليل على ذلك انه كان صديقاً حميماً لبراهيم فوزي (المؤلف) وكانا يجتمعان في منزليهما ويشربان الخمر ويدخان التنباك ولا بد أن يكون ابراهيم فوزي ذا ضلع في مسألة فراره فقام ثالث وقال للتعاشي انك اذا لم تأمر بسجن ابراهيم فوزي فر ولحق بسلاطين لان سلاطين أصغر منزلة في الحكومة من ابراهيم فوزي اذ هو حائز رتبة (باشا) أما سلاطين فلم يكن حائزاً الا على رتبة (بك) فصادفت هذه الاقوال أذنا صاغية من التعاشي فأرسل أحد حراسه لاحضاري

وبينما أنا في غفلة من هذا اذ فاجأني الطلب فارتعت له وأدركت ان
 المصير سيء فحاولت اخفاء ما ألم بي فلم أفلح وذهبت وكأني أودع الحياة
 على أن ما قاله مشيروا السوء لم يكن له نصيب من الصحة اذ كنت
 لا أجتمع بسلاطين باشا الا نادراً وليس بيني وبينه غير مودة سطحية لانه
 كان يخاف علي من تهمة كهذه ولكن لا يغني حذر من قدر
 ولما دخلت على التعايشي ألقىته جالسا على عنقريب (سرير) وحوله
 القضاة والمشيرون جاثين على الارض كعادتهم وسيفه موضوع على فخذه
 ممسكا بيمينه على قبضته كأنه يريد أن يستله والغضب باد على وجهه فخاطبني
 قائلاً يا ابراهيم فوزي فقلت لبيك يا خليفة المهدي عليه السلام فقال أين سلاطين
 صاحبك فقلت لا أعلم ياسيدي وأظن انه في منزله فاتهرني بصوت جهوري
 قائلاً اذهب اليه وأحضره لي فمشيت بضع خطوات نحو الباب فقال لي
 يا ابراهيم فوزي فعدت اليه فقال ألم يكن عندك خبر بهروب سلاطين فقلت
 كلا فقال لي انه هرب فقلت باندهاش (أهرب أهرب) فقال لي ماذا تقول
 في أمر هربه فقلت يا خليفة المهدي عليه السلام ان سلاطين نصراني ارتد
 عن الاسلام وعاد الي دينه النصرانية وقد أبعد الله عن التمتع بمشاهدة أنوار
 خليفة المهدي عليه السلام في الدنيا والآخرة ومع ذلك فانه لحق بمصر التي
 ينوي مولانا الزحف عليها في هذا العام ولا بد من وقوعه في قبضة المهدي
 ويدوق جزاء خيائته وفراره فأطرق التعايشي الى الارض هنيهة ثم رفع رأسه
 وألقى علي الاسئلة الآتية

س - هل كان سلاطين يدخن التبناك - ج - لا أعلم شيئاً من هذا -
 س - هل كان سلاطين يشرب الخمر - ج - أستغفر الله يا خليفة المهدي عليه

السلام أنا أعتقد أن مدينتك طاهرة مطهرة من كل رجس وليس فيها خمر أو
محرم - س - هل كان سلاطين تاركا للصلوات الخمس - ج - ان سلاطين كان
ملازما لخليفة المهدي عليه السلام في أوقات الصلوات الخمس وبدا لا يكون
تاركا للصلاة وهذا ما نراه نحن بأعيننا أما البواطن وما تخفى الصدور فان عليها
عند خليفة المهدي عليه السلام

وعند نهاية هذه الكلمة التفت التعاشي لمن حوله وقال خذوا هذا
(وأشار الي) الى السجن وكان ذلك آخر عهدى بمحادثته ورؤية وجهه فاجتذبنى
أربعة من الحراس الى خارج الباب وهناك اجتمع على نحو خمسين منهم فاخذوا
يضربوننى حتى سال الدم من أنفى وجسمى ثم نزعوا عمامتى وشدوا بها
وثاقى وساروا بى الى السجن والسياط تمزق جسمى فلم أقدر أن أمشى الا بعض
خطوات ثم سقطت على وجهى وقد أغمى على فأمسكونى وأسندنى بعضهم
والبعض الآخر يضربنى بالسياط حتى بلغت باب السجن فتلقانى حراسه
بالضرب بالسياط أيضا ووضعوا فى رجلى ستة قيود يربو وزنها على أربعين
رطلا ووضعوا فى رقبتي غلا كبيرا (جنزيرا) وامسك الحراس عن ضربى
بالسياط فالتفت اليهم وقلت اسقونى ماء فكان جوابهم الضرب بالسياط
وقالوا الى مثلك لا يستحق شربة ماء ياعدو خليفة المهدي عليه السلام ثم
أدخلونى السجن

اول ليلة في السجن واخبار اثنين يدعيان النبوة

كان وصولى الى دائرة السجن فى أصيل النهار وبعد وضع الحديد
فى رجلى ادخلت الى أودة يطلق عليها اسم (أودة الحجر) لانها مشيدة

بالاحجار وليس فيها نوافذ غير الباب الذي يدخل منه وهي مظلمة جدا
 فدخلت وليس على جسمي من الملابس غير السراويل فوجدت فيها نحو مائتي
 مسجون وهي لا تسع أكثر من ربع هذا العدد فرأيت بينهم ثلاثة رجال
 بيض الوجوه يكادون لقرط ما هم فيه من العذاب مع طول مدة السجن أن يكونوا
 أشباحا بلا أرواح فدنوت منهم وجلست بجانبهم فاذا أحدهم الموسيو شارل
 نيوفيلد الذي تقدم لنا ذكر خبره والآخر صيدلي مصرى اسمه خليل أفندي
 بسيم والثالث رجل من تجار اليهود في أم درمان فجلست بينهم وأنا اتقلب
 في آلام الجروح والضرب اللذين ذكرتهما قبل فآظهوروا لي من المواساة
 والتوجع لمصابي ما كاد يعزيني واخذت أجيل نظري في الغرفة فاذا الذين
 فيها جلهم مرضى مصابون بالاسهال واذا بجانب كل واحد حفرة يتغوط
 فيها ولضيق الغرفة كان الناس مترامكين على بعضهم ومنهم من هو واقف
 على فخذه ومنهم من يصيح وطئت على رقبتى كل ذلك ولا منفذ يستنشق
 منه الهواء غير الشقوق التي في الباب

ولم يمض على أكثر من ساعة حتى أنعمي على وفقدت الشعور ولم أفق
 الا على صوت الموسيو نيوفيلد الذي كان يصيح من داخل الباب خفير
 السجن قائلا (ان الرجل الذي جثم به قد مات) لانهم أيقنوا بموتى فلم يعبا
 الخفير ولا السجنان بكلامه ولما رفعت رأسي سمعت أصحابي الثلاثة
 يقولون ظنناك فارقت الحياة فالحمد لله على سلامتكم وكان عند كل واحد
 قطعة من الخرق بالية يروح بها على نفسه من شدة الحرق فكان
 الثلاثة يروحون على بخرقهم وقد نسوا أنفسهم فجزاهم الله عنى
 أحسن الجزاء

وقبيل الصباح دخل علينا السجانون فأوسعوني واصحابي ضربا بالسياط
 قائلين لنا لماذا يا أولاد الريف يا كفار تجلسون مع بعضكم ثم وضعوا كل
 واحد منا في أودة مع أناس من المسجونين جلست بجانب عبد أسود تظهر
 عليه علامة المرض فبدأته بالحديث مستفهما عن جريمته فرفع رأسه وقال لي
 أما تعرفني فقلت كلا فقال أنا عيسى بن مريم نبي الله ورسوله فظننته مازحا
 فقلت له أصحيح ما تقول فالتفت الي وقال لي ستري مصداق ذلك قريبا فقلت
 له ان عيسى صلوات الله وسلامه عليه أبيض اللون وانت عبد أسود فأجابني
 بثبات جاش ان جميع الالوان بيدي ولو شئت جعلت لوني أبيض ولكنني اخترت
 سواد اللون تواضعا لله تعالى ثم رأيت بجانب رجلا آخر ذا ملابس نظيفة
 وهيئة مهيبة فقلت له هل سمعت ما يقوله هذا الذي يزعم انه عيسى بن مريم
 عليه السلام فلم يرد علي فظننت انه مستغرب هذا الخبر وأخذت أكلمه
 وقلت له حقا ان هذا الامر غريب جدا وهل يظن مثل هذا الكذاب
 ان دعواه تقابل بالتصديق ولو من البسطاء فلم يرد علي بشيء بل أعرض
 عني وبينما أنا متعجب اذ التفت الى خلفي فرأيت احمد الفحل ورفيقه
 الصادق بن عثمان اللذين سبق لنا الكلام عنهما وانهما هربا سلاطين باشا
 يضحكان فلم أفهم لماذا يضحكان فدنوت منهما وسألتهما عن سبب
 ضحكهما فقالا لي ان الرجل الذي تكلمه وتشكو له أمر المتنبى يدعى هو ايضا
 انه عيسى بن مريم عليه السلام فازددت تعجبا ودخل ساعتئذ أحد
 السجانين واسمه (ابو لباده) وقال لي يا ابن الريف لماذا حبسوك فقلت
 لا أدري فقال لي انكم معشر أولاد الريف لا تتركون كفركم وانكازكم على
 المهدي وخليفته فدنوت منه وأخذت أترامى على اقدامه ورجوته أن ينقلني

من هذه الغرفة التي فيها متنبئان فقال لي على شرط أن تنقذني ريالاً فقلت له
 أنقذك الريال مع اني لا أملك قرشاً واحداً ولا في بيتي درهم ولا دينار
 فأخرجني من تلك الغرفة الى غرفه أخرى فيها أكثر من مائة مسجون فقضيت
 بقية الليل واقفاً على قدمي والناس يضحجون من شدة الحر والازدحام
 وتوفي اثنان منهم في تلك الليلة

ولما لاح الصباح أخرجونا من الأوددة فسمعت السجنانيين يقولون ان
 (الأوددة كرمت) اي أنها ضحت هذين الرجلين ثم جروا الرجلين من
 أرجلها وأقوهما في النهر

هذه أخبار الليلة الأولى في السجن أوردتها بإيجاز كثير وسأعود الى
 ذكر بقية الاخبار في محالها والله الهادي الى سواء السبيل

انذار المؤلف بالاعدام

وبعد خروجي من الأوددة جلست مع المسجونين في حوش السجن
 وبعد بضع ساعات كنت أستنشق الهواء في خلالها جاءني أحد السجنانيين
 يدعوني للخروج الى أوددة أمير السجن فخرجت أرسف في قيودي فوجدت
 بها اثنين من القضاة أحدهما سليمان بن الحجاز والثاني احمد بن حمدان
 فقالا لي ان خليفة المهدي عليه السلام بلغه عنك انك كنت تصنع أشياء
 مخالفة لمنشورات المهدي عليه السلام وانه رأى وجوب قتلك فقلت ان خليفة
 المهدي عليه السلام أوتي الحكمة وفصل الخطاب وان المهدي عليه السلام
 أخبر بانه من اهل الكشف فاذا كان هذا القول من عندياته فهو
 صادق والافان لي أعداء يرومون التشكيل بي من قبل زمن المهدي فهم

كذابون وعلى كل حال فأنا لا اطلب لديناي أو آخرتي غير رضا خليفة المهدي
 فاذا عزم على قتلي فأنا راض بأمره واسأله أن يرضى عني وان شاء استحيائي
 فاني لا أرغب في الحياة الا اذا كانت مصحوبة برضاه فذهب القاضيان له
 وأخبراه بما قلته وبعد ساعتين عادا الى وقالوا لي ان خليفة المهدي عفا عنك
 واستبدل قتلك بسجنك مؤبداً فسجدت بين يديهما شاكرًا لله تعالى ثم
 رفعت رأسي وقلت لهما أبلغا تحيتي لمولاي خليفة المهدي عليه السلام وقولا
 له ان عبدك طامع في عفوك ومتوسل اليك بحلمك وحنانك فذهبا ولم يعودا
 الا بعد سنتين وسيجيء ذكر ذلك في مكانه

ذكر قتل القاضي احمد بن علي

القاضي احمد بن علي أصله من عشيرة اسمها (بنى هلبه) تسكن جنوب
 دارفور وكان يحفظ القرآن الشريف ويعرف قليلا من الفقه على مذهب
 الامام مالك وولى القضاء في أحد مراكز مديرية (شكا) إحدى مديريات
 دارفور ولما ظهرت دعوة المهدي في جبال قدير فر احمد المذكور ولحق بها
 وشهد مع المهدي واقعة يوسف باشا الشلالى وقدم معه الى الابيض عاصمة
 كردفان حتى كانت وقعة يوم الجمعة التي قتل فيها احمد بن جباره الذي كان
 قاضيا للمهدوية كما مر ذكر ذلك باسهاب في الجزء الاول

وكان احمد هذا ميالا لجانب عبد الله التعايشي الذي جعله قائدا صغيرا
 على عشيرته^{١١} (بنى هلبه) وأعطاه راية صيرها تابعة لرايته الزرقاء فتكلم
 مع المهدي في شأنه وسأله أن يوليه القضاء بدل احمد جباره فولاه
 ولقبه بلقب (قاضي الاسلام) ولكن وظيفته هذه صارت اسما بلا مسمى

وذلك لان المهدي أقام نوابا للفصل في القضايا المهمة ونصب أمناء ينوبون عنه في نظر مايرفع اليه من المسائل وقد تقدم ذكر ذلك فيما مر من الكتاب

وقد ذكرنا ان لكل من القاضي والنواب والامناء اختصاصا في وظيفته ولكن النواب والامناء تجاوزوا حدود اختصاصهم ولم يتركوا للقاضي اختصاصا ينظر فيه حتى صارت وظيفته اسما بلا مسمى الى أن هلك المهدي واستبد التعايشي بالملك فالغى وظيفة الامناء ثم النواب وجعل المحكمة واحدة تحت رئاسة أحمد بن علي تنظر في كل مايرفع اليها من الدعاوى والخصومات وقد أشرنا فيما مضى الى الغرض الذي كان يرمى اليه التعايشي من وراء هذا الانقلاب الذي يتوخى به الاضرار بأقارب المهدي واضطهادهم. وحاصل القول ان أحمد بن علي أصبح ذا مركز سام وتفوذ عظيم ولم تقف حظوته عند القضاء فان التعايشي وأخاه يعقوب كانا لا يقطعان أمرا دون مشاورته فاستفحل أمره وتلاعب بالقضاء أيّ تلاعب وانضم الى رايته أغنياء البلاد وسراتها في سائر أنحاء السودان وصار يكتب الى الجبابة بمعاذرة المتيمين اليه من أهالي البلاد من الضريبة والخراج التي صاروا يؤدونها له واقتنى عدداً كبيراً من السفن الشراعية وامتلك كثيراً من قطع الاراضي الخصبة أما الرشوة فقد كان دخله اليومي منها يقدر بالالوف من الريالات وشاد لنفسه داراً واسعةً بالقرب من ضفة النهر ملاًها بالنساء الحسنان من السودانيات والمصريات وجاهن قبليات من سكان الخرطوم اللاتي استباحهن المهديون وامتلات النيفاني وأماكن المرعى بقطعان ماشيته من الابل والبقر والغنم وبالجملة فقد أصبح ذا ثروة طائلة

ومن غرائب شعورته في القضاء وخراب ذمته وميله الى الارتشاء ما أورد منه هذه النكتة ليقاس عليها بقية أعماله وذلك انه في احدى السنين تشاجر جاب اسمه حسيب مع احدى قبائل البحر الابيض لاسباب طفيفة كان الحق فيها مع رجال تلك القبيلة فأمر مقاتلته باطلاق الرصاص على الحى فقتل من الرجال نحو ثلاثين رجلا عدا الجرحى فرفعت الحادثة للتعاشي فأكبرها وغضب على الجابي وأحال محاكمته على القضاء فعقدت الجلسة الاولى ثم ارجئت الى الغد وفي تلك الليلة حمل الجابي الى القاضي أحمد بن علي ثلاثة آلاف ريال فأمر في الغد بايداع المتظلمين من تلك القبيلة السجن وأفهم التعاشي انهم شهروا حربا على المهدي وخليفته وبعد عناء شديد اخرجوا من السجن وذهبت دماء القتولين هدرًا ومثل هذا كثير لا يسع المقام ايراده وانما أوردنا هذا مثالا تقاس عليه حالة ذلك القاضي

وفي أواخر سنة ١٣١١ كتب التعاشي سرا الى الجباة يأمرهم بارسال الكتب التي ترد اليهم من القاضي احمد بن علي يأمرهم فيها بمعافة المنتمين لرايته من الضرائب والخراج فاجتمع عنده شيء كثير منها فجلس ذات يوم ومعه القضاة واستدعى القاضي أحمد وقال للحاضرين ما يأتي

أيها القضاة أخبركم اني اجتمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم والخضر والمهدي عليهما السلام وبينما كنت معهم اذ رأيت شخصا معذبا بين السماء والارض فسألت عنه فأجابني المهدي بانه القاضي احمد بن علي فدهشت لذلك فقال لي الخضر عليه السلام انه نقض عهدك وجمع الاموال وظلم العباد فلهذا أنا أمر القاضي احمد بالتوبة والاستغفار كما أمره بالتخلي عن الرايات التي يقودها والانقطاع الى القضاء فقط اه

فقام القاضي وقبل يد التعايشي وبكى وانتحب وتاب واستغفر وخرج
 مع زملائه يرجوهم أن لا يذكروا شيئاً مما جرى في هذه الحضرة لاحد من الناس
 وبعد مضي بضعة أسابيع على هذه الحادثة ضبط محتسب السوق
 شخصين يدعى أحدهما عبد المجيد عبد الله الدنقلى ويدعى الآخر عبد الله سليمان
 زيفان المسكوكات من نوع ريبالات المهديوية وأحضرهما امام التعايشي الذي
 سألهما عن جنائيهما فقالا له لم نزيف بل نضرب العملة لك فتعجب من هذه
 الجرأة وسألهما الايضاح فقالا ان القاضي احمد بن علي هو الذي أمرهما بسك
 هذه النقود وأفهمهما انه مأمور من قبل التعايشي وكانا يؤديان له كل ما يصنعانه
 منها ثم أبرزنا كتابا من القاضي بخطه متضمنا هذا المعنى فأمسك التعايشي
 الكتاب واطلع من حوله عليه فأكدوا صحة صدوره من القاضي احمد بن علي
 فاستدعاه وسأله قائلاً ألم يكفك ما اغتلتته من الاموال حتى صرت زيف
 النقود فأنكر ذلك فأبرز له التعايشي الكتاب المذيل بتوقيعه ثم عاد الى
 الاعتراف فاحتدم التعايشي غضبا وقام من مجلسه ودخل الى أودة جلوسه
 واستدعى القضاة فجلسوا ولم يكلمهم بشيء بل أمر باحضار القاضي احمد
 ابن علي فلما حضر بين يديه أمر الحراس بايداعه في السجن فسيق اليه ثم قال
 لمن حوله من القضاة سأقوم فيكم خطيباً بعد صلاة المغرب فليكنم أن تسمعوا
 ما أقوله لكم ومروا الناس بانتظاري لسماع ما أقوله فخرجوا من عنده وبعد
 صلاة المغرب صعد منبر الخطابة وقال ما يأتي

ان احمد الاسود (لانه كان أسود اللون) أصله مولى قبيلة بني هلبه
 ولم يكن منها وقد أفسد وظلم العباد واغتال أموال المسلمين فلذلك أرى ان موته
 خير من حياته فرد عليه الحاضرون بلسان واحد حسنا تفعل

ومن هذه الخطبة أيقن الناس ان القاضي احمد سيقتل
وفي اليوم التالي ذهب يعقوب أخو التعايشي الى السجن وانفرد بالقاضي
احمد وخذعه بانه سيسعى في خلاصه من السجن فانخدع له ثم سأله عن
أمواله فأوضحها له وكانت شياً كثيراً من الذهب والفضة فضبطت كلها
وصودرت بجانب بيت المال

وبعد استصفاء أمواله طرح منفرداً في إحدى غرف السجن ومنع عنه
الطعام والشراب حتى توفي بعد بضع ليال وكان طويل القامة بدين الجسم
شديد سواد اللون وكان غير مصدق بدعوى المهديوية وكثيراً ما رأيت
منه محاباة لجاني في أمور احدثت محاكمتي فيها عليه بسبب فلتات من اللسان
عقوبتها الجلد بالسياط عند الدراويش

ذكر تولية الشيخ الحسين الزهراء (القضاء وقتله صبراً)

تقدم لنا في الجزء الاول من هذا الكتاب شيء من أخبار الشيخ
الحسين بن الزهراء وما كان من أمر قصيدته الهمزية التي نصح بها المهدي
وقد نشرناها برمتها وأن المهدي أتقده الى كسلا وقد كان التعايشي
حاقداً عليه بسبب النصيحة المذكورة اما هو فقد رجع على نفسه باللائمة
لما فرط منه من الميل الى دعوى المهديوية التي انكر كل اعمالها وجاهر
المهدي بانكاره والمهدي يفضي عن عقابه رعاية لجلالة قدره وتقواه حتى
توفي المهدي وخلفه التعايشي الذي كان ذاميل شديد للانتقام من الشيخ
الحسين المذكور

وقد كان التعايشي استقدم الشيخ الحسين من بلده في الجزيرة وعهد
اليه بالقاء دروس في علمي الحديث والمواريث في المسجد ولما قبض على القاضي
احمد بن علي ولاة القضاء بدله

ولما ولي القضاء قال لخواصه انني لا أريد المحاباة بل أريد الوقوف عند
حد الشرع وكل أمر يعرض علي لا أقول فيه غير الحق وأنا لا أجهل ان
عاقبة ذلك ستكون الموت

وبعد أن تولى القضاء عرضت عليه مسألة وهي (ان رجلاً من الموسرين
اسمه عوض الكريم من أهالي قرية (المتمة) بمقاطعة بربر هجر دياره
فراراً من ظلم المهديوية ولحق بالخرمين الشريفين وتوفي هناك فافتى القضاة
بكفره ووجوب مصادرة أمواله) فقال الشيخ الحسين لم يكفر هذا الرجل ولا
تجوز مصادرة أمواله أبداً فحقد التعايشي عليه وأضر له سوء

وفي ذات يوم دعاه ومعه قاضيان هما حسين جزو ومحمد حمدان وكلاهما من
أهالي السودان الغربي لا يعرفان شيئاً من الاحكام الشرعية ولكنهما يحفظان
الفاظ القرآن وكانا من اكبر قضاة الجهل والظلم ومعهما أمين بيت المال ولما
استقر بهم الجلوس بين يدي التعايشي خاطبهم قائلاً « أيها القضاة ان بيت
المال ليس فيه نقود وان الانصار يطلبون أعطيهم فماذا نضع » فاجابه محمد
حمدان بما يأتي

انني سمعت المهدي عليه السلام يقول ان الناس بايعوني على ان
اتصرف في رقابهم واموالهم تصرف المالك فيما يملك لانني خليفة رسول الله
صلى الله عليه وسلم وعليه فيجوز لامين بيت المال ان يكره ذوى اليسار على
ان يقرضوه ما يطلبه منهم وليس بيت المال ملزماً بالسداد ولكن يعد الدائنين

بالوفاء تطيبها لخواطرم فاحتمدم الشيخ الحسين غضبا وضرب بيده محمد
حمدان قائلا -

استغفر الله مماقلته فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقترض ويوفي
دائنيه ولا يجوز ابدا اخذ اموال الناس بالطريقة التي قلمها فساء ذلك التعاشي
واحتمدم غضبا وقال مخاطبا الشيخ الحسين

لقد كذبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يكن ملزما بتأدية
ما يقترضه وقد اباح الله اخذ اموال الناس ثم أمرهم بالانصراف وقال
للقاضيين الضالين حسين جزو ومحمد حمدان احكما بكفره لانكما قاضيان
يجب انقاذ ما تحكمان به فاخذاه وذهبا به الى السجن وامرا بوضع ثلاثة
قيود في رجله وغل في عنقه ثم ذهبا الى منزل يعقوب اخي التعاشي
ليتداولوا في الامر ثم رفعوا الى التعاشي حكما فخواه ان الشيخ الحسين كفر
وان عقوبته احدى ثلاث اما ان ينفي واما ان تقطع يده ورجله من خلاف
واما ان يسجن مؤبدا فاختر التعاشي هذه ظاهرا واضمر قتله فاوعز الى
السجان بوضعه في احدى غرف الاعدام ومنع الاغذية عنه فنقله اليها بعد ان
وضع في رجله اثني عشر قيذا وجنزيرين ومنعوا عنه الماء فكان يستغيث من
الظما وفي ذات ليلة رفع صوته بالاستغاثة طالبا شربة ماء ليستعين بها على معالجة
سكرات الموت فلم يعطوه شيئا وكانت ليلة شديدة الحر فلم نشمر الا بالمطر قد
هطل على السجن كافواه القرب مع اثنا في فصل لا تمطر السماء فيه في السودان
ابدا وتداعي ركن من اركان الغرفة المسجون بها فامتلات بماء المطر فشرب
الشيخ واغتسل وتوضأ وملا ابريقه وفاض الماء حتى تجاوز ركبته

وفي الغد دخل عليه السجانون واوسعوه ضربا قائلين انك ساحر فقال

لهم لست بساحر ولكن الله سقاني الماء لما طلبته منه فاخذوا منه الابريق
واصلحوا ما تداعى من ركن الغرفة وبعد ليلتين دخلوا عليه فألقوه في سكرات
الموت بثبات جاش غريب ولما توفى أمر التعاشى بعدم غسل جثته وتكفينها ودفنها
وصرح بان تلقى على وجه الارض لانه كافر بزعمه وأمر بكتمان أمر وفاته عن
ذويه الذين ظلوا يروحون ويغدون الى السجن حاملين له الاطعمة والملابس
فكان السجناء يأخذونها منهم ويعودون لهم قائلين ان الشيخ يأمركم
باحضار كذا وكذا من الاطعمة والملابس فيسرعون باجابتهم وهم لا يعلمون
ان الشيخ مضت على مفارقتها الحياة بضعة أسابيع وجثته قدمت غذاء للنسور
وظلوا على هذا الحال زهاء شهر من الزمان حتى أمر التعاشى عقيبها بمصادرة
امواله وأخذ نسائه فعلم ذووه انه فارق الحياة

أما وفاته فقد كان لها تأثير سيء عند الاهلين واظهر المسجونون حزنهم
عليه وكان له تلامذة عديدون اختلفوا وخافوا الايقاع بهم. ولا بأس بايراد لمعة
من ترجمته اتماما للفائدة فنقول. هو من قبيلة صغيرة في الجزيرة قدم القاهرة
صغيرا وتلقى العلوم بالازهر الشريف وبرع في العلوم العقلية وكان ذا ذكاء
عظيم ودين متين حتى قال أحد مشايخه الازهريين انه لم ير سودانيا يماثله ذكاء
ولما قفل راجعا الى دياره وهبت ثورة المهديونية صادفت هوى في قلبه
لانه كان ناظرا اليها من الوجهة السياسية وقد تقدم أنه لما قابل المهدي
ونصحه بقصيدهته التي أودعها مغامر كثيرة ندم ولم يعد قادرا على احتمال
معاشرة المهديونية فكان يقضى اكثر أوقاته في قرية بالجزيرة راضيا بالحمول
والبعد عن المهديونية وشرورها حتى استدعاه التعاشى وكلفه قراءة درسين
في الحديث والمواريث وكان قصده من ذلك الحجر عليه بام درمان تمهيدا

لما حل به من القضاء المحتوم

وعلى ذكر الشيخ الحسين نقول ان من الوشايات التي كان التعايشي يقبلها ويبيطش بالموشى به ان يقال له ان فلانا من أهل العلم لانه يوقن اذ ذلك بان من كان عالماً لا بد ان يكون غير راض بالمهدوية وفي ذات يوم قال ان العلماء مفسدون في الارض ولا امان لنا من مفسدهم التي يفرسونها في افئدة الناس الا يقتلهم ومثل العالم في البلاد كمثل شجرة في وسط مزرعة تاوى العصافير اليها وتقتات بثمار المزرعة وهكذا العالم ياوى اليه الناس ثم يبيط فيهم معارفه التي تأكل ايمانهم وتصديقتهم بالمهدوية كما تأكل العصافير ثمار المزرعة فكما انه لا سبيل لحفظ المزرعة من عبث العصافير الا بقطع الشجرة كذلك لا سبيل لحفظ عقائد الناس في المهدوية بغير قتل العلماء

وخالصة القول ان الشيخ الحسين كان اعلم أهل السودان ومن اكبر الذين شايعوا المهدوية في بدايتها وقد رأيت ما حل به من الانتقام مثل كثير من الذين ساعدوا المهدي وأعانوه على دعوته ومن اعان ظالماً ساط عليه

خفراء السجبن

كل خفراء السجبن والسجبانين من أقارب السائر السجبان أي من قبيلة الجوامعة التي عرفناها فيما تقدم من هذا الكتاب وجلهم من أبناء السفاح الذين يقال لهم (عينة خاله) فاذا سألت واحداً منهم عن اسم أبيه يجيبك بقوله «أنا ابن أخت فلان» ولم اسمع بواحد منهم اسمه من الاسماء المألوفة والاعلام المعروفة كمحمد واحمد وغيرهما بل لهم اعلام هي في الحقيقة صفاتهم مثال ذلك ان احدهم اسمه (شقيب) ومعنى هذا الاسم «الصارع اي انه

يصرع كل من صارعه وآخر اسمه « كبه كاه » ومعناه ان خلاله كلها مما
يمجه الانسان ولا يقبله احد وقس على هذين العلمين سائر اسماء الخفراء
والسجانين

وهؤلاء لا يدفع لهم التعاشي مرتبا ولا يجري عليهم رزقا فاذا ذهبوا
الى بيت المال طالين اعطية قابلهم موظفوه بالاستغراب فائين كيف تطلبون
عطاءً من بيت المال وعندكم من الناس المسجونين من يمكنكم ابتزاز المال
منهم وضرب الضرائب عليهم وهم مرغمون على اجابة مطالبكم فكان امير
السجن يفرض الضرائب على كل مسجون بما يزيد عن طاقته وكان ابراهيم
حمزة عميد قبيلة (الانقرياب) الذي ذكرت امر سجنه كثيراً ما يؤدى تلك
الضريبة عنى اذ لم اكن املك درهما منها وكنافى ايام الاعياد والمواسم تؤدى
ضريبة فوق العادة عدا الضريبة الشهرية التى لامناس من دفعها وعدا
ماندفعه كل يوم وليلة للسجانين الذين كثيرا ما كانوا يأخذون ملا بسنا بدل الرشوة
ومن نظامات السجن ادخال المسجونين فى الغرف التى لامنفذ فيها
ليقضوا الليل فى فصلى الصيف والربيع فى الحر الشديد أما فى فصلى الخريف
والشتاء فينامون تحت السماء مقرنين فى الاغلال فراشهم الارض وغطاؤهم
السماء يحيط بهم السجانون بايديهم السياط ويأمر ونهم بالاضطجاع على جنب
واحد فاذا تحرك احد هم حركة ولو خفيفة اوسعوه ضربا بالسياط

الايام الاولى فى السجن

لما ادخلونى السجن ضاعفوا قيودى حتى بلغت ستة قيود ثم
انتدبونى مع آخرين لحفر بئر فى منزل امير السجن المجاور للسجن فكان

اثنا يحفران بداخل وأنا أجذب الاناء الذي يضعان فيه التراب وكان هذا الاناء من الحديد وورنه لا يقل عن خمسين رطلا والحبل الذي أجذبه به جنزير من حديد فتورمت ككفاى بسبب ذلك وسالت الدماء منهما والسجانون حولي يضربوننى بالسياط فمددت يدي لهم با كيا مسترحما من ألم الجروح التى بهما فما كان منهم الا ان ضربونى بالسياط عليهما فوقعت مغشيا على فاخذوا يضربوننى ضربا مبرحا

شارل نيوفيلد

والمؤلف مقر ونان فى القيود

ذكرت اننى فى الليلة الاولى التى سجنتم فيها كنت مع شارل نيوفيلد ثم فرقوا بيننا وكان كثيرا ما يجتمع بى كلما لاحت له فرصة فى غفلة السجانين الذين كانوا قد تلقوا عن التعايشى تعليمات سرية بالحيلولة بيننا خشية ان نتفق على الهرب

وفى ذات يوم كان السجان الاكبر مارا فوق وقع نظره علينا فامر بجعلنا فى قيد واحد زيادة فى تعذيبنا وبعد بضعة ايام أصبت بحمى شديدة كادت تودى بحياتى وأصيب شارل نيوفيلد باسهال شديد يضطره الى الذهاب الى المرحاض كل خمس دقائق وأنا بسبب شدة الحمى لا أقدر على القيام من مضجعى وكان الفصل صيفا شديد الحر فتقب ثوبا فى الارض بجوار مضجعنا لقضاء حاجته فكنت على ما بى من الم الحمى فى أشد حالة من نتن رائحة المرحاض الذى بجانبى وظللنا على هذه الحالة السيئة مدة خمس ليال

ثم مرت بنا ذات يوم أم احدي نساء أمير السجن وكانت مصرية من أهل

الخرطوم فوقفت وسلمت علينا وهي باكية متحسرة وسألتنا لماذا قرتما في
 قيد واحد فقلنا لها هكذا أمر أمير السجن فذهبت متشفعة ومسترحمة لنا
 فقبل شفاعتها وأمر بوضع كل واحد منا في قيود على حدته

أمير السجن في منزله ونسائه

لامير السجن دار بالقرب من المسجد لم ينفق في تشييدها قرشا بل كان
 يشغل المسجونين في بنائها

وكان عنده من النساء خمس عشرة امرأة منهن واحدة مصرية من اللواتي
 أخذن مسبيات من الخرطوم والبقية من أجناس مختلفة من السودانيات
 وكان له حارس اسمه طنبل الشايق يجلس على باب المنزل وله سلطة كبيرة
 في السجن اذ لا يؤذن بادخال طعام الى أحد المسجونين الا اذا رآه طنبل
 فاذا كان جيدا أمر بادخاله الى منزل أمير السجن واذا كان متوسطا دعا
 بقية الخفراء الى الاكل منه وقل ان يتركوا لصاحبه ربه
 وقد أطلق المسجونون على طنبل لقب (شنقل منقل) ومعناه المنشار
 يأكل صاعدا ونازلاً

هذا وقد ذكرت الضريبة الشهرية التي كنا نؤديها الى أمير السجن وعدا
 ذلك فانه كان يجمع المسجونين كلما أراد ان يشتري محظية أو يتزوج امرأة جديدة
 أو يولد له ولد ويخاطبهم قائلاً انكم لا تجهلون اني لست تاجرا ولا زارعا بل
 اتم زراعتي وتجارتى فعليكم ان تجمعوا الى مائة ريال لاننى أريد الزواج أو
 ولد لى ولد نم يضرب لهم موعدا للدفع فاذا تأخروا أمر السجنانين
 بتعذيب المسجونين فاذا كان الفصل شتاء يكون التعذيب بصب الماء البارد

على اجسامهم ليلا مع الضرب بالسياط واذا كان الوقت صيفا وضعوا الاغلال في اعناقهم وجردوهم من ملابسهم واجلسوهم في الشمس مع الضرب بالسياط أيضا كل ذلك عدا ما تؤديه الى السجناء والخبراء فكل واحد الحق في طلب ما يريد من المسجونين مثل مطالب اميرهم التي هي الضريبة الشهرية وضريبة المواسم والاعياد وضريبة الزواج وضريبة الاولاد وعدد الخبراء يبلغ المائة ورؤسائهم اربعة لكل واحد منهم نوبة يوم وليلة يتصرف في خلالها التصرف المطلق بدون ادنى معارضة من امير السجن

صلاة المسجونين

من نظامات السجن ان المسجونين يصلون الصلوات الخمس جماعة ولهم امام منهم وفي كثير من الاحيان تكون وقوفا في الصلاة فيهجم علينا الخبراء بالسياط ويضربوننا بحجة اننا لم نحسن الصلاة فنفرع وتترك الصلاة ونهرب مذعورين

وفي احدى ليالى الصيف قنا لصلاة المغرب التي بعد انتهاءها يدخلوننا الى الغرف التي تقدم لنا وصفها فرجوننا الامام ان يطيل القيام والسجود لتتمكن من استنشاق النسيم في خلالها ففعل وكان الخبراء ادركوا ذلك فوثبوا علينا بالسياط واوسعونا والامام ضربا ففترقنا شذرا مذر واسرعنا الدخول الى الغرف

ضريبة ريال كل يوم على المؤلف

... سقلت ان للمسجونين يدخلون الغرف في ليالى الصيف وفي كل ليلة

يموت بعضهم اختناقاً وفي إحدى الليالي اتفقت مع أمير السجن على أن ادفع له في كل ليلة ريالاً وهو في نظير ذلك يأمر بتركي جالساً عند باب الغرفة لاستنشق الهواء من شقوق الباب

ولقد كنت لأملك قرشاً من هذا الريال ولكنني أقدمت على الاتفاق معه رجاء تركي تلك الليلة ففني الخبر إلى أحد معارفي وهو يوناني اسمه الخواجه مانولي ديا كويني كان تاجراً في الخرطوم وله في معي صداقة قديمة ومعاملات مذ كنت حاكماً على أقاليم خط الاستواء وبعد سقوط الخرطوم وقع أسيراً في قبضة المهدوية فاستعمله التعايشي في صناعة الصابون فأرسل إلى أمير السجن وتعهد له بتأدية الريال في كل يوم وإن لا يطلبني به بل يدفعه هو في نظير مطالب قديمة كانت لي في ذمته وبذلك تمكنت من الجلوس خلف الباب كل ليلة واستمر الخواجه مانولي يؤدي عني ضريبة الريال حتى من الله عليّ بالخلاص لما دخل اللورد كتشنر أم درمان فاتحاً

النادرة العباسية في السجن

رأيت أن أعنون هذه النادرة بهذا العنوان لما تراه فيها من الخبر الغريب الذي أقصه عليك وقد كنت ذكرت أن التعايشي زوجني امرأة من نساء الخرطوم اللاتي كن عنده وكانت لها أخت متزوجة بسوداني اسمه «عباس» وفي ذات يوم دخل عليّ بضعة أشخاص من البقارة وكنت وقتئذ جالساً بالقرب من عبد متهم بقتل واسمه (عاكيش) يخاطبني أولئك الأشخاص قائلين يا فوزي فقلت نعم فقالوا أصدقنا ما هي قرابتك من عباس فقلت أنه عديلي فقالوا كلا بل هو ابن أختك فقلت كلا كيف يكون ذلك وأنا

مصرى وهو سودانى فقالوا وضح لنا الحقيقة فقلت لهم ان خليفة المهدي عليه السلام زوجنى امرأة عباس هذا زوج أختها فقالوا يظهر انك لم تفهم كلامنا لانا نسألك عن (عباس خديوى مصر) وفي غضون ذلك كان شارل نيوفيلد قد وقف بجانبنا فالتفت اليه وقلت ان الفرق بينى وبين عباس خديوى مصر كالفرق بين خليفتم وبين «عاكيش» هذا وأشرت الى العبد السالف الذكر فقالوا كذبت فقد علمنا انك خاله ثم انصرفوا عنى وذهبوا الى امير السجن فقصوا عليه ما دار بينى وبينهم من الكلام فغضب وامر الخفراء باحضارى فساقونى اليه بعد ان اوسعونى ضربا ولما وقفت بين يديه امر الخفراء بضربى حتى صرت استغيث فلا اغاث وبعد ان مزقوا جسمى امرهم بالكف عنى وقال لى يا كافر انت شك فى خليفة المهدي عليه السلام فقلت ياسيدى ما الدليل على ذلك فقال انك قلت للذين كانوا يحادثونك «خليفتم» ولم تقل خليفة المهدي عليه السلام وهذا يدل على كفرك فانكرت اننى قلت هذه الكلمة واستشهدت بشارل نيوفيلد فاحضره بحالة تشبه الحالة التى احضرونى بها وبعد ان اوسعوه ضربا سألوه فانكر انه سمع هذه اللفظة منى وأصر على الانكار فقال له انت تشهد لابن عمك وامر امير السجن بجلد شارل نيوفيلد خمسين جلدة وضاعفوا قيوده

اما انا فقد ضوعفت قيودى واغلالى وعلت يداى الى عنقى وامر بوضعى فى الغرفة المعدة لمن يراد قتله وهى التى اعدم فيها القاضيان احمد بن على والحسين بن الزهراء اللذان تقدم لنا ذكرهما وهم امير السجن بالذهاب الى منزل التعايشى لاستصدار امر باعدامى وفي الحقيقة لو ابلغه القصة لامره بذلك فترامى المسجونون على اقدامه يرجونه الصفح عنى فقال لهم لا بدمن

ان يحضر عشرين ريالاً فدخل على صديقاى ابراهيم حمزه ومحمد الشافعى عميدا
 بربر اللذان سجنا من أجل تهمة الاشتراك في تهريب سلاطين باشا وقالوا
 ان أمير السجن وعدنا بالصفح عنك على ان تدفع له عشرين ريالاً فقلت لهما
 كيف ذلك وانما لا تجهلان اننى لا املك قرشا من العشرين ريالاً وليس
 عندى متاع ولا أرقاء غير عبدى المسمى «لدوم» وهو لا يبلغ ثمنه عشرين ريالاً
 مع ان قيمته الادبية عند توازى الآلاف من الريالات لانه كما تعلمان يطوف
 على منازل اصدقائى واخوانى المصريين يجمع منهم ما تجود به مروءتهم
 لغذائى وغذاء زوجتى وولدى فاذا كان لا يعفينى فاننى اختار الموت لارتاح
 ويبقى عبدى «لدوم» ليقوم بحمل تغذية عائلتى الشقية اذ هو ينفق كسبه
 عليها زيادة على ما يتبرع به المصريون لى فرقالى ورثيا لخالى ودفعا العشرين
 ريالاً من مالهما وخلصانى من هذه الورطة التى لا ارتاب ان التعايشى يأمر
 باعدامى لو وصلت اليه هذه القصة فجزاها الله خيرا الجزاء وعوضهما عن ثروتهما
 وما خسراه من الاموال الطائلة التى اتفقاها فى السجن خيرا أما مشار القصة
 فان احد اعدائى وشى بى عند اقارب التعايشى وافهمهم اننى خال مولانا
 الخديوى عباس حلمى باشا وقصده من ذلك زيادة تعذيبى او اعدامى لان
 انتسابا كهذا مما يضر ضررا بليغا بل يكون سببا للهلاك فتأمل فى غباوة هؤلاء
 المهديين وظلمهم

ذکر ابطال القهوة

من غرائب احكام التعايشى انه امر بابطال الاماكن العمومية التى تباع
 فيها القهوة ويجلس الناس فيها للسمر واصحابها فى الغالب من المصريين وهى عبارة

عن الكواخ من الخوص فيها كراسي من الخشب والجلد تشبه (العقرب)
 وفي بداية الامر اصدر امرا بإبطال المقاعد وان لا يجلس شاربو القهوة الا على
 الارض فاستعاض اصحاب القهاوى عن المقاعد بالحصر السودانية التي تسمى
 (برشا) ثم وشي له واش بأن الذين يتسامرون في القهاوى جلهم من المصريين
 وانهم اذا جلسوا في تلك الاماكن يخوضون ويتحدثون في شأنك وهم يطلقون
 عليك اسم (الزر) فاذا جلسوا تحدثوا مع بعضهم ماذا فعل الزر فيحيون
 بعضهم فعل كيت وكيت فاصدر امرا بإبطال القهاوي وجرت في ذلك محادثات
 ومداولات كثيرة وكان التعايشي ميالا الى وضع قانون يحرم به القهوة كتحریم
 الدخان الا انه عاد الى الصواب وقال لولا اني رأيت المهدي يشربها لحرمتها
 ولاغرابة في ذلك فان اعراب السودان الغربي الذين منهم التعايشي
 لا يعرفون القهوة ولا البن ولما قدموا الى الخرطوم ورأوا الكثيرين من
 الاهلين يشربونها كانوا يجاهرون بانكار ذلك ويعدونه من دلائل
 قلة العقل وفقدان الرشد فيقولون ماهي الفائدة من شرب شي شديد الحرارة
 مر الطعم أسود اللون وبعضهم يسميها «القطران» ومن الشتائم التي
 يشتمون بها الاهالي (ياشاربي القطران) ولهم نوادر كثيرة في القهوة لابس
 من اراد بعضها لما فيها من التفككة. منها ان اعرابيا قدم له «فنجال قهوة» ففتح
 فاه فلما وصل جوفه كان سببا في موته ومنها أنه نزل اضياف من أهالي السودان
 على أحد امراء البقارة فقال لهم انتم اضيافى وانا ابذل الجهد في اكرامكم اكراما
 حقيقيا اقدم لكم فيه الاغذية من الخبز واللحم واللبن والعسل اما الشيء
 القبيح الاسود فانه يدل على قلة عقل من يستعمله فلذلك لا اقدمه لكم ابدا
 فضحكوا وقالوا نحن لا نكلفك ذلك بل نصنعه بايدينا وتتناوله فقال لهم لو لم

يكن قدركم معظما عندي لما سمحت لكم باستعمال هذه الدنيا في منزلي
وقس على ذلك وقد ذكرنا ان التعايشي كان يريد ان يحرمها لولم يعارضه الناس
ويخبرونه بان تجارة البن منبع ثروة عظيمة لبيت المال وانه هو رأى المهدي يشربها
ولولا ذلك لحمل الناس على تركها فتأمل

ذكر ختان المسيحيين واجبارهم

على تعدد الزوجات

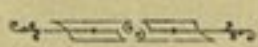
كان في السودان تاجر من اهل حلب الشهباء مسيحي اسمه «جورج
اسلامبوليه» يتردد بالتجارة بين الخرطوم وكردفان حتى ادركته الثورة
المهدية في مدينة الابيض فغادرها واسلم نفسه للمهدي صيانة لامواله وجاهر
باعتناق دين الاسلام ولكنه مالبث طويلا حتى نكب وصادرت امواله
واتهم بانه يبطن النصرانية ويقلد اطفاله الصلبان من داخل الملابس وانه
يراسل الحكومة في الخرطوم فضبط كتاب منه باحدي اللغات الاجنبية
فطلب التعايشي مترجما يترجم له الكتاب فتصدي للترجمة يهودي اسمه
(داود منديل) مع انه لا يعرف لغة اجنبية وتوعد جورج بانه اذا لم يدفع له
خمسمائة ريال ترجم الكتاب بما يوجب قتله فاسرع جورج باجابة ماطلبه
اليهودي الذي ترجم الكتاب بان جورج يدعو الحكومة للتسليم للمهدوية
ويحذرهما مغبة عدم التسليم فسجن الرجل وصادرت امواله ثم اطلق سبيله
وقدم الخرطوم مع المهدي وهناك اجتمع برجل آخر حلبي ايضا
اسمه (نعوم العجبي) وتصاهرا بزواج اولادهما وكان نعوم مدعيا انه يعلم
بعض العلوم الكيماوية فذهبا الى التعايشي ذات يوم وقال انهما يعرفان

بصناعة صك النقود وانهما قادران على تحسين حالة المعاملة فقول طلبهما من
 التعايشي بالاستحسان فكتب الى أمين بيت المال يأمره بمساعدتهما على جلب
 ما يطلبانه من القوالب بواسطة الترسانة فاخذ يماطلها ويعدهما من يوم لا خرج حتى
 يدبر حيلة للايقاع بهما تخلصا من استيلائهما على دار الضرب الذي يتسرب من
 ايرادها شيء كثير الى جيب النور الجريفاوي امين بيت المال واقاربه القابضين
 على منابع تلك الايرادات. وبالجملة فانه اخذ يقرر بهما حتى انفق نحو مائة
 جنيه من مالهما في سبيل تهئية القوالب واعداد المعدات

ولما يتساوا يقنا أنهما خدعهما النور الجريفاوي ذهابا متظلمين الى
 الطاغية التعايشي الذي استدعى النور وعنفه على ما ارتكبه فاخذ يعتذر بان
 ابدال المسكوكات يقع بيت المال في أزمة مالية شديدة اذ تكون النقود
 القديمة بأيدي الناس ثم يطلبونها مما ضرب حديثا ثم ذيل اعتذاره بأن
 ذينك الرجلين لا يزالان نصرانيين فسأله التعايشي كيف يكونان كذلك
 وما هو الدليل على صدق هذا القول فقال الجريفاوي انهما وسائر الذين
 أسلموا على يد المهديوية لا يزالون غلقا لم يختنوا حتى الآن وهناك دليل
 آخر وذلك انهم لا يزالون يحافظون على توحيد الزوجة فغضب التعايشي
 وأرغى وأزبد واستدعى القضاة وسائر المسيحيين الذين تظاهروا باعتناق
 الاسلام وفي مقدمتهم جورج ونعوم فسألوهم هل أنتم غلف فاعترفوا
 بذلك فدخل القضاة على التعايشي وأخبروه بهذا الاعتراف فخرج علي عادته
 متسربلا سرا بال القهر وخاطبهم بعبارات التعنيف ولم يسكن غضبه حتى بالغوا
 في الاعتذار بانهم لم يمنعهم من الاختتان غير الخوف من ألم الجروح فقال لهم
 اذهبوا واختنوا على يد متطبب اسمه شعبان فذهبوا وهم لا يصدقون بالنجاة

وشرعوا في الاختتان وكانت عدتهم نحو أربعمائة فكان الرجل يختن مع ابنه وأخيه ومنهم من قاسوا آلاما شديدة من الجروح ومكثوا نحو شهرين طريحي الفراش

ثم بعد ذلك ذهبوا إلى التعايشي إليه متظلمين من عدم مقدرتهم على تفتات أكثر من زوجة لما هم فيه من شظف العيش والفقر المدقع فلم يقبل منهم بل توعدهم فعادوا وشرعوا يعتقدون الجوارى ويتزوجون بهن لأن المسلمين لا يرضون بمصاهرتهم وعلى ذكر ختان هؤلاء نورد هنا قصة مصرى مكث عدة سنوات لا عيش له ولا كسب إلا من تهديد جماعة المسيحيين بأنه سيعرض على التعايشي أنهم غلف فكانوا يدارونه ويؤدون له ماشاء من المال حتى جاءت حادثة جورج ونعوم بما لا يستطيعون دفعه فكانوا يتذمرون منهما ويستخطون عليهما زيادة على ما أصابهما من ضياع مالهما ومقاساتهما آلام الجروح وزد على ذلك اضطرابهما إلى تعدد الزوجات التي لم يجدوا منه مفرًا



ذكر سجن ابن المؤلف

مر الكلام على أن زوجتي كانت على وشك الوضع لما سقطت مدينة الخرطوم وفي شهر ذي القعدة سنة ١٣٠٢ سكنت بالخرطوم ابتغاء الحصول على قابلية مصرية تساعدني على الوضع وقد تقدمتني بسبب ذلك وشي بي للتعايشي واهتمت بانني انما قدمت الخرطوم لتدبير مكيدة ضد المهديوية ولذلك أمرت أنا وسائر المصريين بمغادرة الخرطوم وسكني أم درمان التي بعد أن وصلت إليها بإيام قلائل وضعت زوجتي غلاما سميته (محمد فوزي) ولما أن سجنتم كان عمره زهاء عشر سنوات فوقت عائلتي في

الشقاء الاليم ولما مضى عليّ ثلاث سنوات ونصف في السجن كان سن ابني هذا عشر سنوات وشهورا فذهب في أحد الايام الى التعايشي باصيا مسترحما يسأله ان يطلق سراحي فرق له وقال له اذهب الى أهلك وأخبرهم انني ساطلق عقال أبيك في الغد فاقضوا ليلتكم هذه بفرح وسرور فذهب الولد واخبر اخوته بذلك فقضوا تلك الليلة بفرح وسرور

وفي الغد ذهب الولد مستنجزا للوعد فاعرض عنه التعايشي فصار يتعرض له حتى التفت اليه غاضبا وقال لمن حوله « هل يلد الثعبان الا ثعبانا » فقالوا نعم فقال « وهل يحسن بالانسان ان يربي ابن الثعبان » فقالوا كلا فقال أليس هذا الولد ابن المنافق ابراهيم فوزي فقالوا بلى فقال لا بد من الحاقه بابيه فاستدعى كاتب أخيه يعقوب المسمى « بان النقاموسى » وقال له خذ هذا الولد الى بيتك وضع في رجليه القيود ووكّل به غلمانك يحرسونه ويشغلونه بسياسة خيلك ودوابك

فأخذه بان النقا ووضع في رجليه القيود ومع كونه كان يراعيه ويرأف به في السر فانه كان يلاقى من عبيده وخدمه المذلة وسوء المعاملة

والسبب في اخلاف التعايشي ما وعد به وعدوله الى حبسه انه في نفس اليوم كانت جواسيسه قبضت على واحد من جواسيس اللورد كتشتر جاء أم درمان من قبل سلاطين باشا لارسال مكاتيب الى بعض الناس وكان ذلك الجاسوس يسأل بعض الناس هل ابراهيم فوزي حي يرزق وهل شارل نيوفيلد على قيد الحياة وسأل عن بقية المسجونين بتهمة تهريب سلاطين باشا كبراهيم حمزة وغيره من الذين مر ذكرهم فقبض علي ذلك الجاسوس وكانت الحملة المصرية وقتئذ في دنقلا

والخلاصة ان الولد بقي محجورا في منزل بان النقا الى يوم دخول اللورد
 كتشنر أم درمان ظافرا حيث أصيب بان النقا بجروح بليغة كانت من أقوى
 الاسباب على نجاة الولد لانه لما انهزم التعاشي وركن الى الفرار اتقد الى بان
 النقا يأمره باللاحاق به مستصحب الولد فلم يستطع مغادرة فراشه بسبب الجراح
 ولما دخل كثير من اخواني الضباط المصريين منزل بان النقا ورأوا
 الولد فيه وضعوا الحراس علي المنزل فحفظ من عبث بعض الاعراب
 الموالية للحكومة وهم الذين اعملوا النهب والسلب على أثر دخول الجنود المدينة
 أماتأثير حبس ابني علي فكان سيئا جدا حيث فقدت الرشد ولقد أخبرني
 من كانوا حولي أنه لما فاجأني ذلك الخبر قطعت سبحتي وقلت وأنا ذاهل يا الله
 رضيت ببلاتك في نفسي ولزمت طاعتك شاكرًا على السراء والضراء فابتليتني
 بحبس ابني لا ركن الصلاة وسائر العبادات

ولما عدت الى صوابي واخبروني بما قلت أسرعت بالتوبة والاستغفار وعدت
 الى ما نافية من ملازمة الفكر والانقطاع الى الذكر ولم أعلم ان رحمة الله تعالى
 ستدركني وابني الذي صار حبسه سببا لصيانة من حبس عنده فالحمد لله
 الذي انقذني وابني وجعل لنا بعد الضيق فرجا وبعد الخوف أمنا ونجاة

التعاشي قبل حملة دنقلة

لما تمكن التعاشي من قهر أقارب المهديّ وسجن مناظره الخليفة
 شريفا كما تقدم اطلق لاقاربه البقارة العنان في البلاد يظلمون وينهبون
 وعكف على شهوته وصار يركب العربة التي ذكرنا في اخبار فتوحات خط
 الاستواء ان الطيب الذكر غردون باشا جلبها من القاهرة ليقدمها هدية الى

الملك « امتيسه » صاحب أوغنده وقتئذ

على ان هاته العربية لم تكن مقصورة على ركوبه بل كانت تسير في شوارع المدينة ليلا فيها الخصيان ليقبضوا على النساء البارعات في الجمال ويمضوا بهن الى دارالتعايشى فيلبثن بها حتى اذا قضى وطره منهن أعادوهن الى بيوتهن وقد كانت بداية عملهم هذا اثر القبض على الخليفة شريف وسائر أقارب المهدي الذين نفوا وقتلوا في زمن تلك الحوادث المريعة ولا فرق بين امرأة ذات بعل أو أيم أما ذات البعل فان الخصيان يفهمون بعلها أن خليفة المهدي يريد اسماعها مواعظه التي يسمونها (المذاكرة) وأما التي لا بعل لها فليسوا في حاجة الا الى أخذها وادخالها العربية

ومن اللواتي أخذن بهذه الصورة زهراء بنت محمد شقيق المهدي الذي تقدم انه قتل يوم الهجوم على الابيض عاصمة كردفان وكانت تحت أحد أقاربها الذين تفاهم التعايشي الى خط الاستواء وكذلك فعل بينات حامد شقيق المهدي وقد مر أنه قتل في احدي وقائع جبال قدير

وقد كان التعايشي متزوجا بأُم كلثوم بنت المهدي وأولدها بضعة أولاد ثم طلقها لغير ذنب جنته غير انه أراد الاقتران باختها مريم لجمالها المفرط حيث تزوجها ودخل بها بعد وقوع الطلاق بيوم وليلة

أما المظالم فقد تضاعفت ويئس الناس من الخلاص بثورة داخلية حيث تتمكن الطاغية من القضاء على كل قوة يتوقع منها القيام للخلاص من ظلمه

وبالجملة فان حلقات المصائب قد استحكمت ولم يبق للناس صبر على الخطوب المتوالية والمصائب النازلة على رؤسهم حتى أنهم كانوا ينقطعون في

الخلوات يضرعون الى الله أن يخلصهم من هذا البلاء واذا سمعوا بشيء من أخبار الحملة ظهرت عليهم علامات الفرح والسرور وبدلوا الصدقات للفقراء والمعوزين شكرا لله تعالى وقد كان التعايشي أول من أنبأ بتقدم الحملة علي دنقلة قبل تقدمها ببضعة شهور وسيأتي ذكر ذلك

جواسيس المهدوية

قلنا فيما مر ان أهالي مديرية الحدود كانوا ميالين الى دعوة المهدوية في بداية امرها وخصوصا (البرابرة) الذين يسكنون بين أسوان وحلما وقد أشرنا الى العذاب الممين الذي أرهقهم به النور الجريفاوى في بربر اذ كانت مغبته تفورهم عن المهدوية وانحراف جلهم عن موالاتها وقبل ذلك كان جلهم يتقربون الى المهدوية بابلاغها أخبار الحكومة بغلو فاحش في اسناد العيوب اليها ونسبة الوهن الى حامياتها في الحدود وبقى كثير منهم على الولاء حتى قتل عبد الرحمن النجومى حيث كانوا يستعدون لمعاونتته والانضواء الى لوائه بالرغم عن فظائع النور الجريفاوى التي عامل بها تجارهم لولا الحيلة التي اتخذها السير غرانفيل باشا سردار الجيش المصري وقتئذ ويقال ان الاسباب التي دعت هؤلاء الى التمسك بولاء المهدوية والانحراف عن الحكومة هي تحرير الارقاء وابطال النخاسة واذ ذلك أى في بداية دعوة المهدوية كان كبراء مديرية الحدود كما قلنا يرسلون أمراء المهدوية بالاخبار ويتطوعون لهم بالتجسس وفي كثير من الاحيان كانت أخبار سواكن وما يقع فيها من الحوادث تبلغ التعايشي قبل وصول بريد سواكن اليه فكانوا اذا حملها البرق من سواكن يتلقاها الرواد في

الحدود فيذهبون بها على ظهور الهجن الى بربر وقد اتهمت الحكومة
كثيرين من هؤلاء الكبراء وحاكمتهم أمام المجالس العسكرية ولكنها لم تتمكن
من قطع دابر جاسوسية التعايشى التي لم تعد بفائدة عليه

وفي الايام الاخيرة صار للمهدوية جواسيس بعضهم يتجسسون ليونس
الدكيم أمير دنقلة وبعضهم للتعايشى وآخرون للزواكى أمير بربر
وكان من أشهر جواسيس التعايشى رجل يدعى ولد الحسين وأصله سودانى
وآخر يدعى أباشعبان وهو مصرى من سكان مديرية الحدود وللأول منهما
نادرة مع سلاطين باشا وهى أنه وشى به الى التعايشى بأنه على أهبة الفرار حتى
خيف من التعايشى على سلاطين باشا الذى تمكن من استمالة القضاة الى
جانبه حتى وشوا بولد الحسين الجاسوس عند التعايشى فخبسه وارتاب فى
صدق ما رفعه اليه من الانباء

أما أبو شعبان فكان التعايشى ذائقة عظيمة به وكان يتردد على
الحدود المصرية ومع شهرته التي لا يبجلها جواسيس قلم المخابرات كان يعود
دون أن يصيبه مكروه حتى ذهب بعض الناس الى انه مأجور لقلم المخابرات
ومتواطىء معه على ان لا يبلغ التعايشى خبرا الا بموافقة
والحاصل انه كان للتعايشى جواسيس ولكنهم قلما يرفعون اليه
ما يستفيد منه العلم بشىء قبل وقوعه

على ان جواسيسه رفعوا اليه قبل حملة دنقلة بيضعة شهور ان الحكومة
مصممة على الزحف الى دنقلة واستدلوا على ذلك بأنها جمعت الملاحين الذين لهم
خبرة بالشلالات الواقعة جنوب وادى حلفا ولما اتصل به هذا النبأ أمر باخراج
تجار المصريين من البلاد وضرب لهم موعداً يخرجون فيه ومن تخلف منهم

صودرت أمواله ونفى الى أعالي النيل

هذا ما فعله حينما اتصل به الخبر وهو يدل علي ما مر من عدم حصول

فائدة للتعايشي من هذا التجسس

ويقولون ان أغلب جواسيسه متفقون مع الحكومة عليه ومنها يتلقون

ما يرفعونه اليه ولا ينافي ذلك ما قلناه من ابلاغهم اياه أمر الحملة قبل حركتها

بيضعة شهور اذ يحتمل انهم موعز اليهم بهذا الامر ليرى الموعزون ما يكون

من وراء ذلك

والخلاصة ان رواد التعايشي كان جلهم من أهالي مديرية الحدود وأخبارهم

ملفقة مبالغ فيها كقولهم للتعايشي ان حكومة مصر في رعب شديد وكلما طرق

آذان رجالها ذكرك ارتبكوا وكذلك أهلها فانهم يصرعون خوفا وحبنا كلما

سمعوا بذكرك فيتمايل طربا ويظن أن ما قالوه حق

علي انه يوجد في البلاد رواد ولكنهم قاصرون في ارتيادهم علي ضبط

السكيرين وصناع البوظة والمدخنين والذين يتاجرون بالدخان

وفي كثير من الاحوال يتناولون الرشاش منهم ويتركونهم ويلفقون

الدعاوى الكاذبة علي من كانوا مظنة المال ليتوصل بيت المال الى مصادرة

أموالهم بمجرد اتهامهم بوجود دخان أو بوظة في منازلهم وقد خطب التعايشي

يوما فقال ان القدر الذي يوجب مصادرة المال من الدخان هو ربع درهم

ومن البوظة ربع رطل وربما دفع المتهمون الالوف من المال بغية النجاة

من الضرب والتعذيب والاهانة ومصادرة المال

ذكر جلب الممنوعات من مصر

ومن أنواع جواسيس التعاشي ناس يجلبون له «الممنوعات» من مصر وهي الذخائر الحربية التي منعت الحكومة ارسالها الى السودان ولذلك أطلقوا عليها اسم «الممنوعات»

وقد تقدم ان التعاشي أنشأ معامل لتعبئة الخرطوش وغيره من ذخائر

الحروب

وقد مر الكلام على الرصاص في قصة الايقاع بالمقدم عمر الجملي وكذلك ماأناه المسمى كمال الدين الهندي الذي أحرق رفات قتلى الخرطوم ومثل باشلائهم أبشع تمثيل مدعيا أنه يستطيع اخراج صنف البارود من تلك العظام وقد ذكرنا فشل جميع هؤلاء الدجالين ماعدا اليوناني برديقاجي فانه وفق لاستخراج صنف البارود ثم احترق هو وواعوانه لما انفجرت عليهم آنية البارود

وقد كان نجاح هذا اليوناني متوقفا على ايجاد شيء كثير من العقاقير الكيماوية التي لا توجد في السودان لاتمام تجهيز «عجينة الكبسون» (وملح البارود) وغيرها من المواد القابلة للانفجار التي على محورها يدور عمل المعامل الحربية ولا سبيل الى ذلك الا بجلبها من القاهرة فاهتم التعاشي بهذا الامر واستقدم اليه النور الجريفاوي وكان يومئذ أمينا لبيت مال بربر وفاوضه في ذلك الامر فأشار عليه بالاتفاق مع جماعة من تجار بربر وأم درمان للاستعانة بهم على التحايل على تهريب تلك «الممنوعات» وهؤلاء التجار هم (عمر كشه) وأصله من أهالي سواكن (وعلى محمود الضوى) وأصله مصري من مديرية الحدود

استوطن أبوه بربر (وعبدالرحمن منصور) من أهالي أم درمان وصهر النور
الجرىفاوى فصار هؤلاء التجار ينفذون أعوانهم الى مصر فيتاعون الممنوعات
ويحتالون على تهريبها بوضعها في أكياس الارز ومن العجيب ان الحكومة
لم توفق لاجباط أعمالهم حتى استتروا على ذلك عدة أعوام وجابوا
مقادير عظيمة من الرصاص وغيره من العقاقير وتمكن أعوان على محمود
الضوى من استحضار ذخيرة من خرطوش مدفع « المترليوز » الانكليزي
الذى غنمته المهدوية من حملة الجنرال هيكس وكان التعايشى يؤدي لهم الاثمان
مضاعفة ويتجاوز لهم عن مكوس سلمهم التى يصدرونها الى مصر أو يجلبونها
منها تنشيطا لهم فكانوا يجلبون هذه الاشياء دفعتين فى العام وفي بعض
المرات بلغ ما جلبوه مقدارا عظيما من الرصاص وارتقت همة على محمود
الضوى الى انه ابتاع نحو ألف وعاء من الاوعية التى يسونها « شنته » وضع فى
كل واحدة خمسين خرطوشة جلبها من مصوع ويقال ان الحكومة لم
توفق الى معرفة حيلهم واجباط أعمالهم الا فى الايام الاخيرة
والحاصل ان هؤلاء التجار كانوا من أقوى الاسباب فى تقوية المهدوية
وامدادها بالذخيرة التى لولاها ما استطاعت محاربة الاحباش فى القلابات
والشلك فى فشوده وغيرهما من الحروب الاهلية التى شبت نيرانها فى دارفور
واكثر انحاء السودان وكان أبو شعبان الجاسوس الآنف الذكر ممن يجلبون
الممنوعات أيضا

ذكر غارة الدراويش على الواحات

لما افلح عثمان ازرق فى الفارة على (آبار المرات) وقتل صالح بك خليفة

كما مر وكان يونس الدكيم أميرا على دنقلة وقتئذ من قبل التعايشي وثمان
ازرق قائد للدراويش المعسكرين في الجهات الشمالية بالقرب من ضواحي حلقا
وكان عثمان هذا لا يبتعد عن الغارة علي الجهات الواقعة شمال حلقا طمعا
في السلب والنهب وكان يونس الدكيم يرسل الكتب تباعا الى التعايشي
مفعمة بالثناء على عثمان ازرق واقدمه وما حازه من النصر المتتابع في
وقائعه وسطواته التي أضرت بنا صنعا عن جملها ولم نذكر الا القليل منها اذ هي
أشبه بما يجري من عصابات السطو واللصوصية

وفي أوائل سنة ١٣١١ هجرية كتب التعايشي الى يونس الدكيم كتابا
بأمره باتخاذ عثمان ازرق في الف راكب علي ظهور الابل للغارة علي الواحات
وكان ذلك اجابة لالتماس يونس الذي كان يشحن كتبه الى التعايشي بذكر
الواحات وما فيها من المال الذي سيغنيه اذا أغار عليها فتحركت اطماع
التعايشي وأمره بالغارة عليها وأوصاه أن يفاجمها تحت ظلام الليل
فسار الالف راكب يقودهم عثمان ازرق وبعد ان مضى عليهم بضع ليال في
السير واقتربوا من الواحات أتخذ عثمان العيون ليأتوه بالخبر ففضوا الليلة
وعادوا في الغد وأبلغوه ان اعراب الواحات كثيرون جدا وأن أطنابهم
متدانية من بعضها وعندهم الاسلحة النارية وليس بينهم حامية للحكومة بل
هناك ضابط للشرطة ومهندس لحفر الآبار فخاف عثمان ازرق مغبة محاربة
أهل الواحات فعول على خديعتهم حيث زحف في مقاتلته حتى بات قريبا
من احيائهم ثم تقدم اليهم في الغد بصفة سلمية وأفهمهم ان يونس الدكيم
أمير دنقلة نازل علي مسافة مرحلة من حيهم وانه قادم لفتح مصر عن طريق
الواحات وانه جاء من قبله لبذل الامان لهم فانخدع الاعراب وراجت

عليهم حيلته ثم قال خمسة عشر عميدا من رؤساء القبائل وللمهندس اذهبوا
معي لمقابلة الامير فامتطوا الحمر وذهبوا معه وهو يخدعهم بقوله هو نازل وراء
هذه الربوة أو الغابة حتى مضى النهار كله وحينذاك ايقنوا بانهم خدعوا وان
القصود من ذلك ايصالهم الى دنقله التي بلغوها بعد بضع ليال

ولما وصلوا دنقله استقبلهم يونس الدكيم وأطلق واحدا وعشرين
مدفعا علامة الاتصار وكانوا في حالة سيئة من شدة ما نالهم من وعشاء السفر
الفتجائي ثم لم يلبثوا في دنقله الا ليلة وبعض يوم ثم أرسلوا الى أم درمان
تحت الحفظ

ولما مثلوا بين يدي التعايشي عاتبهم وألأن لهم القول قائلا نحن واياكم
اعراب وكلنا نبغض الترك الكفار وننفر منهم فلماذا لم تنضووا الى لواء
المهدوية وتحاربوا الترك الكفار الذين نبذوا الشريعة وتمسكوا بالبدع
وأصروا على الكفر

فأجابوه بقولهم نحن نتوب الى الله مما سلف ونحمد الله الذي قدر لنا
الخلاص من ربة الكفار ومن علينا برؤية وجه خليفة المهدي عليه
السلام فأمرهم بمبايعته فبايعوه ثم استدعى أحد التجار وأمرهم بالاقامة في
داره وخصص لهم مرتبات من بيت المال فقام التاجر بكل لوازمهم بمجد
وسخاء أما بيت المال فانه كان اذا نقدهم مرتب شهر ما طلبهم ثلاثة شهور
وهذا التاجر اسمه (البلال الاسيده) وهو رجل سخي مشهور بالرافة بالمصريين
الاسرى وخصوصا المؤلف وقد مكثوا على هذا الحال زهاء عامين كانت
حالتهم فيها تنتقل من سيء الى أسوأ

وفي ذات يوم استدعاهم التعايشي الى منزله بحضرة القضاة وأهل

الشورى وقال لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم أخبره بان
سرايرهم قد ملئت بالاخلاص للمهدوية وانه عليه الصلاة والسلام امره ان
يعيدهم الى اوطانهم دعاة للمهدوية وأمراء على عشائرهم ليصدقوا في الواحات
بدعوة المهديّة ويناوؤون الحكومة المصرية فرقصت افئدتهم طربا لما لاحت
لهم بارقة النجاة ولكنهم بكوا وانتحبوا وأظهرا كراهة ان يكونوا بعيدين عن
خليفة المهدي الذي كان يكثر الاحاح عليهم بوجوب الامثال لما اشار به الرسول
صلى الله عليه وسلم وهم يتأسفون وينتجبون وما زال بهم حتى تابوا
الى الطاعة وكتبت لهم صكوك الامارة وتلقوا التعليمات ونقدم بيت المال
تفقات السفر وشدد عليهم في موافاته بالضرائب التي يجلبونها من أعمالهم
فغادروا أم درمان وهم وجلون لا يصدقون بالنجاة حتى بلغوا الحدود المصرية
وهناك مزقوا المرقعات ودفعوا للحكومة صكوك الامارة ومنشورات
الدعوة واعلموها بما وقفوا عليه من ضعف المهديّة وانحراف الناس
عن طاغيتها وكانت نجاتهم في الزمن القريب من حملة دنقلة.

دنقلة قبل الحملة عليها

انتهينا في الكلام عن دنقلة فيما مضى من الكتاب الى ذكر المجاعة التي فشت
فيها سنة ١٣٠٦ والى ذكر عزل عبد الرحمن النجومي عن امارتها وولاية
يونس بن الدكيم
وهنا نشرع في الكلام على مدة يونس التي ابتدئت من ذلك العهد
تبييننا للمظالم التي دمرتها فنقول

لما تفشت المجاعة في دنقلا وغادرها عبد الرحمن النجومي الى حيث لاقى حتته
 في (طوشكي) ضعف أمر الاجزاب التي كانت متشعبة له وهجر أهالي
 دنقلا الشمالية أوطنهم فارين من وجه الظلم حيث لحقوا ببلاد مديرية الحدود
 وكان يونس قد عزل كل الجباة الذين أصلهم من أهالي السودان الاوسط
 أي الذين لم يكونوا من البقارة وعين نحو سبعين جايا من عبيده بدلهم
 أما طريقة جباية الخراج فقد ذكرنا فيما مر من هذا الكتاب أن الضريبة
 في دنقلا منذ دخول السودان تحت طاعة مصر كانت عقارية ولما كانت بلاد
 دنقلا خصبة ومن حاصلاتها القمح والذرة واللوييا التي هي متعددة الاصناف
 عدا التمر وريها بالآلات كالسواقي والشواذيف فقد اخترع يونس لجباية
 ضريبة الحبوب طريقة سماها (التخريص) وهي ان الجاني يذهب الى المزرعة
 ويقدر ان محصولها يبلغ كذا فيلزم الزارع بتأدية نصف التخريص الذي
 لا يقل عن ثلثي المحصول ثم يلزم صاحب الزرع بتأدية ريال مجيدي عن كل
 أردب من المطلوب تأديته وهذه الضريبة ليست لبيت المال بل هي للجاني
 ويسمونها (ضيافة العامل) وزد على ذلك أنهم كانوا يطلبون من كل زراعة تبلغ
 مساحتها فدانين فاقل نحو عشرة ريالات قيمة ثمن التبن اذا كان المحصول
 قمحا وقيمة ثمن البوص اذا كان من الذرة أو الجذور اذا كان من اللويياء
 وهناك ضريبة أخرى تجبى لغذاء الامير يونس الدكيم وتتجدد كل
 شهرين أو ثلاثة وهي ضريبة المسلي والاغنام وهي لا تقل عن عشرة ارطال
 وخروفين عن كل مزرعة فيرسل السبعون جايا للامير ما يجتمع عندهم وأقل
 ما يتحصل من ذلك عشرون قنطارا من السمن ومائة راس من الاغنام
 أما الضرائب التي لا تدخل تحت قيد فكثيرة منها ما سببه اعسار بيت المال

الذي يضرب بسببه على كل شخص قدر من المال يؤدي له وتفتقات البعوث
والسرايا وهي أجل من أن تدخل تحت حصر

وإذا سافر جيش أو سرية من الدراويش من مكان لا خرفانهم لا يحملون
ميرة ولا علفا لدوابهم بل يهبون ويأكلون ويذبحون قطعان الماشية في
الطرق ولا يستطيع أحد من الاهلين منعهم أو الحيلولة بينهم وبين ما يريدون
وعلى أثر ذلك استأثر يونس ومواليه بخيرات البلاد وانطلقت أيديهم
في أموال الناس وبات الاهلون تحت ائقال هذا الظلم يئنون

وقد مدّ موالى يونس أيديهم الى الاعراض واستحلوا نكاح الحرائر
المسلمات بملك اليمين فكنت تجد عند الواحد منهم اكثر من أربع حرائر
وكانوا يبعثون بالنساء الحسان الى التعايشي وأخيه يعقوب وابنه شيخ الدين
وجميع كبراء البقارة

ومكث يونس علي هذه الحالة ثلاث سنوات ثم عزله التعايشي وولى
بدله محمد خالد زقل الذي كان أميراً علي دارفور وقد ذكرنا شيئاً كثيراً
من سيرته فشرع في تخفيف الوطأة عن الدنقلين لانه دنقلي منهم ولكن
مدته لم تطل حيث عزل بعد سنة وسجن ثم نفى الي خط الاستواء
وقد أعيد يونس الى الولاية وعادت كل المظالم التي ابتدعها ومكث كذلك
الي ما قبل الحملة عليها ببضعة شهور

ويونس هذا أصله من قبيلة (التعايشة) التي منها التعايشي وكان
زوجاً لام التعايشي وكان قصير القامة جداً وجسمه ضئيلاً نحيفاً
وكان أمياً لا يعرف الكتابة والقراءة يأتيه الناس فيقولون له انك شجاع
وان الاسود في آجامها تفرع منك وان ملامح وجهك ترعب من ينظر اليها

وانه اذا ذكر اسمك في مصر ولوندره يموت الناس فرعا فينتفخ من هذا الثناء الكاذب وبلغت لمن حوله من الرجال والمشيرين فيقول لهم اما سمعتم ما يقول هذا الرجل فيقولون سمعنا فيقول وهل صدق الرجل فيقولون على اقدامهم ويرفعون اصواتهم قائلين ياسيدنا الامير اتطلب منا دليلاً على الشمس والى متى تنكر صفاتك التي لا يجهاها أحد وانت فوق الاسود شجاعة وعزيمة ويحلفون انهم في حالة وجل وروع شديدين من رؤية وجهه والدنومنه فيطير سروراً ويأمر في الحال بضرب الطبول ودعوة المقاتلين للاستعراض ثم ينعم بالمال على الرجل الذي اثنى وعلي الذين ايدوا أقواله

هذا مع انه جبان لم يذكر بمنقبة في حرب وقد ظهر جبنه في سنة ١٣٠٣ لما أتفهذ التعاشي لقتال عساكر بن كلام زعيم قبيلة (الجمع) شرقي كردفان لما خلع طاعة المهديوية وكان عساكر هذا فارساً مقداماً يشق صفوف الرجال ويحزح الابطال وكان كلما حمل ليارز يونس يختفي منه ويقول لمن حوله اياكم ان تتركوني ابارز هذا الشقي ثم يتظاهر بانه سيهجم عليه فيتعلق الناس بدابته فيرجع قائلاً أما لو تركتموني لمبارزته لجندلته لكم علي الارض بغير سلاح بل كنت اختطفه من قربوس سرجه واجلد به الارض وكان هذا حاله طول الايام التي نشبت فيها الحرب بين الجمع حيث انتهت بقتل عساكر وعودة قومه الى الطاعة

أما قسوته وغلظته فحدث عنهما ولا حرج فانه كان اذا أمر بحبس واحد أمر خمسين من عبيده بالاحاطة به وضربه بالعصي والسياط حتى يبلغ السجن وهم يسمون هذه العادة (الفرقة) أي المسافة ما بين منزل الامير والسجن وهي لا تقل عن ميلين وقد لا يصل المسجون حيا بل يقضي عليه وهو في الطريق

ونقل لى أحد الثقات ان يونس أمر بسجن علي بن الامين أحد صغار القواد
وابن الشيخ محمد الامين رئيس علماء السودان الذي ذكرناه مرارا في هذا
الكتاب فاحدق به مائة وخمسون عبدا وأخذوا يضربونه (الفرقة) حتى بلغوا
به السجن مغشيا عليه ومكث يوما وليلة لا يعي شياً فيئسوا من حياته وبعد
أيام أمر بالنقل أيضا الى السجن لذنوب طفيف فاسرع الى الاقتراب منه ووقع
على الارض وانكنا علي بطنه وقال له ياسيدي الامير اتوسل اليك ان
تأمر بضربي (الفرقة) أمامك ثم تحظر على الحراس أن يضربوني في
الطريق فضحك وقال أنت خائف من الفرقة فقال كيف لا أخاف فقال
له أتتوب فقال تبت الى الله والرسول والمهدي وخليفة المهدي ومولاي
يونس فقال قد عفوت عنك فانفض ولا تخف .

هذا قليل من كثير من أخبار يونس التي لا تسعها المجلدات الضخمة
أوردناه للدلالة علي ما كان يقاسيه الدنقايون من حيفه وسوء معاملته
وقد هلك نحو ثلاثة أرباع السكان وأمست أراضيهم فقرا بلقما. وكانت
وفودهم تشخص تباعا الي التعايشي متظامة من جور عماله فلا تجديهم الشكوى
ولا ينفعهم لتظالم وكثيرا ما كان يسجن الشاكين وينكل بالمتظلمين واختلاصة
انهم انقطعوا عن الشكوي وصبروا علي مر البلوى حتى أراد الله تعالى انقاذهم
فحملت الحكومة علي دنقلة وأجلت الدراويش عنها فخرجوا منها مذمومين
مدحورين كما سيأتي ذكر ذلك في مكانه والله الهادي الى سواء السبيل

ذكر مسألة العقرب مع التعايشي

يوجد بام درمان الحشرات السامة بكثرة فوق التصور وخصوصا انواع

العقارب لانها كانت قبل اتخاذها عاصمة للمهدوية برية ليس فيها زرع ولا ضرع وأرضها مكسوة بالحجارة ويستحيل نجاته من لسعته عقرب الا اذا كانت صغيرة وكثيرا مارأيت عقربا يبلغ طول ما بين رأسها وذيلها عشرين سنتمرا

وفي ذات يوم وقف التعايشي لصلاة المغرب فابصر بعد تكبيرة الاحرام وقراءة أم الكتاب عقربا تدب نحوه فارتاع وصار يكرر قراءة الفاتحة ويشير بيده الى من خلفه من المصلين فلم يفهموا قصده بل ظلوا وقوفاً في الصلاة ولكنهم ادركوا انه لم يكرر قراءة الفاتحة الا لسبب توى من الاسباب فقطع المدعو (الحاج الزبير) أحد حراسه الصلاة ولحقه في حالة الاضطراب والفرع الشديد من العقرب ووقف بازائه فإشار بيده الى العقرب فقتلها ثم ان التعايشي خرج من الصلاة بتسليمة وهو في خجل شديد من اعتقاد الناس جبنه الى هذا الحد فجلس مضطربا وقد بلل العرق جبينه وبعد ان تاب اليه رشده قليلا عزم على التخلص من ذلك بوضع كذوبة في غاية الغرابة حيث جلس وألقى على الناس خطبة هذا نصها.

اعلموا يا أصحاب المهدي عليه السلام ان هاته العقرب لم تجسر على الدخول في هذه المقصورة الا لان ساعة انقضاء حياتي كانت وشيكة غير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهدي والخضر عليهم السلام حضروا في هذه اللحظة واخبروني انهم سألوا انة عزوجل تأخير منيتي لان الامة في حاجة شديدة الى هذا التأخير وقد أمروني بقتل هذه العقرب. أما الدهشة التي ظهرت علاماتها على فانها نتيجة أسرار لا يمكن اخباركم بها كانوا يخبرونني بها حتى ودعوني وانصرفوا فاشرت اليكم فلم تفقهوا اشارتي حتى ألهم الله الحاج الزبير فهمها فهو من الشهداء

الكبار ومن خيرة أصحاب المهدي جعلكم الله مثله وممكث نحو ساعتين يقرر هذه الخرافة ولم يصل المغرب الا في آخر الساعة الاولى من الليل

أما الحاج الزبير هذا فانه رجل كثير التملق والاحتيال وقد ذكرنا فيما مضى ان التعايشي كان يشاوره في بداية خلافته ويستمد منه الآراء ولكن مدته لم تطل حيث نكبه وصادر أمواله بعد خلافته بعامين لظهور خيانتة مع عمه عبد الله الطريفي الذي كان عاملاً للمهدوية على القصارف وقد نكب عبد الله المذكور وسائر اقاربه أيضا وجسوا وعذبوا ليظهروا خبايا أموالهم

وقد ذكرت ان عبد الله الطريفي هذا وشى بي عند التعايشي لما كان ينوي اتفادي مع دراويشه الى خط الاستواء وقد كافأته علي هذا حيث نصحت التعايشي أن لا يولي غير اقرابه البقارة وممكث الحاج الزبير مسجوناً نحو عام ثم اطلق سراحه لكنه لم يعد الى منزلته الاولى

وكان اذا ناداه التعايشي يرفع صوته قائلاً (لييك يا خليفة المهدي عليه السلام) ثم يظهر التغير في صوته والاضطراب في جسمه كأن هيبه خليفة المهدي ونور محياه هما اللذان نشأ عنهما ما اعتراه وقد مكث بعد اطلاقه من السجن مجفوا من التعايشي الذي لم يعده الى منزلته الاولى الا بعد حادثة العقرب التي شرحناها في هذا الباب وأخيراً توفي حنفاً قبيل فتح أم درمان وكان أبوه عبد الرحيم الطريفي أميناً من قبل التعايشي على إحدى الورش الحربية التي تصنع بها الذخيرة والمعدات الحربية

وبالجملة فان الحاج الزبير هذا هو الذي قوى عزم التعايشي علي البقاء
 بام درمان وثنائه عما كان عازما عليه في بداية خلافته من ان يأخذ نصيبا
 من الاسلحة ويفادر أم درمان ويؤسس دولته بغرب السودان

﴿ انتهى الجزء الثاني من كتاب السودان بين يدي كتشنر وغردون ﴾

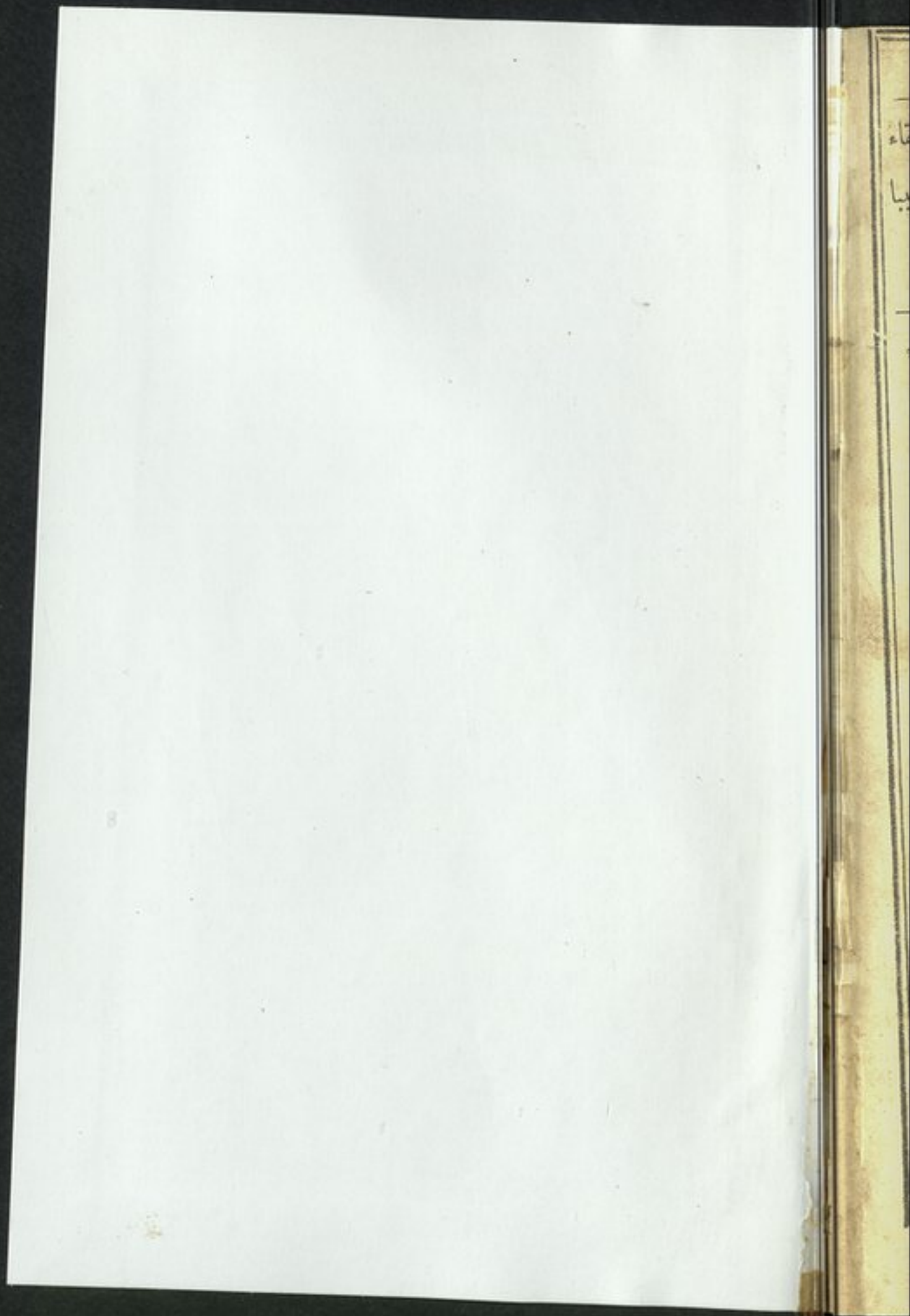
« ويليه الجزء الثالث وأوله البدء بحملة دنقلة »

(كل نسخة من هذا الكتاب تكون مختومة

بختم المؤلف الذي هو هذا)



مكتبة العرب
 لبيبا
 (يوسف توما البستاني)
 تليفون ٦٢٢٢٣ بالقاهرة مصر



LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00512597

کتاب
بین
غردون

1403
1384
12